

تفسير القشيري

المسمى

لطائف الاشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن قنوان بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع موابتيه رعايته عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الجزء الأول

المحتوى:

أول سورة الفاتحة - آخر سورة التوبة



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsir al-Quşayri

"Laṭā'if al-ʿIṣārāt"

(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran

Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Quşayri

Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Raḥmān

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Pages: 1408 (3volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري

المسمى: لطائف الإشارات

التصنيف: تفسير هـ ر أ ن

المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري

المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)

سنة الطباعة: 2007

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الثانية

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)

ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)



9 782745 128379



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنسيق الكتاب كاملاً أو
مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عزمون ، القببة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٠ / ١١ / ١٢
فاكس: ٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٣
ص. ب: ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان
رياض الصلح بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

<http://www.al-ilmiyah.com>

sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد الاستوائي القشيري النيسابوري الشافعي، المحدث الصوفي. ولد سنة ٣٧٦هـ في شهر ربيع الأول في بلدة «إستوا» ونسبته «القشيري» إلى بني قشير بن كعب.

توفي أبوه وهو صغير، فرُبِّيَ يتيماً؛ ولكن النجابة ظهرت فيه من صغره؛ فتثقف بالأدب والعربية، ولكنه لم يكن يعلم الحساب فذهب إلى «نيسابور» ليتعلم طرفاً من الحساب، حتى يتمكن من إدارة قرية له بإستوا. وأرادت المقادير، أن يحضر درس أبي علي الدقاق، فيرى إخلاصاً ويرى تقوى، ويرى نوراً يرتسم على وجهه، ويشرق من كلماته فينبير قلوب السامعين ويجذبهم إلى الله. وكانت فطرة القشيري النقية على استعداد تام لسلوك الطريق، ورأى الإمام أبو علي الدقاق فيه النجابة، فقبله في زمرة أخصائه، وزوجه ابنته، مع كثرة أقاربها.

وانتهى الأمر بالقشيري إلى أن أصبح - كما يقول عنه الإمام عبد الغافر النيسابوري - «الإمام مطلقاً، الفقيه، المتكلم، الأصولي، المفسر، الأديب، النحوي، الكاتب الشاعر، لسان عصره وسيد وقته، وسر الله بين خلقه، مدار الحقيقة، وعين السعادة، وقطب السيادة، من جمع بين الشريعة والحقيقة، كان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي...».

ولقد ترجم له صاحب كتاب: «دمية القصر» أبو الحسن الباخري فقال:

«جامع لأنواع المحاسن تنقاد له صعابها ذلل المراسن، فلو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو ارتبط إبليس في مجلس تذكيره لتاب، وله فصل الخطاب في فصل المنطق المستطاب، ماهر في التكلم على مذهب الأشعري، خارج في إحاطته بالعلوم عن الحد البشري،

كلماته للمستفيدين فوائد وفرائد، وأعقاب منبره للعارفين وسائل. ثم إذا عقد بين مشايخ الصوفية حَبْوَتَه، ورأوا قربته من الحق وحظوته، تضاءلوا بين يديه، وتلاشوا بالإضافة إليه، وطواهم بساطه في حواشيه، وانقسموا بين النظر والتفكير فيه. وله شعر يتوَّج به رؤوس معاليه، إذا ختمت به أذنان أماليه».

وقد توفي الإمام القشيري صبيحة يوم الأحد في السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥هـ، بمدينة نيسابور، ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق.

ومن تصانيفه التي ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين:

- أربعون في الحديث.
- استفاضة المرادات.
- بلغة المقاصد.
- التخيير في علم التذكير في معاني اسم الله تعالى.
- التيسير في علم التفسير.
- عيون الأجوبة في فنون الأسئلة.
- الفصول في الأصول.
- كتاب المعراج.
- لطائف الإشارات في تفسير القرآن. وهو الكتاب الذي بين أيدينا.
- المنتهى في نكت أولي النهى.
- ناسخ الحديث ومنسوخه.
- نحو القلوب.
- حياة الأرواح والدليل إلى طريق الصلاح.
- شكايه أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة.
- متشور الخطاب في شهود الألباب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبُّ يَسْرٍ

الحمد لله الذي شرح قلوب أوليائه بعرفانه، وأوضح نهج الحق بلائح برهانه، لمن أراد طريقه، وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه، وأنزل الفرقان هدىً وتبياناً، على صفيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله - معجزةً وبياناً، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ورزقهم الإيمان بمُحكِّمِه ومتشابهه وناسخه، ووعدَه ووعدِه، وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارِه وأن (واره) لاستبصار ما ضمَّه من دقيق إشاراته، وخفي رموزه، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحُكْمُ إليه في جميع ما يأتون به ويذرون.

قال الإمام جمال الإسلام أبو القاسم القشيري رحمه الله: وكتابتنا هذا يأتي على ذكر طرف من إشارات القرآن على لسان أهل المعرفة، إما من معاني مقولهم، أو قضايا أصولهم، سلكتنا فيه طريق الإقلا (ل) خشية الملل، مستمدين من الله تعالى عوائد المِنَّة، متبرئين من الحول والمِنَّة^(١) مستعصمين من الخطأ والخلل، مستوفقين لأصوب القول والعمل، ملتزمين أن يصلى على سيدنا محمد صلى الله عليه و (سَلِّمْ)، ليختم لنا بالحسنى بمنه وأفضاله. وتيسر الأخذ في ابتداء هذا الكتاب في شهور سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، وعلى الله إتمامه إن شاء الله تعالى عز وجل.

(١) المِنَّة: القوة. جمع مَن.

سورة فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة بدا (ية) الكتاب، ومفاتحة الأحباب بالخطاب والكتاب منه أجل الثعمى، وأكْرَمُ الحسنَى إذ هي (...) ^(١) وابتداء وفي معناه قيل:

أفديك بل أيام دهري كلها تفسدين أياماً (...) ^(١)
سُقياً لمعهدك الذي لو لم يكن ما كان قلبي للصبابة معهدا
ولقد كان ﷺ غير مُرتَقِبٍ لهذا الشأن، وما كان هذا الحديث منه على بال،
وحينما نزل عليه جبريل صلوات الله عليه وسلامه أخذ في الفرار، وأثر التباعد لهذا
الأمر آوى (...) ^(١) قائلا: «دثروني دثروني، زملوني زملوني» ^(٢) وكان يتحسّث في
جِراء ^(٣)، ويخلو هنالك (...) ^(٤) فجأة، وصادفته القصة بغتة كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكّنا
وكان صلوات الله عليه وسلم رَضِيَ بأن يقال له أجير خديجة ولكن (الحق سبحانه
وتعالى أراد أن) ^(٥) يكون سيد الأولين والآخرين حيث قال: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾
[يس: ٢] (رفعه إلى) أشرف المنازل وإن لم يسم إليه بطرف التأمل سنة منه تعالى وتقدّس
(...) ^(٦) إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه، ولذلك ما قصّوا العَجَب من شأنه
(...) ^(٦) يتيم أبي طالب من بين البرية، ولقد كان صلوات الله عليه وسلم في سابق
(علمه) سبحانه وتعالى مُقدِّماً على الكافة من أشكاله وأضرابه، وفي معناه قيل:

هكذا (...) أطمـار وكان في فقر من السيار

(١) بياض في الأصل.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣/٣٧٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٥٢٨) والطبري في (التاريخ ٢/٣٠٤)، وابن أبي شبة في (المصنف ١٤/٣/٧٤)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٧٩).

(٣) تحسّث: تعبد ليالي كثيرة. جِراء: جبل بمكة يسمى جبل النور وفيه غار تعبد فيه النبي ﷺ قبل البعثة (بنون ولا بنون).

(٤) بياض في الأصل.

(٥) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٦) بياض في الأصل.

آثَرُ عِنْدِي (بمالأكبار) مِنْ أَخِي وَمِنْ جَارِي
وصاحب الدرهم (والدينار) فَإِنْ صَاحِبُ الْأَمْرِ مَعَ الْإِكْثَارِ^(١)

ولقد كان ﷺ قبل النبوة حميد الشأن، (محمود) الذكر، ممدوح الاسم، أميناً لكل واحد. وكانوا يسمونه محمداً الأمين، ولكن (الكافرين) (...) ^(٢) حالته، بدلوا اسمه، وحرّفوا وصفه، وهجّنوا ذكره، فواحد كان يقول ساحر وآخر يقول (...) ^(٣) وثالث يقول كاذب، ورابع يقول شاعر:

أشاعوا لنا في الحي أشنع قصة وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حرباً
وهكذا صفة المُحِبِّ، لا ينفك عن الملام ولكن كما قيل:

أجد الملامة في هواك لذيدة حباً لذكرك فليلمني اللؤم
وماذا عليه من قبيح قاله (من) يقول، (والحق سبحانه يقول): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٧] أي استمع إلى ما يقال فيك بحسن الثناء علينا.

فصل: وتسمى هذه السورة أيضاً أم الكتاب، وأم الشيء أصله، وإمام كل شيء مقدّمه. وهذه السورة لما تشتمل عليه من الأمر بالعبودية، والثناء على الله بجمال الربوبية، ثم كمالها من الفضائل - لا تصح الفرائض إلا بها. وقوله ﷺ مخبراً عنه سبحانه وتعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»^(٤) يعني قراءة هذه السورة، فصارت أم الكتاب، وأصلاً لما تنبني عليه من لطائف الكرامات وبدائع التقريب والإيجاب.

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

الباء في بسم الله حرف التضمين؛ أي بالله ظهرت الحادثات، وبه وجدت المخلوقات، فما من حادث مخلوق، وحاصل منسوق، من عين وأثر وغبر، وغير من حجر ومدر، ونجم وشجر، ورسم وطلل، وحكم وعلل - إلا بالحق وجوده، والحق ملكه، ومن الحق بدؤه، وإلى الحق عوده، فيه وَجَدَ من وَحَدَ، وبه جحد من الحد، وبه عرف من اعترف، وبه تخلف من اقترف.

(١) أبيات الشعر مضطربة بالأصل فأضيفت الكلمات التي بين الأقواس ليستقيم الوزن والمعنى بعض الشيء.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٩٥٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣٧/٢، ٣٨، ٣٩، ٣٧٥) والحميدي في (المسند ٩٧٣)، والربيع بن حبيب في (المسند ٤٦/١)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣٦٧/٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٥٠/٣، ١٥١ - ١٨٤)، وابن عبد البر في (التمهيد ٢/٢٣٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٤/٤١٣)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٤٩، ٢١١) والسهمي في (تاريخ جرجان ١٨٥).

وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم، وللفرق بين هذا وبين القسم عند الآخرين، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان، ليكون ورود قوله ﴿اللَّهُ﴾ على قلب مُتَّقٍ وسِرِّ مُصَفَّى. وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (بره) بأوليائه ومن السين سره مع أصفياه ومن الميم منته على أهل ولايته، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سره، وبمنته عليهم حفظوا أمره، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره. وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء، وبالسين سلامته سبحانه عن كل عيب، وبالميم مجده سبحانه بعز وصفه، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه، وعند السين سناؤه، وعند الميم ملكه، فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية أعني بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة، وإشارات غير معادة، فلذلك نستقصي القول ها هنا وبه الثقة.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

حقيقة الحمد الشاء على المحمود، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، واللام ها هنا للجنس، ومقتضاها الاستغراق؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمّا وصفاً وإمّا خلقاً، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر لوفور إحسانه. والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْلُهُ، وحمد الخَلْقِ له على إنعامه وطَوْلُهُ، وجلاله وجماله استحقاقه لصفاتا لعلو، واستيجابه لنعوت العز والسمو، فله الوجود (قدرة)^(١) القديم، وله الجود الكريم، وله الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطول، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمدته، وحقه يقينه، وثبوتة عينه، ودوامه بقاؤه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونهيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد في ملكوته. تبارك الله سبحانه!! فسبحانه ما أعظم شأنه!

فصل: عَلِمَ الحق سبحانه وتعالى شدة إرادة أوليائه بحمده وثنائه، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه فأخبرهم أنه حَمِدَ نفسه بما افتتح به خطابه بقوله: «الحمد لله» فانتعشوا بعد الذلة، وعاشوا بعد الخمود، واستقلت أسرارهم

(١) بياض في الأصل.

لكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق، فنطقوا ببيان الرمز على قضية الأشكال. وقالوا:

ولو جھها من وجھها قمر ولعينها من عينها كحل
هذا خطيب الأولين والآخرين، سيد الفصحاء، وإمام البلغاء، لما سمع حمده لنفسه، ومدحه سبحانه لحقه، علم النبي أن تقاصر اللسان أليق به في هذه الحالة فقال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

داود لو سمعت أذناه قالتها لما ترنم بالألحان داود
غنّت سعاد بصوتها فتخاذلت ألحان داود من الخجل

فصل: وتتفاوت طبقات الحامدين لتباينهم في أحوالهم؛ فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعي صفة نفعه ودفعه، وإزاحته وإتاحته، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم قال جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وطائفة حمدوه على ما لاح لقلوبهم من عجائب لطائفه، وأودع سرائرهم من مكنونات بره، وكاشف أسرارهم به من خفي غيبه، وأفرد أرواحهم به من بواده مواجده. وقوم حمدوه عند شهود ما كاشفهم به من صفات القدم، ولم يردوا من ملاحظة العز والكرم إلى تصفح أقسام النعم، وتأمل خصائص القيسم، و(فرق بين) من يمدحه بعز جلاله وبين من يشكره على وجود أفضاله، كما قال قائلهم:

وما الفقر عن أرض العشيرة ساقنا ولكننا جئنا بلقياك نسعد
وقوم حمدوه مُسْتَهْلَكِينَ عنهم فيما استنطقوا من عبارات تحميده، بما اصطلم أسرارهم من حقائق توحيده، فهم به منه يعبرون، ومنه إليه يشيرون، يُجري عليهم أحكام التصريف، وظواهرهم بنعت التفرقة مرعية، وأسرارهم مأخوذة بحكم جمع^(٢) الجمع، كما قالوا:

بيان بيان الحق أنت بيانه وكل معاني الغيب أنت لسانه

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٥٨/٦)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧١/٢).
(٢) جاءت في الأصل (جميع الجمع) لكن القشيري قال في رسالته: بأن الاصطلاح الصوفي جمع الجمع وهو درجة فوق الجمع ويختلف الناس في هذه الجملة حسب تباين أحوالهم وتفاوت درجاتهم، فمن أثبت نفسه أثبت الخلق، ولكن شاهد الكل كان قائماً بالحق، فهذا هو جمع، وإذا كان مختلطاً عن شهود الخلق مصطلحاً عن نفسه، مأخوذاً بالكلية عن الإحساس بكل ما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة فذاك جمع الجمع، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية، وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة. (الرسالة القشيرية ص ٦٥، ٦٦).

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الرب هو السيد، والعالمون جميع المخلوقات، واختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين لاشتماله على العقلاء والجمادات فهو مالك الأعيان ومُنشئها، ومُوجد الرسوم والديار بما فيها.

ويدل اسم الرب أيضاً على تربية الخلق، فهو مُرب نفوس العابدين بالتأييد ومرب قلوب الطالبين بالتسديد، ومرب أرواح العارفين بالتوحيد، وهو مرب الأشباح بوجود النعم، ومرب الأرواح بشهود الكرم.

ويدل اسم الرب أيضاً على إصلاحه لأمر عباده من ربيت العديم أربه؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته، ومصلح أمور الواجدين بقديم عنايته، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعطائه، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقاءه، وثالث أصلح أمورهم فاستقاموا للقاءه، قال قائلهم:

ما دام عزك مسعوداً طوالعه فلا أبالي أعاش الناس أم فقدوا

قوله جل ذكره: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

اسمان مشتقان من الرحمة، والرحمة صفة أزلية وهي إرادة النعمة وهما اسمان موضوعان للمبالغة ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق.

وقيل الرحمن أشد مبالغة وأتم في الإفادة، وغير الحق سبحانه لا يسمى بالرحمن على الإطلاق، والرحيم ينعت به غيره، وبرحمته عرف العبد أنه الرحمن، ولولا رحمته لما عرف أحد أنه الرحمن، وإذا كانت الرحمة إرادة النعمة، أو نفس النعمة كما هي عند قوم فالنعم في أنفسها مختلفة، ومراتبها متفاوتة فنعمة هي نعمة الأشباح والظواهر، ونعمة هي نعمة الأرواح والسرائر.

وعلى طريقة من فرّق بينهما فالرحمن خاص الاسم عام المعنى، والرحيم عام الاسم خاص المعنى؛ فلأنه الرحمن رزق الجميع ما فيه راحة ظواهرهم، ولأنه الرحيم وفق المؤمنين لما به حياة سرائرهم، فالرحمن بما رُوح، والرحيم بما لُوح؛ فالترويح بالمبَار، والتلويح بالأنوار؛ والرحمن بكشف تجلّيه والرحيم بلطف تولّيه، والرحمن بما أولى من الإيمان والرحيم بما أسدى من العرفان، والرحمن بما أعطى من العرفان والرحيم بما تولّى من الغفران، بل الرحمن بما ينعم به من الغفران والرحيم بما يَنُ به من الرضوان، بل الرحمن بما يكتّم به والرحيم بما ينعم به من الرؤية والعيان، بل الرحمن بما يوفق، والرحيم بما تحقق، والتوفيق للمعاملات، والتحقيق للمواصلات، فالمعاملات للقاصدين، والمواصلات للواجدين، والرحمن بما يصنع لهم والرحيم بما يدفع عنهم؛ فالصنع بجميل الرعاية والدفع بحسن العناية.

قوله جل ذكره: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

المالك من له المُلْك، ومُلْك الحق سبحانه وتعالى قدرته على الإبداع، فالملك مبالغة من المالك وهو سبحانه الملك المالك، وله المُلْك. وكما لا إله إلا هو فلا قادر على الإبداع إلا هو، فهو بالهيته متوحد، وبملكه متفرد، ملك نفوس العابدين فصرفها في خدمته، وملك قلوب العارفين فشرّفها بمعرفته، وملك نفوس القاصدين فثيّمها، وملك قلوب الواجدين فهيمها. ملك أشباح من عبّده فلاطفها بنواله وأفضاله، وملك أرواح من أحبهم (...) (١) فكاشفها بنعت جلاله، ووصف جماله. ملك زمام أرباب التوحيد فصرفهم حيث شاء على ما شاء ووفّقهم حيث شاء على ما شاء كما شاء، ولم يكلّمهم إليهم لحظة، ولا ملّكهم من أمرهم سيئة ولا خطرة، وكان لهم عنهم، وأفناؤهم له منهم.

فصل: مَلِك قلوب العابدين إحسانه فطمعوا في عطائه، وملك قلوب الموحدين سلطانه فقتلوا ببقائه. عرّف أرباب التوحيد أنه مالِكهم فسقط عنهم اختيارهم، علموا أن العبد لا ملك له، ومن لا ملك له لا حكم له، ومن لا حكم له لا اختيار له، فلا لهم عن طاعته إعراض ولا على حكمه اعتراض، ولا في اختياره معارضة، ولا لمخالفته تعرّض، ﴿ويوم الدين﴾. يوم الجزاء والنشر، ويوم الحساب والحشر - الحق سبحانه وتعالى يجزي كلاً بما يريد، فمن بين مقبول يوم الحشر بفضل سبحانه وتعالى لا بفعلهم، ومن بين مردود بحكمه سبحانه وتعالى لا بجُزْمهم. فأما الأعداء فيحاسبهم ثم يعذبهم وأما الأولياء فيعاتبهم ثم يقربهم:

قَوْمٌ إِذَا ظَفَرُوا بِنَا جَادُوا بَعَثَ رِقَابَنَا

قوله جل ذكره: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

معناه نعبدك ونستعين بك. والابتداء بذكر المعبود أتم من الابتداء بذكر صفته - التي هي عبادته واستعانتة، وهذه الصيغة أجزل في اللفظ، وأعذب في السمع. والعبادة الإتيان بغاية ما في (بابها) من الخضوع، ويكون ذلك بموافقة الأمر، والوقوف حيثما وقف الشرع.

والاستعانة طلب الإعانة من الحق.

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمُتّة، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمُتّة، فبالعبادة يظهر شرف العبد، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد. في العبادة وجود شرفه، وبالاستعانة أمان تلفه. والعبادة ظاهرها تدلل، وحقيقتها تعزز وتجمّل:

(١) بياض في الأصل.

وإذا تذللّت الرقاب تقرباً منّا إليك، فعزّها في ذلّها
وفي معناه:

حين أسلمتني لذلّ ولا مألوف القيتني في عين وزاي
فصل: العبادة نزهة القاصدين، ومستروح المریدين، ومربع الأنس للمحبين،
ومرتع البهجة للعارفين. بها قرّة أعينهم، وفيها مسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم.
وإليه أشار ﷺ بقوله: «أرحنا بها يا بلال»^(١) ولقد قال مخلوق في مخلوق:

يا قوم ثاري عند أسمائي يعرفه السامع والرائي
لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أصدق أسمائي

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه، ونزلك بساحة جوده، وتسليمك إلى يد
حكمه، فتقصده بأمل فسيح، وتخطو إليه بخطو وسيع، وتأمل فيه برجاء قوي، وتثق
بكرم أجلي، وتتكلم على اختيار سابق، وتعتمص بسبب جوده (غير ضعف).

قوله جل ذكره: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

الهداية الإرشاد، وأصلها الإمالة، والمهدي من عرف الحق سبحانه، وأثر
رضاه، وآمن به. والأمر في هذه الآية مضمّر؛ فمعناه اهدنا بنا - والمؤمنون على
الهداية في الحال - فمعنى السؤال الاستدانة والاستزادة. والصراط المستقيم الطريق
الحق وهو ما عليه أهل التوحيد. ومعنى اهدنا أي مل بنا إليك، وخُذنا لك، وكن
علينا دليلنا، ويسّر إليك سبيلنا، وأقم لنا هممنا، واجمع بك همومنا.

فصل: اقطع أسرارنا عن شهود الأغيار، ولوّح في قلوبنا طوابع الأنوار، وأفرّد
قصودنا إليك عن دسّ الآثار، ورقّنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى جَمْع ساحات
القرب والوصال.

فصل: خل بيننا وبين مساكنة الأمثال والأشكال، بما تلاطفنا به من وجود
الوصال، وتكاشفنا به من شهود الجلال والجمال.

فصل: أرشدنا إلى الحق لثلاث نتكل على وسائط المعاملات، ويقع على وجه
التوحيد غبار الظنون وحسبان الإغلال.

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ٦/٣٤٠)، وابن كثير في (التفسير ٥/٤٥٦)، والهيتمي في
(مجمع الزوائد ١/١٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/٤٤٣، ٤٤٤)، والعراقي في
(المغني عن حمل الأسفار ١/١٦٥)، (وتحذير الخواص ٣٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة
١٦)، والزبيدي في (إنحاف السادة المتقين ٣/١٣٧).

اهدنا الصراط المستقيم أي أزل عنا ظلمات أحوالنا لنستضيء بأنوار قُدُيبِكَ عن التفيؤ بظلال طلبنا، وارفَع عنا ظل جهننا لنستبصر بنجوم جودك، فنجدك بك .

فصل: اهدنا الصراط المستقيم حتى لا يصحبنا قرين من نزغات الشيطان ووساوسه، ورفيق من خطرات النفوس وهواجسها، أو يصدنا عن الوصول تعريج في أوطان التقليد، أو يحول بيننا وبين الاستبصار ركون لي معتاد من التلقين، وتستهوينا آفة من نشو أو هوادة، وظن أو عادة، وكلل أو ضعف إرادة، وطمع مالٍ أو استزادة .

فصل: الصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل . الصراط المستقيم ما شهدت بصحته دلائل التوحيد، ونهت عليه شواهد التحقيق، الصراط المستقيم ما دَرَجَ عليه سَلَفُ الأمة، ونطقت بصوابه دلائل العبرة . الصراط المستقيم ما باين الحظوظ سالكه، وفارق الحقوق قاصده . الصراط المستقيم ما يُفْضِي بسالكه إلى ساحة التوحيد، ويُشْهِدُ صاحبه أثر العناية والجود، لئلا يظنّه موجبٌ (ببدل) المجهود .

قوله جل ذكره: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .

يعني طريق من أنعمت عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم، وهم الأولياء والأصفياء . ويقال طريق من (أنيتهم) عنهم، وأقمتهم بك لك، حتى لم يقفوا في الطريق، ولم تصدهم عنك خفايا المكر . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقيام بحقوقك دون التعريج على استجلاب حظوظهم .

ويقال صراط من (طهرتهم) عن آثارهم حتى وصلوا إليك بك .

ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرروا من مكائد الشيطان، ومغاليط النفوس ومخايل الظنون، وحسبانات الوصول قبل خمود آثار البشر (ية) .

ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك، والتبري من الحول والقوة، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار، والعلم بتوحيذك فيما تُمضيه من المسار والمضار .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة، واستشعار نعت الهيبة .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند غلبات (بواده) الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم، ولم يُخلُّوا بشيء من أحكام الشريعة . ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم

تطفئ شمسٌ معارفهم أنوارَ ورعهم ولم يُضيئُوا شيئاً من أحكام الشرع^(١).
ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

المغضوب عليهم الذين صدمتهم هواجس الخذلان^(٢). وأدركتهم مصائب الحرمان، وركبتهم سطوة الرد، وغلبتهم بؤاده الصد والطرده.

ويقال هم الذين لحقهم ذل الهوان، وأصابهم سوء الخسران، فشغلوا في الحال باجتلاب الحظوظ - وهو في التحقيق (شقاء)؛ إذ يحسبون أنهم على شيء، وللحق في شقائهم سر.

ويقال هم الذين أنسوا بنفحات التقريب زماناً ثم أظهر الحق سبحانه في بابهم شائناً؛ بذلوا بالوصول بعداً، وطمعوا في القرب فلم يجدوا مراداً، أولئك الذين ضل سعيهم، وخاب ظنهم.

ويقال غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق، والتعامي عن رؤية التأييد. ولا الضالين عن شهود سابق الاختيار، وجريان التصاريف والأقدار.

ويقال غير المغضوب عليهم بتضييعهم آداب الخدمة، وتقصيرهم في أداء شروط الطاعة.

ويقال غير المغضوب عليهم هم الذين تقطعوا في مفاوز الغيبة، وتفرقت بهم الهموم في أودية وجوه الحساب.

فصل: ويقول العبد عند قراءة هذه السورة آمين، والتأمين سُنَّة، ومعناه يا رب افعل واستجب، وكأنه يستدعي بهذه القالة التوفيق للأعمال، والتحقيق للآمال، وتحط رِجلُه بساحات الافتقار، ويناجي حضرة الكرم بلسان الابتهاال، ويتوسل (بتبريه) عن الحول والطاقة والمُنة والاستطاعة إلى حضرة الجود. وإن أقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الاستعانة لتحقيقه بصدق الاستغاثة.

(١) إنَّ القشيري يؤكد على الالتزام بآداب الشريعة مهما غلبت على العبد سطوة الانمحاء واستلبه سلطان الفناء، وبهذا يجب أن نخرج على اصطلاح في مذهب القشيري وهو (الفرق الثاني) الثاني ويُعد هذا حالة عزيزة وهو أن يرد عندها العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله تعالى لا للعبد بالعبد. (الرسالة القشيرية ص ٦٦).

(٢) يقول القشيري في رسالته: فمنهم من تفسيره البوادة وتصرفه الهواجس، ومنهم من يكون فوق ما يفجوه حالاً وقوة أولئك سادات القوم. (الرسالة القشيرية ص ٧٨).

السورة التي تذكر فيها البقرة

قوله تعالى: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾.

الاسم مشتق من السمو والسَّمة، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات، ويسمو بهيمته إلى مَحَالِّ المشاهدات. فمن عَدِمَ سمة المعاملات على ظاهرة، وَقَدْ سُمُو الهِمَّةُ للمواصلات بسريره لم يَجِدْ لطائف الذكر عند قائلته، ولا كرائم القرب في صفاء حالته.

فصل: معنى الله: الذي له الإلهية، والإلهية استحقاق نعوت الجلال. فمعنى بسم الله: باسم من تفرَّد بالقوة والقدرة. الرحمن الرحيم من تَوَحَّد في ابتداء الفضل والنصرة. فسماع الإلهية يُوجِبُ الهيبة والاصطلام، وسماع الرحمة يوجِبُ القربة والإكرام. وكُلُّ مَنْ لاطفه الحق سبحانه عند سماع هذه الآية رَدَّه بين صحو ومحو، وبقاء وفناء، فإذا كاشفَه بنعت الإلهية أشهده جلاله، فحاله محو. وإذا كاشفه بنعت الرحمة أشهده جماله فحاله صحو:

أغيب إذا شَهِدْتُكَ ثم أحيا فكم أحيا لَدَيْكَ وكم أبيدُ
قوله جل ذكره: ﴿الْعَمَّ﴾.

هذه الحروف المقطعة في أوائل السورة من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله - عند قوم، ويقولون لكل كتاب سر، وسر الله في القرآن هذه الحروف المقطعة. وعند قوم إنها مفاتيح أسمائه، فالألف من اسم «الله»، واللام يدل على اسمه «اللطيف»، والميم يدل على اسمه «المجيد» و«الملك».

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه. وقيل إنها أسماء السور.

وقيل الألف تدل على اسم «الله» واللام تدل على اسم «جبريل» والميم تدل على اسم «محمد» ﷺ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد ﷺ.

والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في

الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع.

ويقال يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تَقْدُسُ الحق سبحانه وتعالى عن التخصص بالمكان؛ فإن سائر الحروف لها محل من الخلق أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غير الألف فإنها هويته، لا تضاف إلى محل.

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه.

ويقال يطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه في (مراعاة) حقه، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه.

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة، والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظي بالرتبة العليا، وفاز بالدرجة القصوى، وصلاح للتخاطب بالحروف المنفردة التي هي غير مركبة، على سنة الأحباب في ستر الحال، وإخفاء الأمر على الأجنبي من القصة - قال شاعرهم:

قلت لها قفي قالت قاف

لا تحسبي أننا نسبنا لا يخاف

ولم يقل وقفت ستراً على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل:

«قالت قاف».

ويقال تكثر العبارات للعموم والرموز والإشارات للخصوص، أَسْمَعَ موسى كلامه في ألف موطن، وقال لنبيّنا محمد ﷺ: أَلِفٌ... وقال عليه السلام: «أوتيت جوامع الكلم فاخترت لي الكلام اختصاراً»^(١) وقال بعضهم: قال لي مولاي: ما هذا الدنف؟ قلت: تهواني؟ قال: لام ألف.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

قيل ذلك الكتاب أي هذا الكتاب، وقيل إشارة إلى ما تقدم إنزاله من الخطاب،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (المساجد ٧، ٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٥٠، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١)، وابن كثير في (التفسير ٧٢/٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١١٣/٧) والبيهقي في (دلائل النبوة ١٤/١)، وسعيد بن منصور في (السنن ٢٨٦٢)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١١/٤٨٠)، والمتقي الهندي في (كتر العمال ٣٢٠٦٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/١٤ - ٣٠٨).

وقيل ذلك الكتاب الذي وعدتُك إنزاله عليك يوم الميثاق .
لا ريب فيه ، فهذا وقت إنزاله . وقيل ذلك الكتاب الذي كتبتُ فيه الرحمةَ على
نفسي لأمتك - لا شك فيه ، فتحقق بقولي .
وقيل الكتاب الذي هو سابق حكمي ، وقديم قضائي لمن حكمت له بالسعادة ،
أو ختمت عليه بالشقاوة لا شك فيه .

وقيل (حكمي الذي أخبرت أن رحمتي سبقت على غضبي لا شك فيه) .
وقيل إشارة إلى ما كتب في قلوب أوليائه من الإيمان والعرفان ، والمحبة
والإحسان ، وإن كتاب الأحباب عزيز على الأحباب ، لا سيما عند فقد اللقاء ، وكتاب
الأحباب سلوتهم وأنسهم ، وفيه شفاؤهم ورؤوهم ، وفي معناه أنشدوا :

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتم
وأنشدوا :

ورد الكتاب بما أقرَّ عيوننا وشفى القلوب فَنِلْن غايات المنى
وتقاسم الناس المسرة بينهم قَسِماً وكان أجلهم حَقْطاً أنا^(١)
قوله جلَّ ذكره : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

أي بياناً وحجة ، وضياء ومحجة ، لمن وقاه الحق سبحانه وتعالى من ظلمات
الجهل ، وبصره بأنوار العقل ، واستخلصه بحقائق الوصل . وهذا الكتاب للأولياء
شفاء ، وعلى الأعداء عَمَى وبلاء . الْمُتَّقِي من اتقى رؤية تقاه ، ولم يستند إلى تقواه ،
ولم يَرِ نجاته إلا بفضل مولاه .

قوله جلَّ ذكره : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ .

حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق ، وموجب الأمرين التوفيق . والتصديق
بالعقل والتحقيق ببذل الجهد ، في حفظ العهد ، ومراعاة الحد . فالمؤمنون هم الذين
صدَّقوا باعتقادهم ثم الذين صدَّقوا في اجتهادهم .

وأما الغيب فما يعلمه العبد مما خرج عن حد الاضطرار ؛ فكل أمر ديني أدركه العبد
بضرب استدلال ، ونوع فكر واستشهاد بالإيمان به غَيْبِي . فالرب سبحانه وتعالى غيب .
وما أخبر الحق عنه من الحشر والنشر ، والثواب والمآب ، والحساب والعذاب - غيب .

وقيل إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب ، وأن من أيدوا ببرهان العقول

(١) آيات الشعر مضطربة فصحت قدر الإمكان .

آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين، فأوردهم صدق الاستدلال ساحات الاستبصار، وأوصلهم صائب الاستشهاد إلى مراتب السكون؛ فإيمانهم بالغيب بمزاحمة علومهم دواعي الريب. ومن كوشف بأنواع التعريف أسبل عليهم سجوف الأنوار، فأغناهم بلوائح البيان عن كل فكر وروية، وطلب بخواطر ذكية، وردّ وردع لدواع ردية، فطلعت شمس أسرارهم فاستغنوا عن مصاييح استدلالهم، وفي معناه أنشدوا:

لَيْلِي مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَا وظلامه في الناس ساري^(١)
والناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار^(٢)
وأنشدوا:

طَلَعَتْ شَمْسٌ مِنْ أَحْبَبِّكَ لَيْلًا فاستضاءت وما لها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب^(٣)

ومن آمن بالغيب بشهود الغيب غاب في شهود الغيب فصار غيباً يغيب.
وأما إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية مَنْ يُصَلِّي
له فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجري عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو، فنفسهم مستقبل القبلّة، وقلوبهم مستغرقة في حقائق الوصلة:

أراني إذا صَلَّيْتُ يَمُمْتُ نحوها بوجهي وإن كان المُصَلِّي ورائي
أصلي فلا أدري إذا ما قضيتها اثنتين صليت الضحا أم ثمانيا؟

وإن أصحاب العموم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من الفرض، ولكن عن أودية الغفلة ما يرجعون. أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون ولكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون؛ فشأن بين غائب يحضر أحكام الشرع ولكن عند أوطان الغفلة، وبين غائب يرجع إلى أحكام الشرع ولكن عند حقائق الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

الرزق ما تمكّن الإنسان من الانتفاع به، وعلى لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إمّا نفلاً وإما فرضاً على موجب تفصيل العلم. وبيان الإشارة أنهم لا يدخرون عن الله

(١) رواية البيت في الرسالة القشيرية ص ٧٦:

لَيْلِي بِوَجْهِكَ مَشْرِق وظلامه في الناس ساري

(٢) السدف: جمع السدفة: وهي الظلمة.

(٣) أبيات الشعر مضطربة صُححت بما يتلاءم مع الوزن والمعنى.

سبحانه وتعالى شيئاً من ميسورهم؛ فينفقون نفوسهم في آداب العبودية، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية. فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيث الأحوال، فهؤلاء يكتفي منهم عشرين بنصف ومن المائتين بخمس، وعلى هذا السّنن جميع الأموال يعتبر فيه النّصاب. وأمّا أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم - لأنفسهم ولحظوظهم - لحظة قامت عليهم القيامة.

فصل: الزاهدون أنفقوا في طريقة متابعة هواهم، فأثروا رضاء الله على مناهم، والعابدون أنفقوا في سبيل الله وسعهم وقواهم، فلازموا سرّاً وعلناً نفوسهم. والمريدون أنفقوا في سبيله ما يشغلهم عن ذكر مولاهم فلم يلتفتوا إلى شيء من دنياهم وعقباهم. والعارفون أنفقوا في سبيل الله ما هو سوى مولاهم فقرّبهم الحق سبحانه وأجزأهم، ويحكم الأفراد به لقّاهم.

فصل: الأغنياء أنفقوا من نعمهم على عاقبتهم. والفقراء أنفقوا من همهم على متّابيتهم^(١). ويقال العبد بقلبه وبيدنه وبماله فيإيمانهم بالغيب قاموا بقلوبهم، وبصلاتهم قاموا بنفوسهم، وبإنفاقهم قاموا بأموالهم، فاستحقوا خصائص القربة من معبودهم، وحين قاموا ليحقّه بالكلية استوجبوا كمال الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. إيمانهم بالغيب اقتضى إيمانهم بالقرآن، وبما أنزل الله من الكتب قبل القرآن، ولكنه أعاد ذكر الإيمان ها هنا على جهة التخصيص والتأكيد، وتصديق الوساطة ﷺ في بعض ما أخبر يوجب تصديقه في جميع ما أخبر، فإن دلالة صدقه تشهد على الإطلاق دون التخصيص، وإنما أيقنوا بالآخرة لأنهم شهدوا على الغيب فإن حارثة^(٢) لما قال له رسول الله ﷺ: «كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً، وكأني بأهل الجنة يتزاورون وكأني بأهل النار يتعاونون وكأني بعرش ربي بارزاً فقال رسول الله ﷺ: أصبت فالزّم»^(٣).

(١) قال القشيري في حديثه عن التوبة: التوبة على ثلاثة أقسام أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية، والأوبة نهاية، والإنابة أوسطها، فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب أو رهبة في العقاب فهو صاحب أوبة. (الرسالة القشيرية ص ٩٤).

(٢) هو حارثة بن بدر بن حصين التميمي القداني (٦٤ هـ - ... - ٦٨٤ هـ) تابعي من أهل البصرة. له أخبار في الفتوح وقصة مع عمر ومع علي ومع زياد، أقر على قتال الخوارج في العراق فهزموه بنهر تيرا فلما أرقه دخل سفينة بمن معه ففرقت بهم. (الأعلام ١٥٨/٢، والإصابة ٣٧١).

(٣) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٥٧/١)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٣٨/٢ - ٢٨٠)، والعقيلي في (الضعفاء ٤٥٥/٤).

وهذا عامر بن عبد القيس^(١) يقول: «لو كشف الغطاء ما ازدادت يقيناً». وحقيقة اليقين التخلص عن تردد التخمين، والتقصي عن مجوزات الظنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني على بيان من ربهم ويقين وكشف وتحقيق، وذلك أنه تجلّى لقلوبهم أولاً بآياته ثم تجلّى لها بصفاته ثم تجلّى لها بحقه وذاته.

وقوم ﴿على هدى ربهم﴾ بدلائل العقول؛ وضعوها في موضعهما فوصلوا إلى حقائق العلوم، وقوم على بصيرة ملاطفات التقريب بمشاهدة الرحمة والكرم وصلوا إلى بيان اليقين، وآخرون ظهرت الحقيقة لأسرارهم فشهدوا بالغيب حقيقة الصمدية، فوصلوا بحكم العرفان إلى عين الاستبصار.

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الفلاح الظفر بالبغية، والفوز الطلبة، ولقد نال القوم البقاء في مشهد اللقاء فظفروا بقهر الأعداء، وهي غاغة^(٢) النفوس من هواجسها، ثم زلات القلوب من خواطرها^(٣)، فوقفوا بالحق للحق بلا واسطة من عقل، أو رجوع إلى ذكر وفكر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من كان في غطاء وصفه محجوباً عن شهود حقه فالإشارة لنعته أنه سيان عنده قول من دلّه على الحق، وقول من أعاناه على استجلاب الحظ، بل هو إلى دواعي الغفلة أميل، وفي الإصغاء إليها أرغب. كيف لا؟ وهو يَكِيّ الفرقة موسوم، وفي سجن الغيبة محبوس، وعن محل القرية ممنوع، لا يحصل منهم إيمان، لأنه ليس لهم من الحق أمان؛ فلمّا لم يؤمنوا لم يؤمنوا. حكم سبق من الله حتم، وقول له فصل، وإن القدرة لا تُعَارَضُ، ومن زاحم الحق في القضية كبسته سطوات العزة، وقصّمته بواده^(٤) الحكم.

(١) هو عامر بن عبد الله، المعروف بابن عبد قيس العنبري (... - نحو ٥٥هـ = ... - نحو ٦٧٥م) تابعي من بني العنبر وهو أول من عرف بالنسك من عباد التابعين بالبصرة. هاجر إليها وتلقن القرآن من أبي موسى الأشعري، ثم قدم إلى البصرة وعلم أهلها القرآن. توفي ببيت المقدس في خلافة معاوية. الأعلام ٣/ ٢٥٢ - ٢٥٣، وحلية ٢/ ٨٧، والعقد الفريد ٣/ ٤١٤.

(٢) الغاغة: نبات يشبه الهريون. أرى: الحبق. (اللسان ٨/ ٤٤٤).

(٣) قال القشيري في رسالته: الخواطر خطابات ترد على الضمائر فإذا كان من قبل النفس قيل له: الهواجس، وإذا كان من الله سبحانه وكان إلقاؤه في القلب فهو خاطر حق. (الرسالة القشيرية ص ٨٣، ٨٤).

(٤) قال القشيري في حديثه عن البوادة: البوادة ما يفعأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة إما بموجب فرح أو بموجب ترح. (الرسالة القشيرية ص ٧٨).

ويقال إن الكافر لا يرعوي عن ضلالتِهِ لِمَا سَبَقَ من شقاوته، وكذلك المربوط بأغلال نفسه محجوب عن شهود غيبه وحقه، فهو لا يبصر رشدَه، ولا يسلك قصده. ويقال إن الذي بقي في ظلمات رعونته سواء عنده نصيح المرشدين وتسويلات المُبْطِلين، لأن الله سبحانه وتعالى نزع عن أحواله بركات الإنصاف، فلا يدرك بسمع القبول، ولا يُصغي إلى داعي الرشاد، كما قيل:

وعلى النصوح نصيحتي وعلي عَصِيان النصوح

ويقال من ضلَّ عن شهود المِثَّةِ عليه في سابق القسمة تَوَهَّم أن الأمر من حركاته وسَكَتاته فَاتَّكَلَ على أعماله، وتعامى عن شهود أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الختم على الشيء يمنع ما ليس فيه أن يدخله وما فيه أن يخرج منه، وكذلك حَكَمَ الحق سبحانه بالألّا يُفَارِقَ قُلُوبَ أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة، ولا يدخلها شيء من البصيرة والهداية. على أسماع قلوبهم غطاء الخذلان، سُدَّتْ تلك المسامع عن إدراك خطاب الحق من حيث الإيمان، فوساوس الشيطان وهواجس النفوس شغلته عن استماع خواطر الحق. وأمّا الخواص فخواطر العلوم وجولان تحقيقات المسائل في قلوبهم شغلت قلوبهم عن ورود أسرار الحق عليهم بلا واسطة، وإنما ذلك لخاص الخاص، لذا قال رسول الله ﷺ: «لقد كان في الأمم مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي فَعَمْرٌ»^(١) فهذا المحدِّث مخصوص من الخواص كما أن صاحب العلوم مخصوص من بين العوام. وعلى بصائر الأجانب غشاوة فلا يشهدون لا ببصر العلوم ولا ببصيرة الحقائق، ولهم عذاب عظيم لحسانهم أنهم على شيء، وغفلتهم عما مُنُوا من المحنة (و...)^(٢) في الحال والمال، في العاجل فُرْقته، وفي الآجل حُرْقته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ثبتوا على نفاقهم، ودأبوا على أن يلبسوا على المسلمين، فهتَكَ الله أستارهم بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ كذا قيل:

من تحلى بغير ما هو فيه فضح الامتحان ما يدعيه

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٢٥٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٦٠٢٦)، والمراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/٢٣).

(٢) بياض في الأصل.

ولما تجردت أقوالهم عن المعاني كان وبال ما حصلوه منها أكثر من النفع الذي توهموه فيها، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ولولا نفاقهم لم يزد عذابهم.

ويقال لما عَدِمُوا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال، فإن الله تعالى قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فكانوا يقولون نشهد أنك لرسول الله، وكذلك من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق في الحال، وقيل:

أيها المدعي سليمى هواها لستَ منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت في هواها كواوٍ ألصقت في الهجاء ظلماً بعمرو
قوله جل ذكره: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ﴾

عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه إلى أنفسهم فصاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم، فما استهانوا إلا بأقذارهم، وما استخفوا إلا بأنفسهم، وما ذاق وبال فعلهم سواهم، وما قطعوا إلا وتينهم. ومن كان عالماً بحقائق المعلومات فمن رام خداعه إنما يخدع نفسه.

والإشارة في هذه الآية أن من تناسى لطفه السابق وقال لي وبني ومني وأنا يقع في وهمه وظنه لك وبك ومنك وأنت، وهذا التوهم أصعب العقوبات^(١) لأنه يرى سراباً فيظنه شراباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوقه حسابه.

قوله جل ذكره: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

في قلوب المنافقين مرض الشك، ويزيدهم الله مرضاً بتوهمهم أنهم نجوا بما لبسوا على المسلمين، ثم لهم عذاب أليم مؤلم، يَخْلُصُ وجعه إليهم في المآل. (وفي) الإشارة يحصل لمن خلط قصده بحظه، وشاب إرادته بهواه (أن) يتقدم في الإرادة بقدّم، ويتأخر بالاحظوظ ومتابعة النفس بأخرى، فهو لا يريد صادق ولا عاقل متثبت. ولو أن المنافقين أخلصوا في عقائدهم لآمنوا في الآخرة من العقوبة كما آمنوا في الدنيا من نحو بذل الجزية وغير ذلك مما هو صفة أهل الشرك والذمة، كذلك لو صدق المرید في إرادته لوصل بقلبه إلى حقائق الوصلة، ولأدركته بركات الصدق فيما رامه من الظفر بالبغيّة، ولكن حاله كما قيل:

فما ثبتنا فيثبت لنا عدل بلا حنف ولو خلصنا تخلصنا من المحن

(١) قال القشيري في حديثه عن التوحيد: إسقاط الباءات فلا تقل: لي وبني ومني وإلي. (الرسالة القشيرية ص ٣٠٢).

وإن من سقمت عبادته حيل بينه وبين درجات الجنات، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القُرْبِ والمناجاة. وأمّا من ركن إلى الدنيا واتبَعَ الهوى فسكوئُهم إلى دار الغرور سقم لقلوبهم، والزيادة في علتهم تكون بزيادة حرصهم؛ كلما وجدوا منها شيئاً - عَجَلَ لهم العقوبة عليه - يتضاعف حرصهم على ما لم يجدوه.

ثم من العقوبات العاجلة لهم تشتت همومهم ثم تبغض عيشهم فيبغون بها عن مولاهم، ولم يكن لهم استمتاع ولا راحة فيما آثروه من متابعة هواهم، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه، وفي معناه قيل:

تبدلت فتبدلنا واحسرتنا لمن ابتغى عوضاً ليسلو فلم يجد
والإشارة في العذاب الأليم بما كانوا يكذبون إنما هي الحسرة يوم الكشف إذا
رأوا أشكالهم الذين صدقوا كيف وصلوا، ورأوا أنفسهم كيف خسروا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة منها: أنه إذا دعاهم واعظ في قلوبهم من خفي خواطرهم إلى ما فيه رشدهم تتبعوا رخص التأويل، ولَبَسُوا على أنفسهم ما يشهد بقساوة قلوبهم، وحين جحدوا برهان الحق من خواطر قلوبهم نزع الله البركة من أحوالهم، وأبدلهم تصامماً عن الحق، وابتلاهم بالاعتراض على الطريقة وسلبهم الإيمان بها.

وكما أن المرتد أشد على المسلمين عداوة كذلك من رجع عن الإرادة إلى الدنيا والعادة فهو أشد الناس إنكاراً لهذه الطريقة، وأبعد من أهلها، وفي المثل: من اخترق كُدسه^(١) تمنى أن يقع بجميع الناس ما أصابه.

ورفاق المرتدين عن طريق الإرادة - عند الصادقين منهم - غير مقبول كما أن رسول الله ﷺ لم يقبل زكاة ثعلبة.

ويقال كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال له في وجهه كذبت، فهم لما قالوا إنما نحن مصلحون، أكذبهم الحق سبحانه فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: إِنَّا نَعْلَمُهُمْ فَتَفْضَحُهُمْ.

قوله عزّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة منها أن المنافقين لما دُعُوا إلى الحق وصفوا المسلمين بالسُّفَهَاء، وكذلك

(١) الكُدْس: القَرْمَة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك، والجمع أكُداس (لسان العرب ٦/١٩٢).

أصحاب الغنى إذا أُمروا بِتَرْكِ الدنيا وصفوا أهل الرشد بالكسل والعجز، ويقولون إن الفقراء ليسوا على شيء، لأنه لا مال لهم ولا جاه ولا راحة ولا عيش، وفي الحقيقة هم الفقراء وهم أصحاب المحنة؛ وقعوا في الذل مخافة الذل، ومارسوا الهوان خشية الهوان، شيدوا القصور ولكن سكنوا القبور، زينوا المهد ولكن أدرجوا للحد، ركضوا في ميدان الغفلة ولكن عشروا في أودية الحسرة، وعن قريب سيعلمون، ولكن حين لا ينفعهم علمهم، ولا يغني عنهم شيء.

سوف ترى إذا انجلى الغبار أَفَرَسَ تَخَنُّكَ أم حمأُ قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾.

أراد المنافقون أن يجمعوا بين عشرة الكفار وصحبة المسلمين، فإذا برزوا للمسلمين قالوا نحن معكم، وإذا خَلَوْا بأضرابهم من الكفار أظهروا الإخلاص لهم، فأرادوا الجمع بين الأمرين فَتَنُوا عَنْهُمَا. قال الله تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يلتئم ذلك، فالضدان لا يجتمعان، و«المُكَاتَّبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دَرَاهِمٌ»^(١)، وإذا ادلهم الليل من ها هنا أدير النهار من ها هنا، ومن كان له في كل ناحية خليط، وفي زاوية من قلبه ربيط كان نهباً للطوارق، ينتابه كل قوم، وينزل في قلبه كل (...)^(٢)، فقلبه أبداً خراب، لا يهناً بعيش، ولا له في التحقيق رزق من قلبه، قال قائلهم:

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ولما قال المنافقون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يجازيهم على استهزائهم، كذلك لما ألقى القوم أَرْمَتَهُمْ في أيدي الشهوات استهوتهم في أودية التفرقة، فلم يستقر لهم قدم على مقام فتطوحوا في متاهات الغيبة، وكما يمد المنافقين في طغيانهم يعمهون يطيل مدة هؤلاء في مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم أطول ما كانوا أملاً، وأسوأ ما كانوا عملاً، ذلك جزاء ما عملوا، ووبال ما صنعوا. وتحسين أعمالهم القبيحة في أعينهم من أشد العقوبات لهم، ورضاؤهم بما فيه من الفترة^(٣) أَجَلٌ مصيبة لهم.

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

(٢) بياض في الأصل.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٨١.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُنْتَفِعِينَ﴾.

الإشارة منها أن من بقي عن الحقوق بالبقاء في أوطان الحظوظ خسرت صفقتهم، وما ربحت تجارتهم. والذي رضي بالدنيا عن العقبى لفي خسران ظاهر. ومن آثر الدنيا أو العقبى على الحق تعالى لأشد خسرانا. وإذا كان المصاب بفوات النعيم مغبونا فالذي مُنِيَ بالبعاد عن المناجاة وانحاز بقلبه عن مولاه، وبقي في أسير الشهوات، لا إلى قلبه رسول، ولا لروحه وصول، ولا معه مناجاة، ولا عليه إقبال، ولا في سرّه شهود - فهذا هو المُصَابُّ والمُمتَحَن. وإن من فاته وقت فقد فاته ربه، فالأوقات لا خَلَفَ عنها ولا بَدَلَ منها، ولقد قال بعضهم:

كنت السواد لمقلتي فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾.

هذا مثل ضربه الله سبحانه للمنافقين بمن استوفد ناراً في ابتداء ليلته ثم أطفئت النيران فبقي صاحبها في الظلمة، كذلك المنافق ظهر عليه شيء من العوافي في الدنيا بظاهره ثم امتحِنُوا في الآخرة باليم العقوبة، أو لاح شيء من إقارهم ثم بقوا في ظلمة إنكارهم.

والإشارة من هذه الآية لمن له بداية جميلة؛ يسلك طريق الإرادة، ويتعنى مدة، ويقاسي بعد الشدة شدة، ثم يرجع إلى الدنيا قبل الوصول إلى الحقيقة، ويعود إلى ما كان فيه من ظلمات البشرية. أ ورق عودُه ثم لم يثمر، وأزهر غصنه ثم لم يدركه، وعجل كسوف الفترة على أقمار حضوره، وردّته يد القهر بعد ما أحضره لسان اللطف، فوطن عن القرب قلبه، وغلّ من الطالبين نفسه، فكان كما قيل:

حين قرّ الهوى وقلنا سرّزنا وحسبنا من الفراق أمناً
بعث البين رُسل في خفاء فأبادوا من شملنا ما جمعنا

وكذلك تحصل الإشارة في هذه الآية لمن له أدنى شيء من المعاني فيظهر الدعاوى فوق ما هو به، فإذا انقطع عنه (...) (١) ماله من أحواله بقي في ظلمة دعاواه.

(١) بياض في الأصل.

وكذلك الذي يركن إلى حطام الدنيا وزخرفها، فإذا استتبت الأحوال وساعد الأمل وارتفع المراد - برز عليه الموت من مكامن المكر فيترك الكُلَّ ويحمل الكُلَّ.

قوله جل ذكره: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

صم عن سماع دواعي الحق بأذان قلوبهم، بكم عن مناجاة الحق بالسنة أسرارهم، عمتي عن شهود جريان المقادير بعيون بصائرهم، فهم لا يرجعون عن تماديهم في تهتكهم، ولا يرتدعون عن انهماكهم في ضلالتهم.

ويقال صم عن السماع بالحق، بكم عن النطق بالحق، وعمي عن مطالعة الخلق بالحق. لم يسبق لهم الحكم بالإقلاع، ولم تساعدهم القسمة بالارتداد.

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَيُرَىٰ يَمْجَلُونَ أَسْمِعُ فِي أَذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

معنى قوله أو لإباحته ضرب مثلهم إما بهذا وإما بذلك شبه القرآن بمطر ينزل من السماء، وشبه ما في القرآن من الوعد والوعيد بما في المطر من الرعد والبرق، وشبه التجاءهم إلى الفرار عند سماع أصوات الرعد. كذلك الإشارة لأصحاب الغفلات إذا طرق أسماعهم وعظ الواعظين، أو لاحت لقلوبهم أنوار السعادة؛ ولو أقلعوا عما هم فيه من الغفلة لسعدوا، لكنهم ركنوا إلى التشاغل بآمالهم الكاذبة، وأصروا على طريقتهم الفاسدة، وتعللوا بأعذار واهية، ويحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم، ويسعون في الخطر بأيمانهم:

إن الكريم إذا حباك بوذه شتر القبيح وأظهر الإحسانا

وكذا الملول إذا أراد قطيعة مل الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من تمام مثل المنافقين - كذلك أصحاب الغفلات - إذا حضروا مشاهد الوعظ، أو جنحت قلوبهم إلى الرقة، أو داخلهم شيء من الوهلة تقرب أحوالهم من التوبة، وتقوى رغبتهم في الإنابة حتى إذا رجعوا إلى تدبرهم، وشاوروا إلى قرنائهم، أشار الأهل والولد عليهم بالعود إلى دنياهم، وبسطوا فيهم لسان النصيح، وهذؤهم بالضعف والعجز، فيضعف قسودهم، وتسقط إرادتهم، وصاروا كما قيل:

إذا ارعوى، عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ يعني سمع المنافقين الظاهر

وأبصارهم الظاهرة، كما أصمهم وأعماهم بالسر، فكذلك أرباب الغفلة، والقانون من الإسلام بالظواهر - فالله تعالى قادر على سلبهم التوفيق فيما يستعملونه من ظاهر الطاعات، كما سلبهم التحقيق فيما يستبطنونه من صفاء الحالات.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ عِبْدُوا رَبِّكُمْ أَلَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

العبادة موافقة الأمر، وهي است فراغ الطاقة في مطالبات تحقيق الغيب، ويدخل فيه التوحيد بالقلب، والتجريد بالسر، والتفريد بالقصد، والخضوع بالنفس، والاستسلام للحكم.

ويقال عبده بالتجرد عن المحظورات، والتجلد في أداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتجافي عن التعرّيج في منازل الكسل والاستهانة.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تقرب الأمر عليهم وتسهيله، ولقد وقفهم بهذه الكلمة - أعني لعل - على حد الخوف والرجاء.

وحقيقة التقوى التحرز والوفاء (بالطاعة)^(١) عن متوعدات العقاب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

تعرف إليهم بذكر ما من به عليهم من خلق السماء لهم سقفاً مرفوعاً، وإنشاء الأرض لهم فرشاً موضوعاً، وإخراج النبات لهم بالمطر رزقاً مجموعاً. ويقال أعتقهم عن مئة الأمثال بما أراح لهم من العلة فيما لا بُد منه، فكافاهم السماء لهم غطاءً، والأرض وطاءً، والمباحات رزقاً، والطاعة حرفةً، والعبادة شغلاً، والذكر مؤنساً، والرب وكيلاً - فلا تجعلوا لله أنداداً، ولا تعلقوا قلوبكم بالأغيار في طلب ما تحتاجون إليه؛ فإن الحق سبحانه وتعالى متوحد بالإبداع، لا مُخِدِّث سواه، فإذا توهمتم أن شيئاً من الحوادث من نفع أو ضرر، أو خير أو شر يحدث من مخلوق كان ذلك - في التحقيق شركاً.

وقوله عز وجل: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن من له حاجة في نفسه لا يصلح أن ترفع حاجتك إليه. وتعلق المحتاج بالمحتاج، واعتماد الضعيف على الضعيف يزيد في الفقر، ولا يزيل هو أجم الضر.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق وضعت استناداً إلى قول القشيري في حديثه عن التقوى بالرسالة ص ١٠٥: وحقيقة الإتياء التحرز بطاعة الله من عقوبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَكَّيْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ أَتَىٰ أَتَىٰ النَّاسَ وَالْجِبَارَ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ١٠٢﴾.

لبس على بصائر الأجانب حتى لم يشهدوا حبيبه صلوات الله عليه، فتأهوا في أدوية الظنون لما فقدوا نور العناية، فلم يزد الرسول عليهم إتياناً بالآيات، وإظهاراً من المعجزات إلا ازدادوا ريباً على ريب وشكاً على شك، وهكذا سبيل من أعرض عن الحق سبحانه، لا يزيده ضياء الحجج إلا عَمَى عن الحقيقة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِي إِلَيْنَاكَ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وليلبغ عليهم في إلزام الحجة عزفهم عجزهم عن معارضة ما آتاهم من معجزة القرآن الذي قهر الأنام من أولهم إلى آخرهم، وقدر عليهم أنهم لو تظاهروا فيما بينهم، واعتضدوا بأشكالهم، واستفرغوا كُنه طاقاتهم واحتياهم لم يقدرُوا على الإتيان بسورة مثل سورة القرآن. ثم قال: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وأخبر أنهم قطعاً لا يقدرُون على ذلك ولا يفعلُون فقال: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فكان كما قال - فانظروا لأنفسكم، واحذروا الشُّركَ الذي يوجب لكم عُقوبة النار التي من سطوتها بحيث وقودها الناس والحجارة، فإذا كانت تلك النار التي لا تثبت لها الحجارة مع صلابتها (١) فكيف يطيقها الناس مع ضعفهم، وحين أشرفت قلوب المؤمنين على غاية الإشفاق من سماع ذكر النار تداركها بحكم التثبيت فقال: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ففي ذلك بشارة للمؤمنين. وهذه سُنَّةٌ من الحق سبحانه: إذا خَوْفُ أعداءه بَشَّرَ مع ذلك أوليائه.

وكما أنَّ كيد الكافرين يضمحل في مقابلة معجزات الرسل عليهم السلام فكذلك دعاوى المُلْسِيسِ تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين، وأمانة المُبْطِلِ في دعواه رجوع الزجر منه إلى القلوب، وعلامة الصادق في معناه وقوع القهر منه على القلوب. وعزيز من فصل وميز بين رجوع الزجر وبين وقوع القهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ١٠٣﴾.

هذه البشارة بالجنات تتضمن تعريفاً بنعم مؤجلة لعموم المؤمنين على الوصف الذي يُشْرَحُ بلسان التفسير. ويشير إلى البشارة للخواص بنعم مُعَجَّلَة مضافة إلى تلك النعم يتيح (ها) الله لهم على التخصيص، فتلك المؤجلة جنات المثوبة وهذه جنات القربة، وتلك رياض النزهة وهذه رياض الزُلْفَة (٢)، بل تلك حقائق الأفضال وهذه

(١) بياض في الأصل.

(٢) الزلفة: وهو ماء شرقي سميراء.

حقائق الإِصال، وتلك رفع الدرجات وهذه رُوح المناجاة، وتلك قضية جوده، هذه الاشتغال بوجوده، وتلك راحة الأَبشار وهذه نزهة الأسرار، وتلك لطف العطاء للظواهر وهذه كشف الغطاء عن السرائر، وتلك لطف نواله وأفضاله وهذه كشف جماله وجلاله .

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُنْشِئَهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

كما أن أهل الجنة تتجدد عليهم النعم في كل وقت، فالثاني عندهم - على ما يظنون - كالأول، فإذا ذاقوه وجدوه فوق ما تقدّم - فكذلك أهل الحقائق: أحوالهم في السرائر أبداً في الترقى، فإذا رُقي أحدهم عن محلّه توهم أن الذي سيلقاه في هذا النَّفس مثل ما تقدم فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف، كما قال قائلهم:

ما زلت أنزل من وداك منزلاً
تتحيّر الألباب دون نزوله
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ .

الاستحياء من الله تعالى بمعنى التّرك، فإذا وصف نفسه بأنه يستحي من شيء فمعناه أنه لا يفعل ذلك وإذا قيل لا يستحي فمعناه لا يبالي بفعل ذلك .

والخَلْقُ في التحقيق - بالإضافة إلى وجود الحق - أقلّ من ذرة من الهباء في الهواء، لأن هذا استهلاك محدود في محدود، فسيان - في قدرته - العرش والبعوضة، فلا خَلْقُ العرش أشق وأعسر، ولا خَلْقُ البعوضة أخف عليه وأيسر، فإنه سبحانه مُتَقَدِّسٌ عن لحوق العُسر واليُسْر .

فإذا كان الأمر بذلك الوصف، فلا يستحي أن يضرب بالبعوضة مثلاً كما لا يستحي أن يضرب بالعرش - فما دونه - مثلاً .

وقيل إن جهة ضرب المثل بالبعوضة أنها إذا جاءت فَرُثٌ وطارَت، وإذا شَبِعَتْ فَتَلِفَتْ - كذلك ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦] .

وقيل ما فوقها يعني الذباب، وجهة الإشارة فيه إلى وقاحتها، حتى أنه ليعود عند البلاغ في الذب، ولو كان ذلك في الأسد لم ينبج منه أحد من الخَلْق، ولكنه لما خَلَقَ القوة في الأسد خلق فيه تنافراً من الناس، ولما خلق الوقاحة في الذباب خلق فيه الضعف، تبيهاً منه سبحانه على كمال حكمته، ونفاذ قدرته .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ .

فأما من فتحت أبصار شرائره فلا ينظر إلى الأغيار والآثار إلا بنظر الاعتبار، ولا يزداد إلا نفاذ الاستبصار، وأما الذين سكرت أبصارهم بحكم الغفلة فلا يزيدهم ضرب الأمثال إلا زيادة الجهل والإشكال والأنكال^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

هذا الكتاب لقوم شفاء ورحمة، ولآخرين شقاء وفتنة. فمن تعرّف إليه يوم الميثاق بأنوار العناية حين سمعوا قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] تذكروا عند ورود الوساطة - صلوات الله عليه وعلى آله - قديم عهده، وسابق وده فازدادوا بصيرة على بصيرة، ومن رَسَمَهُ بِذُلِّ القطيعة، وأنطقه ذلك اليوم عن الحسبان والرهبة ما ازدادوا عند حصول الدعوة النبوية إلا جُحِداً على جُحْد، وما خفي عليهم اليوم صادق الدلالة، إلا لِمَا تقدم لهم سابق الضلالة. لذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الإشارة فيه إلى حال من سلك طريق الإرادة، ثم رجع إلى ما هو عليه أهل العادة، قال بتزك نفسه ثم لم يصدق حين عزم الأمر، ونزل من إشارة الحقيقة إلى رخص الشريعة^(٢)، وكما أن من سلك الطريق بنفسه - ما دام يبقى درهم في كيسه - فغير محمود رجوعه فكذلك من قصد بقلبه - ما دام يبقى نفس من روحه - فغير مرضي رجوعه:

إن الألى ماتوا على دين الهدى وجدوا المنية منهلاً معلولاً
ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل: وصل أسباب الحق بقطع أسباب الخلق، ولا يتم وصل ماله إلا بقطع ما لك، فإذا كان الأمر بالعكس كان الحال بالضد.
ومما أمر العبد بوصله: حفظه دِمام أهل هذه الطريقة، والإنفاق على تحصيل

(١) الأنكال: القيود الشديدة (مفرده) التكل.

(٢) قال القشيري في رسالته: إذا أحكم المريد بينه وبين الله تعالى عقده، فيجب أن يحصل من علم الشريعة إما بالتحقيق وإما بالسؤال عن الأئمة ما يؤدي به فرضه، وإن اختلفت عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط، ويقصد دائماً الخروج من الخلاف، فإن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال، وهؤلاء ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه. ولهذا قيل: إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى. (الرسالة القشيرية ص ٣٨٠).

ذلك بصدق الهمم لا يبذل النعم، فهمهم على اتصال أسباب هذه الطريقة وانتظام أحوالها موقوفة، وقلوبهم إلى توقع الحراسة من الله تعالى لأهلها مصروفة. وفساد هذه الطريقة في الأرض: أما من لهم حواشي أحوالهم، وإطراق أمورهم فيتشاغلون عن إرشاد مريد بكلامهم، وإشحاذ قاصد بهمهم؛ وذلك مما لا يرضى به الحق سبحانه منهم.

ومن نقض العهد أيضاً أن يحيد سرك لحظة عن شهوده، ومن قطع ما أمرت بوضله أن يتخلل أوقاتك نفس لحظك دون القيام بحقه، ومن فسادك في الأرض ساعة تجري عليك ولم تره فيها. ألا إن ذلك هو الخسران المبين، والمحنة العظيمة، والرزية الكبرى.

قوله جل ذكره: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

هذه كلمة تعجيب وتعظيم لما فيه العبد، أي لا ينبغي مع ظهور الآيات أن يجنح إلى الكفر قلبه.

ويقال تعرف إلى الخلق بلوائح دلالاته، ولوامع آياته. فقال: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ يعني نطفة، أجزاءها متساوية، ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾: بشراً اختص بعض أجزاء النطفة بكونه عظماً، وبعضها بكونه لحماً، وبعضها بكونه شغراً، وبعضها بكونه جلدًا. . إلى غير ذلك.

﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ بأن يجعلكم عظماً ورفاتاً، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بأن يحشركم بعدما صرتم أمواتاً، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى ما سبق به حكم من السعادة والشقاوة.

ويقال: ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ بجهلكم عنا، ثم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بمعرفتكم بنا، ثم يميتكم عن - شواهدكم، ثم يحييكم به بأن يأخذكم عنكم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي بحفظ أحكام الشرع بإجراء الحق^(١).

ويقال ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ لبقاء نفوسكم فأحياكم بفناء نفوسكم ثم يميتكم عنكم عن شهود ذلك لثلاث لحاظه فيفسد عليكم، ثم يحييكم بأن يأخذكم عنكم ثم إليه ترجعون بتقليبكم في قبضته سبحانه وتعالى.

ويقال يحبس عليهم الأحوال؛ فلا حياة بالدوام ولا فناء بالكلية، كلما قالوا هذه حياة - وبيناهم كذلك - إذ أدال عليهم فأفناهم، فإذا صاروا إلى الفناء أثبتهم وأبقاهم،

(١) انظر هامش (١) من الصفحة ١٥.

فهم أبدأ بين نفي وإثبات، وبين بقاء وفناء، وبين صحو ومحو. . كذلك جرت سنته سبحانه معهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

سخر لهم جميع المخلوقات على معنى حصول انتفاعهم بكل شيء منها، فعلى الأرض يستقرون وتحت السماء يسكنون، وبالنجم يهتدون، وبكل مخلوق بوجه آخر يتفنون، لا بل ما من عين وأثر فكروا فيه إلا وكمال قدرته وظهور ربوبيته به يعرفون. ويقال مهّد لهم سبيل العرفان، ونبّههم إلى ما خصّهم به من الإحسان، ثم علمهم علوّ الهمة حيث استخلص لنفسه أعمالهم وأحوالهم فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فالأكوان بقدرته استوى، لا أن الحق سبحانه بذاته - على مخلوق - استوى، وأنى بذلك! والأحادية والصدئية حقه وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فمحال ما توهموه، إذ المكان به استوى، لا الحق سبحانه على مكان بذاته استوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. هذا ابتداء إظهار سيره في آدم وذريته. أمر حتى سلّ من كل بقعة طينة ثم أمر بأن يخمر طينته أربعين صباحاً، وكل واحد من الملائكة يفضي العجب: ما حكم هذه الطينة؟ فلما ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها في بديع الصنعة وعجيب الحكمة، فحين قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾ تَرَجَّمَتِ الظنون، وتقسّمت القلوب، وتجنّبت الأقاويل، وكان كما قيل:

وكم أبصرت من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري

ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يقل في شأن شيء منه ما قال في حديث آدم حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة لو كان من المخلوقين. والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة، ولم يقل إني خالق عرشاً أو جنة أو ملكاً، وإنما قال تشريفاً وتخصيصاً لآدم إني جاعل في الأرض خليفة.

فصل: ولم يكن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام، فإن حَمَلَ الخطاب على ما يوجب

تنزيه الملائكة أولى لأنهم معصومون.. قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحریم: ٦].

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكن في قلوبهم من استعظام طاعاتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب؛ فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾. ثم إن الحق سبحانه عرفهم أن الفضيلة بالعلم أتم من الفضيلة بالفعل، فهم كانوا أكثر فعلاً وأقدمه، وآدم كان أكثر علماً وأوفره، فظهرت فضيلته ومرتبته.

ويقال لم يقل الحق سبحانه أتم لا تفسدون فيها ولا تسفكون الدماء بل قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من غفراني لهم.

ويقال: في تسبيحهم إظهار فعلهم واشتجار خصائصهم وفضلهم، ومن غفرانه لمعاصي بني آدم إظهار كرمه سبحانه ورحمته، والحق سبحانه غني عن طاعات كل مطيع، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاق تمدحهم ثبت بالغفران استحقاق تمدح الخالق سبحانه.

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من صفاء عقائد المؤمنين منهم في محبتنا، وذكاء سرائرهم في حفظ عهودنا وإن تدنس بالعصيان ظاهرهم، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ جاءت محاسنُه بألفٍ شفيع

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من محبتي لهم، وأنتم تظهرون أحوالكم، وأنا أخفي عليهم أسراري فيهم، وفي معناه أنشدوا:

ما حطُّك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مغتاب
كانهم أثَّنوا - ولم يعلموا - عليك عندي بالذي عابوا^(١)

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم، وصولاً قلوبكم عند إظهار تسبيحكم وتقديسكم، فأنتم في رتبة وفاقكم وفي عصمة أفعالكم، وفي تجميل تسبيحكم، وهم مُنكرون عن شواهدهم، متدللون بقلوبهم، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا لذماماً قوياً.

ويقال أي خطر لتسبيحكم لولا فضلي، وأي ضرر من ذنوبهم إذا كان عفوي؟
ويقال لبسْتُكم طاعتكم ولبستهم رحمتي، فأنتم في صدر^(٢) طاعتكم وفي خلَّة

(١) أبيات الشعر مضطربة صُححت قدر الإمكان.

(٢) الصدر: ثوب بلا كُمَيْن يغطى به الصدر أو هو قميص صغير يغطي الصدر.

تقديسكم وتسييحكم، وهم في تغمد عفوي وفي ستر رحمتي ألبستهم ثوب كَرَمِي، وجللتهم رداء عفوي.

ويقال إن أسعدتكم عصمتي فلقد أدركتهم رحمتي.

وإيصال عصمتي بكم عنده وجودكم وتعلق رحمتي بهم في أزلي.

ويقال: لئن كان مُحْسِنُكُمْ عتيق العصمة فإن مجرمهم غريق الرحمة.

ويقال: اتكأهم علي زَكَيَ أحوالهم فألجأهم إلى الاعتراف بالجهالة حتى يثبوا عن المعارف إلا بمقدار ما من به الحق عليهم فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

عموم قوله الأسماء يقتضي الاستغراق، واقتران قوله سبحانه بكلها يوجب الشمول والتحقيق، وكما علمه أسماء المخلوقات كلها - على ما نطق به تفسير ابن عباس^(١) وغيره - علمه أسماء الحق سبحانه، ولكن إنما أظهر لهم محل تخصصه في علمه أسماء المخلوقات وبذلك المقدار بأن رجحانه عليهم، فأما انفراده بمعرفة أسمائه - سبحانه - فذلك سر لم يطلع عليه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ. ومن ليس له رتبة مساواة آدم في معرفة أسماء المخلوقات فأبي طمع في مداناته في أسماء الحق، ووقوفه على أسرار الغيب؟

وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يتقضى أن يصح (به سجود) الملائكة فما الظن بالتخصيص بمعرفة أسماء الحق سبحانه؟ ما الذي يُوجِبُ لِمَنْ أَكْرَمَ به؟

ويقال خصوصية الملائكة بالتسييح والتقديس وهذه طاعات تليق بالمخلوقين؛ فإن الطاعة سِمَةُ العبيد ولا تتعداهم، والعلم في الجملة صفة مدح يجب في نعت الحق سبحانه واجباً لا يصح لغيره، فالذي يُكْرَمُ بما يتصف هو سبحانه (بيانه وإن كان للمساواة أتم من الكرام بما يكون مخلوقاً على جنس المخلوقات).

ويقال أكرمه في السر بما علمه ثم بيّن تخصيصه يوم الجهر وقدمه. ويقال قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ ثم: حرف تراخ ومهلة. . إما على آدم؛ فإنه أمهله من الوقت ما تقرر ذلك في قلبه، وتحقق المعلوم له بحقه ثم حينئذٍ استخبره عما تحقّق به واستيقنه. وإما

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس (٣ق هـ - ٦٨هـ = ٦١٩ - ٦٨٧م) حبر الأمة الصحابي الجليل، ولد بمكة ونشأ في بدء عصر النبوة. لازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي الجمل وصفين وكف بصره آخر عمر فسكن الطائف، وتوفي بها. له في الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثاً ويُنسب إليه كتاب في «تفسير القرآن». الأعلام ٥٩/٤، والإصابة ٤٧٧٢، وصفة الصفوة ٣١٤/١، والرسالة القشيرية ص ٤٢.

على الملائكة؛ فقال لهم على وجه الوهلة: «أنبئوني» فلمّا لم يتقدم لهم تعريف تحيّرُوا، ولمّا تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر، ونطق وأفصح، إظهاراً لعنايته السابقة - سبحانه - بشأنه .

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه إشارة إلى أنهم تعرّضوا لدعوى الخصوصية، والفضيلة والمزية على آدم، فعرفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه في قديم تخصيصه . ولمّا علّم الحق سبحانه تقاضى علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات ثم كلّفهم الإنشاء عنها صار فيه أوضح دلالة على أن الأمر أمره، والحكم حكمه، فله تكليف المستطيع، ردّاً على من توهّم أن أحكام الحق سبحانه مُعلّلة باستحسان أرباب الغفلة بما يدعونه من قضايا العقول، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء، الحسن ما حكم بتحسينه والقيح ما حكم بتقيحه .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

قدّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به، ونزّها حقيقة حكمه عن أن يكون يعرض وهم المعترضون، يعني لا علم لنا بما سألتنا عنه، ولا يتوجّه عليك لوم في تكليف العاجز بما علمت أنه غير مستطيع له، إنك أنت العليم الحكيم أي ما تفعله فهو حقّ صِدْق ليس لأحد عليك حكم، ولا منك سَفَه وقيح .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَكَادُمُ إِلَهُيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ .

من آثار العناية بآدم عليه السلام أنه لمّا قال للملائكة: «أنبئوني» داخلهم من هبة الخطاب ما أخذهم عنهم، لا سيما حين طأّبهم بإبائهم إياه ما لم تُحط به علومهم . ولما كان حديث آدم عليه السلام ردّه في الإنشاء إليهم فقال: ﴿أُنَبِّئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ومخاطبة آدم عليه السلام الملائكة لم يوجب له الاستغراق في الهبة . فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني ما تقاصرت عنه علوم الخلق، وأعلم ما تبدون من الطاعات، وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السلام والصلاة .

فصل: ولمّا أراد الحق سبحانه أن يُنجي آدم عصمه، وعلمه، وأظهر عليه آثار الرعاية حتى أخبر بما أخبر به، وحين أراد إمضاء حكمه فيه أدخل عليه النسيان حتى نسي في الحضرة عهده، وجاوز حدّه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] فالوقت الذي ساعدته العناية تقدم على الجملة بالعلم والإحسان، والوقت الذي أمضى عليه الحكم ردّه إلى حال النسيان والعصيان،

كذا أحكام الحق سبحانه فيما تجري وتمضي، ذلٌ بحكمه العبيد، وهو فعّال لما يريد.
فصل: ولما توهما حصول تفضيلهم بتسبيحهم وتقديسهم عرفهم أن بساط العز
 مقدس عن التجميل بطاعة مطيع أو التدنس بزلة جاحد عنيد، فَرَدُّهم إلى السجود لآدم
 أظهر الغناء عن كل وفاق وخلاف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

السجود لا يكون عبادة لِعَيْنِهِ ولكن لموافقة أمره سبحانه، فكان سجودهم لآدم
 عبادة لله؛ لأنه كان بأمره، وتعظيماً لآدم لأنه أمرهم به تشریفاً لشأنه، فكان ذلك النوع
 خضوعٌ له ولكن لا يسمى عبادة، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصح
 لغيره سبحانه.

ويقال بيّن أن تقدّسه - سبحانه - بجلاله لا بأفعالهم، وأن التّجمل بتقديسهم
 وتسبيحهم عائدٌ إليهم، فهو الذي يجل من أجله بإجلاله لا بأفعالهم، ويعز من أعزّ
 قدره سبحانه بإعزازه، جَلٌّ عن إجلال الخلق قدره، وعزٌّ عن إعزاز الخلق ذكره.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أبى بقلبه، واستكبر عن السجود بنفسه، وكان
 من الكافرين في سابق حكمه وعلمه. ولقد كان إبليس مدّة في دلال طاعته يخال في
 صدار موافقته، سلّموا له رتبة التقدم، واعتقدوا فيه استحقاق التخصيص، فصار أمره
 كما قيل:

وكان سراج الوصل أزهر بيننا فهبّت به ريحٌ من البين فانطفأ
 كان يحسب لنفسه استيجاب الخيرية، ويحسب استحقاق الزلفة
 والخصوصية:

فبات بخير والدني مطمئنة وأصبح يوماً والزمان تقلباً
 فلا سالف طاعة تَقَعه، ولا آتف رجعة رفعه، ولا شفاعة شفيع أدركته، ولا
 سابق عناية أمسكته. ومن غلبه القضاء لا ينفعه العناء.
 ولقد حصلت من آدم هفوة بشرية، فتداركت رحمة أحدية، وأما إبليس فأدركته
 شقوة أزية، وغلبته قسمة وقضية. خاب رجاؤه، وضلّ عناؤه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا
 تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أسكنه الجنة ولكن أثبت مع دخوله شجرة المحنة، ولولا سابق التقدير لكان

يبدل تلك الشجرة بالنضارة ذبولاً، وبالخضرة ييبساً، وبالوجود فقداً، وكانت لا تصل يد آدم إلى الأوراق ليخصفها على نفسه - ويقع منه ما يقع.

ولو تناولت تلك الشجرة حتى كانت لا تصل إليها يده حين مدها لم يقع في شأنه كل ذلك التشويش ولكن بدا من التقدير ما سبق به الحكم.

ولا مكاناً أفضل من الجنة، ولا بشرٌ أكيس من آدم، ولا ناصح يقابل قوله إشارة الحق عليه، ولا غريبة (منه) قبل ارتكابه ما ارتكب، ولا عزيمة أشد من عزمته - ولكن القدرة لا تكابر، والحكم لا يعارض.

ويقال لما قال له: ﴿أَتَكْفُرُ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ كان فيه إشارة إلى أن الذي يليق بالخلق السكون إلى الخلق، والقيام باستجلاب الحظ، وآدم عليه السلام وخذه كان بكل خير وكل عافية، فلما جاء الشكل والزوج ظهرت أنياب الفتنة، وانفتح باب المحنة؛ فحين سآكن حواء أطاعها فيما أشارت عليه بالأكل، فوقع فيما وقع، ولقد قيل:

داء قديم في بني آدم صبوة إنسان بإنسان

فصل: وكل ما منع منه ابن آدم توفرت دواعيه إلى الاقتراب منه.

فهذا آدم عليه السلام أبيحت له الجنة بجملتها ونهيت عن شجرة واحدة، فليس في المنقول أنه مدَّ يده إلى شيء من جملة ما أبيح، وكان عيلاً صبره حتى واقع ما نهى عنه - هكذا صفة الخلق.

فصل: وإنما نبه على عاقبة دخول آدم الجنة من ارتكابه ما يوجب خروجه منها حين قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فإذا أخبر أنه جاعله خليفته في الأرض كيف يمكن بقاؤه في الجنة؟

ويقال أصبح آدم عليه السلام محمود الملائكة، مسجود الكافة، على رأسه تاج الوصلة، وعلى وسطه نطاق القرية، وفي جيده (. . .)^(١) الزلفة، لا أحد فوقه في الرتبة، ولا شخص مثله في الرفعة، يتوالى عليه النداء في كل لحظة يا آدم يا آدم. فلم يُمنس حتى نُزع عنه لباسه، وسلب استثناسه، والملائكة يدفعونه بعنف أن يخرج بغير مكث:

وَأَمْسَتْهُ فَأَتَاكَ لِي مِنْ مَّأْمَنِي مَكْرَأً، كَذَا مِنْ يَأْمَنِ الْأَحْبَابَا

ولما تاه آدم عليه السلام في مشيته لم يلبث إلا ساعة حتى خرج بألف ألف عتاب، وكان كما قيل:

لله دَرُهُمْ مِنْ فِثْيَةٍ بَكَّرُوا مَثَلُ الْمَلُوكِ وَرَاحُوا كَالْمَسَاكِينِ

(١) بياض في الأصل.

فصل: نهاه عن قرب الشجرة بأمره، وألقاه فيما نهاه عنه بقهره، ولبس عليه ما أخفاه فيه من سره.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

أزلهما أي حملهما على الزلة، وفي التحقيق: ما صرّفنهما إلا القدرة، وما كان تقلبهما إلا في القضية، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جهراً، ولكن ما ازداد - في حكم الحق سبحانه - شأنهما إلا رفعة وقدرًا.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أوقع العداوة بينهما وبين الشيطان، ولكن كان سبحانه مع آدم (وحرب وهو معهم محالهم بالظفر).

فصل: لم يكن للشيطان من الخطر ما يكون لعداوته إثبات، فإن خصوصية الحق سبحانه عزيزة قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فصل: لو كان لإبليس سلطان على غواية غيره لكان له إمكان في هداية نفسه، وكيف يكون ذلك؟ والتفرد بالإبداع لكل شيء من خصائص نعمته سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُرْ فِي الْأَرْضِ مُمْسَقًا وَمُنْتَعِلًا لِّكُلِّ حِينٍ﴾.

مشهد الأشباح ومآلفها أقطار الأرض، ومعهد الأرواح ومرتها رداء العرش، ولفظ الرداء استعارة وتوسع فكيف يكون للهمم بالجذات تعلق، ولصعود القصور إلى الحقائق على الأغيار وقوع.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

جرت على لسان آدم مع الحق - سبحانه - كلمات، وأسمع الحق - سبحانه - آدم كلمات، وأنشدوا:

وإذا خُفْنَا من الرقباء عينا تكلمت السرائر في القلوب

وأجمل الحق سبحانه القول في ذلك إجمالاً ليُبقي القصة مستورة، أو ليكون للاحتمال والظنون مساع، ولما يحتمله الحال من التأويل مطروح^(١).

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذاراً وتنصلاً، وكلمات الحق سبحانه قبولاً وتفضلاً. وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له: أفرأراً منا يا آدم؟ كذلك قوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣٠] وقوله: أخرجني أنت من الجنة؟ فقال: نعم، فقال أتردني إليها؟ فقال: نعم.

(١) المطروح: الموضع يطرح فيه شيء.

ويقال حين أمر بخروجه من الجنة جعل ما أسمعته إياه من عزيز خطابه زاداً، ليكون له تذكرة وعتاداً:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على على كبدي من خشية أن تقطعاً

ومخاطبات الأحياء لا تحتل الشرح، ولا يحيط الأجانب بها علماً، وعلى طريق الإشارة لا على معنى التفسير والتأويل، والحكم على الغيب بأنه كان كذلك وأراد به الحق سبحانه ذلك يحتمل في حال الأحياء عند المفارقة، وأوقات الوداع أن يقال إذا خرجت من عندي فلا تنس عهدي، وإن تقاصر عنك يوماً خبري فأياك أن تؤثر عليّ غيري، ومن المحتمل أيضاً أن يقال إن فاتني وصولك فلا يتأخرنّ عني رسولك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

سوء الأدب على البساط يوجب الرد إلى الباب، فلما أساء آدم عليه السلام الأدب في عين القربة قال الله تعالى: ﴿أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ بعد أن كان لكم في محل القربة قرار ومتاع إلى حين، يستمتعون يسيراً ولكن (في) آخرهم يعودون إلى الفقر، وأنشدوا:

إذا افتقروا عادوا إلى الفقر حسبة وإن أيسروا عادوا سراعاً إلى الفقر

وحين أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض بشره بأنه يردّه إلى حاله لو جنح بقلبه إلى الرجوع فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

والذين قابلوا النعمة بغير الشكر، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلمهم عذاب اليم مؤجل، وفراق معجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبَيِّنَنَّ إِسْرَؤِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

حقيقة النعمة على لسان العلماء لذة خالصة عن الشوائب، وما يوجب مثلها فهي أيضاً عندهم نعمة، وعند أهل الحقيقة النعمة ما أشهدك المُنعم أو ما ذكرك بالمنعم أو ما أوصلك إلى المنعم أو ما لم يحجبك عن المنعم.

وتنقسم إلى نعمة أبشار وظواهر، ونعمة أرواح وسرائر، فالأولى وجوه الراحة والثانية صنوف المشاهدات والمكاشفات. فمن النعم الباطنة عرفان القلوب ومحاب الأرواح ومشاهدات السرائر.

فصل: ويقال أمر بني إسرائيل بذكر النعم وأمر أمة محمد ﷺ بذكر المنعم، وفرق بين من يقال له: ﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ١١٠] وبين من يقال له: ﴿مَّا ذَكَّرْتَنِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

عهده - سبحانه - حفظ المعرفة وعهدنا اتصال المغفرة، عهده حفظ محابه وعهدنا لطف ثوابه، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب.

أوفوا بعهدي بحفظ السر أوف بعهدكم بجميل البر، أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق أوف بعهدكم الذي ضمنتم لكم يوم التلاق، أوفوا بعهدي في ألا تؤثروا عليّ غيري أوف بعهدكم في ألا أمنع عنكم لطفي وخيري، أوفوا بعهدي برعاية ما أثبت فيكم من الودائع أوف بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع^(١)، أوفوا بعهدي بحفظ أسراري أوف بعهدكم بجميل مباري، أوفوا بعهدي باستدامة عرفاني أوف بعهدكم في إدامة إحساني، أوفوا بعهدي في القيام بخدمتي أوف بعهدكم في المنة عليكم بقبولها منكم، أوفوا بعهدي في القيام بحسن المجاهدة والمعاملة أوف بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة، أوفوا بعهدي بالتبري عن الحول والمنة أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمنة، أوفوا بعهدي بالتفضيل والتوكل أوف بعهدكم بالكفاية والتفضل، أوفوا بعهدي بصدق المحبة أوف بعهدكم بكمال القرية، أوفوا بعهدي اكتفوا مني بي أوف بعهدكم أرضي بكم عنكم، أوفوا بعهدي في دار الغيبة على بساط الخدمة بشد نطق الطاعة، وبذل الوسع والاستطاعة أوف بعهدكم في دار القرية على بساط الرصلة بإدامة الأئس والرؤية وسماع الخطاب وتمام الزلفة، أوفوا بعهدي في المطالبات بترك الشهوات أوف بعهدكم بكفائتكم تلك المطالبات، أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبدأ: ربي ربي أوف بعهدكم بأن أقول لكم عبي عبي وإياي فارهبون، أي أفرؤوني بالخشية لانفرادي بالقدرة على الإيجاد فلا تصح الخشية ممن ليس له ذرة ولا مئة.

(١) قال القشيري في حديثه عن اللوائح والطوالع واللوامع برسائله: اللوامع تسبق الطوالع في الظهور والطوالع أبقي وقتاً، وأقوى سلطاناً، وأدوم مكثاً، وأذهب للظلام، وأنفى للثمة لكنها موقوفة على خطر الأقول ليست برفيعة الأوج، ولا بدائمة المكث وأوقات حصولها وشبكة الارتحال وأحوال أفولها طويلة الأذيال. (الرسالة القشيرية ص ٧٧).

قوله جل ذكره: ﴿وَعَايِنُوا يَمَّا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا يَابَتِي ثَمًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنْقُوتُ﴾.

الإشارة أن يقرن (العبد) إيمانه من حيث البيان بإيمانه من حيث البرهان، وجمهور المؤمنين لهم إيمان برهان بشرط الاستدلال، وخواص المؤمنين لهم إيمان من حيث البيان بحق الإقبال، وأقبل الحق سبحانه عليهم فآمنوا بالله، وآخر أحوالهم الإيمان من حيث العيان، وذلك لخواص الخواص.

ولا تكونوا أول كافر به، ولا تَسْتُوا الكفر سُنَّةً فَإِنْ وَزَرَ المبتدئ فيما يَسُنُّ أعظم من وزر المقتدي فيما يتابع.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا يَابَتِي ثَمًا قَلِيلًا﴾ لا تؤثر على عظيم حقي خسيس حظكم. ﴿وَإِنِّي فَأَنْقُوتُ﴾ كثير من يتقي عقوبته وعزيز من يهاب اطلاعه ورؤيته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكُونُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَقْلَمُونَ﴾.

لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين، والكون في حالة واحدة في محلين، (فالعبد) إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ، وأما حصول الأمرين فمحال من الظن.

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبُطْلِ﴾ تدنيس، ﴿وَتَكُونُوا الْحَقَّ﴾ تلبيس، ﴿وَأَنْتُمْ تَقْلَمُونَ﴾ أن حق الحق تقديس، وأنشدوا:

أيها المنكح الشريا سهيلا عمرك الله، كيف يلتقيان؟!

هي شامية إذا ما استهللت وسهيل إذا استهل يمانى!

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآذِكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾.

احفظوا آداب الحضرة؛ فحفظ الآداب أتم في الخدمة من الخدمة، والإشارة في إيتاء الزكاة إلى زكاة الهمم كما تؤدي زكاة النعم، قال قائلهم:

كل شيء له زكاة تؤدي وزكاة الجمال رحمة مثلى

فيفيض من زوائد هممه ولطائف نظره على المتبعين والمربين بما ينتعشون به و (.. .) (١)، ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾: تقتدي بآثار السلف في الأحوال، وتجنب سنن الانفراد فإن الكون في غمار الجمع أسلم من الامتياز من الكافة.

قوله جل ذكره: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَقْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أتحرضون الناس على البدار وترضون بالتخلف؟ ويقال أندعون الخلق إلينا

وتقعّدون عنّا؟ أتسرحون الوفود وتقصرون في الورود؟ أتنافسون الخلق وتنافرونهم بدقائق الأحوال وترضون بإفلاسكم عن ظواهرها؟

ويقال أتبصرون من الحق مثقال الذرّ ومقياس الحبّ وتساهمون لأنفسكم أمثال الرمال والجبال؟ قال قائلهم:

وتبصر في العين مني القذى وفي عينك العجذع لا تبصر؟!

ويقال أَسْقَوْنَ بِالْجُبِّ^(١) ولا تشربون بالتؤب؟

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ثم تعاندون بخفايا الدعاوى وتجحدون بما شام قلوبكم من فضيحات الخواطر وصريحات الزواجر.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إن ذلك ذمّ من الخصال وقبيح من أفعال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

الصبر فطم النفس عن المألوفات، والصلاة التعرّض لحصول المواصلات، فالصبر يشير إلى هجران الغير، والصلاة تشير إلى دوام الوقوف بحضرة الغيب، وإن الاستعانة بهما لخصلة شديدة إلا على من تجلّى الحق لِسِرِّهِ فإن في الخبر المنقول: «إن الله تعالى إذا تجلّى لشيء خضع له»^(٢). وإذا تجلّى الحق، خَفَّ وَسَهَّلَ ما تَوَقَّى الخلق؛ لأن التوالي للطاعات يوجب التكليف بموجب مقاساة الكلفة، والتجلي بالمشاهدات - بحكم التحقيق - يوجب تمام الوصلة ودوام الزلفة.

ويقال استعينوا بي على الصبر معي، واستعينوا بحفظي لكم على صلاتكم لي، حتى لا تستغرقكم واردات الكشف والهيبة، فلا تقدرون على إقامة الخدمة.

وإن تخفيف سطوات الوجود على القلب في أوان الكشف حتى يقوى العبد على القيام بأحكام الفرق لِمِنَّةٍ عظيمة من الحق^(٣).

وأقسام الصبر كلها محمودة الصبر في الله، والصبر لله، والصبر بالله والصبر مع الله إلا صبراً واحداً وهو الصبر عن الله:

والصبر يحسن في المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم^(٤)

(١) النجب: الكريم الحسن، وربما كانت النخب: الشربة العظيمة أو الشربة من الخمر أو غيرها يشربها الرجل لصحة حبيب أو محتقن به.

(٢) أخرجه النسائي في (السنن ٣/١٤٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/٣٣٣)، والدارقطني في (السنن ٢/٦٥).

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٦.

(٤) رواية البيت في الرسالة القشيرية ص ١٨٤:

الصبر يجمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجمل

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

الظن يُذكر، ويقال المراد به اليقين، وهو الأظهر ها هنا.

ويذكر ويراد به الحساب فَمَنْ ظَنَّ ظَنًّا يَقِين فصاحب وصلة.

ومن ظَنَّ ظَنًّا تخمين فصاحب فرقة. ومُلاقو ربهم، صيغة تصلح لماضي الزمان والحاضر وهم ملاقون ربهم في المستقبل. ولكن القوم لتحقيقهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا كأن الوعدَ لهم تَقَرَّرَ، والغيب لهم حضور.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْنَئِ بِإِشْرَائِيلَ أَذْكُرُوا بِنِعْمَةِ آلِي أَنَّمَتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أشهد بني إسرائيل فضل أنفسهم فقال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وأشهد المسلمين من أمة محمد ﷺ فضل نفسه فقال: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحِمَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

فشتان بين مَنْ مشهوده فضل نفسه، وبين مَنْ مشهوده فضل ربه؛ فشهود العبد فضل نفسه يوجب له الشكر وهو خطر الإعجاب، وشهود العبد فضل الحق - الذي هو جلاله في وصفه وجماله في استحقاق نعته - يقتضي الشاء وهو يوجب الإيجاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

العوام خوْفهم بأفعاله فقال: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ «واتقوا النار».

والخواص خوْفهم بصفاته فقال: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١].

وخاص الخاص خوْفهم بنفسه فقال: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨].
والعدل: الفداء.

يوم القيامة لا تسمع الشفاعة إلا لمن أمر الحق بالشفاعة له، وأذن فيه، فهو الشفيع الأكبر - على التحقيق - وإن كان لا يطلق عليه لفظ الشفيع لعدم التوقيف. وفي معناه قيل:

الحمد لله شكرا فكل خير لـديه
صار الحبيب شفيعاً إلى شفيع إليه

والذين أصابتهم نكبة القسمة لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وما لهم من ناصرين،

فلا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ، وَلَوْ افْتَدَوْا بِمِلْءِ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءِ الْأَرْضِينَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ بَغَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

من صبر في الله على بلاء أعدائه عوضه الله صحبة أوليائه، وأتاح له جميل عطائه؛ فهو لاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم، وجعلهم ملوكاً، وآتاهم ما لم يؤث أحداً من العالمين. ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: قيل نعمة عظيمة وقيل محنة شديدة. وفي الحقيقة ما كان من الله - في الظاهر - محنة فهو - في الحقيقة لمن عرفه - نعمة ومِنَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمَجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾.

تقاصرت بصائر بني إسرائيل فأراهم المعجزات عياناً، ونفذت بصائر هذه الأمة فكاشفهم بآياته سرّاً، وبذلك جرت سُنُّهُ سبحانه، وكل من كان أشحذً بصيرةً كان الأمر عليه أغمض، والإشارات معه أوفر، قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً»^(١).

وحين شاهدوا ظاهر تلك الآيات من فلق البحر وإغراق آل فرعون - دَاخَلَهُمْ رَيْبٌ؛ فقالوا: إنه لم يغرق حتى قذفهم البحر، فنظر بنو إسرائيل إليهم وهم مغرّقون. وهذه الأمة لفظ تصديقهم لرسول الله ﷺ وعلى آله، وقوة بصائرهم (أن) قال واحد من أفتاء^(٢) الناس: «كأنني بأهل الجنة يتزاورون وكأنني بأهل النار يتعاوون وكأنني أنظر عرش ربي بارزاً»^(٣) فشتان بين من يُعَايِن فيرتاب مع عيانه، وبين مَنْ يَسْمَعُ فكالعيان حاله من قوة إيمانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (المساجد ٧، ٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٠٥، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١)، وابن كثير في (التفسير ٧٢/٤)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ١١٣/٧)، والبيهقي في (دلائل النبوة ١/١٤)، وسعيد بن منصور في (السنن ٢٨٦٢)، وابن أبي شيبه في (المصنف ١١/٤٨٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢٠٦٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/١٤ - ٣٠٨).

(٢) أفتاء وفتاء: (ج) فتى: وهو الشاب من إنسان أو حيوان.

(٣) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١/٥٧)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/٢٣٨ - ٢٨٠)، والعقبلي في (الضعفاء ٤/٤٥٥).

شَتَان بين أمة وأمة؛ فأمة موسى عليه السلام - غاب نبئهم عليه السلام أربعين يوماً فاتخذوا العِجْلَ معبودهم، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً، فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى قَسِي﴾ [طه: ٨٨] وأمة محمد المصطفى ﷺ مضى من وقت نبئهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر في وصف معبودهم ما يوجب تشبيهاً لما أَبْقَوْا على حشاشتهم^(١) ولو كان في ذلك ذهاب أرواحهم.

ويقال إن موسى - صلوات الله عليه - سلم أتمته إلى أخيه فقال: اخلفني في قومي، وحين رجع وجدهم وقعوا في الفتنة، ونبئنا - صلوات الله عليه - توكل على الله فلم يُشِرْ على أحدٍ في أمر الأمة وكان يقول في آخر حاله: الرفيق الأعلى. فانظر كيف تولَّى الحق رعاية أتمته في حفظ التوحيد عليهم. لعمرى يُضَيِّعون حدودهم ولكن لا يتقصون توحيدهم. قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

سرعة العفو على عظيم الجُرم تدل على حقارة قدرة المعفو عنه، يشهد لذلك قوله تعالى: (مخاطباً أمهات المسلمين): ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ يَضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] هؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد ﷺ): ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨].

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فرقان هذه الأمة الذي اخْتَصَّصُوا به نور في قلوبهم، به يُفَرِّقُونَ بين الحق والباطل، قال النبي ﷺ لوابصة: «استفت قلبك»^(٢).

وقال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(٣).

وقال الله تعالى: ﴿إِنْ تَنَفَّوْا اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وذلك الفرقان ميراث ما قدّموه من الإحسان.

(١) الحشاشة: رمق الحياة، وبقية الروح في المريض والجريح (ج) حشاشات.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ١٣١ - ١٦٠، ٤٢/ ٧ - ٤٢ - ٦٠ - ٢٩٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧) وأبو حنيفة في (المسند ١/ ١٨٩) وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٩٤/ ٤، ١١٨/ ٦) والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ١٢١) (والبغوي ١٤/ ٣١) وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٩، ٤/ ٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٤٤، ٧/ ٢٥٩) وابن حجر في (فتح الباري ١٢/ ٣٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٣٠) وابن حجر في (لسان الميزان ٥/ ١١٥٤) وصاحب ميزان الاعتدال (٨٠٩٨) والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٢) والسيوطي في (الدار المشرقة ٤/ ١٠٣) والعقبلي في (الضعفاء ٤/ ١٢٩).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْوُجُوهَ﴾.

أي ما أضررتكم إلا بأنفسكم فيما ارتكبتم من ذنوبكم، فأما الحق سبحانه فعزير الوصف، لا يعود إلى عزه من ظلم الظالمين شيء، ومن وافق هواه وأتبع مناه فعجله ما علّق به همه، وأفرد له قصده.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَوَوُّا إِلَى بَارِيكُمْ﴾.

الإشارة إلى حقيقة التوبة بالخروج إلى الله بالكلية.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

التوبة بقتل النفوس غير (...)^(١) إلا أن بني إسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جهراً، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم في أنفسهم سرّاً، فأوّل قَدَمٍ في القصد إلى الله الخروج عن النفس.

فصل: ولقد توهم الناس أن توبة بني إسرائيل كانت أشق، ولا كما توهموا؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة، وأما أهل الخصوص من هذه (الأمة)^(٢) ففي كل لحظة قتل، ولهذا:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
وقتل النفس في الحقيقة التبري عن حولها وقوتها أو شهود شيء منها، ورد دعاها إليها، وتشويش تدبيرها عليها، وتسليم الأمور إلى الحق - سبحانه - بجملتها، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها، وانمحاء آثار البشرية عنها، فأما بقاء الرسوم والهيكل فلا خطر له ولا عبرة به.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

كونه لكم عنكم أنتم من كونكم لأنفسكم:

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَتُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ فَاخِذْكُمْ الصَّنُوعَةُ وَاسْتَرْعَوْهُمْ﴾.

التعرض بمطالعة الذات على غير نعمة إلهية إفصاح بتزك الحزمة، وذلك من أمارات البعد والشقوة.

وإثبات نعت التولي بمكاشفات العزة مقروناً بملاطفات القربة من علامات الوصلة ودلالات السعادة.

(٢) يقصد أنه محمد (ﷺ).

(١) بياض في الأصل.

فلا جَزَمَ لما أطلقوا لسان الجهل بتقوية ترك الحشمة أخذتهم الرجفة والصعقة .
قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لِمَلَكٍ تَشْكُرُونَ﴾ .

أعادهم إلى حال الإحساس بعد ما استوفتهم سطوات العذاب إملاء لهم بمقتضى الحكم، وإجراء للسنة في الصفح عن الجُرم، ومن قضايا الكرم إسبال الستر على هنات الخدم .

قوله جل ذكره: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

لما طرحهم في متاهات الغربة لم يرَضَ إلا بأن ظلَّلَهُم، ولبسة الكفایات جَلَّلَهُم، وعن تكلف التكسب أغناهم، وبجميل صنعه فيما احتاجوا إليه تولأهم؛ فلا شعورهم كانت تطول، ولا أظفارهم كانت تنبت، ولا ثيابهم كانت تسيخ، ولا شعاع الشمس عليهم كان ينبسط . وكذلك سُنَّته لمن حال بينه وبين اختياره، يكون ما يختاره سبحانه له خيراً مما يختاره لنفسه .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

(...) (١) بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يؤمرون، حتى قاله أوصوا بحفظها فَبَدَّلُوهَا، وحالة من السجود أمروا بأن يدخلوا عليها فحَوَّلُوهَا، وعَرَضُوا أَنفُسَهُمْ لِسَهَامِ الْغَيْبِ . ثم لم يطبقوا الإصابة بقرعها، وتعرضوا المفاجآت العقوبة فلم يشبثوا عند صدمات وقيها . قوله جل ذكره: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

لم يمكنهم أن يردوا باب السماء باحتياهم، أو يصدوا من دونهم أسباب البلاء بما ركنوا إليه من أحوالهم، فزعوا من الندم لما عضهم ناب الألم، وهيهات أن ينفعهم ذلك لأنه محال من الحساب .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِيبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْفُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

إن الذي قدر على إخراج الماء من الصخرة الصماء كان قادراً على إروائهم بغير ماء ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه، وإيصال محل الاستغاثة إليه، وليكون على موسى

(١) بياض في الأصل .

عليه السلام - أيضاً في نقل الحجر - مع نفسه شغل، ولتكليفه أن يضرب بالعصا مقاساة نوع من معالجة ما أمضى حكمه عند استسقاؤه لقومه^(١).

ثم أراد الحق سبحانه أن يكون كل قوم جارياً على سُنَّةٍ، ملازماً لحَدِّه، غير مُزَاجِمٍ لصاحبه فأفرد لكل سبطة علامة يعرفون بها مشربهم، فهؤلاء لا يَرُدُّون مشرب الآخرين، والآخرين لا يَرُدُّون مشرب الأولين.

وحين كفاهم ما طلبوا أمرهم بالشكر، وحَفِظَ الأمر، وتَزَكَّى اختيار الوزر، فقال:

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

والمناهل مختلفة، والمشارب متفاوتة، وكلُّ يَرِدَ مَشْرَبٍ فمَشْرَبٌ عَذْبٌ فُرَاتٍ، ومَشْرَبٌ مِلْحٌ أَجَاجٌ^(٢)، ومَشْرَبٌ صَافٍ زَلَالٍ، ومَشْرَبٌ رَتَقٌ أَوْشَالٌ^(٣). وسائقُ كُلِّ قومٍ يقودهم، ورائدُ كُلِّ طائفةٍ يسوقهم؛ فالنفوس تَرِدُ مناهلَ المنى والشهوات، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعات، والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات، والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمرسومات، ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك في حقيقة الوجود والذات.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُؤْمِنُونَ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُوا لَنَا رِزْقًا يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا ثَمَّنْتُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَقَلِهِمْ وَقَشَائِهِمْ وَفُومِهِمْ وَعَدَسِيَّهَا وَيَصْلِيَّهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا مِنْهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِنَا اللَّهُ يَقُولُ إِنَّ الَّذِينَ بَدَّلُوا لَكُمْ ذَلِكَ مَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

لم يرضوا بحسن اختياره لهم، ولم يصبروا على قيامه بتولي ما كان يَهْمُهُمْ من كفاية مأكولهم وملبوسهم، فنزلوا في التحير إلى ما جرت عليه عاداتهم من أكل الخسيس من الطعام، والرضا بالدون من الحال، فردَّهم إلى مقاساة الهوان، وربطهم بإدامة الخذلان، حتى سفكوا دماء الأنبياء وهتكوا حرمة الأمر بِقِلَّةِ الاستحياء، وتَزَكَّى الاروعاء، فعاقبهم على قبيح فعالهم، وردَّهم إلى ما اختاره لأنفسهم من خسائس أحوالهم، وحين لم تنجح فيهم النصيحة، أدركتهم النقرة والفضيحة. ويقال كان بنو إسرائيل متفرقي الهموم مُشْتَبِي القصود؛ لم يرضوا لأنفسهم بطعام واحد، ولم يكتفوا في تدينهم بمعبود واحد، حتى قالوا لموسى عليه السلام - لَمَّا رَأَوْا قَوْمًا يَعْبُدُونَ الصَّنَمَ - يا موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم

(١) انظر مذهب القشيري في التوكل في الرسالة القشيرية ص ١٦٢، ١٧٣.

(٢) الأجاج: الشديد الملوحة أو المرارة.

(٣) الأوشال: (ج) الوشل: الماء القليل الذي يتحلب من صخرة أو جبل يقطر قليلاً قليلاً ولا يتصل قطره.

إله، وهكذا صفة أرباب التفرقة. والصبر مع الواحد شديد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مِّنْ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول، فمن صدق الحق سبحانه في آياته، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته، فتباين الشرع واختلاف وقوع الاسم غير قادح في استحقاق الرضوان، لذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ ثم قال: ﴿مِّنْ ءَامَنٍ مِنْهُمْ﴾. أي إذا اتفقوا في المعارف فالكُلُّ لهم حُسْنُ الْمَآبِ، وجزيل الثواب. والمؤمن مَنْ كان في أمان الحق سبحانه، وَمَنْ كان في أمانه - سبحانه وتعالى - فبالحرى ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَّادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أخذ سبحانه ميثاق جميع المُكَلَّفِينَ، ولكن قوماً أجابوا طوعاً لأنه تعرف إليهم فوَّخَدُوهُ وقوماً أجابوه كرهاً لأنه ستر عليهم فجحدوه، ولا حُجَّة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور - وهو الجبل - ولكن عَدِمُوا نورَ البصيرة، فلا ينفعهم عيان البصر. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي رجعتُم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان، ولولا حكمه بإمهاله، وجَلَّمَهُ بأفضاله لتعاجلكم بالعقوبة، وأحلَّ عليكم عظيم المصيبة ولخسرت صفقتكم بالكُليَّة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي النَّبْتِ فَعَلْنَا لَهُمْ كُونًا قَرْدَةً خَاسِرِينَ﴾.

منح هذه الأمة حصل على القلوب، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما ألزموا به من الشرع - عجلت عقوبتهم بالخسف والمسخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النص، فهذه الأمة مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ ورفض الحدِّ عوقبت بمسخ القلوب، وتبديل الأحوال، قال تعالى: ﴿وَنَقْلُبُ أَقْسَامَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس، وفي معناه أنشدوا:

يا سائلي: كيف كنتَ بَعْدَهُ؟ لقيتُ ما ساءني وسرَّه
ما زلت أختال في وِصالي حتى أمنت من الزمانِ مَكْرَه^(١)

(١) هذا البيت مضطرب صحيح ليستقيم المعنى والوزن.

طال علي الصدود حتى لم يُبْقِ مما شهدت ذرّه
قوله جل ذكره: ﴿جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

هكذا من مُني بالهجران، ووُسِم بالخذلان؛ صارت أحواله عبرة، وتجرّع - من ملاحظته لحاله - عليه الحسرة، وصار المسكين - بعد عزّه لكلّ خسيس سُخرة. هكذا آثار سُخط الملوك وإعراض السادة عن الأصاغر:

وقد أحدق الصبيان بي وتجمعوا عليّ وأشلوا بالكلاب وراثيا
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً﴾.

كان الواجب عليهم استقبال الأمر بالاعتناق ولكنهم تعللوا ببقاء الأشكال توهمًا بأن يكون لهم (...) (١) تفضي بالإخلاق إلى الاعتدال (٢) عن عهدة الإلزام فتضاعفت عليهم المشقة وحل بهم ما حذروه من الافتضاح.

فصل: ولما قال: ﴿إِنَّمَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي ليست بفتية ولا مُسِنَّة بل هي بين السنتين. حصلت الإشارة أن الذي يصلح لهذه الطريقة من لا يستهويه نزع (٣) الشباب وسُكره، ولم يُعطله عجز المشيب وضعفه، بل هو صاح استفاق عن سُكره، وبقيت له - بعد - نضارة من عمره.

قوله جل ذكره: ﴿صَفَرَاءَ فَافِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

كما كان يأخذ لونها الأَبصار فالإشارة منها أن من كان من أهل القصة يستغرق شاهده القلوب لما ألبس من رداء الجبروت، وأقيم به من شاهد الغيب حتى أن من لاحظَه تناسى أحوال البشرية واستولى عليه ذكر الحق، كذا في الخبر المنقول: «أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله» (٤) (...) (٥).

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَوْتَ مَسْلَمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا اتَّخَذَ الْفَنِّ حِجَّتَ بِالْحَقِّ فَذَبُّوْهَا وَمَا كَادُوا بِفَعْلَوَاتٍ﴾.

كما أن تلك البقرة لم يذللها العمل، ولم تُبْتَذَل في المكاسب، لا لون فيها يخالف عظم لونها فالإشارة منه أن أهل الولاية الذين لم يتبدلوا بالأغيار لتحصيل ما طلبوا من الأسباب، ولم يركنوا بقلوبهم إلى الأشكال والأمثال، ولم يتكلوا على

(١) بياض في الأصل.

(٢) الاعتدال: الرجوع عن الشيء.

(٣) الآية (٦٩) غير موجودة.

(٤) أخرجه الألباني في (السلسلة الصحيحة ١٧٣٣).

(٥) بياض في الأصل.

الاختيار والاحتيايل، وليسوا نهياً لمطالبات المني، ولا صيداً في مخلب الدنيا، ولا حكم للشهوات عليهم، ولا سلطان للبشرية تملكهم، ولم يسعوا قط في تحصيل مرادهم، ولم يشقوا لدرك بُغيتهم، وليس عليهم رقم الأغيار، ولا سبحة الأسباب - فهُمْ قانمون بالله، فانون عما سوى الله، بل هم محو، مُضَرَّفُهُم الله. والغالب - على قلوبهم - الله.

وكما أن معبودهم الله كذلك مقصودهم الله.

وكما أن مقصودهم الله كذلك مشهودهم الله، وموجودهم الله، بل هم محو بالله و (...)^(١) عنهم الله، وأنشد قائلهم:

إذا شئت أن أرضى وترضى وتملكي زمامي - ما عشنا معاً - وعناني
إذن فارمقي الدنيا بعيني واسمعي بأذني وانطقي بلساني

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا أَإِنَّ جَنَّةَ يَالْحَقِّ فَدَّجُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

طلبوا الحيلة ما أمكنهم فلما ضاقت بهم الحيل استسلموا للحكم فتخلصوا من شدائد المطالبات، ولو أنهم فعلوا ما أمروا به لما تضاعفت عليهم المشاق.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَةَ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

الخائن خائف، ولخشية أن يظهر سره يركن إلى التلبيس والتدليس، والإنكار والجحود ولا محالة ينكشف عواره، وتتضح أسرارُه، وتهتك عن شين فعله أستاؤه. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِعِصْيَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُزَيِّدُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أراد الله سبحانه أن يحيي ميتهم ليفضح بالشهادة على قاتله فأمر بقتل حيوان لهم فجعل سبب حياة مقتلهم قتل حيوان لهم، صارت الإشارة منه:

أن من أراد حياة قلبه لا يصل إليه إلا بذبح نفسه؛ فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حيي قلبه بأنوار المشاهدات، وكذلك من أراد الله حياة ذكوره في الأبدال أمان في الدنيا ذكره بالخمول.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

بَيَّنَّ أَنَّهُمْ - وإن شاهدوا عظيم الآيات وطالعوا واضح البينات - فحين لم تساعداهم العناية ولم يخلق الله (لهم) الهداية، لم تزداهم كثرة الآيات إلا قسوة، ولم تبرز لهم من مكامن التقدير إلا شقوة (على شقوة، وشبه قلوبهم بالحجارة لأنها لا تثبت ولا تزكو، وكذلك قلوبهم لا تفهم، ولا تغنى. ثم بيَّن أنها أشد (...))^(١) من الحجارة، فإنَّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، ومنها ما تظهر عليه آثار خشية الله^(٢)، وأما قلوبهم فخالية عن كل خير، وكيف لا وقد مُنِيَتْ بإعراض الحق عنها، وُخِصَّت بانتزاع الخيرات منها.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحَقُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أنباهم عن إيمانهم، وذكر أنهم بعد سماع الخطاب من الله - سبحانه - حرَّفوا وبذلوا فكيف يؤمنون لكم وإنما يسمعون بواسطة الرسالة، ومن لم يبقَ على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان، والذي لم يصلح للحق لا يصلح لكم، ومن لم (يحتشم من الحق) فكيف يحتشم منكم؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضِهمْ إِلَىٰ بَعْضِهمْ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ، عِنْدَ رَبِّكُم أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾.

تواصوا فيما بينهم بإنكار الحق، وإخفاء الحال على المسلمين، ولم يعلموا أن الله يُطْلِعُ رسوله عليه السلام على أسرارهم، وأن نوراً أظهره الغيب لا ينطفئ بمزاولة الأغيار. وموافقة اللسان مع مخالفة العقيدة لا يزيد إلا زيادة الفُرقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَنْظُنُونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أخبر أنهم متفاوتون في نقائص كفرهم، فقومٌ منهم أحسنُ درجةً وأكثرُ جهلاً ركنوا إلى التقليد، ولم يملكهم استيلاء شبهة بل اغتروا بظنٍّ وتخمين، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها، دون معرفة معانيها. ومنهم من أكثر شأنه ما يتمناه في نفسه، ولا يساعده إيمان، ولا لظنونه قط تحقيق. ثم أخبر عن سوء عاقبتهم بقوله جل ذكره:

(١) بياض في الأصل.

(٢) هنا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ آيْدِيَهُمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

أي خَسِرُوا في الحال والمآل، والإشارة في هذه الآية لمن عَدِمَ الإخلاص في الصحبة في طريق الحق؛ يَنْضَمُّ إلى الأولياء ظاهراً ثم لا تَصْدُقُ له إرادة فهو مع أهل الغفلة مُصَاحِب، وله مع هذه الطريقة جانب، كلما دَعَتْهُ هوائف الحظوظ تَسَارَعُ إلى الإجابة طوعاً، وإذا قادت دواعي الحق - سبحانه - بتكلف شيئاً، فَبُشِتِ الحالة حين لم يخلص، وما أشد ندمه فيما ادَّخَرَ عن الله ثم لا يُفْلَح.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية لمن مرت على قلبه دعاواه العريضة، وغلب عليه حسبانته، فحكم لنفسه - لفرط غفلته - بأنه من أهل القصة وَيَخْلُدُ إلى هواجس مناه، فيحكم على الغيب بأنه يُتَجَاوَز عنه؛ نَسِيَ قبائح ما أسلفه، ويذكر مغاليط ما ظنَّه، فهو عَبْدٌ نَفْسِهِ يغلب عليه حسن ظنه، وفي الحقيقة تعثره نتائج غفلته ومكره، قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَاصْبِرْهُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَكِينَةً وَأَخْلَصَ فِيهَا خَلِيلًا فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الذي أحاطت به خطيئته هو الكافر - على لسان العلم.

ولكن الإشارة منه إلى مَنْ سَكَنَ قلبه على استغاثاته على وجه الدوام، فإن أصحاب الحقائق كالحب على المَقْلَى - في أوقات صحوهم، فَمَنْ سَكَنَ فَلَفَرَطُ عَزَّتِهِ - لا يفترُونَ^(١).

وَمَنْ استند إلى طاعة يتوسَّلُ بها وَيَظُنُّ أنه يقرب بها ينبغي أن يتباعد عن السكون إليها وَمَنْ تَحَقَّقَ بالتوحيد عِلْمَ ألا وسيلة إليه إلا به.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

في الحال جنان الوصل

.....

.....

(٢)

.....

(١) من الفترة انظر الرسالة القشيرية ص ٣٨١.

(٢) بياض في الأصل. والآية (٨٣، ٨٤) لم يرد لهما ذكر.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسَكُمُ وَنُحْرِجُونَ قَرِيبًا مِّنْ دِينِكُمْ تَبْتَغُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

... أضرابكم وقرنائكم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، الإشارة فيه أن نصرتكم لإخوانكم على ما فيه بلاؤهم نصره عليهم بما فيه شقاؤهم، فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمُ اسْتَرَىٰ تُقَدُّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

أي كما تراعون - بالفداء عنهم - حقوقهم، فكذلك يُفترض عليكم كف أيديكم عنهم، وترك إزعاجهم عن أوطانهم، فإذا قُمتم ببعض ما يجب عليكم فما الذي يقعدكم عن الباقي، حتى تقوموا به كما أمرتم؟ أما علمتم أن من فرق بين ما أمر به فأمن ببعض وكفر ببعض فقط حبط - بما ضيعه - أجر ما عمله.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ إِلْفِيكُمُ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي ظنوا أن ما فعلوه نفعمهم، فانكشف لهم في الآخرة أن جميع ما فعلوه - لما مزجوه بالآفات وجردوه عن الصدق والإخلاص - غير مقبول منهم.

والأسراء أصناف: فَمِنْ أُسِيرَ غَرِقَ فِي بحار الهوى فإنقاذه بأن تدله على الهدى. وَمِنْ أُسِيرَ بَقِيَ فِي أيدي الوسواس فافتداؤه أن ترشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنتقذه من الشك والتخمين، وتخرجه عن ظلمات التقليد فيما تقوده إلى اليقين. ومن أُسِيرَ تجده في أسر هواجسه استأسرته غاغة نفسه، ففك أسره بأن تدله على شهود الجن، يتبرّيه عن حساب كل حَوْلٍ يَخْلُقِ وَغَيْر. ومن أُسِيرَ تجده في ربيعة ذاته ففك أسره إنشاده إلى إقلاعه، وإنجاده على ارتداعه. ومن أُسِيرَ تجده في أسر صفاته ففك أسره أن تدله على الحق بما يحل عليه من وثائق الكون، ومن أُسِيرَ تجده في قبضة الحق فتحبره أنه ليس لأسرائهم فداء، ولا لقتلاهم عود، ولا لربيطهم خلاص، ولا عنهم بُدْ، ولا إليهم سبيل، ولا مِنْ دونهم حيلة، ولا مع سيواهم راحة، ولا لحكمهم رُدْ.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

إن الذين آثروا عليه شيئاً خسروا في الدنيا والآخرة كما قالوا:

أَنَسَاسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا بَلَا جُزْمَ وَلَا مَعْنَى
فَإِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَغْنَوْا فَإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَى

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

الإشارة: أوصلنا لهم الخطاب، وأردفنا رسولا بعد رسول، والجميع دعوا إلى واحد. ولكنهم أضغوا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى، فما استلذته النفوس قبلوه، وما استقلته أهواؤهم جحدوه، فإذا كان الهوى صفتهم ثم عبدوه، صارت للمعبود صفات العابد، فلا جزم الويل لهم ثم الويل!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

لو كان منهم شيء بمجرد الدعوى لهان وجود المعاني، ولكن عند مطالبات التحقيق تفتّر أنياب المتلبسين عن أسنان شاحذة بل (١) وقيل:

إذا انسكبت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

الإشارة فيه لمن عزم على الصفاء، ووعد من نفسه تحقيق الوفاء، ونشر أعلام النشاط عند البروز إلى القتال، تنادى بالنزال وصدق القتال - انهدم عند التفات الصفوف، وانجزل عن الجملة خشية هجوم المحذور، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

قوله جل ذكره: ﴿بَشَرًا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَوْضِيلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَصِيٍّ عَلَى عَصِيٍّ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

أنزلهم التحاسد عن مقر العز إلى حضيض الخزي (٢)، وسامهم ذل الصغر حين لم يرضوا بمقتضى الحكم، فأضافوا استيجاب مقتب أنف إلى استحقاق مقتب سالف.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزْمِنُ بِنَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا رُكُودَاتٍ بِنَا وَرَأَاهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَلْيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الإشارة فيه: إذا قيل لهم حققوا ما أظهرتم من حكم الوفاق بتحقيق الحال

(١) بياض في الأصل.

(٢) الحضيض: ما سفلى من الأرض. والخزي: الذل والهوان والفضيحة.

وإقامة البرهان سَمَحَتْ نفوسُهم ببعض ما التبس عندهم لما يوافق أهواءهم، ثم يكفرون بما وراء حظوظهم، (.....) ^(١) بعداً عن زمرة الخواص، غير معدودين في جملة أرباب الاختصاص.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

أي دعاكم إلى التوحيد، وإفراد المعبود عن كل معبود ومحدود، ولكنكم لم تجنحوا إلا إلى عبادة ما يليق بكم من عجل اتخذتموه، وصنم تمنيتموه. فرفع ذلك من بين أيديهم، ولكن بقيت آثاره في قلوبهم وقلوب أعقابهم، ولذلك يقول أكثر اليهود بالتشبيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

كرّر الإخبار عن غلوهم في حبّ العجل، ونُبُوهم عن قبول الحق، و (.....) ^(١) وتعريفهم معاجلتهم بالعقوبة على ما يسيئون من العمل، فلا النصح نجع فيهم، ولا العقوبة أوجبت إقلاعهم عن معاصيهم، ولا بالذم فيهم احتفلوا، ولا بموجب الأمر عملوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

من علامات الاشتياق تمنى الموت على بساط العوافي؛ فمن وثق بأن له الجنة قطعاً - فلا محالة - يشاق إليها، ولما لم يتمنوا الموت - وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوه أبداً - صار هذا التعريف معجزة للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال.

وفي هذا بشارة للمؤمنين الذين يشاقون إلى الموت أنهم مغفور لهم، ولا يرزقهم الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة، وقديماً قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء. قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنَجْذِثُنَّ عَنْهُمْ الْقُرْصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمُ الْوَيْلَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَخَذْتُم

(١) بياض في الأصل.

لَوْ يَعْلَمُ أَلْفَ سَكَّةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَّجٍ، مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يَعْلَمَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾.

حُبُّ الحياة في الدنيا نتيجة الغفلة عن الله، وأشد منه غفلة أحبهم للبقاء في الدنيا.. وحال المؤمن من هذا على الضد. وأما أهل الغفلة وأصحاب التهلكة فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم بما فقدوا فيها من طاعتهم؛ فالعبد الآبِقُ ^(١) لا يريد رجوعاً إلى سيِّده. والانقلاب إلى مَنْ هو خيرُهُ مَرَجُوْ خَيْرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَنْ شَرُّهُ غيرُ مأمون، ثم إن امتداد العمر مع يقين الموت (لا قيمة له) إذا فاجأ الأمر وانقطع العُمْرُ. وكلُّ ما هو آتٍ فقريب، وإذا انقضت المدة فلا مردَّ لهجوم الأجل على أكتاف الأمل.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾.

زعمت اليهود أن جبريل لا يأتي بالخير، وأنهم لا يحبونه، ولو كان ميكائيل لكانوا آمنوا به، فأكذبهم الحق سبحانه فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ لأنه لا يأتي بالخير فأى خير أعظم مما نزل به من القرآن؟!!

ثم قال إن مَنْ عادى جبريل وميكائيل فإن الله عدو له؛ فإنَّ رسولَ الحبيبِ إلى الحبيبِ العزيزِ المَورِد - كريمَ المنزلة، عظيم الشرف. وما ضرَّت جبريل - عليه السلام - عداوة الكفار، والحق سبحانه وتعالى وليُّه، وَمَنْ عادى جبريلَ فالحقُّ عدوُّه، وما أعزَّز بهذا الشرف وما أجَلَّه! وما أكبر علوه!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لم يكفر بواضح آياته إلا من سُدَّتْ عن الإدراك بصائرُهُ، وسبقت من الله بالشقاوة قِسْمَتُهُ، ولا عقل لمن يجحد أنَّ النهارَ نهار، وكذلك لا وُضِلَ لمن لم تساعده من الحق أنوارٌ واستبصار. أو كَلَّمَا عاهدوا عهداً سابقَ التقدير لهم كان يشوْش عليهم، وينقض عَهْدَهُمْ لاجئُ التدبير منهم، والله غالبٌ على أمره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) الآبِق: الهارب من مالكة.

جحدوا رُسُلَ الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر، وكذبوا رسلهم الذين أتوهم في الظاهر، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان! ويا حرماناً قَارَنَهُ خِذلان!

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا هُنَّ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾.

مَنْ فَرَّقَتْهُ الأَهواء وقع في كل مطرح من مطارح الغفلة، فيستقبله كل جنس من قضايا الجهالة، ثم إن مَنْ طالت به الغيبة صار للناس عِبرة، ولمَنْ سلك طريقة فتنة، فمن اقتدى به في غيِّه انخرط في سِلْكِهِ، والتحق بجنسه، هكذا صفة هاروت وماروت^(١) فيما استقبلهما، صارا للخلق فتنة بل عبرة، فَمَنْ أَصغى إلى قيلهما، ولم يعتبر بجهلهما تعلق به بلاؤهما، وأصابه في الآخرة عناؤهما.

والإشارة من قصتهما إلى مَنْ مَالَ في هذه الطريقة إلى تمويه وتلبيس، وإظهار دعوى بتدليس، فهو يستهوي مَنْ اتَّبعه، ويلقيه في جهنم بباطله، (.....)^(٢).

ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهكت أستاذه، وظهر لذوي البصائر عوارزه. وإن هاروت وماروت لما اغترَّا بحاصل ما اعتاده من المعصية بَسَطَا لسان الملامة في عُصاة بني آدم، فَلَمَّا رُكِبَ فيهما من نوازع الشهوات، ودواعي الفتن والآفات، اقتحما في العصيان، وظهر منهما ما انتشر ذِكْرُهُ على ألسنة القصاص، وهما مُتَكَسِّبان إلى يوم القيامة ولولا الرفق بهما وبشأنهما لَمَا انتهى في التيامة عذابهما، ولكنَّ لطفَ الله مع الكافة كثيرٌ. وَلَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ عَلِمَ أهل التحصيل أن العلم بكل معلوم - وإن كان صفة مدح - ففيه غير مرغوب فيه، بل هو مستعاذ منه قال النبي ﷺ: «أعوذ بك من علم لا ينفع»^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

لو علم المغبونُ ماذا أبقي وماذا أبلى لتقطعت أحشاؤه حسراتٍ، ولكن سيعلم: ﴿يَوْمَ تَكُلُ الْأَرْكَامُ﴾ [الطارق: ٩] الذي فاته من الكرائم.

(١) هاروت وماروت: ملكان هبطا ببابل فعَلِمَا الناس السحر.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال ٤١١٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٢٧/١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ولو آثروا الإقبال على الله على اشتغالهم عن الله، لحصلوا دُخْر الدارين، ووصلوا إلى عِزِّ الكَوْنَيْنِ، ولكن كَبَسَتْهُمْ سطوات القهر، فأثبَّتْهُمْ في مواطن الهجر.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قصودُ الأعداء في جميع أحوالهم - من أعمالهم وأقوالهم - قصودُ خبيثة؛ فهم - على مناهجهم - يبنون فيما يأتون ويَذَرُونَ. فسيبُلُ الأولياء التَّحرُّرُ عن مشابِهِتهم، والأخذ في طريق غير طريقهم.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

كراهية الأعداء لانتظام صلاح الأولياء متصلة مُستدامة، ولكن الحسود لا يسود، ولا يحصل له مقصود. وخصائص الرحمة للأولياء كافية - وإن زَعَمَ مِنَ الأعداء أَفَّاكَ أنه انهدمت من أوطان فرحهم أكناف وأطراف.

قوله جل ذكره: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

النسخُ الإزالة أي ما ينقلك من حال إلى ما هي فوقها وأعلى منها، فَنُصْنُ وَضْلِكَ أبدأ ناضر، ونجمُ عِزِّكَ أبدأ ظاهر، فلا ننسخُ من آثار العبادَةِ شيئاً إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية، ولا نسحنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أعمار العبودية^(١).

فأبدأ سِرُّكَ في الترقى، وقدرك في الزيادة بحسن التَّوَلَّى.

وقيل ما رَفَّكَ عن محل العبودية إلا سَلَكَكَ بساحات الحرية، وما رَفَعَ شيئاً من صفات البشرية إلا أقامك بشاهدٍ من شواهد الألوهية.

(١) قال القشيري في حديثه عن العبودية برسالته: العبادَةُ للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص والعبودية (الطاعة والاسترقاق) لخواص الخواص. العبادَةُ لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودية لمن له حق اليقين، والعبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابذات، والعبودية صفة أهل المشاهدات. (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص ١٩٧).

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

سُنَّتُهُ - سبحانه - أن يجذب أوليائه عن شهود مُلْكِهِ إلى رؤية مُلْكِهِ، ثم يأخذهم من مُطالعة مُلْكِهِ إلى شهود حَقِّهِ، فيأخذهم من رؤية آياته إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى شهود ذاته.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

إن بني إسرائيل آذوا موسى عليه السلام، فنهى المسلمون عن فعل ما أسلفوه، وأُمروا بمراعاة أن حشمة الرسول ﷺ بغاية ما يتسع في الإمكان. فكانوا بحضرته كأن على رؤوسهم الطير. قال تعالى: ﴿وَتَعَزَّزُوا وَثَوَّقُوا﴾ [الفتح: ٩] وحسن الأدب - في الظاهر - عنوان حسن الأدب مع الله في الباطن.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

مَنْ لِحِقَّةُ خسران الفهم من أصحاب الغفلة ودَّ ألا يطلع لأحدٍ بالسلامة نجم، ومن اعتراه الحسد أراد ألا تنبسط على محسوده شمس.

وكذلك كانت صفات الكفار، فأرغم الله أنفهم، وكبهم على وجوههم.

والإشارة من هذا إلى حال أصحاب الإرادة في البداية إذا رغبوا في السلوك، فمن لم يساعده التوفيق (في الصلابة، وعاشر أناساً مترسّمين بالظواهر)^(١) فإنهم يمشعون هؤلاء من السلوك ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصيح، والتخويف بالعجز والتهديد بالفقر حتى ينقلوهم إلى سبيل الغفلة، ويقطعوا عليهم طريق الإرادة، أولئك أعداء الله حقاً، أدركهم مقت الوقت. وعقوبتهم حرمانهم من أن يشموا شيئاً من روائح الصدق.

﴿فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا﴾ فسيل المريد أن يحفظ عن الأغيار سرّه، ويستعمل مع كل أحد ضلّة، ويبدل في الطلب رفعة، فعن قريب يفتح الحق عليه طريقه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١) ما بين قوسين صحح لكي يتضح المعنى طبقاً مع وصايا القشيري للمريدين في رسالته ص ٣٧٨.

الواجب على المرید إقامة المواصلات، وإدامة التوسل بفنون القربات، واثقاً بأن ما يقدمه من صدق المجاهدات تُدرك ثمرته في أواخر الحالات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

كلّ حزبٍ يُمهّد الأمل لنفسه، ويظنّ النجاة لحاله، ويدعي الوسل^(١) من سهمه. ولكن مجرد الحسابان دون تحقق البرهان لا يأتي بحاصل، ولا يجوز بطائل.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أسلم وجهه أي أخلص لله قصده، وأفرد الله وجهه، وطهر عن الشوائب عقله. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. عالمٌ بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله، وهو محسن في المآل كما أنه مسلم في الحال.

ويقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» فتكون مستسلماً بظاهرك، مشاهداً بسرّاترك، في الظاهر جهد وسجود وفي الباطن كشف ووجود.

ويقال: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ بالتزام الطاعات، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ قائم بأداب الخدمة بحسن آداب الحضور، فهؤلاء ليس عليهم خوف الهجر، ولا يلحقهم خفي المكر، فلا الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية على العكس من حكم الظاهر؛ فالأعداء يتبرأ بعضهم من بعض اليوم، والأولياء من وجه كذلك، ولذا قالوا: لا زالت الصوفية بخبر ما تنافروا، ولا يُقبل بعضهم بعضاً لأنه لو قبل بعضهم بعضاً بقي بعضهم مع بعض.

لكن الأعداء كلهم على الباطل: عند تَبَرُّي بعضهم من بعض أمّا الأولياء فكلهم على الحق - وهذه ما ذكرنا من حكم العكس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمُي فِي خَرَابٍ أُولَٰئِكَ مَا

(١) الوسل: من الوسيلة أي ما يتقرب به إلى الشيء، أو الوسيلة إلى الله سبحانه ما يوصل إلى ثوابه وذلك بفعل الطاعات وترك المعاصي.

كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِيَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٣﴾.

الإشارة فيه أن الظالم مَنْ خَرَّبَ أوطان العباداة بالشهوات، وأوطان العباداة نفوس العابدين. وخَرَّبَ أوطان المعرفة بالمُنَى والعلاقات، وأوطان المعرفة قلوب العارفين. وخَرَّبَ أوطان المحبة بالحطوط والمساكنات، وهي أرواح الواجدين. وخَرَّبَ أوطان المشاهدات بالانفتات إلى القربات وهي أسرار الموحدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

لأهل الإشارة خزي الدنيا بذل الحجاب، وعذاب الآخرة الامتناع بالدرجات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

الإشارة منها إلى مشارق القلوب ومغاربها. وللقلوب شوارق وطوارق. وطوارقها هواجس النفوس تطرق في ظلمات المنى والشهوات.

وشوارقها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس المعارف.

فما دامت الشوارق طالعة فقبيلة القلوب، واضحة ظاهرة، فإذا استولت الحقائق خَفَى سلطان الشوارق، كالنجوم تستتر عند طلوع الشمس، كذلك عند ظهور الحق يحصل اضطلام وقهر، فلا شهود رسم، ولا بقاء جسّ وفهم، ولا سلطان عقل وعلم، ولا ضياء عرفان. فإن وجدان^(١) هذه الجملة صفات لائقة ببقاء البشرية، وإذا صار الموصوف محوًّا فأئى لهم ببقاء الصفة.

قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ما دام يبقى من الإحساس والتمييز بقية - ولو شظية - فالقبيلة مقصودة، فإن لم تكن معلومة تكون مطلوبة. وعلى لسان العلم إذا اشتبهت الدلائل بكل وجهه، ولا معرفة بالقبيلة تساوت الجهات في جواز الصلاة إلى كل واحد منها إذا لم يكن للنية ترجيح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾.

مَكَرَ بِهِمْ لَمْ يُفْنِهِمْ - من الإفناء - في الحال، بل جعل هوهب اغترارهم طول الإمهال، فنطقوا بعظيم الفرية على الله، واستنبطوا عجيب الجزية في وصف الله، فوصفوه بالولد! وأئى بالولد وهو أحدي الذات؟! لا حدّ له، ولا تجوز المشهوه في صفاته.

(١) القشيري يفضل استعمال لفظة (الوجود) بمعناها الدقيق (التواحد بداية، والوجود نهاية، والوجد واسطة بين البداية والنهية). (الرسالة القشيرية ص ٦٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَكُمْ قَيْنُونَ﴾.

أي ليس في الكون شيء من الآثار المفتقرة أو الأعيان المستقلة إلا وتنادي عليه آثار الجِلْفَةِ، وتفصح منه شواهد الفطرة، وكل صامت منها ناطق، وعلى وحدانيته - سبحانه - دليل وشاهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

البديع عند العلماء مُوجِدُ العين لا على مثل، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مثله. فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته، ونفي المثل عن أفعاله، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه، والصمد الذي لا أمدّ يقطعه، والحق الذي لا وهم يصوره، والموجود الذي لا فهم يقدره. وإذا قضى أمراً فلا يعارض عليه مقدور، ولا ينفك من حكمه محذور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

كلام الله سبحانه متعلق بجميع المخلوقات بأعيانها وآثارها، وأمر التكوين (يتناول المكلفين وأفعال المكلفين)، لكن من عدم سمع الفهم تصامم عن استماع الحق، فإنه - سبحانه - خاطب قوماً من أهل الكتاب، وأسمعهم خطابه، فلم يطبقوا سماعه، وبعدما رأوا من عظيم الآيات حرّفوا وبدّلوا. وفي الآيات التي أظهرها ما يزيح العِلَّةَ من الأغيار، ويشفي العِلَّةَ من الأخيار، ولكن ما تُغني الدلائل - وإن وُضِّحَتْ - عن حُجَّتْ لهم الشقاوة وسبقت؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُنْتَلِ عَنِ أَهْصَابِ الْجَحِيمِ﴾.

أفردناك بخصائص لم نُظهِرْها على غيرك؛ فالجمهور والكافة تحت لوائك، والمقبول من وافقك، والمردود من خالفك، وليس عليك من أحوال الأغيار سؤال، ولا عنك لأحد (...)^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَن رَّضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

لا تبال برضاء الأعداء بعد ما حصل لك رضانا، فإنهم لا يرضون عنك إلا بمتابعة أديانهم، ودون ذلك لهم حظ القتال فأغلبن التبري منهم، وأظهر الخلاف

(١) بياض في الأصل.

معهم، وانصب العداوة لهم، وأعلم أن مساكنتهم إلى ما يرضون سبب الشقاوة المؤبدة، فاحرص ألا يخطر ذلك ببالك، وادع - إلى البراءة عنهم وعن طريقتهم - أُمَّتَكَ، وَكُنْ بِنَا لَنَا، مُتَّبِعِيَّا عَمَّنْ سَوَانَا، وَاثْقَا بِنَصْرَتِنَا، فَإِنَّكَ بِنَا وَلَنَا.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبُ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ﴾.

الذين فتحنا أبصارهم بشهود حقنا وَكَلَّمْنَا أَسْمَاعَ قُلُوبِهِمْ بِسْمَاعِ خُطَابِنَا، وَخَصَصْنَاهُمْ بِإِسْبَالِ نُورِ الْعِنَايَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَيَّدْنَاهُمْ بِتَحْقِيقِ التَّعْرِيفِ فِي أَسْرَارِهِمْ، يَقُومُونَ بِحَقِّ التَّلَاوَةِ، وَيَتَصَفُّونَ بِخُصَائِصِ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ فَهُمْ أَهْلُ التَّخْصِيسِ، وَمَنْ سِوَاهُمْ أَصْحَابُ الرَّدِّ.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْقَى إِلَهكُمُ اللَّهُ يَذْكُرُ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ وَرَآيَ فَخْلَكُمُ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

جرت سُنتُهُ - سبحانه - في الخطاب مع قوم موسى عليه السلام أن يناديهم بنداء العلامة فيقول: يا بني إسرائيل اذكروا، أي يا بني يعقوب، ومنع هذه الأمة أن يخاطبهم بنداء الكرامة فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنفُتُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أَمَّا الْأَعْدَاءُ فَلَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَقَالَ ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»^(١)، والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين فهذا حكم كل أمة مع نبيها، وأما المؤمنون - فعلى التخصيص - تنفعهم شفاعة نبيهم ﷺ.

وكلُّ أحدٍ يقول يومئذٍ نفسي نفسي ونبيُّنا ﷺ يقول: «أمتي أمتي»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في (صحيحه ١٢٦/٢، ٢٤/٤، ٨/٨ - ١٤٠ - ١٤٤، ١٨١/٩)، ومسلم في (صحيحه الزكاة ٢٨) والهيثم في (مجمع الزوائد ١٠٥/٣، ١٠٦) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٨٩ - ١٥٩٣٩ - ١٦٠٨٨) والسيوطي في (الدر المنثور ٣٥٥/١، ٣٨٢/٦)، والمعجلوني في (كشف الخفاء ٤٣/١) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٤٣٣/١، ٢٧٤/٥) وصاحب ميزان الاعتدال (٦٤٥ - ١٠٦٨ - ٩٥٨٠)، وابن حجر في (اللسان الميزان ١٠٨٩/٢، ٩٤٢/٦) (أستار ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٦، ٩٣٧) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٧٠/١٠، ٢٦١/٦) وابن السني في (عمل اليوم والليلة ٣١٥) والعقيلي في (الضعفاء ٢/٢١٥، ٢٢/٤، ١٢٢، ٤٥٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢٨٢/١) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٥١٠/٤)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦٤/٥) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٨٧/١٠) وابن حجر في (فتح الباري ٤٢٨/١١، ٤٤٣) وابن أبي عاصم في (السنة ٣٨٠/٢) وابن أبي شيبة في (المصنف ٣١/١١). وقد وقع الناسخ في خطأ حين نقلها «كل عهد يقول...» والصواب ما ورد في رسالة القشيري قال: =

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ .

البلاء تحقيق الولاء، فأصدقهم ولاءً أشدّهم بلاءً .

ولقد ابتلى الحق - سبحانه - خليله عليه السلام بما فرض عليه وشرع له، فقام بشرط وجوبها، ووُفّي بحكم مقتضاها، فأثنى عليه سبحانه بقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] - من التوفية - أي لم يُقَصِّر بوجه ألبته .

يقال حملّه أعباء النبوة، وطالبه بأحكام الخلّة، وأشدّ بلاء له كان قيامه بشرائط الخلّة، والانفراد له بالتجافي عن كل واحد وكل شيء، فقام بتصحيح ذلك مختلياً عن جميع ما سواه، سراً وعلناً .

كذلك لم يلاحظ جبريل عليه السلام حين تعرض له وهو يُقذف في لُجة الهلاك، فقال: هل من حاجة؟ فقال: أمّا إليك... فلا .

ومن كمال بلائه تعرض جبريل عليه السلام في تلك الحالة، وأي بقية كانت بقيت له منه حتى يكون لمخلوق فيه مساعٍ كائناً من كان؟! .

وفي هذا إشارة دقيقة إلى الفرق بين حال نبينا ﷺ وحال إبراهيم عليه السلام، لأنه تعرض جبريل للخليل وعَرَضَ عليه نفسه:

فقال: أمّا إليك... فلا . ولم يُطَقْ جبريل صحبة النبي ﷺ فنطق بلسان العجز وقال:

لو دُثِرْتُ أنملة^(١) لاحتَرَقْتُ .

وشتان بين حالة يكون فيها جبريل عليه السلام من قُوّته بحيث يعرض للخليل عليه السلام نفسه، وبين حالة يعترف للحبيب - صلوات الله عليه - فيها بعجزه .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وَإِذْ جَعَلْنَا آلِ إِبْرَاهِيمَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْثًا﴾ .

الإمام مَنْ يُقْتَدَى به، وقد حَقَّقَ له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالافتداء به فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أي اتبعوا ملة إبراهيم يعني التوحيد، وقال: ﴿وَأَخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَوْصِلًا﴾ .

هذا هو تحقيق الإمامة . ورتبة الإمامة أن يُفْهَمَ عن الحق ثم يُفْهَمَ الخلق؛ فيكون

= سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: لا يكون كمال هذا الخلق إلا لرسول الله ﷺ فإن كل واحد يوم القيامة يقول: نفسي نفسي، ونبينا ﷺ يقول: أمّتي أمّتي . (الرسالة القشيرية ٢٢٦) .

(١) الأنملة: رأس الإصبع أو المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر (ج) أنامل وأنملات .

واسطة بين الحق والخلق، يكون بظاهره مع الخلق لا يفتر عن تبليغ الرسالة، وبياطنه مشاهداً للحق، لا يتغير له صفاء الحالة، ويقول للخلق ما يقوله له الحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

نطق بمقتضى الشفقة عليهم، فطلب لهم ما أكرم به. فأخبره أن ذلك ليس باستحقاق نسب، أو باستيجاب سبب، وإنما هي أقسام مضت بها أحكام فقال له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وليس هذا كنعيم الدنيا وسعة الأرزاق فيها، فهي لا ادخار لها عن أحد وإن كان كافراً، ولذلك قال جل ذكره: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُم مِّنْ أَمْنٍ مِّنْهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فقال الله تعالى: ﴿وَمِن كَفَرٍ قَلِيلًا﴾.

يعني ليس للدنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفار، ولكن عهدي لا يناله إلا من اخترته من خواص عبادي.

أمّا الطعام والشراب فغير ممنوع من أحد.

أمّا الإسلام والمحاب فغير مبذول لكل أحد.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا﴾.

واذكر يا محمد حين جعلنا البيت - يعني الكعبة - مثابة للناس إليه يثوبون، ومأمناً لهم إليه يرجعون، وإياه من كل نحو يقصدون.

هو بيت خلقته من الحجر ولكن أضفته إلى الأزل؛ فمن نظر إلى البيت بعين الخلقة انفصل، ومن نظر إليه بعين الإضافة وصل واتصل، وكل من التجأ إلى ذلك البيت آمن من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤه على جهة الإعظام والاحترام، والتوبة عن الآثام.

ويقال بُني البيت من الحجر لكنه حجر يجذب القلوب كحجر المغناطيس يجذب الحديد.

بيت من وقع عليه ظلّه أناخ بعقوة^(١) الأمن.

بيت من وقع عليه طرّفه بُشّر بتحقيق الغفران.

بيت من طاف حوله طافت اللطائف بقلبه، فطوّفة بطوفة، وشوطة بشوطة وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

(١) العقوة: الساحة وما حول الدار والمحلة. (لسان العرب ٧٩/١٥).

بَيْتٌ مَا خَسِرَ مَنْ أَنْفَقَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ مَالَهُ .

بَيْتٌ مَا رِبِحَ مَنْ ضَنَّ عَلَيْهِ بَشِيءٌ؛ مَنْ زَارَهُ نَسِيَ مَزَارَهُ، وَهَجَرَ دِيَارَهُ .

بَيْتٌ لَا تُسْتَبَعَدُ إِلَيْهِ الْمَسَافَةُ، بَيْتٌ لَا تُتْرَكُ زيارته لحصول مخافة، أو هجوم آفة،
بَيْتٌ لَيْسَ لَهُ بِمَهْجَةِ الْفُقَرَاءِ آفَةٌ .

بَيْتٌ مَنْ قَعَدَ عَنْ زيارته فَلَعَدَمِ قُوَّتِهِ، أَوْ لِقَلَّةِ مَحَبَّتِهِ .

بَيْتٌ مَنْ صَبَرَ عَنْهُ فَقَلْبُهُ أَقْسَى مِنَ الْحِجْرَةِ . بَيْتٌ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ شِعَاعُ أَنْوَارِهِ
تَسَلَّى عَنْ شُمُوسِهِ وَأَقْمَارِهِ .

بَيْتٌ لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ بَقِيَ (عنه) ^(١) كَيْفَ يَصْبِرُ، إِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ حَضَرَهُ كَيْفَ
يَرْجِعُ !

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ بُرْهَنِهِمْ مُصَلًّى﴾ .

عَبْدٌ رَفَعَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ قَدَمًا فِإِلَى الْقِيَامَةِ جَعَلَ أَثَرَ قَدَمِهِ قِبْلَةً لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ إِكْرَامًا
لَا مَدَى لَهُ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ بُرْهَنِهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا يَبْقَىٰ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ . .

الْأَمْرُ فِي الظَّاهِرِ بِتَطْهِيرِ الْبَيْتِ، وَالْإِشَارَةُ مِنَ الْآيَةِ إِلَىٰ تَطْهِيرِ الْقَلْبِ .

وَتَطْهِيرِ الْبَيْتِ بِصُورَتِهِ عَنِ الْإِنْسَانِ وَالْأَوْضَارِ، وَتَطْهِيرِ الْقَلْبِ بِحِفْظِهِ عَنْ مِلَاحِظَةِ
الْأَجْنَاسِ وَالْأَغْيَارِ .

وَطَوَافُ الْحِجَاجِ حَوْلَ الْبَيْتِ مَعْلُومٌ بِلِسَانِ الشَّرْعِ، وَطَوَافُ الْمَعَانِي مَعْلُومٌ لِأَهْلِ
الْحَقِّ؛ فَقُلُوبُ الْعَارِفِينَ الْمَعَانِي فِيهَا طَائِفَةٌ، وَقُلُوبُ الْمُوَحِّدِينَ الْحَقَائِقُ فِيهَا عَاكِفَةٌ،
فَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ التَّلْوِينِ ^(٢) وَهَؤُلَاءِ أَرْبَابُ التَّمْكِينِ .

وَقُلُوبُ الْقَاصِدِينَ بِمِلَازِمَةِ الْخُضُوعِ عَلَىٰ بَابِ الْجُودِ أَبَدًا وَاقِفَةٌ .

(١) مَا بَيْنَ قَوْسَيْنِ زِيَادَةٌ يَقْتَضِيهَا السِّيَاقُ .

(٢) قَالَ الْقَشِيرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ التَّلْوِينِ وَالتَّمْكِينِ: التَّلْوِينُ صِفَةُ أَرْبَابِ الْأَحْوَالِ وَالتَّمْكِينُ
صِفَةُ أَهْلِ الْحَقَائِقِ فَمَا دَامَ الْعَبْدُ فِي الطَّرِيقِ فَهُوَ صَاحِبُ تَلْوِينٍ لِأَنَّهُ يَرْتَقِي مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ وَيَنْتَقِلُ
مِنْ وَصْفٍ إِلَىٰ وَصْفٍ وَيَخْرُجُ مِنْ مَرَحِلٍ وَيَحْصِلُ فِي مَرِيعٍ فَلِذَا وَصَلَ تَمَكَّنَ وَصَاحِبُ التَّلْوِينِ دَائِمًا
فِي الزِّيَارَةِ وَصَاحِبُ التَّمْكِينِ قَدْ وَصَلَ ثُمَّ اتَّصَلَ، وَأَمَارَةٌ أَنَّهُ اتَّصَلَ أَنَّهُ بِالْكَلِيَّةِ عَنْ كَلِيَّتِهِ بَطَلَ وَاعْلَمْ
أَنَّ التَّغْيِيرَ بِمَا يَرِدُ عَلَىٰ الْعَبْدِ يَكُونُ لِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ إِمَّا لِقُوَّةِ الْوَارِدِ أَوْ لَضَعْفِ صَاحِبِهِ وَالسَّكُونُ مِنْ
صَاحِبِهِ لِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ إِمَّا لِقُوَّتِهِ أَوْ لَضَعْفِ الْوَارِدِ عَلَيْهِ . (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٧٨، ٧٩) .

وقلوب الموحدين على بساط الوصل أبداً راحة .

وقلوب الواجدین على بساط القرآن أبداً ساجدة .

ويقال صواعد نوازع الطالبين بباب الكرم أبداً واقفة، وسوامي قصود المريدين بمشهد الجود أبداً طائفة، ووفود همم العارفين بحضرة العز أبداً عاكفة . .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ .

السؤال إذا لم يكن مشوباً بحظ العبد كان مستجاباً، ولم يكن سؤال إبراهيم هذا لحظ نفسه، وإنما كان لحق ربه عز وجل .

ولما حفظ شرط الأدب طلب الرزق لمن آمن منهم على الخصوص أجيب فيهم وفي الذين لم يؤمنوا . ولما قال في حديث الإمامة: «ومن ذُرِّيَّتِي» من غير إذن مُنِعَ وقيل له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

نَجَّحُ السَّوْأَلُ فِي صَدَقِ الْإِبْتِهَالِ؛ فَلَمَّا فَرَعَا إِلَى الْخُضُوعِ فِي الدَّعَاءِ أَتَاهُمَا الْمَدَدُ، وَتَحْقِيقُ السَّوْأَلِ .

﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالنا .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

«مسلمين»: منقادين لحكمك حتى لا يتحرك منا عرق بغير رضاك، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك لتقوم بعدنا مقامنا في القيام بحقوقك، وشتان بين من يطلب وارثاً لماله، وبين من يطلب نائباً بعده يقوم بطاعته في أحواله .

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ إذ لا سبيل إلى معرفة الموافقات إلا بطريق التوفيق والإعلام .

﴿وتب علينا﴾: بعد قيامنا بجميع ما أمرتنا حتى لا نلاحظ حركاتنا وسكناتنا، ونرجع إليه عن شهود أفعالنا لئلا يكون خطر الشرك الخفي في توهم شيء منا بنا .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

إن الواجبات لما كانت من قبيل الرسل دون مجرد المعقول سأل ألا يتركهم سُدى، وألا يخليهم عن رسول وشرع . وطلب في ذلك الموقف أن يكون الرسول

«منهم» ليكونوا أَسْكَنَ إليه وَأَسْهَلَ عليهم، ويصحُّ أن يكون معناه أنه لما عَرَفَهُ - سبحانه - حالَ نَبِيِّنا ﷺ سأل إنجاز ما وعده على الوجه الذي به (أمره).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أخبر أنه أثر الخليل صلوات الله عليه على البرية، فجعل الدين دينه، والتوحيد شعاره والمعرفة صفته؛ فمن رَغِبَ عن دينه أو حاد عن سُنَّتِهِ فالباطل مطرحة، والكفر مهواه؛ إذ ليست الأنوار بجملتها إلا مقتبسة من نوره.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الإسلام هو الإخلاص وهو الاستسلام، وحقيقته الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من منازعات الاختيار ومعارضات النفس، قال: ﴿أسلمت لرب العالمين﴾: قابلت الأمر بالسمع والطاعة، واعتنقت الحكم على حسب الاستطاعة. ولم يدخل شيئاً من ماله وبدنه وولده، وحين أُمِرَ بذبح الولد قصد الذبح، وحين قال له خلّه من الأسر (عمل) ما أُمِرَ به، فلم يكن له في الحالين «اختيار» ولا تدبير.

ويقال إن قوله: ﴿أسلمتُ﴾: ليس بدعوى من قبله لأن حقيقة الإسلام إنما هو التبري من الحول والقوة، فإذا قال: ﴿أسلمتُ﴾ فكأنه قال أقمّني فيما كلفتنني، وحقق مني ما به أمرتني. فهو أحوال الأمر عليه، لا لإظهار معنى أو ضمان شيء من قبل نفسه.

ويقال أمره بأن يستأثر بمطالبات القدرة؛ فإن من حلّ في الخلّة محلّه يحل به - لا محالة - ما حلّ به.

ويُسألُها هنا سؤال فيقال: كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿أسلمتُ﴾ ولم يَقُلْ نَبِيُّنا ﷺ حينما قيل له اعلم «علمت»؟.

والجواب عن ذلك من وجوه: منها أن النبي ﷺ قال «أنا أعلمكم بالله»^(١) ولكن لم يرد بعده شرع فكان يخبر عنه بأنه قال علمت.

ويقال إن الله سبحانه أخبر عن الرسول عليه السلام بقوله: ﴿آمن الرسول﴾ لأن الإيمان هو العلم بالله سبحانه وتعالى، وقول الحق وإخباره عنه أتم من إخباره - عليه السلام - عن نفسه.

والآخر أن إبراهيم لما أخبر بقوله: ﴿أسلمتُ﴾ اقترنت به البلوى، ونبيّنا - ﷺ - يتحرز عما عو صورة الدعوى فَحُفِظَ وَكُفِيَ.

(١) أخرجه ابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) (١٣٩).

والآخر أن إبراهيم عليه السلام أُمِرَ بما يجرى مجرى الأفعال، فإن الاستسلام به إليه يشير. ونبينا ﷺ أُمِرَ بالعلم، (ولطائف العلم أقسام).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِبَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أخبر أن إبراهيم عليه السلام وصّى بنيه، وكذلك يعقوب عليه السلام قال لبنيه لا يصيبنكم الموت إلا وأنتم بوصف الإسلام. فشرائعهم - وإن اختلفت في الأفعال - فالأصل واحد، ومشرب التوحيد لا ثاني - له في التقسيم - وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ إشارة بما تقوي به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يعينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ﴾.

جروا كلهم - صلوات الله عليهم - على منهاج واحد في التوحيد والإسلام، وتوارثوا ذلك خَلَفًا عن سَلَفٍ، فهم أهل بيت الزلفة، ومستحقو القربة، والمُطَهَّرُونَ من قِبَلِ اللَّهِ - على الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

لم يقولوا إلها مراعاة لخصوصية قُذَرِه، حيث سلموا له المزية، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طُيعَ له بقولهم ﴿ونحن له مسلمون﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

أنزل الحق - سبحانه - كُلاًّ بمحلّه، وأفرد لكل واحدٍ قُذراً بموجب حكمه، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر، ولا بما خَصَّ به كل طائفة إلى آخرين أثر، وكلٌّ في إقليمه مَلِكٌ، ولكلٍ يدور بالسعادة فَلَكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

معناه إذا تجاذبتك الفِرَق، واختلفت عليك المطالبات بالموافقة، فاحكم بتقابل دعاواهم، وأزِد من توجهك إلينا، جارياً على منهاج الخليل عليه السلام في اعتزال الجملة، سواء كان أباه، أو كان ممن لا يوافق مولاه، ولذا قال ﴿وَاَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] للحق بالحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

لما آمن نبينا ﷺ بجميع ما أنزل من قبله أكرم جميع ما أكرمّه من قبله، فلما أظهر موافقة الجميع أمر الكل بالكون تحت لوائه فقال: «أدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»^(١).

ولما آمنت أمته بجميع ما أنزل الله على رسله، ولم يفرقوا بين أحد فهم ضربوا في التكريم بالسهم الأعلى فتقدموا على كافة الأمم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نُؤَلِّقُ فِئَمًا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَبِّئِكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

إن سلكوا طريقتم، وأخذوا بسبيلكم، أكرموا بما أكرمتم، ووصلوا إلى ما وصلتتم، وإن أبوا إلا امتيازاً أبينا إلا هوانهم، فإن نظّرنا لمن خدمك يا محمد بالوصلة، وأعراضنا عمن بآيتك وخالفك (...) (٢)، من خالفك فهو في شق الأعداء، ومن خدمك فهو في شق الأولياء.

﴿فسيكفيكم الله وهو السميع العليم﴾: كفاية الله متحققة لأن عناية الله بكم متعلقة، فمن نابذكم قصمته أيادي النصره، ومن خالفكم قهرته قضايا القسمة، وهو السميع لمناجاة أسراركم معنا على وصف الدوام، العليم باستحقاقكم (منا) خصائص اللطف والإكرام.

قوله جلّ ذكره: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾.

معناه الزموا صبغة الله، فهو نصب بإضمار فعل.

والإشارة أن العبرة بما وضع الحق لا بما جمع العبد، فما يتكلفه الخلق فيالي الزوال ماله، وما أثبت الحق عليه الفطرة فيإثباته العبرة.

(١) أخرجه العجلوني في (تشف الخفاء ١/١٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/٣٠١).

(٢) بياض في الأصل.

وللقلوب صبغة وللأرواح صبغة وللأسرار صبغة وللظواهر صبغة. صبغة الأشباح والظواهر بأثار التوفيق، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَتَمَّاجُوتُنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلُصُوا﴾.

كيف تصحُّ حاجة الأجانب وهم تحت غطاء الغيبة، وفي ظلال الحجة. والأولياء في ضياء الكشف وظَّهر الشهود؟

ومتى يستوي حال من هو بنعت الإفلاس بِغَيْبَتِهِ مع حال من هو حكم الاختصاص والإخلاص لانغراقه في قُرْبَتِهِ؟ هيهات لا سواء!

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ اللَّهُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ نَظَرَ مِنْ نَفْسِهِ إِلَى الْخَلْقِ يَتَخَيَّلُ كُلَّ بَرَقَةٍ، وبحسب الجميع بنعت مثله؛ فلما كانوا بحكم الأجنبيَّة حَكَمَ الأنبياء - عليهم السلام - بمثل حالتهم، فردَّ الحقُّ - سبحانه - عليهم ظَنَّهُمْ و (...) (١) فيهم رأيهم. وهل يكون المجذوب عن شاهده كالمحجوب في شاهده؟ وهل يتساوى المختطف عن كُله بالمردود إلى مثله؟ ذلك ظن الذين كفروا فتعسَّأ لهم!

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

حالت بينكم وبينهم حواجز من القِسْمَةِ؛ فهم على الفُرقة والغفلة أسسوا بنيانهم، وأنتم على الزلفة والوصلة ضربتم خيامكم. وعتيق (٢) فضلنا لا يشبه طريد قهرنا.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدْتُمْ عَن قِبَلِهِمْ آلِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾.

سقمت بصائر الكفار فلم يُلْخ لهم وجه الصواب في جميع أحوال المؤمنين، فطالعوها بعين الاستقباح، وانطلقت ألسنتهم بالاعتراض في كل ما كان ويكون منهم، فلم يروا شيئاً جديداً إلا أَوَّأ عليه باعتراض جديد.

(٢) العتيق: الحر أو الكريم.

(١) بياض في الأصل.

فمن ذلك تغير أمر القبلة حينما حُولَتْ إلى الكعبة قالوا إن كانت قبلتهم حقاً فما الذي ولأهم عنها؟ فقال جل ذكره:

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ مُسْتَقِيمٌ﴾.

يتعبد العباد إلى أي قطر و (.. .) ^(١) ونحو شاؤوا، وكذلك أصحاب الغيبة والخجبة - عن شهود تصريف الحق لأوليائه - يطلبون وجوهاً من الأمر، يحملون عليها أحوالهم، ولو طالعا الجميع من عين واحدة لتخلصوا عن ألم تورع الفكر، وشغل ترجم خاطر، ومطالبات تقسم الظنون، ولكن الله يهدي لنوره من شاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

الوسط الخيار، فجعل هذه الأمة خيار الأمم، وجعل هذه الطائفة خيار هذه الأمة فهم خيار الخيار. فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة فهذه الطائفة هم الأصول، وعليهم المدار، وهم القطب، وبهم يحفظ الله جميع الأمة، وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول، ومن رذته قبولهم فهو المردود. فالحكم الصادق لفراستهم، والصحيح حكمهم، والصائب نظرهم عصم جميع الأمة (عن) الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة عن الخطأ في النظر والحكم، والقبول والرد، ثم إن بناء أمرهم مستند إلى سنة الرسول ﷺ. وكل ما لا يكون فيه اقتداء بالرسول عليه السلام فهو عليه رد، وصاحبه على لا شيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

بيّن أن الحكم في تقرير أمر القبلة إلى وقت التحويل، وتحويلها من وقت التبديل كان اختباراً لهم من الحق لتمييز الصادق من المارق، ومن نظر إلى الأم بعين التفرقة لكبر عليه أمر التحويل، ومن نظر بعين الحقيقة ظهرت لبصيرته وجوه الصواب. ثم قال: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي من كان مع الله في جميع الأحوال على قلب واحد فالمختلفات من الأحوال له واحدة، فسواء غير أو قرّر، وأثبت أو بدّل، وحقق أو حوّل فهم به له في جميع الأحوال، قال قائلهم:

(١) بياض في الأصل.

كيفما دارت الزجاجة دُزنا يحسب الجاهلون أننا جُنُنًا
فإن قابلوا شرقاً أو واجهوا غرباً، وإن استقبلوا حجراً أو قاربوا مدرأً، فمقصود
قلوبهم واحد، وما كان للواحد فحكمُ الجميع فيه واحد.
قوله جل ذكره: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

حَفِظَ - صلوات الله عليه - الآداب حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمناه من أمر
القبلة بقلبه، فلاحظ السماء لأنها طريق جبريل عليه السلام، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ
نَرَى ثَقَلَبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي علمنا سؤلك عما لم تُفصِّح عنه بلسان الدعاء،
فلقد غيرنا القبلة لأجلك، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب.
كل العبيد يجتهدون في طلب رضائي وأنا أطلب رضاك ﴿فلنولينك قبلة
ترضاها﴾ ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: ولكن لا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِالْأَحْجَارِ
وَالْآثَارِ، وَأَفِرِدْ قَلْبَكَ لِي، وَلَتَكُنِ الْقِبْلَةُ مَقْصُودَ نَفْسِكَ، وَالْحَقُّ مَشْهُودَ قَلْبِكَ، وَحَيْثَمَا
كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، وَلَكِنْ أَخْلِصُوا قُلُوبَكُمْ لِي وَأَفِرِدُوا شَهَادَتَكُمْ
بِي.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَكْتُبْ لِيَعْمَلُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ﴾

ولكنه علم لا يكون عليهم حجة، ولا تكون لهم فيه راحة أو منه زيادة، ﴿وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ تهويلاً على الأعداء، وتأميلاً على الأولياء.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا أَتَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَكْتُبْ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ
بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

سبق لكم من قديم الحكم (...) (١) انفراداً بطريق الحق، ووقوع أعدائكم في
شق البُعد، فبينكما برزخ لا يبغيان، فما هم بتابعي قبلتكم وإن أريتهم من الآثار ما هو
أظهر من الشمس والأقمار، ولا أنت - بتابعي قبلتهم وإن أتوا بكل احتيال، حُكماً من
الله - سبحانه - بذلك في سابق الأزل.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتُبْ يَفْرُقُونَهُمْ كَمَا يَفْرُقُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ قَرِيْقًا مِنْهُمْ
لَيَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْمَلُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

حَمَلْتَهُمْ مُسْتَكِنَاتٍ الْحَسِدَ عَلَى مَكَابِرِهِ مَا عَلِمُوهُ بِالْأَضْطِرَارِ، فَكَذَلِكَ الْمَغْلُوبُ فِي ظِلْمَاتِ نَفْسِهِ، أَلْقَى جَلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِ مَلَأَمٌ، وَلَمْ يَزِدْغِهِ عَنْ انْهِمَاكِهِ كَلَامٌ.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

أي بعدما طلعت لك شمس اليقين فلا تدأ عن إلى مجوزات التخمين. والخطاب له والمراد به الأمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٌ مَوْ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الإشارة منه: أن كل قوم اشتغلوا عنا بشيء حال بينهم وبيننا، فكونوا أنتم أيها المؤمنون لنا وبناء، وأنشد بعضهم:

إذا الأشغال ألّهوني عنك بشغليهم جعلتك أشغالي فألستني شغلي

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

كما تستقبلون أينما كنتم القبلة - قُرْبُكُمْ مِنْهَا أَمْ بَعْدُكُمْ - فكذلك أَقْبِلُوا عَلَيْنَا بقلوبكم كيفما كنتم؛ خطيتم منا أو مُيْتَم.

قوله جل ذكره: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيل، ولا يقع لمخلوق عليك ظل، ولا تصل إليك بالسوء يد، فحيثما كنت وأينما كنت وكيفما كنت كن لنا وكُنْ مِنَّا، فَإِنَّ مِنْ انْقِطَع إِلَيْنَا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ حَدَثَانٌ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

إذا كانوا محوا عن كونهم رسوماً تجري عليهم أحكامنا - فأنتي بالخشية منهم؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّائِمَةِ نَفْسِي عَلَيْكُمْ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

إتمام النعمة إضافة الكشف إلى اللطف، فإن من كفاه بمقتضى جوده دون من أغناه بحق وجوده، وفي معناه أنشدوا:

نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه - يا أهل وُدِّي - أنكم غيبٌ ونحن الحُضُور

قوله جل ذكره: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

إرسال الرسول مفاتحة لأبواب الوصول، فكان في سابق علمه - سبحانه - أن قلوب أوليائه متعطشة إلى لقاءه. ولا سبيل لأحد إليه إلا بواسطة الرسل؛ فأقوام ألزمهم - بإرسال الرسل إليهم - الكُلف، وآخرون أكرمهم - بإرسال الرسل إليهم - بفنون القرب والرُف، وشتان بين قوم وقوم!

قوله جل ذكره: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

الذكر استغراق الذاكر في شهود المذكور، ثم استهلاكه في وجود المذكور، حتى لا يبقى منك أثر يذكر، فيقال قد كان مرة فلان.

﴿فاذكروني أذكركم﴾ أي كونوا مستهلكين في وجودنا، نذكركم بعد فنائكم عنكم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِبِينَ﴾ [الذاريات: ١٦] كانوا وقتاً ولكنهم بانوا دائماً^(١):

أناس حديث حسن فكن حديثاً حسناً لمن وعنى^(٢)

وطريقة أهل العبارة ﴿فاذكروني﴾ بالموافقات ﴿أذكركم﴾ بالكرامات، وطريقة أهل الإشارة ﴿فاذكروني﴾ بتذك كل حظ ﴿أذكركم﴾ بأن أقيمكم بحقي بعد فنائكم عنكم.

﴿فاذكروني﴾ مكتفين بي عن عطائي وأفضالي ﴿أذكركم﴾ راضياً بكم دون أفعالكم.

﴿فاذكروني﴾ بذكري لكم ما تذكرون، ولولا سابق ذكري لما كان لاحق ذكركم.

﴿فاذكروني﴾ بقطع العلائق ﴿أذكركم﴾ بنعوت الحقائق.

ويقال اذكروني لكل مَنْ لَقِيْتَهُ أَذْكُرْكَ لِمَنْ خَاطَبْتَهُ، «فمن ذكرني في مَلاذ ذكركه في مَلاذ خير منهم»^(٣).

ويقال ﴿واشكروني﴾ على عظيم المنة عليكم بأن قُلْتُ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

ويقال الشكر من قبيل الذكر، وقوله: ﴿ولا تكفرون﴾ النهي عن الكفران أمرٌ بالشكر، والشكر ذكر، فكرر عليك الأمر بالذكر، والثلاث أول حد الكثرة، والأمر بالذكر الكثير أمر بالمحبة لأن في الخبر: «من أحب شيئاً أكثر ذكره» فهذا - في الحقيقة - أمر بالمحبة أي أُخْبِنِي أَحْبَكَ؛ ﴿فاذكروني أذكركم﴾ أي أحبوني أحبيكم.

ويقال: ﴿فاذكروني﴾ بالتذلل ﴿أذكركم﴾ بالتفضل.

(١) قال القشيري في رسالته: سُئل يحيى بن معاذ عن العارف فقال: رجل كائن بائن، وقال مرة: كان فبان. (الرسالة القشيرية ص ٣١٧).

(٢) البيت مضطرب.

(٣) أخرجه البخاري (توحيد ١٥)، والترمذي (دعاء ١٣١)، وأحمد بن حنبل ٢/٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥، ٤١٣، ٤٨٠، ٤٨٢، ٣/١٣٨.

﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بالانكسار ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بالمبار .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ باللسان ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بالجنان .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بقلوبكم ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بتحقيق مطلوبكم .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ على الباب من حيث الخدمة ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بالإيجاب على بساط
 القرية بإكمال النعمة .

﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بتصفية السر ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بتوفية البر .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بالجهد والعناء ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بالجود والعطاء .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بوصف السلامة ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ يوم القيامة يوم لا تنفع الندامة .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بالرهبة ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بتحقيق الرغبة .
 قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .
 استعينوا بالصبر على الصلاة أي بصبركم - عند جريان أحكام الحق عليكم -
 استحقاقكم صلاة ربكم عليكم، ولذا فإنه تعالى بعد ﴿وبشر الصابرين﴾ يقول:
 ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ .
 ويقال استوجب الصابرون نهاية الذخر، وعلو القدر حيث نالوا معية الله قال
 تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا
 تَشْعُرُونَ﴾ .

فاتتهم الحياة في الدنيا ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية في العقبى، فهم في
 الحقيقة أحياء، يجدون من الله فنون الكرامات .
 ويقال هم أحياء لأن الخلف عنهم الله وَمَنْ كَانَ الْخَلْفُ عَنْهُ اللَّهُ لَا يَكُونُ مِيتًا،
 قال قائلهم في مخلوق:

إن يكن عتًا مضى بسبيله فما مات من يبقى له مثل خالد
 ويقال هم أحياء بذكر الله لهم، والذي هو مذكور الحق بالجميل بذكره السرمدى
 ليس بميت .

ويقال إن أشباحهم وإن كانت متفرقة، فإن أرواحهم - بالحق سبحانه - متحققة .
 ولئن قَيِّتَ بالله أشباحهم فلقد بَقِيَتْ بالله أرواحهم لأن من كان فناؤه بالله كان
 بقاؤه بالله .

ويقال هم أحياء بشواهد التعظيم، عليهم رداء الهيبة وهُم في ظلال الأئس،
 يسطهم جماله مرة، ويستغرقهم جلاله أخرى .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ .

ابتلاهم بالنعمة ليُظهر شكرهم، وابتلاهم بالمحنة ليظهر صبرهم، فلما أدخل المعلوم من حالهم في الوجود، ورسمهم بالرقم الذي قَسَمَهُ، وأثبتهم على الوصف الذي علمه، (ابتلاهم) بالخوف وفيه تصفية لصدورهم، وبالجوع وفيه تنقية لأبدانهم، ونقص من الأموال تركو به نفوسهم، وبمصائب النفوس يعظم بها عند الله أجرهم، وبآفة الثمرات يتضاعف من الله خلفهم.

﴿وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ﴾ يعني الذين لا اعتراض لهم على تقديره فيما أمضاه.

ويقال طالبهم بالخوف (ابتعاداً) عن عقوبته ثم بمقاساة الجوع ابتغاء قربه وكرامته، ونقص من الأموال بتصدق الأموال والخروج عنها طلباً للخير منه بحصول معرفته.

«والأنفس» تسليمًا لها إلى عبادته «والثمرات» القول بترك ما يأملونه من الزوائد في نعمته ﴿وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ﴾ على استحسان قضيته، والانقياد لجريان قدرته.

ومطالبات الغيب إما أن تكون بالمال أو بالنفس أو بالأقارب؛ فمن أوقف المال لله فله النجاة، ومن بذل لحكمه النفس فله الدرجات، ومن صبر عند مصائب الأقارب فله الخلف والقربات، ومن لم يدخر عنه الروح فله دوام المواصلات.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ... الآية.

قابلوا الأمر بالصبر لا بل بالشكر لا بل بالفرح والفخر.

ومن طالع الأشياء ملكاً للحق رأى نفسه أجنبياً بينه وبين حكمه؛ فمِنْشِئُ الْخَلْقِ أولى بالخلق من الخلق.

ويقال من شهد المصائب شهد نفسه لله وإلى الله، ومن شاهد المُنْبَلِي عِلِمَ أن ما يكون من الله فهو عبد بالله، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله؛ الذي كان لله فصابراً واقفاً، والذي هو بالله فساقط الاختيار والحكم، إن أثبتة ثَبَّتْ، وإن محاه انمحي، وإن حرَّكه تحرك، وإن سَكَّنَهُ سَكَّنَ، فهو عن اختياراته فان، وفي القبضة مُضَرَّفٌ.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهَدُونَ﴾ .

بصلواته عليهم ابتداء وصلوا إلى صبرهم ووقوفهم عند مطالبات التقدير، لا بصبرهم ووقوفهم وصلوا إلى صلواته، فلولا رحمته الأزلية لما حصلت طاعتهم بشرط العبودية، فعنايته السابقة أوجبت لهم هداية خالصة.

قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهَدُونَ﴾ لما رحمهم في البداية اهتدوا في النهاية.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

تلك المشاهد والرسوم، وتلك الأطلال والرقوم، تُعَظَّم وتُزَار، وتُشَدُّ إليها الرحال لأنها أطلال الأحباب، وهنالك تلوح الآثار:

أهوى الديار لمن قد كان ساكنها وليس في الدار هم ولا طُرب وإن لثرابِ طريقهم بل لغبار آثارهم - عند حاجة الأحباب - أقداراً عظيمة، وكل غبرة تقع على (حافظات طريقهم) لأعزُّ من المسك الأذفر^(١):

وما ذاك إلا أن مشيت عليه أَمِمةٌ في تربها وجرَّت به بُرداً^(٢) قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

حَطَى الصفا والمروة^(٣) بجوار البيت فَشَرَعَ السعي بينهما كما شرع للبيت الطواف، فكما أن الطواف ركن في التمسك فالسعي أيضاً ركن، والجار يُكْرَم لأجل الجار.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية لمن كاشفه الحق سبحانه بعلم من آداب السلوك ثم ضمن بإظهاره للمريدين على وجه النصيحة والإرشاد استوجب المقت في الوقت، ويخشى عليه نزع البركة عن علمه متى قُصِّر فيه لما أخر من تعليم المستحق.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

تداركوا ما سلف من تقصيرهم بحسن الرجعى، والقيام للمريدين على وجه النصيحة، وبيَّنوا لهم - بجميل البيان وإقامة البرهان على ما يقولون - حسن قيامهم بمعاملاتهم. فَإِنَّ أَظْهَرَ الْحَجَجِ لِبَيَانِ أَفْعَالِكَ وَأَصْدَقُ الشَّهَادَةِ لِتَصْحِيحِ مَا تَدْعُو بِهِ الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ - أَلَا يُخَالِفُ بمعاملتك ما تشير إليه بمقالتك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

(١) المسك الأذفر: أي الجيد ذو الرائحة الطيبة.

(٢) البُرد: ثوب مخطط أو موشى يلتحف به (ج) برود، وأبراد، وأبرد.

(٣) الصفا: اسم أجد جبلي المسعى من مشاعر الحج بمكة. والمروة: إحدى شعائر الحج يسعى بينها الحاج وبين الصفا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

الإشارة فيه أن الذين بدا لهم بعدما سلكوا طريق الإرادة (أن) يرجعوا إلى أحوال العادة، ثم في تلك الوحشة قُبضوا، وعلى تلك الحالة من الدنيا خرجوا، أولئك أصحاب الفرق، فلا على أرواحهم إقبال ولا لمصيبتهم جبران، ولا لأحد عليهم ترحم، خسروا في الدنيا والآخرة، يلعنهم البق في الهواء والتنع على الماء.

﴿خَالِدِينَ﴾ أي مقيمين أبداً في هوانهم وصغرهم، لا تخفيف ولا إسعاف ولا رفق ولا ألطاف.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

شرفهم غاية التشريف بقوله ﴿وَاللَّهُمَّ﴾. وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا: علامة من يعلِّمه من خاص الخواص أن يقول له: عبدي، وذلك أتم من هذا بكثير لأن قوله: ﴿وَاللَّهُمَّ﴾: وإضافة نعتي أتم من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لك بلا علة، وكونك له عبد يعوض كل نقصك وأفتك. ومتى قال لكم ﴿وَاللَّهُمَّ﴾.

حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك أو ذاتك وصفاتك لا بل قبل ذلك أزل الأزل حين لا حين، ولا أوان، ولا رسم ولا حدثان.

﴿وَالْوَحْدُ﴾ من لا مثل له يدانيه، ولا شكل يلاقيه. لا قسيم يجانسه ولا نديم يؤانسه. لا شريك يعاضده ولا معين يساعده ولا منازع يعانده.

أحدني الحق صمدي العين ديمومي البقاء أبدي العز أزلني الذات.

واحد في عز سنامه قر في جلال بهائه، وثر في جبروت كبريائه، قديم في سلطان عزه، مجيد في جمال ملكوته. وكل من أظن في وصفه أصبح منسوباً إلى العمى (ف) سولاً أنه الرحمن الرحيم لتلاشى العبد إذا تعرض لعرفانه عند أول ساطع من بدياب عزه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَشَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ الدَّابَّةِ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

تعرّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته، وأمارات وجوده، وسمات ربوبيته التي هي أقسام أفعاله. ونبههم على وجود الحكمة ودلالات الوجدانية بما أثبت فيها من براهين تُلطف عن العبارة، ووجوه من الدلالات تدق عن الإشارة، فما من عين من العدم محصورة - من شخص أو طفل، أو

رسم أو أثر، أو سماء أو فضاء، أو هواء أو ماء، أو شمس أو قمر، أو قطر أو مطر، أو رمل أو حجر، أو نجم أو شجر - إلا وهو على الوجدانية دليل، ولمن يقصد وجوده سبيل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

هؤلاء قوم لم يجعلهم الحق سبحانه أهل المحبة، فسَّغَلَهُمْ بمحبة الأغيار حتى رضوا لأنفسهم أن يحبوا كل ما هَوَتْه أنفسهم، فرضوا بمعمول لهم أن يعبدوه، ومنحوت - من دونه - أن يحبوه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

ليس المقصود من هذا ذكر محبة الأغيار للأصنام، ولكن المراد منه مدح المؤمنين على محبتهم، ولا تحتاج إلى كثير محبة حتى تزيد على محبة الكفار للأصنام، ولكن من أحبَّ حبباً استكثر ذكره، بل استحسن كل شيء منه.

ويقال وجه رجحان محبة المؤمنين لله على محبة الكفار لأصنامهم أن (هذه) محبة الجنس للجنس، وقد يميل الجنس إلى الجنس، وتلك محبة من ليس بجنس لهم فذلك أعز وأحق.

ويقال إنهم أحبوا ما شاهدوه، وليس بعجيب محبة ما هو لك مشهود، وأما المؤمنون فإنهم أحبوا من حال بينهم وبين (شهوده) رداء الكبرياء على وجهه.

ويقال الذين آمنوا أشد حبا لله لأنهم لا يتبرأون من الله سبحانه وإن عذبهم. والكافر تبرأ من الصنم والصنم من الكافر كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الآية.

ويقال محبة المؤمنين حاصلة من محبة الله لهم فهي أتم، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] ومحبتهم للأصنام من قضايا هواهم.

ويقال محبة المؤمنين أتم وأشد لأنها على موافقة الأمر، ومحبة الكفار على موافقة الهوى والطبع، ويقال إنهم كانوا إذا صلحت أحوالهم، واتسعت ذات يدهم اتخذوا أصناماً أحسن من التي كانوا يعبدونها قبل ذلك في حال فقرهم؛ فكانوا يتخذون من الفضة - عند غناهم - أصناماً ويهجرون ما كان من الحديد... وعلى هذا القياس! وأما المؤمنون فأشد حبا لله لأنهم عبدوا إلهاً واحداً في السراء والضراء.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

إذا بَدَتْ لَهُمْ أَوَائِلُ الْعَذَابِ اتَّضَحَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقِفُوا مِنَ الصَّدَقِ عَلَى قَدَمٍ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَسْلُبُهُمْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَمْلَاكُهُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، وَيُسَكِّنُ (أُولَئِكَ) (١) فِي الْقُبُورِ سَنِينَ ثُمَّ يَتِيَلُهُمْ فِي الْقِيَامَةِ بِطُولِ الْأَجَالِ وَسُوءِ الْأَعْمَالِ ثُمَّ يَلْقِيهِمْ فِي النَّارِ.

(أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ) (٢) فَيَأْتِي عَلَيْهِمْ طُولُ الْأَيَّامِ وَالْأَعْمَالِ فَلَا يَزْدَادُونَ إِلَّا مَحَبَّةَ (عَلَى مَحَبَّةٍ) وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا كَرَّةً فَتَنْبِرًا مِنْهُمْ كَمَا تَنْبِرُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

عند ذلك يعرفون مرارة طعم صحبة المخلوقين ولكن لا يحصلون إلا على حسرات.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ حَنَاقًا طَيْبًا وَلَا تَدْعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾.

الحرام - وإن استلذ في الحال - فهو وبىء في المآل، والحلال - وإن استكره في الحال - فهو مريء في المآل.

والحلال الصافي ما لم ينس مكتسبه الحق في حال اكتسابه (٣).

ويقال الحلال ما حصله الجامع له والمكتسب على شهود الحق في كل حال.

وكل ما يحملك على نسيان الحق أو عصيان الحق فهو من خطوات الشيطان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لاجترائه على الله يدعوكم به إلى افتراءك على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانِ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

لا ترفع أبصارهم عن أشكالهم وأصنافهم، من أضرابهم وأسلافهم، فَبَنَوْا عَلَى مَنَاجِمِهِمْ، فَلَا جَرَمَ انْخَرَطُوا فِي النَّارِ، وَانْسَلَكُوا فِي سُلُوكِهِمْ، وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ أَسْلَافَهُمْ لَا عَقْلَ يَرُدُّعُهُمْ، وَلَا رُشْدَ يَجْمَعُهُمْ لَنَابَذُوهُمْ مَنَاصِبِينَ، وَعَانَدُوهُمْ مُخَالَفِينَ، وَلَكِنْ سَلَبُوا أَنْوَارَ الْبَصِيرَةِ، وَخَرِمُوا دَلَائِلَ الْيَقِينِ.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. (٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) القشيري هنا استفاد من تعريف سهل بن عبد الله التستري للحلال الصافي. سئل سهل عن الحلال الصافي فقال: هو الذي لا يُعصى الله تعالى فيه، وقال سهل: الحلال الصافي هو الذي لا يُنسى الله تعالى فيه. (الرسالة القشيرية ص ١١٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

عدموا سمع الفهم والقبول، فلم ينفعهم سمع الظاهر، فنزلوا منزلة البهائم في الخلوص عن التحصيل، ومن رضي أن يكون كالبهيمة لم يقع عليه كثير قيمة.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الحلال ما لا شبهة عليه، والطيب الذي ليس لمخلوق فيه منة، وإذا وجد العبد (طعاماً) ما يجتمع فيه الوصفان فهو الحلال الطيب.

وحقيقة الشكر عليه ألا تتنفس في غير رضاء الحق ما دام تبقى فيك القوة لذلك الطعام.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَن اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

حرّم على الظواهر هذه المعدودات وهي ما أهل به لغير الله، وحرّم على السرائر صحبة غير الله بل شهود غير الله، فمن اضطر - أي لم يجد إلى الاستهلاك في حقائق الحق وصولاً - فلا يسلك غير سبيل الشرع سبيلاً، فيما أن يكون محوفاً في الله، أو يكون قائماً بالله، أو عاملاً لله، والرابع همج لا خطر له.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمناً قليلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

العلماء مطالبون بنشر دلائل العلم، والأولياء مأمورون بحفظ ودائع السر فإن كتم هؤلاء براهين العلوم أجموا بلجام من النار، وإن أظهر هؤلاء شظية من السر عوجلوا ببعاد الأسرار، وسلب ما أوتوا من الأنوار. ولكل جد، وعلى كل أمر قطيعة.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

إن الذين آثروا الغيّر على الغيب، والخلق على الحق، والنفس على الأنس، ما أقسى قلوبهم، وما أوقع محبوبهم ومطلوبهم، وما أخس قدرهم، وما أفضح لذوي الأبصار أمرهم! ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق، وأمضى القضاء والحكم فيه

بالصدق، وأوصلهم إلى ماله أهلهم، وأثبتهم على الوجه الذي عليه جبلهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

والإشارة أن الظواهر ليس لها كثير اعتبار إنما الخبر عن الله عزيز.

وكثرة الأوراد - وإن جلت - فحرفة العجائز، وإخلاص الطاعات - وإن عز - فصفة العوام، ووصل الليل بالنهار في وظائف كثيرة ومجاهدات غزيرة عظيم الخطر في استحقاق الثواب، ولكن معرفة الحق عزيزة.

وما ذكر في هذه الآية من فنون الإحسان، ووجوه قضايا الإيمان، وإيتاء المال، وتصفية الأعمال، وصلة الرحم، والتمسك بفنون الذم والعصم، والوفاء بالعهود، ومراعاة الحدود - عظيم الأثر، كثير الخطر، محبوب الحق شرعاً، ومطلوبه أمراً لكن قيام الحق عنك بعد فنائك، وامتحائك من شاهدهك، واستهلاكك في وجود القدم، وتعطل رسومك عن مساكنات إحساسك - أتم وأعلى في المعنى؛ لأن التوحيد لا يُقْبَى رسماً ولا أثراً، ولا يغادر غيراً ولا غيراً^(١).

قوله جل ذكره: ﴿بِتِلْكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَيْفَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْدَائِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَكُلُّكُمْ عَادَابٌ إِلَهٍ﴾.

حق القصاص مشروع، والعفو خير، فمن جنح إلى استيفاء حقه فمُسَلَّم له، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمُحْسَن، فالأول صاحب عبادة بل عبودية، والثاني صاحب فتوة بل حرية.

والدم المراق يجري فيه القصاص على لسان أهل العلم، وأما على لسان الإشارة لأهل القصة فدماءهم مطلولة وأرواحهم هدره قال:

وإن فؤداً رعته لسك حامداً وإن دماً أجريته بك فاجراً

وسفك دماء الأحباب (فوق) بساط القرب خلوف أهل الوصال، قال النبي ﷺ: «اللون لونُ الدم والريح ريح المسك»^(٢).

(١) الغير: السوى، وإغير: غبر: بقي أو مضى.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٣٨٤).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .
 في استيفاء القصاص حياة لأنه إذا عَلِمَ أنه إذا قَتَلَ قَتِلَ أَمْسَكَ عن القتل وفي ذلك حياة القاتل والمقتول .

ولكن ترك القصاص - على بيان الإشارة - فيه أعظم الحياة لأنه إذا تَلَفَ فيه (سبحانه) فهو الخَلَفُ عنه، وحياته عنه أتم له من بقائه بنفسه . وإذا كان الوارث عنهم الله والخَلَفَ عنهم الله فبقاء الخلف أعزُّ من حياة مَنْ ورد عليه التلف .

قوله جل ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ .

مَنْ تَرَكَ مَالاً فالوصية له ماله مُسْتَحَبَّةٌ، وَمَنْ لم يترك شيئاً فأئى بالوصية!! في حالة الأغنياء يوصون في آخر أعمارهم بالثلث، أما الأولياء فيخرجون في حياتهم عن الكل، فلا تبقى منهم إلا همة انفصلت عنهم ولم تتصل بشيء؛ لأن الحق لا سبيل للهمة إليه، والهمة لا تَعْلُقُ لها بمخلوق، فبقيت وحيدة منفصلة غير متصلة، وأنشدوا:

أحبكم ما دمتُ حياً فإن أُمْتُ يحبكُم عظمى في التراب رميم

هذه وصيتهم: وقال بعضهم:

(١)

لا بل كما قال قائلهم:

وأتى الرسول فأخبر أنهم رحلوا قريباً
 رجعوا إلى أوطانهم فجري له دمعي صيباً

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .
 من حَرَفَ نُطْقاً جرى بِحَقِّهِ لِحَقِّهِ شَوْمٌ ذلك ووباله .

وعقوبته أن يُحَرِّمَ رائحة الصدق أن يشمه . فمن أعان الدين أعانه الله، ومن أعان على الدين خذله الله .

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِنْمَاءً فَاصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

الإشارة فيه: أن من تَفَرَّسَ في بعض المريدين ضعفاً، أو رأى في بعض أهل

البداية رخاوة قصد أو وجد بعض الناصحين يتكلم بالصدق المحض على من لم يحتمله - فرأى أن يرفق بذلك المرید بما يكون ترخيصاً له أو استمالة له أو مداراة أو رضا بتعاطي مباح - فلا بأس به فإن خَمَلَ الناس على الصدق المحض مما لم يثبت له كثير أجر. فالترفق بأهل البداية - إذا لم يكن لهم صارم عزم، ولا صادق جهد - ركن في ابتغاء الصلاح عظيم.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

الصوم على ضربين: صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية، وصوم باطن وهو صَوْنُ القلب عن الآفات، ثم صون الروح عن المساكنات، ثم صون السر عن الملاحظات.

ويقال صوم العابدين شرطه - حتى يَكْمَلَ - صَوْنُ اللسان عن الغيبة، وصون الطَّرْفِ عن النظر بالرؤية كما في الخبر: (مَنْ صَامَ فَلْيَصُمْ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ...) (١)

وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق، قال ﷺ: «صوموا وأفطروا لرؤيته» (٢): الهاء في قوله عليه السلام - لرؤيته - عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه، فالعلماء يقولون معناه عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال، وأما الخواص فصومهم لله لأن شهودهم الله وفطرتهم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله، والذي هم به محو - الله.

قوله جل ذكره: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَتْ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

من شهد الشهر صام لله، ومن شهد خالق الشهر صام بالله، فالصوم لله يوجب المثوبة، والصوم بالله يوجب القرية. الصوم لله تحقيق العبادة والصوم بالله تصحيح الإرادة. الصوم لله صفة كل عابد والصوم بالله نعت كل قاصد. الصوم لله قيام بالظواهر والصوم بالله قيام بالضمائر. الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقة.

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المشور ١/٢٠١).

(٢) أخرجه النسائي في سننه (الصيام ب، ٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٤٣٠٨) وابن حجر في (المطالب العالية ٩٠٩)، وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان ١/١١٦).

من شهد الشهر أمسك عن المفطرات ومن شهد الحق أمسك في جميع أوقاته عن شهود المخلوقات.

من صام بنفسه سُقِيَ شراب السلسبيل والزنجبيل، ومن صام بقلبه سُقِيَ شراب المحاب بنعمة الإيجاب.

ومن صام بِسِرِّهِ فهم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وَسَقَّيْنَاهُمْ مِنْ شَرَابٍ طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

شراب يا له من شراب!! شراب لا يُدار على الكف لكنه يبدو له من اللطف.

شراب استثناس لا شراب كأس.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي من أفطر لهذه الأعدار فعليه صوم عدة أيام بعدد ما أفطر قضاء لذلك. الإشارة لمن سقمت إرادته عن الصحة فيرجع إلى غيره إما لرخصة تأويل أو لقلّة قوة واحتمال، أو عجز للقيام بأعباء أحكام الحقيقة فليُتمهل حتى تقوى عزيمته وتشدّ إرادته، فعند ذلك يُستدرك منه ما رُخص له بالأخذ بالتأويل، وتلك سُنّة الله سبحانه وتعالى في التسهيل على أهل البداية، ثم استيفاء ذلك منهم واجب في آخر الحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ (.....)﴾ ^(١) طَعَامٌ مِثْلِهِ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

الإشارة منه أنّ مَنْ فيه بقية من القوة للوقوف لمطالبات الحقيقة ويرجع إلى تسهيل الشريعة وينحط إلى رخصة التأويل فعليه الغرامة بواجب الحال وهو الخروج عما بقي له من معلوم مال أو مرسوم حال ويبتى مجرداً للواحد.

فصل: ويقال إنه لما علم أن التكليف يقتضي المشقة خففه عليك ذلك بأن قلّل أيام الصوم في قلبك فقال: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي مدة هذا الصوم أيام قليلة فلا يهولنكم سماع ذكره، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] أي لا يلحقكم كثير مشقة في القيام بحق جهاده.

قوله جلّ ذكره: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

رمضان يُرْمِضُ^(١) ذنوب قوم ويرمض رسوم قوم، وشتان بين من تحرق ذنوبه رحمته وبين من تحرق رسومه حقيقته.

شهر رمضان شهر مفاتحة الخطاب، شهر إنزال الكتاب، شهر حصول الثواب، شهر التقريب والإيجاب. شهر تخفيف الكلفة، شهر تحقيق الزافة، شهر نزول الرحمة، شهر وفور النعمة. شهر النجاة، شهر المناجاة.

قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

أراد بك اليسر (وأتت نظن) أنه أراد بك العسر.

ومن أمارات أنه أراد بعبده اليسر أنه (أقامه) بطلب اليسر؛ ولو لم يُرِدْ به اليسر لَمَا جعله راعياً في اليسر، قال قائلهم:

لو لم تُرِدْ نَيْلَ ما أَرْجُو وأُطْلِبُهُ من فيضِ جودِكَ ما علمتني الطلبُ
حقَّقَ الرجاءَ وأكَّدَ الطمعَ وأوجبَ التحقيقَ حيث قال: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾
لينفِي عن حقيقة التخصيص مجوزات الظنون.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِتُكْمِلُوا أَلَمَدَةَ﴾.

على لسان العلم تكملوا مدة الصوم.

وعلى لسان الإشارة لتقربوا بصفاء الحال (وفاء) (المال).

﴿وَلِتُكْمِلُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ في النفس الأخير، وتخرجوا من مدة عمركم بسلامة إيمانكم. والتوفيق في أن تكمل صوم شهرك عظيم لكن تحقيق أنه يختم عذرك بالسعادة - أعظم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

سؤال كل أحد يدل على حاله؛ لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين ولا عن دنيا ولا عن عقبى بل سألوا عنه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾. وليس هؤلاء من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]، ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠] ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحُمُرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

(١) رمض: وجد حر الرمضاء (الرمضاء: شدة حر الشمس).

هؤلاء قوم مخصوصون: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾^(١).

أي إذا سألك عبادي عني فبماذا تجيبهم؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد، فأنت وإن كنتَ السفير بيننا وبين الخلق فهذا الجواب أنا أتولاه ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (رَفَعَ) الوسطة من الأغيار عن القربة فلم يَقُلْ قل لهم إني قريب بل قال جل شأنه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾^(٢).

ثم بَيَّنَّ أن تلك القربة ما هي: حيث تقدَّس الحق سبحانه عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال: ﴿أُحِبُّ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وإن الحق سبحانه قريب - من الجملة والكافة - بالعلم والقدرة والسمع والرؤية، وهو قريب من المؤمنين على وجه التبرية والنصرة وإجابة الدعوة، وجلُّ وتقدَّس عن أن يكون قريباً من أحد بالذات والبقعة؛ فإنه أحدي لا يتجعة في الأقطار، وعزيز لا يتصف بالكنه والمقدار.

قوله جل ذكره: ﴿أُحِبُّ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

لم يَعدْ إجابة من كان باستحقاق زهد أو في زمان عبادة بل قال دعوة الداعي متى دعاني وكيفما دعاني وحيثما دعاني ثم قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ هذا تكليف، وقوله: ﴿أُحِبُّ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ تعريف وتخفيف، قدَّم التخفيف على التكليف، وكأنه قال: إذا دعوتني - عبي - أجبتك، فأجبتني أيضاً إذا دعوتك، أنا لا أرضى بِرَدِّ دعائك فلا تَرَضَّ - عبي - بردي من نفسك. إجابتي لك بالخير تحملك - عبي - على دعائي، ولا دعاؤك يحملني على إجابتك. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾: وليثقوا في، فإني أجب من دعائي، قال قائلهم:

يا عَزَّ أَقْسَمَ بالذي أنا عبده وله الحجيج وما حوت عرفات^(٣)
لا أبتغي بدلاً سِوَاكِ خليلَ فشقي بقولي والكرام ثقات
ثم قال في آخر الآية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي ليس القصد من تكليفك ودعائك إلا وصولك إلى إرشادك.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَلْ لَكُمْ يَلَّةَ الْيَمَارِ الْأَمَلُ إِلَى يَمِائِكُمْ مِّنْ لِّبَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُمْ عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ

(١) بياض في الأصل. (٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) عرفات: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة.

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ
ثُمَّ أْتِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴿١﴾

أخبر أنه - في الحقيقة - لا يعود إليه عائد من أوصاف الخلق؛ إن كنت في العبادة التي هي حق الحق أو في أحكام العادة من صحبة جنسك التي هي غاية النفس والحظ، فسيان في حالك إذا أورد فيه الإذن.

نزلت الآية في زلة بدرت من الفاروق^(١)، فجعل ذلك سبباً رخصاً لجميع المسلمين إلى القيامة. وهكذا أحكام العناية.

ويقال علم أنه لا بد للعبد عن الحظوظ فقسم الليل والنهار في هذا الشهر بين حقه وحظك، فقال أما حقي ﴿أَتِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، وأما حظك ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُبْشِرُوا مَنَاسِكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ بِمَا كُنتُمْ تَقْرَبُونَ﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢﴾.

أخبر أن محل القدرة مقدس عن اجتلاب الحظوظ، وقال إذا كنتم مشاغل بنفوسكم كنتم محجوبين بكم فيكم، وإذا كنتم قائمين بنا فلا تعودوا منا إليكم. ويقال غير الحق سبحانه على الأوقات أن يمزج الجد بالهزل، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك فقال عليه السلام: «ذريتي يا ابنة أبي أبكر أتعبد ربي»^(٢) وقال ﷺ: «لي وقت لا يسعني غير ربي»^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

إذا تحاكمتم إلى المخلوقين فاعلموا أن الله مطلع عليكم، وعلمه محيط بكم، فراقبوا موضع الاستحياء من الحق سبحانه، ولئن كان المخلوقون عالمين بالظواهر فالحق - سبحانه وتعالى - متولي السرائر.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلُوبُ مَوَاقِيَتِ النَّاسِ وَالْحَيُّ﴾. الأهله - جمع هلال - مواقيت للناس؛ لأشغالهم ومحاسباتهم.

(١) الفاروق: من يفرق بين الحق والباطل، ولقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

(٢) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/١١١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/١٦٢).

(٣) أخرجه علي الفاري في (الأسرار المرفوعة ٢٩٩).

وهي مواقيت لأهل القصة في تفاوت أحوالهم؛ فللزاهدين مواقيت أورادهم، وأما أقوام مخصوصون فهي لهم مواقيت لحالاتهم، قال قائلهم.

أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد كنت قدماً لا أعد الليالي
وقال آخر:

ثمان قد مضين بلا تلاقٍ وما في الصبر فضل عن ثمانٍ
وقال آخر:

شهورٌ يَنْقُضِينَ وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرارٍ^(١)
قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

يعني ليس البر مراعاة الأمور الظاهرة، بل البر تصفية السرائر وتنقية الضمائر.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِيَّاكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْسِدِينَ﴾.

لتكن نفوسكم عندكم ودائع الحق؛ إن أمر بإمساكها أمسكوها وصونها، وإن أمر بتسليمها إلى القتل فلا تدخروها عن أمره، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْسِدُوا﴾ وهو أن تقف حيثما أوقفت، وتفعل ما به أمرت.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَثْتُمْ﴾.

يعني عليكم بنصب العداوة مع أعدائي - كما أن عليكم إثبات الولاية والموالة مع أوليائي - فلا تثنفثوا عليهم وإن كان بينكم وأصد الرحم وشائج^(٢) القرابة.

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ﴾: أولاً أخرجوا حبيهم وموالاتهم من قلوبكم، ثم (...)^(٣) عن أوطان الإسلام ليكون الصغار جارياً عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

والإشارة: أنَّ المحنة التي تَرُدُّ على القلوب من طوارق الحجب أشد من المحنة التي تَرُدُّ على النفوس من بذل الروح، لأن فوات حياة القلب أشد من فوات حياة النفس، إذ النفوس حياتها بمألوفاتها، ولكن حياة القلب لا تكون إلا بالله.

(١) سر الشهر وسراره: آخر ليلة منه (اللسان ٣٥٧/٤).

(٢) الشوائج: (ج) وشيجة: وهي القرابة المشتبكة المتصلة.

(٣) بياض في الأصل.

ويقال الفتنة أشد من القتل: أن تنأى عن الله أعظم من أن تنأى عن روحك وحياتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

الإشارة منه: لا تشوش وقتك^(١) مع الله إذا كان بوصف الصفات بما تدخله على نفسك وإن كانت نوافل من الطاعات، فإن زاحمك مزاحم يشغلك عن الله فاقطع مادة ذلك عن نفسك بكل ما أمكنك لئلا تبقى لك علاقة تصدك عن الله.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الإشارة منه: إذا انقطعت عنك غاغة خواطرك وأعداء نفسك، مما يخرجك عنه ويزاحمك، فُلِّمْ حديث النفس ودَعْ مجاهداتها؛ فَإِنَّ مَنْ طَوَّلَ بحفظ الأسرار لا يتفرغ إلى مجاهدات النفوس بفنون المخالفات.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس؛ فَإِنَّ أعدى عدوك نَفْسُكَ التي بين جنبيك. أي استوفِ أحكام الرياضات حتى لا يبقى للآثار البشرية شيء، وتُسَلِّمِ النَّفْسَ والقلب لله، فلا يكون مُعَارِض ولا مُنَازَعُ منك لا بالتوقي ولا بالتلقي، لا بالتدبير ولا بالاختيار - بحالٍ من الأحوال؛ تجري عليك صروفه كما يريد، وتكون محوًّا عن الاختيارات، بخلاف ما يرد به الحكم، فإذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير. فأما من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام.

قوله جل ذكره: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِمَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

الإشارة فيه: إذا تقابل حقان كلاهما لله فُسَلِّمِ الوقت بحكم الوقت، ودَلِّ مع إشارات الوقت، وإياك أن ترجع أحدهما على الآخر بمالك من حظ - وإن قُلَّ - فتُحْجَب عن شهود الحق، وتَغْمَى بصيرة قلبك. وكلُّ ما كان إلى خلاف هوائك أقرب،

(١) قال القشيري في حديثه عن الوقت برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: (الوقت ما أنت فيه) وإن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان. (الرسالة القشيرية ص ٥٥).

وَعَنْ اسْتِجْلَالِكَ وَسُكُونِكَ إِلَيْهِ أَبْعَد - كَانَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ أَصَوْبَ .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ : الَّذِينَ اتَّقُوا إِثَارَ هَوَاهُمْ عَلَى مَا فِيهِ رِضَاءٌ ، فَإِذَا قَامُوا لِلَّهِ - فِيمَا يَأْتُونَ - لَا لَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِالنَّصْرَةِ مَعَهُمْ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنْ نَشَأْ اللَّهُ يُضْركُمْ﴾ [محمد : ٧] .

قوله جلّ ذكره : ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

إنفاق الأغنياء من أموالهم ، وإنفاق العابدين بنفوسهم لا يدخرونها عن العبادات والوظائف ، وإنفاق العارفين بقلوبهم لا يدخرونها عن أحكامه ، وإنفاق المحبين بأرواحهم لا يدخرونها عن حُبِّهِ .

إنفاق الأغنياء من النعم وإنفاق الفقراء من الهمم .

إنفاق الأغنياء إخراج المال من الكيس ، وإنفاق الفقراء إخراج الروح عن أنفُسِ النفس ، وإنفاق الموحّدين إخراج الخلق من السّر .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ الإشارة فيه إلى إمساك يدك عن البذل ؛ فمن أمسك يده وأدّخر شيئاً لنفسه فقد ألقى بيده إلى التهلكة . ويقال : إلى إيثار هواك على رضا .

ويقال ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي الغفلة عنه بالاختيار .

ويقال تَوَهُّمُ أنك تعيش من دون لطفه وإقباله لَحْظَةً .

ويقال الرضا بما أنت فيه من الفترة والحجاب .

ويقال إمساك اللسان عن دوام الاستغاثة في كل نفس .

قوله تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسان أن ترفق مع كل أحد إلا معك ؛ فإحسانك إلى نفسك في صورة إساءتك إليها في ظن الاعتماد ، وذلك لارتكابك كل شديدة ، ومقاساتك فيه كل عظيمة . والإحسان أيضاً ترك جميع حظوظك من غير بقية ، والإحسان أيضاً تفرغك إلى قضاء حق كل أحد علّق عليك حديثه . والإحسان أن تعبده على غير غفلة . والإحسان أن تعبده وأنت بوصف المشاهدة .

قوله جلّ ذكره : ﴿وَأَنِمُوا نَجْعَ وَالْمَمَرَةَ لِلَّهِ﴾ .

إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التي تجب فيها (دون) التقصير في بعض أحوالها .

وفي التفسير أن تحرم بهما من دويرة أهلك .

وعلى لسان الإشارة الحج هو القَصْد؛ فَقَصَدَ إلى بيت الحق وقصد إلى الحق، فالأول حج العوام والثاني حج الخواص.

وكما أن الذي يحج بنفسه يُحْرِمُ وَيَقِفُ ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق، فكذلك من يحج بقلبه؛ فأحرامه بعقد صحيح على قصد صريح، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهوته، ثم باشتماله بثوبي صبره وفقره، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى، وإطلاق خواطر المنى، وما في هذا المعنى. ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع، ثم تلبية الأسرار باستجابة كل جزء منك.

وأفضل الحج الشَّجَّ والعَجَّ؛ الشَّجُّ صَبُّ الدَّمِّ والعَجُّ رفع الصوت بالتلبية، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف، ورفع أصوات السُّرِّ بدوام الاستغاثة، وحسن الاستجابة ثم الوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة. وموقف النفوس عَرَافَات وموقف القلوب الأسامي والصفات لِعَزِّ الذات (عند) المواصلات. ثم طواف القلوب حول (مشاهدة) العز، والسعي بالأسرار بين صَفَيَّ كشف الجلال ولطف الجمال.

ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيارات، والمنى والمعارضات: بكل وجه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ قَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

الحصر بأمرين بعدو أو مرض.

والإشارة فيه إن استولى عدو النفس فلم تجد بداً من الإناخة بعقوة الرُّخَص وتأويلات العلم فعند ذلك تتحلل بموجب العذر والاضطرار إذ لا مزاحمة مع الحُكْم. ﴿الْهَدْيِ﴾ الذي يهدي به عند التحلل بالعذر، والخروج عن المعلوم، وتسليمه للفقراء، وانتظار أن يزول الحصر فيستأنف الأمر. وإن مَرَضَتْ الواردات وَسَقِمَتْ القصود وآل الأمر إلى التكليف فليجتهد ألا ينصرف كما أنه في الحج الظاهر يجتهد ألا ينصرف لكل مرض أو إن احتاج إلى اللبس والحلق وغير ذلك - بشرط الفدية.

ثم إن عجز، اشترط أن محله حيث حسبه فكذلك يقوم ويقعد في أوصاف القصد وأحكام الإرادة، فإن رجع - والعياذ بالله - لم يُقَابَلْ إلا بالردِّ والصد، وقيل:

فلا عن قلى كان التقرب بيننا ولكنه دهر يُشِثُّ ويجمع^(١)
وقال الآخر:

ولست - وإن أحببت من يسكن الفضاء
بأول راج حاجة لا ينالها

(١) القلى: البغض والكراهة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَحِلُّوا زُرُّوْكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَنَ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِدَاءٍ أَدَىٰ مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلُوْةٍ﴾.

يَبْذُلُ مَا أَمَكْنَهُ، وَيُخْرِجُ عَنْ جَمِيعٍ مَا يَمْلِكُهُ، وَعَلَيْهِ آثَارُ الْحُسْرَةِ، وَاسْتِشْعَارِ أَحْزَانِ الْحُجَّةِ.

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا... الخ: الإِشَارَةُ مِنْهُ أَنْ يَتَهَلَّ وَيَجْتَهِدَ بِالطَّوْفِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَالْخِدْمَةِ لِلْفُقَرَاءِ، وَالتَّقَرُّبِ بِمَا أَمَكْنَهُ مِنْ وَجُودِ الْإِحْتِيَالِ وَالِدَعَاءِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّنَ النَّعَمِ بِالْعِمْرَةِ إِلَىٰ الْحَجِّ فَإِذَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَنَ لَمْ يَحِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَىٰ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَمْ يَكُنْ أَهْلًا حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

فَإِذَا تَجَلَّتْ أَقْمَارُ الْقَصُودِ عَنْ كَشُوفِ التَّعَزُّزِ، وَانْجَلَّتْ غِيَابَةُ الْحُجَّةِ عَنْ شُمُوسِ الْوَصْلَةِ وَأَشْرَفَ نُورُ الْإِقْبَالِ فِي تَضَاعِيفِ أَيَّامِ الْوَقْفَةِ، فَلَيْسَتْ أُنْفُ لِلْوَصْلَةِ وَقَتًا، وَلِيَفْرَشَ لِلْقُرْبَةِ بَسَاطًا، وَلِيَجِدَّ لِلْقِيَامِ بِحَقِّ السَّرُورِ نَشَاطًا، وَلِيَقْلُ: حَيَّ عَلَى الْبَهْجَةِ! فَقَدْ مَضَتْ أَيَّامُ الْمَحَنَةِ.

وَلِيُكْمِلَ الْحَجَّ وَالْعِمْرَةَ، وَلِيَسْتَدِيمَ الْقِيَامَ بِأَحْكَامِ الصَّحْبَةِ وَالْخِدْمَةِ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بِالْحِجَابِ لِمَنْ لَمْ يَرِهِ أَهْلَةُ الْوَصْلَةِ وَالْإِقْتِرَابِ.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾.

كَمَا أَنَّ الْحَجَّ بِالنَّفُوسِ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ لَا يَنْعَقِدُ الْإِحْرَامُ بِهِ إِلَّا فِيهَا، وَلَا يَجُوزُ فِعْلُ الْحَجِّ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ إِلَّا فِي وَقْتٍ مَخْصُوصٍ، مِنْ فَاتِهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ فَاتِهِ الْحَجِّ - فَكَذَلِكَ حَجَّ الْقُلُوبِ لَهُ أَوْقَاتٌ مَّعْلُومَةٌ لَا يَصُحُّ إِلَّا فِيهَا، وَهِيَ أَيَّامُ الشَّبَابِ؛ فَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ إِرَادَةٌ فِي حَالِ شَبَابِهِ فَلَيْسَتْ لَهُ وَصْلَةٌ فِي حَالِ مَشْيَبِهِ، وَكَذَلِكَ مِنْ فَاتِهِ وَقْتُ قَصْدِهِ وَحَالِ إِرَادَتِهِ فَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْعِبَادَةِ الَّتِي آخَرَهَا الْجَنَّةُ، فَأَمَّا الْإِرَادَةُ الَّتِي آخَرَهَا الْوَصْلَةُ.. فَلَا.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِكَ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

كَذَلِكَ الْإِشَارَةُ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْإِرَادَةِ أَلَا يُعْرَجُ عَلَى شَيْءٍ فِي الطَّرِيقِ، وَلَا يَمْزِجُ إِرَادَتَهُ بِشَيْءٍ. فَمَنْ نَازَعَهُ أَوْ عَارَضَهُ أَوْ زَاحَمَهُ - سَلَّمَ الْكُلَّ لِلْكُلِّ، فَلَا لِأَجْلِ الدُّنْيَا مَعَ أَحَدٍ يَخَاصِمُ، وَلَا لِشَيْءٍ مِنْ حِظْوِظِ النَّفْسِ وَالْجَاهِ مَعَ أَحَدٍ يَزَاحِمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَنِيزُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَكْتُمَهُ اللَّهُ﴾.

تكتفي بعلمه وحكمه عن شهود خلقه وحكم خلقه وعلم خلقه .
قوله جل ذكره: ﴿وَسَكَرُوا فَإِنِّي خَيْرٌ لِّزَادِ النَّفْسِ وَأَتَّقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَسِ﴾ .

تقوى العامة مُجانبية الزلات، وتقوى الخواص مُجانبية الأغيار بالسرائر .
قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ .

الإشارة فيه أن ما تبتغي من فضل الله مما يُعينك على قضاء حقّه، ويكون فيه نصيب للمسلمين أو قوة للدين - فهو محمود . وما تطلبه لاستيفاء حظك أو لما فيه نصيب لنفسك - فهو معلول .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِن كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ﴾ .

الإشارة فيه إذا وقفت حتى فمت بحق طلبه فاذكر فضله معك؛ فلولاً أنه أَرَادَكَ لما أَرَدْتَهُ، ولولاً أنه اختارك لما آثرت رضاه .

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

الإشارة فيه ألا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك في الظاهر؛ لا بلبسة ولا بخرقه ولا بصفة، بل تكون كواحد من الناس، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئاً، أو بك أو لك أو معك شيء فاستغفر الله، وجذد إيمانك فإنه شركٌ خفيٌّ خامر قلبك .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ .

﴿قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ إشارة إلى القيام بحق العبودية .

﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ إشارة إلى القيام بحق المحبة .

قضاء المناسك قيامً بالنفس .

﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ قيامٌ له بالقلب على استدامة الوقت واستغراق العمر .

ويقال كما أن الأغيار يفتخرون بأبائهم، ويستبشرون بأسلافهم فليكن افتخاركم بنا واستبشاركم بنا .

ويقال إن كان لأبائكم عليكم حق التربية فحقنا عليكم أوجب، وأفضلنا عليكم أتم .

ويقال إن كان لأسلافكم مآثر ومناقب، فاستحقاقنا لنعموت الجلال فوق ما لأبائكم من حسن الحال .

ويقال إنك لا تملُ ذكر أبيك ولا تنساه على غالب أحوالك، فاستدِمْ ذِكْرنا، ولا تَعْتَرِضْكَ ملالة أو سامة أو نسيان.

ويتال إن طَعَنَ في نَسَبِكَ طاعِنٌ لم تَرْضَ فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبدع فذُبْ عَنَّا.

ويقال الأب يُذَكِّرُ بالحرمة والحشمة فكذلك اذكُرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القربة بحسن التربية.

وقال ﴿كَذِّكُّوْا أَبَاءَكُمْ﴾ ولم يقل أمهاتكم لأن الأب يُذَكِّرُ احتراماً والأم تُذَكِّرُ شفقةً عليها، والله يَرْحَمُ ولا يَرْحَمُ.

﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ لأن الحقُّ أحقُّ، ولأنك قد تستوحش كثيراً عن أبيك، والحقُّ سبحانه مُنَزَّهٌ عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضي الواجب حتى إن كان ذرة. وقوله ﴿كَذِّكُّوْا أَبَاءَكُمْ﴾ الأب على ما يستحقه والرب على ما يستحقه.

قوله جل ذكره: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾.

خطاب لو قاله مخلوقٌ لك كان شاكرًا، ولو أنه شكَا منك كما شكَا إليك لساءت الحالة، ولكن بفضلَه أَحَلَّكَ محل أن يشكو إليك فقال: مِنَ النَّاسِ مَن لا يجنح قلبه إلينا، ويرضى بدوننا عَنَّا، فلا يبصر غير نفسه وحظّه، ولا يمكن إيمان له بربه وحقّه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْفُسْطُكَيْنِ﴾.

إنما أراد بها حسنة تنتظم بوجودها جميع الحسنات، والحسنة التي بها تحصل جميع الحسنات في الدنيا - حفظ الإيمان عليهم في المآل؛ فَإِنَّ مَنْ خرج من الدنيا مؤمنًا لا يخلد في النار، وبفوات هذا لا يحصل شيء. والحسنة التي تنتظم بها حسنات الآخرة - المغفرة، فإذا غفر فبعدها ليس إلا كل خير.

ويقال الحسنة في الدنيا العزوف عنها، والحسنة في الآخرة الصون عن مساكنتها. والوقاية من النار ونيران الفرقه إذ اللام في قوله ﴿الْأَنَارُ﴾ لام جنس فتحصل الاستعاذة عن نيران الحرقه ونيران الفرقه جميعاً.

ويقال الحسنة في الدنيا شهود بالأسرار وفي الآخرة رؤية بالابصار.

ويقال حسنة الدنيا ألا يُغْنِيكَ عنك وحسنة الآخرة ألا يردك إليك.

ويقال حسنة الدنيا توفيق الخدمة وحسنة الآخرة تحقيق الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾.

إن كان خيراً فخير وإن كان غيراً فغير. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ للعوام في الفرصة، وللخواص في كل نفس.

ويقال ذكر فريقين: منهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا، والثاني يقول في الدنيا والعقبى، وثالث لم يذكرهم وهم الراضون بقضائه، المستسلمون لأمره، الساكنون عن كل دعاء واقتضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

هذه صفة أواخر النسك، وهو الرمي في أيام منى لما قدموا بأركان الحج خفف عنهم بأن خيرهم في المقام والإفاضة والتعجيل في التفريق.

والإشارة منه أن من خدمت نفسه، وحى قلبه واستدام بحقائق الشهود (سره). فإن سقط عنه شيء من فروع الأوراد ففيما هو له مستديم من آداب الحضور عوض عن الذي يفوت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾.

أخبر أن قوماً أعرض الحق سبحانه وتعالى عن قلوبهم فأعطاهم في الظاهر بسطة في اللسان ولكن ربط على قلوبهم أسباب الحرمان؛ فهم في غطاء جهلهم، ليس وراءهم معني، ولا على قولهم اعتماداً، ولا على إيمانهم اتكالاً، ولا بهم ثقة بوجوه.

والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر؛ لا لهم بهذا الحديث إيمان، ولا بهذه الجملة استبصار، فالواحب صون الأسرار عنهم فإنهم لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار^(١)، وإن أهل الوداعة من العوام الذين في قلوبهم تعظيم لهذه الطريقة، ولهم إيمان على الجملة بهذا الحديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثير ممن عدّ نفسه من الخواص وهو بمعزل عن الإيمان بهذا الأمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.

الإشارة لمن سغفه مقصور على استجلاب حظوظه، فهو لا يبالي بما يتحل من

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٨.

عُرِيَ الدين، ويهوى من أسباب الإسلام، بعدما تشد حبال دنياهم، وتتنظم أسباب مناهم، من حرام جمعه، وخطام حصّله. فإذا خلّوا لوساوسهم وقصودهم الردية سَعَوْا بالفساد بأحكام أسباب الدنيا، واستعمالهم مَنْ يستعينون بهم في تمشية أمورهم مِنْ القوم الذين نَزَعَ الله البصيرة من قلوبهم.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾: ما كان فيه خراب الأمور الدينية ونظام الأحوال الدنيوية فهو الفاسد الظاهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبُهُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهِكَ﴾.

هؤلاء أقوام استولى عليهم التكبر، وزال عنهم خضوع الإنصاف؛ فَشَمَخَتْ أَنافُهُمْ عن قبول الحق فإذا أمرته بمعروف قال: ألمثلني يقال هذا؟! وأنا كذا وكذا! ثم يكبر عليك (...) (١) فيقول: وأنت أولى بأن تؤمر بالمعروف وتُنهى عن المنكر فإن من حالك وقصتك كذا وكذا.

أو لو ساعده التوفيق وأدركته الرحمة، وتقلّد المنة بمن هداه إلى رؤية خطئه، ونبهه على سوء وصفه، لم يطوّر على نصيحة جنبيه وتبقى في القلب - إلى سنين - آثارها.

قال تعالى: ﴿فَحَسِبُكُمْ جَهَنَّمَ﴾ يعني ما هو فيه في الحال من الوحشة وظلمات النَّفْسِ وضيق الاختيار حتى لا يسعى في شيء غير مراده. فيقع في كل لحظة غير مرة في العقوبة والمحنة، ثم إنه منقول من هذا العذاب إلى العذاب الأكبر، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أولئك الذين أدركتهم خصائص الرحمة، ونعتتهم سوابق القسمة، فأثروا رضا الحق على أنفسهم، واستسلموا بالكلية لمولاهم، والله رؤوف بالعباد: ولرأفته بهم وصلوا إلى هذه الأحوال، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

كلّف المؤمن بأن يسالِمَ كل أحدٍ إلا نفسه فإنها لا تتحرك إلا بمخالفة سيده؛

فَإِنْ مَنْ سَأَلَ نَفْسَهُ فَتَرَّ عَنْ مُجَاهِدَاتِهِ، وَذَلِكَ سَبَبُ انْقِطَاعِ كُلِّ قَاصِدٍ، وَمَوْجِبُ فِتْرَةٍ كُلِّ مُرِيدٍ.

و ﴿حُطُّوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ مَا يُوَسَّوِسُهُ إِلَيْكَ مِنْ عَجْزِكَ عَنِ الْقِيَامِ بِاسْتِيفَاءِ أَحْكَامِ الْمَعَامِلَةِ، وَتَرْكِ نَزْعَاتٍ لَا عِبْرَةَ بِهَا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْتَفَتَ إِلَيْهَا، بَلْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلَيْهِ فِي أَلِيمَةٍ﴾ [القصص: ٧] ثُمَّ أَبْصَرَ مَا الَّذِي فَعَلَ بِهِ حِينَ أَلْفَتَهُ، وَكَيْفَ رَدَّهُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَجَّاهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ زَكَرْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الرَّزْلَةُ الْوَاحِدَةُ بَعْدَ كَشْفِ الْبُرْهَانِ أَقْبَحُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَمَنْ عُرِفَ فِي الْخِيَانَةِ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْأَمَانَةِ. وَمَحَنَةُ الْأَكَابِرِ إِذَا حَلَّتْ كَانَ فِيهَا اسْتِثْصَالُهُمْ بِالْكَلِيَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾.

اسْتَبْطَأَ الْقَوْمُ قِيَامَ السَّاعَةِ فَأَخْبَرُوا عَنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ بِتَفْصِيلِ مَا ذَكَرَ.

وَتِلْكَ أَفْعَالٌ فِي مَعْنَى الْأَحْوَالِ، يَظْهَرُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمَا يَزِيلُ عَنْهُمْ الْإِشْكَالَ فِي عُلُوِّ شَأْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَنَفَازِ قُدْرَتِهِ فِيمَا يَرِيدُ. ﴿وَفُصِّحَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ رُجُوعُ الْأُمُورِ﴾ أَيِ انْهَتْكَ سِتْرُ الْغَيْبِ عَنْ صَرِيحِ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ. وَلَقَدْ اسْتَعْنَتْ قُلُوبُ الْمُوَحِّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَارِ الْبَصَائِرِ عَنْ طَلَبِ التَّأْوِيلِ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا إِذَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ مُنْزَعٌ عَنْ كُلِّ انْتِقَالٍ وَزَوَالٍ، وَاخْتِصَاصٍ بِمَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ، تَقْدَسُ عَنْ كُلِّ حَرَكَةٍ وَإِتْيَانٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

فَائِدَةُ السُّؤَالِ لِيَقَرَّرَ عَلَيْهِمُ بِالسُّؤَالِ الْحُجَّةَ، لَا لِيُقَرَّرَ لِلرَّسُولِ ﷺ بِسُؤَالِهِمْ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَاضِحِ الْمَحَبَةِ.

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بِزَوَالِ تِلْكَ النِّعْمَةِ. وَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُونَ قُدْرَتَهَا، ثُمَّ يَتَذَبُّونَهَا وَلَا يَصِلُونَ إِلَيْهَا قَطُّ، قَالَ قَائِلُهُمْ:

سَتَهْجُرْنِي وَتَتْرَكْنِي فَتَطْلُبْنِي فَلَا تَجِدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَعْرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مَكْرُوا فَلَمْ يَشْعُرُوا، وَحَمَلَهُمْ اشْتِدَادُ الظُّلْمَةِ عَلَى بَصَائِرِهِمْ عَلَى الْوَقِيعَةِ فِي

أوليائه سبحانه، والسخرية منهم، وحين تقشعت غواية الجهل عن قلوبهم (.....) (١)

علموا مَنْ الخاسر منهم مِنَ الذي كان في ضلال بعيد.

قوله جل ذكره: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُتُوا مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ قَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

يعني الغيبة عن الحق جمعتهم، فلما أتتهم الرسل تباينوا على حسب ما رزقوا من أنوار البصيرة وحُرموها. ويقال كانوا على ما سبق لهم من الاختيار القديم، ويمجبي الرسل تهود قوم وتَنَصَّر قوم، ثم في العاقبة يُرَدُّ كل واحد إلى ما سبق له من المذير، وإن الناس اجتمعوا كلهم في علمه سبحانه ثم تفرَّقوا في حكمه، فقوم هداهم وقوم أغواهم، وقوم حببهم وقوم جذبهم، وقوم ربطهم بالخدلان وقوم بسطهم بالإحسان، فلا يزال المقبولين أمر مكتسب، ولا لمردِّ المردودين سبب، بل هو حُكْمُ بُتِّ وقضاء جُرم.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْكَيْدَ بِمَا بَاتَكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرَزَقْنَاهُمْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

خلق الله الجنة وحققها بالمصائب، وخلق النار وحققها بالشهوات والرغائب، فمن احتشم ركوب الأهوال بقي عن إدراك الآمال. ثم إن الحق سبحانه ابتسى الأولين بشؤون من مقاساة الشدائد، وكل من ألحق بهم من سلب الأولياء أدخلهم في سلكهم، وأدرجهم في غمارهم، فمن ظنَّ غير ذلك فسَوَّاب (دواء) وحكم لم يحصل على ما ظنَّ تأويلاً. ولقد مضت سنة الله سبحانه مع الأولياء أنهم لا يُنَجِّحُونَ بِعُقُودِ الظُّفْرِ إِلَّا بِعَدِّ إِشْرَافِهِمْ عَلَى عَرَصَاتِ الْيَأْسِ، فحين طاب بهم التَّرفُّبُ صادفهم اللطفُ بغتةً وحقق لهم المُبتَغَى فجأة. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

علموا أن العبد غير مسرور بالفاعلية أن يفعل، فإنَّ العبد ليس له فعل شيء إلا بإذن مولاه فتوقفوا في الإنفاق على ما يشير إليه تفصيل الإذن، لأنَّ العبودية الوقوف حيشما أوقفك الأمر.

ويقال لم ينفقوا على إشارات الهوى . وإنَّ ما طالعوه تفاصيل الأمر وإشارات الشرع . والواو في هذه الآية في قوله : ﴿وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى﴾ تشير إلى نوع من الترتيب ؛ فالأولى بمعروفك والذاك ثم أقاربك ثم على الترتيب الذي قاله .

قوله جل ذكره : ﴿كَيْبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

صبت على النفوس مباشرة القتال ، فبيّن أن راحت النفوس مؤجلة لأنها في حكم التأديب ، وبالعكس من هذا راحت القلوب فإنها معجلة إذ هي في وصف التقريب ، فالسعادة في مخالفة النفوس ؛ فمن وافقها حاد عن المحبة المثلى ، كما أن السعادة في موافقة القلوب فمن خالفها زاغ عن السنة العليا .

وبشرى ضمان الحق باليسر أولى أن تقبل من محذرات هواجس النفوس في حلول العسر وحصول الضر .

قوله جل ذكره : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَرَاخِ قُلْ فِيهِ قِتَالٌ فِيهِ كَثِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْأَحَرِّ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ﴾ .

من المعاصي ما يكون أشد من غيره وأصعب في المعنى ، فسوء الأدب على الباب لا يوجب ما يوجب على البساط ؛ فإذا حصلت الزلة بالنفس فأثرها بالعقوبة المؤجلة وهي الاحتراق ، وإذا زلّ القلب فالعقوبة معجلة وهي بالفراق . وأثر الغفلة على القلوب أعظم من ضرر الزلة على النفوس ، فإن النفس عن الحظ تبقى ، والقلب عن الحق يبقى .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِذْ أَسْتَأْذِنُوا وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

الإشارة من هذا أن أهل الغفلة إذا راودوك أرادوا صرفك إلى ما هم عليه من الغفلة ، فلا يرضون إلا بأن تفسخ عقد إرادتك بما تعود إليه من سابق حالتك ؛ ومن فسخ مع الله عهده مسح قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

إن الذين صدقوا في قصدهم ، وأخلصوا في عهدهم ، ولم يرتدوا في الإرادة على أعقابهم ، أولئك الذين عاشوا في رُوح الرجاء إلى أن يصلوا إلى كمال البقاء ودار اللقاء .

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

الخمر ما خامر العقول، وكما أن الخمر حرام بعينها فالسُّكْر حرام بقوله ﷺ: «حُرِّمَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا، وَالسُّكْرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ»^(١)، فمن سَكِرَ من شراب الغفلة استحق ما يستحق شارب الخمر من حيث الإشارات، فكما أن السكران ممنوع من الصلاة فصاحب السُّكْر بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود، فمن لم يَصْدُقْ فَلْيُجَرِّبْ.

ومعنى القمار موجود في أكثر معاملات أهل الغفلة إذا سلكوا طريق الحيل والخداع والكذب في المقال. وبذل الصدق والإنصاف عزيز.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

قيل العفو ما فضل عن حاجتك، وهذا للخواص يخرجون من فاضل أموالهم عن قدر كفاياتهم، فأما خواص الخواص فطريقهم الإيثار وهو أن يؤثر به غيره على نفسه وبه فاقه إلى ما يخرج وإن كان صاحبه الذي يؤثر به غيباً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَآخِزُونَهُمْ﴾.

إصلاح حالهم بما يكون فيه تأديبهم أتم من إصلاح مالهم، ثم الصبر على الاحتمال عنهم مع بذل النصيح، و (مفارقة المال من من إرشادهم خير من الترخص بأن يقول إنه لا يتوجه على فرضيهم)^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْهُ غِزْوٌ حَكِيمٌ﴾.

فيُعاملُ كلاً على سواكن قلبه من القُصُود لا على ظواهر كُتُبِهِ من جميع الفنون.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلِأَمَّةٍ مُؤْمِنَةٍ حَتَّى مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَا أُعْجَبِكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

(١) أخرجه أبو حنيفة في (جامع مسانيد ١٨٣/٢، ١٨٤).

(٢) ما بين قوسين عبارة مضطربة.

صلة حبلى الدين والتمسك بعصمة المسلمين أتم من الرضا بأن تنتهي إلى أحد يسلك إلى الكفر، ولئن كانت رخصة الشريعة حاصلة في فعله فإشارة الحقيقة مانعة من حيث التبرئة عن اختياره، هذا في الكتابيات اللاتي يجوز مواصلةهن، فأما أهل الشرك فحرام مواصلةهم قطعاً، وأوجه مباينتهم في هذا الباب حُكْمُ جَزْمٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرَنَّ فَإِذَا ظَهَرَنَّ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

ليس كل ما يكون موجب الاستحياء والنفور مما هو باختيار العبد، فقد يكون من النقائص ما ليس للعبد فيه كسب، وهو ابتداء حكم الحق، فمن ذلك ما كتب الله على بنات آدم من تلك الحالة، ثم أُمِرْنَ باعتزال المُصَلَّى في أوان تلك الحالة، فالمصلى مناج ربّه، فيُحْيِي عن محل المناجاة حكماً من الله لا جُزْماً لهن. وفي هذا إشارة فيقال: إنهن - وإن مُيَغْنَ عن الصلاة التي هي حضور بالبدن فلم يحجب عن استدامة الذكر بالقلب واللسان، وذلك تعرض بساط القرب، قال ﷺ مخبراً عنه تعالى: «أنا جليس من ذكرني»^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾.

يقال يحب التوابين من الذنوب، والمتطهرين من العيوب.
ويقال التوابين من الزلة، والمتطهرين من التوهم أن نجاتهم بالتوبة.
ويقال التوابين من ارتكاب المحظورات، والمتطهرين من المساكنات والملاحظات.

ويقال التوابين بماء الاستغفار والمتطهرين بصوب ماء الخجل بنعت الانكسار.
ويقال التوابين من الزلة، والمتطهرين من الغفلة.
ويقال التوابين من شهود التوبة، والمتطهرين من توهم أن شيئاً بالزلة بل الحكم ابتداء من الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُكُمْ خُرُوجُ لَكُمْ فَأَنُوتُوا حُرَّتْكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لَأَنفِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّهِ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لما كانت النفوس بوصف الغيبة أباح لها السكون إلى أشكالها إذا كان على وصف الإذن، فلما كانت القلوب في محل الحضور حرم عليها المساكنة إلى جميع الأغيار والمخلوقات.

(١) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٢٨٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتبهة ٢٤).

﴿وَقَدْ مَوَّأُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ من الأعمال الصالحة ما ينفعكم يوم إفلاسكم، لذلك قال :
 ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ فانظروا لأنفسكم بتقديم ذا يسركم وجدانه عند ربكم .
 قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ إِنَّكُمْ تَكُونُونَ مَكِيدِينَ﴾
 الثَّانِي وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

نزهوا ذكر ربكم عن ابتذاله بأي حدث من الحفظ .
 ويقال لا تجعلوا ذكر الله شركاً بينكم وبينه حطام الدنيا .
 قوله جل ذكره : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّسْوَةِ فِي أَيْمَانِكُمْ أَكُنْتُمُ يَاطِرًا أَوْ لَا تَضَعُوا كَيْدَكُمْ يَوْمَ تَكُونُونَ فِي أَعْيُنِنَا﴾
 عَمُّورٌ حَلِيمٌ .

ما جرى به اللسان على مقتضى السهو فليس له كثير خطر في الخير والشر،
 ولكن انظرت عليه الضمائر، واحتوت عليه السرائر، من قصود صحيحة، وعزائم
 قوية فذلك الذي يرخد به إن كان خيراً فجزاء جميل، وإن كان شراً فعناء طويل .
 قوله جل ذكره : ﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثَبَغٌ أَوْ رِجْلٌ﴾ .

إذا كان حتى صحبة الأشكال محفوظاً عليك - حتى لا أخللت به - وأخذك بحكمه :
 فحق الحق أحق بأن تجب مراعاته . «فإن فاؤوا» أي رجعوا إلى إحياء ما أماتوا، واستدراك
 ما ضيئوا ف﴿إِنَّ اللَّهَ عَمُّورٌ حَلِيمٌ﴾ فلما تقاصر لسان الزوجة - لكونها أسيراً في يد الزوج -
 - أزل الله - سبحانه - الأمر بمراعاة حقها فأمر الزوج بالرجوع إليها أو تسريحها .
 قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

إن مل حق صحبتها، وأكد العزم على مفارقتها فإن الله مطلع على حاله وسره،
 فإن بدا له باد من ندم فلا يلبس بأركان الطلاق فإن الله سبحانه عليم أنه طلقها .
 ولما كان الفراق شديداً عزى المرأة بأن قال إنه ﴿السَّمِيعُ﴾ أي سمعنا موحش
 تلك القالة، فهذا تعزية لها من الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَ قُرُوءٍ﴾ .
 أمر المطلات بالعودة احتراماً لصحبة الأزواج، يعني إن انقطعت العلاقة بينكما
 فأقيموا على شرط الوفاء لما سلف من الصحبة، ولا تقيموا غيره مقامه بهذه السرعة؛
 فاصبروا حتى يمضي مقدار من المدة. ألا ترى أن غير المدخول بها لم تؤمر بالعودة
 حيث لم تقم بينهما صحبة؟
 ثم قال جل ذكره : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَكُنَ مِمَّا يَكُنَّ مَا حَلَّ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

يعني إن اقطع بينكما سبب فلا تقطعوا ما أثبت الله من النسب .

ثم قال جل ذكره: ﴿وَلَهُنَّ أَهْقُ بِرِّهِنَّ﴾ .

يعني من سبق له الصحبة فهو أحق بالرجعة لما وقع في النكاح من الثلثة .

﴿وَلَهُنَّ أَهْقُ بِرِّهِنَّ﴾ .

يعني أن يكون القصد بالرجعة استدراك ما حصل من الجفاء لا تطويل العدة

عليها بأن يعزم على طلاقها به ما أرجعها .

﴿وَلَهُنَّ أَهْقُ بِرِّهِنَّ﴾ .

يعني إن كان له عليها حق ما أنفق من المال فلها حق الخدمة لما سلف من الحال .

﴿وَلَهُنَّ أَهْقُ بِرِّهِنَّ﴾ .

في التمضية، ولهن مزية في الضعف وعجز البشرية .

قوله جل ذكره: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ .

ندب إلى تفريق الطلاق فلا تسارع إلى إتمام الفراق، وقيل في معناه:

إِنْ تَبَيَّنْتُ أَنَّ عَزْمَكَ قَتْلِي فَذَرِينِي أَهْمَنِي قَلِيلًا قَلِيلًا

ثم قال جل ذكره: ﴿فَإِنْ سَأَلْتَهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَيْكُمْ﴾ .

إما صحبة جميلة أو فُرقة جميلة . فأما سوء العشرة فلا بد من لذة العيش بالأخلاق

الذميمة غير مَرَضِيَةٍ في الطريقة، ولا محمود في الشريعة .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَغَافَةٍ إِيَّاهُمْ شَيْئًا﴾ .

فإن في الخبر «العائد في نيته»^(١) والرجوع فيما خرجت عنه حِسَّة .

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/٢١٥)، وأبو داود في (السنن ٣٥٣٨)، والنسائي في (السنن ٦/٦)

٢٦٦، ٢٦٧)، والرقبي ب٢، وابن ماجه في (السنن ٢٣٨٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/١)

٣٢٧)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٦/١٨٠)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٠/٣٥٢، ١١/٤٦٦،

١٧٩، ٣٢٧، ٣٤٤)، والهشمي في (مجمع الزوائد ٤/١٥٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال

٤٦١٦٤، ٤٦١٧٥)، والبغوي في (شرح السنة ٨/٢٩٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/٣)

٢٨٨)، والزبائعي في (نصب الراية ٤/١٢٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/٢٣٤)، والألباني في

(إرواء الغليل ٦/٦٢)، وابن عبد البر في (التمهيد ٧/٢٤٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٦/٦)

٤٧٨)، والنعيلي في (الضعفاء ٣/٤٥)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٦/٥٤)، والطبراني في

(المعجم الصغير ٢/١١٤)، (وصاحب شرح معاني الآثار ٤/٧٧)، والخطابي في (إصلاح خطأ

المحدثين ١٥)، وابن الجارود في (المنتقى ٩٩٣) .

ثم قال جلّ ذكره: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

يعني إن أرادت المرأة أن تتخلص من زوجها فلا جناح عليها فيما تبذل من مال، فإن النفس تساوي لصاحبها كل شيء، والرجال إذا فاتته صحبة المرأة فلو اعتاض عنها شيئاً فلا أقل من ذلك، حتى إذا فاتته راحة الحال يصل إلى يده شيء من المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. هذه آداب يُعَلِّمُكُمُهَا الله وَيَسْتُهَا لَكُمْ، فحافظوا على حدوده، وداوموا على معرفة حقوقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾. الرجل يُشَقُّ عليه أن ينكح زوجته غيره فمنعه عن اختيار الفراق بغاية الفراق بُغْيَة المنع لما بيّن أنها لا تحل له إن فارقها إلا بأن تفعل غاية ما يشق عليه وهو الزواج الثاني لِيُخَذَرَ الطلاق ما أمكنه. ثم قال: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» يعني الزوج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ يعني تزوج بالزوج الأول.

والإشارة فيه أن استيلاء المحبة على القلب يُهَوِّنُ مَقَاسَةَ كُلِّ شَدِيدَةٍ؛ فلو انطوى الزوجان بعد الفُرقة على التَحَسُّرِ على ما فاتهما من الوصلة، وندما على ذلك غاية الندامة فلا جناح عليهما أن يتراجعا، والمرأة في هذه الحالة كأنها (.. .) ^(١) من الزوج الأول بمكان الزوج الثاني والزوج كالآتي على نفسه في احتمال ذلك.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿إِنْ طَلَّأَ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. يعني لا يعودان بعد ذلك إلى الفراق ثانياً إذا علما حاجة أحدهما إلى صاحبه، قال قائلهم:

ولقد حلفت لئن لقيتك مرةً ألا أعود إلى فراقك ثانية
قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأُنِيسُوهُنَّ مِمَّنَّ هُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْكِسُوهُنَّ مِمَّا زَكَرْنَا أَنْ يُقِيمَ اللَّهُ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

تضمنت الآية الأمر بمحسن العشرة، وترك المغايظة مع الزوجة، والمحك على وجه اللجاج؛ فإمّا تخلية سبيل من غير جفاء أو قيام بحق الصحبة على شرط الوفاء.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تضمنت الآية نهي الأولياء عن مضارتهن، وترك حمية الجاهلية، والانقياد لحكم الله في تزوج النساء إن أردن النكاح من دون استئجار الأنفة^(١) والحمية. بل إذا رضيت بكفو يخطبها فحرام عليكم ظلمها. والتذويب عن أوصاف البشرية بقهر النفس أشد مجاهدة وأصدق معاملة لله.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةُ﴾. غاية الرحمة التي يضرب بها المثل رحمة الأمهات؛ فأمر الله سبحانه الأمهات بإكمال الرحمة بإرضاع المولود حولين كاملين، وقطع الرضاعة عنه قبل الحولين إشارة إلى أن رحمة الله بالعبد أتم من رحمة الأمهات.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. يعني الأب عليه رزقهن وكسوتهن - أي الممرضعات - بالمعروف. لما بين عنك وجب حقهن عليك، فإن من لك كله فعليك كله.

ثم قال جل ذكره: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾. إدخار المستطاع بخُل، والوقوف - عند العجز - عذر.

ثم قال جل ذكره: ﴿لَا تُضَاكَّرُ وَلاَ وَلَدَةٌ يَوْلَدُهَا﴾. في الإرضاع وما يجب عليه.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُمْ يَوْلَدُوهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

يعني الوالد بولده يعني فيما يلزم من النفقة والشفقة. فكما يجب حق المولود على الوالدين يجب حق الوالدين على المولود.

ثم قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَلْفُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يعني فطاماً قبل الحولين، فلا جناح بعدما كان القصد الصلاح. اشتملت الآية على تمهيد طريق الصحبة، وتعليم محاسن الأخلاق في أحكام العسرة وإن من لا يَرْحَمَ لا يُرْحَمَ.

(١) الأنفة: العزة والحمية.

وقال ﷺ لمن ذكر أنه لم يُقَبَّل أولاده: «إن الله لا ينزع الرحمة إلا من قلب شقي»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لَمَّا كَانَ حَقُّ الْمَيِّتِ أَعْظَمَ لِأَن فِرَاقَهُ لَمْ يَكُنْ بِإِلْخِيَارٍ كَانَتْ مَدَةُ الْوَفَاءِ لَهُ أَطْوَلَ. وَكَانَتْ عِدَّةُ الْوَفَاءِ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ سَنَةً، ثُمَّ رُدَّتْ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةِ أَيَّامٍ لِتَتَحَقَّ بَرَاءَةُ الرَّحِمِ عَنِ مَاءِ الزَّوْجِ، ثُمَّ إِذَا انْقَضَتْ الْعِدَّةُ أُبِيحَ لَهَا التَّزْوِجُ بِزَوْجٍ آخَرَ. وَالْمَيِّتُ لَا يَسْتَدِيمُ وَفَاءَهُ إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ أَحَدٌ كَمَا قِيلَ:

وَكَمَا تَبْلَى وَجُودَ فِي الشَّرَى فَكَذَا يَبْلَى عَلَيْهِنَ الْحَزَنُ
قوله جل ذكره: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمُ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَسَرْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

أُبِيحَ مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ فِيهِ اسْتِجْلَابٌ لِلْمُودَةِ، وَتَأْسِيسٌ لِحَالِ الْوَصْلَةِ. وَحُرِّمَ مِنْهُ مَا فِيهِ ارْتِكَابُ الْمُحْظُورَاتِ مِنَ الْإِمَامِ بِذَنْبٍ أَوْ عِدَّةٍ بِجُرْمٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا عُقَدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.
أَيُّ تَنْقِضِي عِدَّةِ الْأَوَّلِ فَإِنْ حُزِمَ الْمَاضِي لَا تَضِيعُ.

قوله جل ذكره: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوُسْعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

إِنْ ابْتِلَاءٌ تَمَّ بِوَصِيلَةٍ أَشْكَالِكُمْ ثُمَّ بَدَالِكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي اخْتِيَارِ الْفَرْقَةِ - إِذَا أَرَدْتُمْ - فَإِنَّ الَّذِي لَا يَجُوزُ اخْتِيَارَ فَرْقَتِهِ - وَاحِدٌ؛ فَأَمَّا صَحْبَةُ الْخَلْقِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، بَلْ غَايَةُ وَصْفِهِ أَنَّهُ جَائِزٌ.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِنَ اسْمُكُمْ فَنَصَفَ الْمَسْمَى يَجِبُ لَهُنَّ، فَإِنَّ الْفِرَاقَ - كَيْفَمَا كَانَ - فَهُوَ شَدِيدٌ، فَجَعَلَ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعَوَضِ كَالْخَلْفِ لَهَا عِنْدَ تَجَرُّعِ كَأْسِ الْفَرْقَةِ.
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْمَى فَلَا يَخْلُو الْعَقْدُ مِنْ مَتْعَةٍ؛ فَإِنْ تَجَرَّعَ الْفَرْقَةَ - مُجَرِّدًا عَنِ الرَّاحَةِ - بِلَاءٌ عَظِيمٌ.

(١) أخرجه أبو داود (أدب ٥٨)، والترمذي (بز ١٦)، وأحمد بن حنبل ٣٠١/٢، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَمَنْدَ فَرَضْتُمْ مِنْ قِيَمَةٍ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

ثم ذكر أن العفو أتم وأحسن، إمّا من جهة المرأة في النصف المستحق لها، أو من قبل الزوج في النصف العائد إليه.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يقال من أخذ بالفضل واقتصر على الفرض فعن قريب يخل بالفرض.

ويقال نسيان الفضل يقرب صاحبه من البخل، وإن من سنة الكرام إذا خفيت عليهم مواضع الكرم أن يشحذوا بصائر الجود لتطالع لطائف الكرم فتتوفر دواعيهم في اقتناء أسباب الفضل.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

المحافظة على الصلاة أن يدخلها بالهيبة، ويخرج بالتعظيم، ويستديم بدوام الشهود بنعت، الأدب، والصلاة الواسطة أيهم ذكرها على البيت لتراعي الجميع اعتقاداً منك لكل واحدة أنها هي لثلا يقع منك تقصير في شيء منها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

أي لا تخلصوا بمناجاتي لأوقاتها على الوصف الذي أمكنكم فإن ما تحسونه من أعدائكم أنا سلطتهم عليكم، فإذا خلوتم بي بقلوبكم قصرت أيديهم عنكم، وجعلت لكم الظفر عليهم، ثم إذا زال عنكم الخوف وأمنتم فعودوا إلى استقراركم باستفراغ أوقاتكم في الاعتكاف بحضرتي سراً وجهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

كانت عدة الوفاة في ابتداء الإسلام سنة مستديمة كقول العرب وفعلهم ذلك حيث يقول قائلهم:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومن لبّاك حولاً كاملاً فقد اعتذر
ثم نُسِخَ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام إذ لا بد من انتهاء مدة الحداد ولقد
قال قائلهم:

قال: لو ميت لم أعش قلت: نافقت فاسكت

أي حيي رأيته مات وجداً بميت!

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمُطَلَقَاتِ مَنَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

الإشارة ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الدلائل، فتأدبوا بما أشير عليكم، وتفلحوا بما تعقلون من إشارات حكيم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

لما استبعدوا قدرة الله في الإعادة أراهم في أنفسهم عياناً، ثم لم ينفع إظهار ذلك لمن لم يشحذ بصيرته في التوحيد. ومن قويت بصيرته لم يضره عدم تلك المشاهدات فإنهم تحققوا بما أخبروا، لما آمنوا به بالغيب.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يعني إن مسكم ألم فتصاعد منكم أنين فاعلموا أن الله سميع لأنينكم، عليم بأحوالكم، بصير بأموركم. والآية توجب تسهيل ما يقاسونه من الألم، وقالوا:

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحَةً تمنيت أن أشكو إليك فتسمع.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

سُمي القرض قرضاً لأنه يقطع من ماله شيئاً ليعطيه للمقرض، والمتصدق لما يقطع الصدقة من ماله سميت صدقته قرضاً، فالقرض القطع، ولكن هذه التسمية لحفظ قلوب الأحباب حيث خاطبك في باب الصدقة باسم القرض ولفظه.

ويقال دلت الآية على عظم رتبة الغني حيث سأل منه القرض، ولكن رتبة الفقير في هذا أعظم لأنه سأل لأجله القرض، وقد يسأل القرض من كل أحد ولكن لا يسأل لأجل كل أحد. وفي الخبر «مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند أبي شحمة اليهودي على شعير أخذه لقوت عياله أبصر ممن اقترض ولأجل من اقترض»^(١).

ويقال القرض الحسن ما لا تتطلع عليه لجزاء ولا تطلب بسببه العوض.

ويقال القرض الحسن ألا يعطى على الغفلة، وإنما يعطى عن شهود.

(١) أخرجه البخاري (جهاد ٨٩)، (مغازي ٨٦)، والترمذي (بيوع ٧)، والنسائي (بيوع ٥٨، ٨٣)، وابن ماجه (رهون ١)، والدارمي (بيوع ٤٤)، وأحمد بن حنبل ٢٣٦/١، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٦١، ٣/١٠٢، ١٣٣، ٢٠٨، ٢٣٨، ٤٥٣/٦، ٤٥٧.

ويقال القرض الحسن من العلماء إذا كان عند ظهر الغني، ومن الأكابر إذا كان بشرط الإيثار يعطى ما لا بد منه.

ويقال القرض الحسن من العلماء عن مائتين خُمسة، وعلى لسان القوم بذل الكل، وزيادة الروح على ما يبذل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَصْطُطُّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يقبض الصدقة من الأغنياء قبض قبوله، ويبسط عليهم بسط خلفه.

ويقال يقبض الرزق أي يُضَيِّق، يبسط الرزق أي يوسع؛ يقبض على الفقراء ليمتحنهم بالصبر، ويبسط على الأغنياء ليطالبهم بالشكر.

ويقال يقبض تسليّة للفقراء ليطالبهم حتى لا يروا من الأغنياء، ويبسط لئلا يتقلدوا الميثة من الأغنياء.

ويقال قال للأغنياء: إذا أنا قبضت الرزق على الفقراء فلا تذروهم، وإذا أنا بسطت عليكم فلا تروا ذلك لفضيلة لكم.

ويقال قَبَضَ القلوب بإعراضه وبَسَطَهَا بإقباله.

ويقال القبض لما غلب القلوب من الخوف، والبسط لما يغلب عليها من الرجاء.

ويقال القبض لقهره والبسط لبرّه.

ويقال القبض لسرّه والبسط لكشفه.

ويقال القبض للمريدين والبسط للمُرادين.

ويقال القبض للمتسابقين^(١) والبسط للعارفين.

ويقال يقبضك عنك ثم يبسطك به.

ويقال القبض حقه، والبسط حظك.

ويقال القبض لمن تولّى عن الحق، والبسط لمن تجلّى له الحق.

ويقال يقبض إذا أشهدك فِعْلَكَ، ويبسط إذا أشهدك فضله.

ويقال يقبض بذكر العذاب ويبسط بذكر الإيجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا مَوْعِدَ يَوْمَ يُرْفَعُونَ أَفْئِدَتُكُمْ وَأَلْسِنَتُكُمْ لَكُمْ لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ فِي سَكِينِ اللَّهِ قَالَهُمْ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

أَفْسَدْتُمْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلُ فِي سَكِينِ اللَّهِ قَالَهُمْ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا.

استقبلوا الأمر بالاختيار، واقترحوا على نبيهم بسؤال الإذن لهم في القتال، فلمّا

(١) ربما «المتسابقين» إشارة إلى سورة الواقعة آية ١٠: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

أجيبوا إلى ما ضمنوه من أنفسهم ركنوا إلى التكاسل، وعرجوا في أوطان التجادل والتغافل. ويقال إنهم أظهروا التصلب والجِد في القتال ذَبًّا عن أموالهم ومنازلهم حيث:

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

فلذلك لم يتم قصدهم لأنه لم يخلص - لحق الله - عزمهم، ولو أنهم قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله لأنه قد أمرنا، وأوجب علينا، فإنه سيدنا ومولانا، ويجب علينا أمره - لعلهم وفقروا لإتمام ما قصدوه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُكُمْ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه كان فقيراً لا مال له، فبين لهم أن الفضيلة باختيار الحق، وأنه وإن عديم المال فقد زاده الله علماً ففضلكم بعلمه وجسمه، وقيل أراد أنه محمود خصال النفس ولم يرذ عظيم البنية فإن في المثل: «فلان اسم بلا جسم» أي ذكر بلا معنى.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمده بنأييد من قبله، فلما ملك طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيهم في اختياره، فرد عليهم التابوت الذي فيه السكينة، فاتضحت لهم آية ملكه، وأن نبيهم عليه السلام صدقهم فيما أخبرهم.

ويقال إن الله تعالى جعل سكينة بني إسرائيل في التابوت الذي رَضُوا عن الألواح، وعصا موسى عليه السلام، وأثار صاحب نبوتهم. وجعل سكينة هذه الأمة في قلوبهم، فقال: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين» ثم إن التابوت كان تتداوله أيدي الأعداء وغيرهم؛ فمرة كان يُذَفَن ومرة كان يُغَلَب عليه فيُحْمَل، ومرة يُرَد ومرة ومرة... وأما قلوب المؤمنين فَحَالٌ بين أربابها وبينها، ولم يستودعها ملكاً ولا نبياً، ولا سماء ولا هواء، ولا مكاناً ولا شخصاً، وقال ﷺ:

«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١) يعني في قبضة الحق سبحانه، وتحت تغليبهِ وتصريفهِ، والمراد منه «القدرة»، وشتان بين أمة سكينتهم فيما للأعداء عليه تَسَلُّطُ وأمة سكينتهم فيما ليس لمخلوق عليه لِسْطَان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾.

الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخلق بصحبة الخلق وبالدنيا وبالنفس، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدّ الاضطراب بمقدار القوام، وما لا بد منه نجا وسَلِمَ^(٢)، ومن جاوز حد الاضطراب وانبسط في صحبته مع شيء من ذلك من الدنيا والنفس والخلق بموجب الشهادة والاختيار - فليس من الله في شيء إن كان ارتكاب محذور، وليس من هذه الطريق في شيء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدٌّ.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

كذلك الخواص في كل وقت يقل عددهم ولكن يجعل قدرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فداخَلَهُمْ شيء من رعب البشرية، فربط الله على قلوبهم بما ذكرهم من نصرة الحق سبحانه لأوليائه إذا شاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

لا بهم ولكن بإذن الله، بمشيئته وعونه ونصرته، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَسِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

كان أهم أمورهم الصبر والوقوف للعدو، ثم بعده النصره عليهم، فإن الصبر حق الحق، والنصرة نصيبهم، فقدّموا تحقيق حقه - سبحانه - وتوفيقه لهم، ثم وجود

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٨/٢، ٩)، وابن أبي عاصم في (السنن ٩٩/١)، والطبري في (التفسير ١٢٦/٣)، وابن عساکر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٤١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/٢٥٥٧).

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٢، ٨٣.

حظهم من النصر، ثم أشاروا إلى أنهم يطلبون النصر عليهم - لا للانتقام منهم لأجل ما فاتهم من نصيبهم - ولكن لكونهم كافرين، أعداء الله.

فقاموا بكل وجه لله بالله؛ فلذلك نصروا ووجدوا الظفر.

قوله جل ذكره: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

هيب الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة في الجسم ولكن عند القتال جعل الظفر على يدي داود. وكان كما في القصة رُبْع القامة غير عظيم الجثة، مختصر الشخص، ولم يكن معه من السلاح إلا مقلع، ولكن الظفر كان له لأن نصره الله سبحانه كانت معه.

قوله جل ذكره: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فلم يبق منهم أثر ولا عين، وقتل داود جالوت وداود بالإضافة إلى جالوت في الضخامة والجسامة كان بحيث لا تتوهم غلبته إياه ولكن كما قال قائلهم:

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدا معذول

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

لو تظاهر الخلق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بتشاغلهم شرهم عن قوم.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

لم يكن في علمك ولا في وسع احتيالك الوقوف على هذه الغائبات من الكائنات التي سلفت، وإنما وقفت عليها بتعريف من قبيل الله سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الرُّسُلِ فَذَلَّلْنَا بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

جمعتهم الرسالة ولكن تباينوا في خصائص التفضيل، لكل واحد منهم أنوار، ولأنوارهم مطارح، فمنهم من هو أعلى نورا، وأتم من الرفعة وفورا. فلم تكن فضائلهم استحقاقهم على أفعالهم وأحوالهم، بل حُكْم بالحسنى أدركهم، وعاقبة بالجميل تداركتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنْ

اٰخْتَلَفُوْا فَيَنْتَهُم مِّنْ ءَاَمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا اَفْتَنَلُوْا وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ ﴿٦٤﴾

ولكنهم مُصْرَفُونَ بالمشيئة الأزلية، ومسلوبون من الاختيار الذي عليه المدار وبه الاعتبار. والعبودية شُدُّ نطاق الخدمة وشهود سابق القسم.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

يعني اغتنموا مساعدة الإمكان في تقديم الإحسان قبل فتور الجلد وانقضاء الأمل.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

«الله» اسم تفرّد به الحق - سبحانه فلا سميّ له فيه. قال الله تعالى: ﴿هَلْ نَعْلَمُ لَكَ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أي هل تعرف أحداً غيره تسمّى «الله»؟.

من اعتبر في هذا الاسم الاشتقاق فهو كالمعارض، فهذا اسم يدل على استحقاق صفات الجلال لا على اشتقاق الألفاظ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال.

قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: إخبار عن نفي النظير والشبيه، بما استوجب من التقديس والتزويه. ومن تحقق بهذه القالة لا يرى ذرّة من الإثبات بغيره أو من غيره؛ فلا يرفع إلى غيره حاجته، ولا يشهد من غيره ذرة، فيضدّق إليه انقطاعه، ويديم لوجوده انفرادَه، فلا يسمع إلا من الله وبالله، ولا يشهد إلا بالله، ولا يُقْبَلُ إلا على الله، ولا يشتغل إلا بالله، فهو محوّ عما سوى الله، فَمَالُهُ شكوى ولا دعوى، ولا يتحرك منه لغيره عِزْقٌ، فإذا استوفى الحق عبداً لم يَبْقَ للحفظ - البتة - مساع.

ثم إن هذ القالة تقتضي التحقق بها، والفناء عن الموسومات بجملتها، والتحقق بأنه لا سبيل لمخلوق إلى وجود الحق - سبحانه، فلا وصل ولا فصل ولا قُرْبَ ولا بُعد، فإن ذلك أجمع آفات لا تليق بالقَدَم.

وقوله: ﴿الحَيُّ الْقَيُّومُ﴾: المتولي لأمر عباده، القائم بكل حركة، و (المحوي)، لكل عين وأثر.

﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لأنه أحدي لا ترهقه غفلة، وصمد لا تمسه علة، وعزيز لا تقاربه قلة، وجبار لا تميزه عزلة، وفَرْدٌ لا تضمه جثة، ووتر لا تحده جهة، وقديم لا تلحقه آفة، وعظيم لا تدركه مسافة.

تَقْدَسُ مِنْ جَمَالِهِ جَلَالُهُ، وَجَلَالُهُ جَمَالُهُ، وَسَنَاوُهُ بَهَاوُهُ، وَبَهَاوُهُ سَنَاوُهُ، وَأَزَلُهُ أَبَدُهُ، وَأَبَدُهُ سَرْمَدُهُ، وَسَرْمَدُهُ قَدَمُهُ، وَقَدَمُهُ وَجُودُهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَمْ يَمَلِكْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ملكاً وإبداعاً، وخلقاً واختراعاً.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

من ذا الذي يتنفس بنفس (.. .)^(١) إلا بإجرائه، أو يتوسل إليه من دون إذنه وإبدائه. ومن ظنّ أنه يتوسل إليه باستحقاق أو عمل، أو تدلل أو أمل، أو قرينة أو نسب، أو علة أو سبب - فالظنّ وطنه والجهل مآلفه والغلط غايته والبعد قُصاراه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

لأنه لا يخرج عن علمه معلوم، ولا يلتبس عليه موجود ولا معدوم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

يعني من معلوماته، أي تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه. فأبي طمع لها في الإحاطة بذاته وحقه؟ وأنتى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه في عزّه أمد، ولا يدركه حد؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

خطاب لهم على قدر فهمهم. وإلا فأبي خطرٍ للأكوان عند صفاته؟

جلّ قدره عن التعزز بعرش أو كرسي، والتجمل بجنٍ أو إنسي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يُؤْثِرُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

كيف تُثعب المخلوقات من خلق الذرة والكون بجملته - لو سواء؛ فلا من القليل له تيسر، ولا من الكثير عليه تعسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

فإن الحجج لائحة، والبراهين ظاهرة واضحة.

﴿قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾.

وامتاز الليل بظلامه عن النهار بضياءه، والحقوق الأزلية معلومة، والحدود الأولية معلولة فهذا بنعت القدم وهذا بوصف العدم.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾.

وطاغوت كل واحد ما يشغله عن ربه.

﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾.

والإيمان حياة القلب بالله.

﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾.

الاستمساك بالعروة الوثقى الوقوف عند الأمر والنهي، وهو سلوك طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

﴿لَا أَنْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فمن تحقق بها سرّاً، وتعلّق بها جهراً فاز في الدارين وسعد في الكونين.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الولي بمعنى المتولي لأموالهم، والمتفرد بإصلاح شؤونهم، ويصح أن يكون الولي على وزن فاعيل في معنى المفعول فالمؤمنون يقولون طاعته. وكلاهما حق: فالأول جمع والثاني فرق، وكلّ جمع لا يكون مقيداً بفرق وكلّ فرق لا يكون مؤيداً بجمع فذلك خطأ وصاحبه مبطل^(١) والآية تُحمّلُ عليهما جميعاً.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

يعني بحكمه الأزلي صانهم عن الظلمات التي هي الضلال والبدع، لأنهم ما كانوا في الظلمات قط في سابق علمه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ما استهواهم من دواعي الكفر.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

باستيلاء الشبه على قلوبهم، فيجحدون الربوبية، أولئك الذين بقوا عن الحق بقاء أبدياً.

ويقال يخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره.

ويقال يخرجهم من ظلمات ظنونهم أنهم يتوسلون أو يصلون إليه بشيء من سكناتهم وحركاتهم.

ويقال يخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظلّ أنفسهم ويدخلهم في ظلّ عنايته.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٤ - ٦٦.

ويقال يخلصهم عن حساب النجاة بهم .

ويقال يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم والاستناد إلى أحوالهم .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْطِي وَيُعِيتُ قَالَ أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ١٢٠﴾ .

عَجَّلَ الحق سبحانه لأعدائه عقوبة الفرقة قبل أن يعاقبهم بالحرقة، وهذه العقوبة أشد أثراً في التحقيق - لو كانت لهم عين البصيرة . وإن الحق سبحانه أخبر أن إبراهيم عليه السلام انتقل مع العدو اللعين من الحجة الصحيحة إلى أخرى، أَوْضَحَ منها - لا لِيُخَلِّلَ في الحجة - ولكن لِقِصُورٍ في فهم الكافر، ومَحَكُ مَنْ سُدَّتْ بَصَائِرُهُ عَنِ التَّحْقِيقِ تَضْيِيعُ الوقت بلا فائدة تُجَلِّدِي، لا بمقدار ما يكون من الحاجة لأمر لا بُدَّ منه .

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْطِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٢١﴾ .

لم يكن لك سؤال جحد، ولا قضية جهل، ولا دلالة شك في القدرة، فإن هذا الخبر عن عُزْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام، والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم الشك والجهل، ولكنه كان سؤال تعجب، وأراد بهذه المقالة زيادة اليقين، فأراه الله ذلك في نفسه، بأن أماته ثم أحياه ثم بعث حماره وهو ينظر إليه، فازداد يقيناً على يقين . وسؤال اليقين من الله، والحيلة في ردِّ الخواطر المشككة، دَيْدُنُ^(١) المتعرفين، ولذلك (...)(٢) الله سبحانه عُزِيراً في هذه المقالة حتى قَدَّرَ عليه ما طلب من زيادة اليقين فيه . ثم قال ﴿واعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ من الإحياء والإماتة أي ازدادت معرفة بذلك، وأراني من عظيم الآيات ما ازداد به يقيناً؛ فَإِنَّ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لَمْ يَتَغَيَّرَا في طول تلك المدة، وحماره مات بلا عظام والطعام والشراب بالتغيير أولى .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ تَوْحِيدَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّئَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٢٢﴾ .

(١) الديدن: العادة والدأب.

(٢) بياض في الأصل.

قيل كان في طلب في زيادة اليقين، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان له حاصلًا من عين اليقين^(١).

وقيل استجلب خطابه بهذه المقالة إلى قوله سبحانه: ﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ كُنتَ أَوْمَنَ وَلَكِنِّي اشْتَقْتُ إِلَىٰ قَوْلِكَ لِي: أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ، فَإِنْ بِقَوْلِكَ لِي: ﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ﴾ تَطْمِينًا لِقَلْبِي. والمحبُّ أبدًا يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أي وجه أمكنه.

وقيل: إنه طلب رؤية الحق سبحانه ولكن بالرمز والإشارة فَمُنِعَ منها بالإشارة بقوله ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وإن موسى - عليه السلام - لما سأل الرؤية جهراً وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فَرَدَّ بالجهر صريحاً وقيل له ﴿لَنْ تَرَنِي﴾.

وقيل إنما طلب حياة قلبه فأشير إليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور، وفي الطيور الأربعة طاووس، والإشارة إلى ذبحه تعني زينة الدنيا، وزهرتها، والغراب لجزئه، والديك لمشيته، والبط لطلبه لرزقه.

ولما قال إبراهيم عليه السلام ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾؟ قيل له: وأرني كيف تذبح الحي؟ يعني إسماعيل، مطالبة بمطالبة. فلماً وُقِيَ بما طولب به وُقِيَ الحق سبحانه بحكم ما طلب.

وقيل كان تحت ميعاد من الحق - سبحانه - أن يتخذ خليلاً، وأمانة ذلك إحياء الموتى على يده، فجرى ما جرى.

ووصل بين قصة الخليل ﷺ فيما أراه وأظهره على يده من إحياء الموتى وبين عَزِيرِ إِذْ أَرَاهُ فِي نَفْسِهِ؛ لأن الخليل يَرْجُحُ على عزيز في السؤال وفي الحال، فإن إبراهيم - عليه السلام - لم يَرُدَّ عليه في شيء ولكنه تَلَطَّفَ في السؤال، وعَزِيرُ كَلِمَةٍ كَلَامٍ مِنْ يُشَبِّهُ قَوْلَهُ قَوْلَ الْمُسْتَبْعِدِ، فأراد الحق أن يظهر له أقوى معجزة وأتم دلالة حيث أظهر إحياء الموتى على يده حين التمس على نمرود ما قال إبراهيم - عليه السلام - ربي الذي يحيي ويميت، فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أراد إبراهيم أن يُرِيَهُ الله سبحانه إحياء الموتى ليعلم أنه ليس هو الذي ادَّعى.

وفي هاتين الآيتين رخصة لمن طلب زيادة اليقين من الله سبحانه وتعالى في حال النظر.

ويقال إن إبراهيم أراد إحياء القلب بنور الوصلة بحكم التمام، فقيل له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ يعني أما تذكر حال طلبك إيانا حين كنت تقول لكل شيء رأيتُه ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧] فلم تَدِرْ كيف بَلَّغْنَاكَ إلى هذه الغاية، فكَذَلِكَ يوصلك إلى ما سَمَّيْتُ إِلَيْهِ هِمَّتُكَ.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٥ و ٣١١ - ٣١٧.

والإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء يعني النفس؛ فَمَنْ لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يَخَيِّ قلبه بالله .

وفيه إشارة أيضاً وهو أنه قال قَطَعَ بيدك هذه الطيور، وَفَرَّقْ أجزاءها، ثم ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا، فما كان مذبحاً بيد صاحب الخلعة، مقطوعاً مُفَرَّقاً بيده - فإذا ناداه استجاب له كل جزء مُفَرَّقٌ . . كذلك الذي فَرَّقَهُ الحق وشَتَّتَهُ فإذا ناداه استجاب :

ولو أَنَّ فَوْقِي تُرْبَةٌ وَدَعَوْتَنِي لَأَجِبْتُ صَوْتَكَ وَالْعِظَامُ رُفَاتٌ^(١)

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُلْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

فَالْخَلْفُ لَهُمُ الْجَنَّةُ، والذين ينفقون أرواحهم في سبيل الله فَاَلْخَلْفُ عَنْهُمْ الْحَقُّ سبحانه، وشتان بين خلف من أنفق ماله فوجد مثوبته، وَمَنْ أنفق حاله فوجد قربته؛ فَإِنْفَاقُ الْمَالِ فِي سَبِيلِهِ بِالْصَّدَقَةِ، وَإِنْفَاقُ الْأَحْوَالِ فِي سَبِيلِهِ بِمِلَازِمَةِ الصَّدَقِ، وبِنَفْيِ كُلِّ حَظٍّ وَنَصِيبٍ، فترضى لجريان حكمه عليك من غير تعيس القلب، قال قائلهم:

أُرِيدُ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

والإنفاق على ضربين: إنفاق العابدين وإنفاق الواجدين . أمَّا العابدون فإذا أنفقوا حَبَّةً ضَاعَفَ لَهُمْ سَبْعِينَ إِلَى مَا لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ، وَأَمَّا الْوَاجِدُونَ فَمَا قِيلَ:

فَلَا حَسَنٌ نَّاتِي بِهِ يَقْبَلُونَهُ وَلَا إِنْ أَسَانَا كَانَ عِنْدَهُمْ مَحْوٌ

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

الْمَنْ شَهِدَ مَا تَفَعَّلَهُ، وَالْأَذَى تَذَكِيرُكَ - لِمَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ - إِحْسَانُكَ .

وَيَقَالُ يَنْفِقُونَ مَا يَنْفِقُونَ ثُمَّ لَا يَشْهَدُونَ أَلْبَتَ أَعْمَالَهُمْ وَلَا أَعْمَالَهُمْ .

وَيَقَالُ كَيْفَ يَمْنُونَ بِشَيْءٍ تَسْتَغْذِرُونَهُ وَتَسْتَحَقُّونَهُ .

وَيَقَالُ لَا يَمْنُونَ بِفَعْلِهِمْ بَلْ يَشْهَدُونَ الْمَنَّةَ اللَّهُ بِتَوْفِيقِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

قوله جل ذكره: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَفِيفٌ

حَلِيمٌ﴾ .

يعني قولٌ - للفقير المجرد - يرد به من تعرض له بإظهار العذر خير وأتم من صدقة المعجبِ بفعله، وما يتبع من إلزام المنة فيه .

(١) الرُّفَاتُ: الحُطَامُ أي كل ما تكسر وبلي فتفتت .

ويقال إقرار منك مع الله بعجزك وجُرمك، وغفران الله لك على تلك القالة -
خبرٌ مِنْ صَدَقَةِ الْمُنْ مَشُوبَةٍ، وبالأذى مصحوبة.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا وَالنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

إنما يُحْمَلُ جميلُ المنة من الحق سبحانه، فأما من الخلق فليس لأحد على غيره مِنَّةٌ؛ فَإِنَّ تَحْمِلَ الْمُنِّ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ أعظمُ محنة، وشهود المنة من الله أعظمُ نعمة، قال قائلهم:

ليس إجلالُكَ الكبارِ بِذُلِّ إنما الذُّلُّ أَنْ تُجِلَّ الصُّغَارَا

ويقال أفقرُ الخلقِ مَنْ ظَنَّ نفسه موبِراً فَيَبِينُ له إفلاسه، كذلك أقلُّ الخلقِ قدراً من ظنَّ أنه على شيءٍ فيبدر له من الله ما لم يكن يحتسبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُبَيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَا تَصْلُونَ بِصِيرٍ أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق:
لمن أنفق في سبيل الله، وللمن أنفق ماله في الباطل؛ فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف، وهؤلاء لا يحصل لهم في الحال إلا الرد، وفي المال إلا التلف. وهؤلاء ظلَّ سعيهم مشكوراً، وهؤلاء يدعون ثوراً ويضلُّون سعيماً. هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم، وهؤلاء حبطت أعمالهم وخسرت أحوالهم وختم بالسوء آمالهم ويضاعف عليهم وبآلهم.

ويقال مثَلُ هؤلاء كالذي أثبت زرعاً فزكا أصله ونما فصله، وعلا قُرْعُهُ وكثر ثَفْعُهُ. ومثَلُ هؤلاء كالذي خسرت صفقته وسرقت بضاعته وضاعت - على كبره - حيلته وتواترت من كل وجه وفي كل وقت محنته... هل يستريان مثلاً؟ هل يتقاربان شبهاً؟

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِن طِبْعَتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْزِلِ وَلَا تَيَسَّمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِبَاجِذِينَ إِلَّا أَنْ تَنْفِقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾.

لينظر كل واحد ما الذي ينفقه لأجل نفسه، وما الذي يخرج به بأمر ربه. والذي يخرج عليك من ديوانك: فما كان لحظك ففائس ملكك، وما كان لربك فخصائص مالك الذي لله (فَاللَّقَمَةُ لُقْمَتُهُ)، والذي لأجلك فأكثرها قيمة وأكملها نعمة.

ثم أبصر كيف يستر عليك بل كيف يقبله منك بل أبصر كيف يعوضك عليه، بل أبصر كيف يقبله منك، بل أبصر كيف يمدحك بل أبصر كيف ينسبه إليك؛ الكل منه فضلاً لكنه ينسبه إليك فعلاً، ثم يُولي عليك عطاءه ويسمي العطاء جزاءً، يوسعك بتوفيقه برأً، ثم يملأ العالم منك شكراً.

قوله جل ذكره: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

يَعِدُ الشَّيْطَانُ الْفَقْرَ لفقره، والله يَعِدُ المغفرة لكرمه.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم الْفَقْرَ فيشير عليكم بإحراز المعلوم، ويقال يشير عليكم - بطاعته - بالحرص؛ ولا فقر فوقه.

يَعِدُكُم الْفَقْرَ بالإحالة على تدبيركم واختياركم.

يَعِدُكُم الْفَقْرَ بنسيان ما تَعَوَّذْتُمُوهُ مِنْ فضله - سبحانه.

ويقال يَعِدُكُم الْفَقْرَ بأنه لا يزيد شكائتك.

ويقال يَعِدُكُم الْفَقْرَ بتعليق قلبك بما لا تحتاج إليه.

ويقال بالتلبيس عليك رؤية كفايته.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي الرغبة في الدنيا، ويقال بالأسباب التي تقوي

الحرص، ويقال بكثرة الأمل ونسيان القناعة، ويقال بمتابعة الشهوات، ويقال بإيثار الحظوظ، ويقال بالنظر إلى غيره، ويقال بإخطار شيء سواء ببالك.

ويقال بالانحطاط إلى أوطان الرُّخص والتأويلات بعد وضوح الحق.

ويقال بالرجوع إلى ما تركته الله.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضلاً﴾: الفضل الموعود - في العاجل - القناعة، وفي

الآجل الثواب والجنان والرؤية والرضوان و (....) ^(١) والغفران.

ويقال في العاجل الظفر بالنفس، ويقال فتح باب العرفان، ونشر بساط القرب،

والتلقي لمكاشفات الأنس.

قوله جل ذكره: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

وَمَا يَدَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

الحكمة: يحكم عليكم خاطر الحق لا داعي النفس، وتحكم عليكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان.

ويقال الحكمة صواب الأمور.

ويقال هي ألا تحكم عليك رعونات البشرية.

(ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره).

ويقال الحكمة موافقة أمر الله تعالى، والسفة مخالفة أمره.

ويقال الحكمة شهود الحق والسفة شهود الغير.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

قوم توعدهم بعقوبته، وآخرون توعدهم بمثوبته... وآخرون توعدهم بعلمه؛ فهؤلاء العوام وهؤلاء الخواص. قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] فلا شيء يوجب سقوط العبد من عين الله كمخالفته لعهوده معه بقلبه، فليحذر المريد من إزالال^(١) نفسه في ذلك غاية الحذر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا آلَافْرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفِرْ عَنْكُمْ مِنْ سَعْيِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾.

إن أظهرت صحتك معنا وأعلنت فلقد جوذت وأحسن، وإن حفظت سرتنا عن دخول الوسائط بيننا ضنت شروط الوداد، وشيدت من بناء الوصلة العماد.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

لك المقام المحمود، واللواء المعقود، والرتب الشريفة، والمنازل العلية، والسنن المرضية. وأنت سيد الأولين والآخرين، ولا يدانيك أحد - فضلاً عن أن يساميك، ولكن ليس عليك هداهم فالهداية من خصائص حقنا، وليس للأغيار منه شطية. يا محمد: أنت تدعوهم ولكن نحن نهديهم.

قوله جل ذكره: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَغْنُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَقْفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

(١) أزله: حمله على ارتكاب الذنب أو الخطيئة.

أخذ عليهم سلطان الحقيقة كل طريق، فلا لهم في الشرق مذهب، ولا لهم في الغرب مضرب. كيفما نظروا رأوا سرادقات^(١) التوحيد محدقة بهم:

كَأَنَّ فَجَاجَ الْأَرْضِ ضَاغَتْ بِرَحِيحِهَا عَلَيْهِمْ فَمَا تَزْدَادُ طَوْلًا وَلَا عَرْضًا
ولا يسلم لهم نفس مع الخلق، وأنى بذلك ولا خَلَقَ!! وإذا لم يكن فإثبات ما
ليس نَبْرُكُ (.....)^(٢) في التوحيد.

والفقير الصادق واقف مع الله بالله، لا إشراف للأجانب عليه، ولا سبيل
لمخلوق إليه تنظره عين الأغيار في لبسة سوى ما هو به؛ قال تعالى: ﴿يَحْجُبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ﴾ فأما من كان ذا بصيرة فلا إشكال عليه في شيء من
أحراهم. تعرفهم يا محمد - أنت - بسيماهم، فليست تلك السيماء مما يلوح للبصر
ولكنها سيماء تدركها البصيرة. لا إشراف عليهم إلا بنور الأحدية.

ويقال: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾: استبشار قلوبهم عند انكسار نفوسهم، وصياح
أسرارهم إلى العرش (نشاطاً عنه) عند ذبول ظاهريهم عن الانتعاش.

ويقال تكسر الظاهر عند تكسر الباطن وبالعكس من هذه لا يسألون الناس
إلحافاً، فإن جرى منهم من الخلق بدون الإلحاف سؤال - لما يشير إليه دليل الخطاب
- فذلك صيانة لهم ولسرقتهم، لئلا يلاحظهم الخلق بعين السؤال، وليس على
سرهم ذرة من الإثبات للأغيار.

ويقال: ﴿أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وقفوا على حكم الله، وأخضروا
نفوسهم على طاعته وقلوبهم على معرفته، وأرواحهم على محبته، وأسرارهم على
رؤيته.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْأَثَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ما دام لهم مال لا يفترون ساعة عن إنفاقه ليلاً ونهاراً، فإذا نفذ المال لا يفترون
عن شهوده لحظة ليلاً ونهاراً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ
مِنَ الْمَمْنِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَأَنْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(١) السرادقات: (ج) السرادق: ما يمد فوق صحن الدار وهو ستر الدار. أو هو الخيمة الواسعة.

(٢) بياض في الأصل.

مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْأَمْرِ، وَرَخَّصَ لِنَفْسِهِ بِمَا يَسْأَلُهُ لَهُ خَاطِرُهُ مِنَ التَّأْوِيلِ فَلَا اسْتِقْلَالَ لَهُمْ فِي الْحَالِ وَلَا اتِّعَاشَ فِي الْمَالِ؛ خَسِرُوا فِي عَاجِلِهِمْ وَلَمْ يَرْبِحُوا فِي آجِلِهِمْ .
وَمَنْ اتَّبَعَ بِزَوَاجِرِ الْوَعْظِ، وَكَبَّحَ لِحَاجَةِ الْهَوَى، وَلَمْ يُطْلِقْ عَنَانَ الْإِصْرَارِ فَلَهُ الْإِمْهَالُ فِي الْحَالِ، فَإِنْ عَادَ إِلَى مَذْمُومِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ فَلْيَنْتَظِرُوا أَوْشَكَ الْاسْتِثْصَالَ وَفَجَاءَ النَّكَالُ .

قوله جل ذكره: ﴿يَمَحُقْ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ .
ما كان بإذن منه - سبحانه - من التصرفات فمقرون بالخيرات، ومصحوب بالبركات . وما كان بمتابعة الهوى يُسَلِّطَ عليه المَحْقُ، وكانت عاقبة أمره الخسران .
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

إن الذين كانوا لنا يكفيهم ما يجدون ميثاً، لا نضيع أجر من أحسن عملاً .
قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .
الاكتفاء بموعود الرب خير للمسلم من تعليق قلبه بمقصود نفسه .
ومقصودك من تساويلات النفس، وموعودك مما ضمنه الحق .
قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا فَاذْنُوا يُحَرِّبَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُجُومٌ أَمْوَالُكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ .

إن صاحب الإصرار ليس له عندنا وزن ولا مقدار، ولا قَدْرٌ ولا أخطار .
قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

إذا تقرر عند القاضي إفلاس المحبوس فلا تحل له استدامة حبسه، وإن ظهرت لذي الحق حجة المفلس فذلك مرتين بحق خصمه، ولكنه في إمهال وإنظار . والرب لا يحكم بهذا علينا؛ فمع علمه بإعسارنا وعجزنا، وصدق افتقارنا إليه وانقطاعنا له - يرحمنا .
قوله: ﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ . ليس للمفلس المفلس وجه يحصل له منه شيء إلا من حيث ما جعل الله سبحانه من سهم الغارمين، فأما من جهة الغلات فالغلة تدخل من رقاب الأموال والعقد . . . وأنى للمفلس به؟!

وأما الربح في التجارة من تقليب رأس المال والتصرف فيه . . . فأنى للمفلس به؟!
ما بقي للمفلس إلا قول من قال من الفقهاء (.....) (١) وإن كان ضعيفاً،

(١) بياض في الأصل .

فذلك لمن بقيت له منة الحراك أما المفلس عن قوته - كما هو مفلس عن ماله - ما بقي له وجه إلا ما يسبب له مولاه .

قرله جل ذكره: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

الرجوع على ضريبن: بالأبشار والنفوس غداً عند التوفي، وبالأسرار والقلوب في كل نفس محاسبة؛ نقدً ووعد، فنقدُ مطالبة أحق مما سيكون في القيامة من وعده .

وقال للعوام: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ﴾ وقال للخواص: ﴿وَأَيَّتَى فَأَتَقُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَانِيَتْهُم بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْكُتُوا وَلْيَكُتِبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْمَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتِبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلْيُكْتُبْ بِالْمَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْب الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُتُبُوا صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَّآ أَجْلاً ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّآ أَنْ تَكُونَ تَحَدُّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ سُوءٌ بِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءِثْمُ قَلْبِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ .

أمر الله سبحانه الخلق بالقيام بالصدق، وعلمهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم، والأخذ بالاحتياط والاستشهاد لثلاث يُجْزِي - بعضهم على بعض - حيفاً، وذلك من مقتضى رحمته سبحانه عليهم، وموجب رفقته بهم كيلا يتخاصموا. فأمر بتحصيل الحقوق بالكتابة والإشهاد، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة .

ومن شرع اليوم ما يقطع الخصومة بينهم فبالحري أن يجري ما يرفع في الآخرة آثار الخصومة بينهم، وفي الخبر المنقول: «تواهبوا فيما بينكم فقد وهبت منكم مالي عليكم، فإن الكريم إذا قدر غفر» .

وفيما شرع من الدين رفق بأرباب الحاجات، لأن الحاجة تمس فيحمله الحال على الاحتياط، ويضيق به الصدر عن الاحتمال، ويمنعه حفظ التجمل عن الكدية والسؤال، فأذن له في الاستدانة ليجبر أمره في الحال، وينتظر فضل الله في المال،

وقد وعد على الإدانة الثواب الكثير، وذلك من لطفه تعالى .

قوله جل ذكره: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

من المعاني والدعاوى، ويقال من القصود والרגائب، وفنون الحوائج والمطالب .

ويقال ما «تبدية»: العبادة، «وما تخفيه» الإرادة .

ويقال ما «تخفيه»: الخطرات و«ما تبدية»: «العبارات» .

ويقال ما «تخفيه»: السكنات والحركات .

ويقال الإشارة فيه إلى استدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة، فلا تغفل خطرة

ولا تحمل وقتك نفساً .

قوله جل ذكره: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .

هذه شهادة الحق - سبحانه - لنبيه - ﷺ وعلى آله - بالإيمان، وذلك أتم له من إخباره عن نفسه بشهادته .

ويقال آمن الخلق كلهم من حيث البرهان وآمن الرسول - عليه السلام - من حيث العيان .

ويقال آمن الخلق بالوسائط وآمن محمد - ﷺ - بغير واسطة .

ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القدر فقال: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ﴾ ، ولم يقل آمنت، كما تقول لعظيم الشأن من الناس: قال الشيخ، وأنت تريد قلت .

ويقال: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ، ولكن شتان بين إيمان وإيمان، الكل آمنوا استدلالاً، وأنت يا محمد آمنت وصلاً .

قوله جل ذكره: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ .

لكمال رحمته بهم وقفهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير، كل ذلك رفق منه وفضل .

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ .

من الخيرات .

﴿وَعَلَيْهَا مَا أَكْسَبَتْ﴾ .

ما تكسبه من التوبة التي تُنجي من كسب .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ .

كان إذا وقعت حاجة كلموه بلسان الواسطة. قالوا: ﴿يُمَوِّسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّنَا﴾ [الأعراف: ١٣٤] وهذه الأمة قال لهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وكانت الأمم (السالفة) إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضي مدة لقبول التوبة، وفي هذه الأمة قال ﷺ: «الندم توبة»^(١).

وكانت الأمم السالفة منهم من قال اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وهذه الأمة اختصت بإشراق أنوار توحيدهم، وخصائصهم أكثر من أن يأتي عليه الشرح. قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾.

في الحال.

﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾.

في المال.

﴿وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

في جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك، فأنت مولانا فاجعل النصر لنا على ما يشغلنا عنك.

ولما قالوا: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ خَسَفَ الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة. والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤٢٥٢) وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٧٦/١، ٤٢٣، ٤٣٣) والبيهقي في (السنن الكبرى ١٥٤/١٠) والحاكم في (المستدرک ٢٤٣/٤) والحميدي في (المسند ١٠٥) وأبو حنيفة في (جامع مسانيد ٩٨/١) وابن حجر في (فتح الباري ١٠٣/١١) والطبراني في (المعجم الصغير ٣٣/١) وابن عبد البر في (التمهيد ٤٥/٤) والمنذري في (الترغيب والترهيب ٩٧/٤، ٩٨) والبيهقي في (شرح السنة ٩١/٥) والطحاوي في (مشكل الآثار ١٩٩/٢) والشجري في (آمال ١/١٩٥، ١٩٦) والهيثم في (مجمع الزوائد ١٩٩/١٠، ٢٠٠) وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢٥١/٨ - ٣١٢، ٣٩٨/١٠) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٠٣٠١ - ١٠٣٠٣) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/٣٤١) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٩٧/٧) والعراقي في (المفني عن حمل الأسفار ٣/٤) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٤٣٦/٢ - ٧٩٧) والهروي (١٠٩/٤) (وصاحب شرح معاني الآثار ٢٩١/٤) والسيوطي في (الدر المنثور ٤٤/٥) والسهمي في (تاريخ جرجان ٧٣، ١٦٢) وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان ١/١٤٠ - ٢٠٩) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٩/٤٥٥) وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ١٨١٦ - ١٨٤١ - ١٨٨٩ - ١٩١٨) والمجلوني في (كشف الخفاء ٣٥/١) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢٠٣/١، ٢٠٣/٤ - ١٣٢٩ - ١٣٨١ - ١٣٦٤ - ١٤٩٩، ٢٦٦٨/٧).

السورة التي يذكر فيها آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اختلف أهل التحقيق في اسم «الله» هل هو مشتق من معنى أم لا؟ فكثير منهم قالوا إنه ليس بمشتق من معنى، وهو له سبحانه على جهة الاختصاص يجري في وضعه مجرى أسماء الأعلام في صفة غيره، فإذا قرع بهذا اللفظ أسماء أهل المعرفة لم تذهب فهمهم ولا علمهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه. وحق هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب فإذا قال بلسانه «الله» أو سمع بأذانه شهد بقلبه «الله».

وكما لا تدل هذه الكلمة على معنى سوى «الله» لا يكون مشهوداً قائلها إلا «الله» فيقول بلسانه «الله»، ويعلم بفؤاده «الله»، ويعرف بقلبه «الله»، ويحب بروحه «الله»، ويشهد بسره «الله»، ويتعلق بظاهره بين يدي الله، ويتحقق بسرّه الله، ويخلو بأحواله الله وفي الله؛ فلا يكون فيه نصيب لغير الله، وإذا أشرف على أن يصير محوفاً في الله بالله تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقوله الرحمن الرحيم استبقاءً لمهجتهم أن تلتف، وإرادةً في قلوبهم أن تنقى؛ فالتلطف سنة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية. قوله جل ذكره: ﴿الْعَلَمَ اللَّهُ﴾.

أشار بقوله ألف إلى قيامه بكفايتك على عموم أحوالك، فأنت في أسر الغفلة لا تهتدي إلى صلاحك ورشدك، وهو مجر ما يجبرك، وكاف بما ينصرك، فغير سؤالك - بل بغير علمك بحالك - يكفيك من حيث لا تشعر، ويعطيك من غير أن تطلب.

والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفي السر حتى أنه لا يظهر عليك محل المنة فيما يثبتك فيه. والإشارة من الميم لموافقة جريان التقدير بمتعلقات الطلبة من الأولياء، فلا يتحرك في العالم شيء، ولا تظهر ذرة إلا وهو بمحل الرضا منهم حتى أن قائلاً لو قال في قوله: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] إن ذلك الشأن تحقيق مراد الأولياء - لم يكن ذلك ببعيد.

ويقال تفرق عن القلوب - باستماع هذه الحروف المقطعة التي هي خلاف عادة الناس في التخاطب - كل معلوم ومرسوم، ومعتاد وموهوم، من ضرورة أو جس أو اجتهد، حتى إذا خلت القلوب عن الموهومات والمعلومات، وعفى الأسرار عن

المعتادات والمعهودات يَرِدُ هذا الاسم وهو قوله: «الله» على قلب مقدس من كل غير، وسِرُّ مصفى عن كل كيف؛ فقال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ الْغَيْبُ﴾.

فهو الذي لا يلهو فيشتغل عنك، ولا يسهو فتبقى عنه، فهو على عموم أحوالك رقيب سرك؛ إذ خلوت فهو رقيبك، وإن توسطت الخلق فهو رقيبك، وفي الجملة - كيفما دارت بك الأحوال - فهو حبيبك.

قوله جل ذكره: ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾.

وما كنت يا محمد تدري ما الكتاب، ولا قصة الأحباب، ولكنما صادفك اختيار أزلني فألقاك في أمر عجيب شأنه، جلي برهانه، عزيز محلّه ومكانه. ﴿مَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي محققاً لموعوده لك في الكتاب على السنة الرسل عليهم السلام. ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هَٰذَا هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

أي إنا وإن أنزلنا قبلك كُتُبَنَا على المرسلين فما أخلينا كتاباً من ذكرك، قال قائلهم:

وعندي لأحبابنا الغائبين صحائفُ ذكركُ عنوائها

وكما أتمنا بك أنوار الأنبياء زينا بذكرك جميع ما أنزلنا من الأذكار.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

وهو ذلّ الحجاب، ولكنهم لا يشعرون.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ على أوليائه ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ من أعدائه، عزيز يطلبه كل أحد، ولكن لا يجده - كثيراً - أحد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

لا يتنفس عبدٌ نفساً إلا والله سبحانه وتعالى مُخَصِّيه، ولا تحصل في السماء والأرض ذرة لا وهو سبحانه مُخَدِّثُهُ ومُبْدِيهِ، ولا يكون أحد بوصف ولا نعت إلا هو متوليه.

هذا على العموم، فأما على الخصوص: فلا رَفَعَ أحدٌ إليه حاجةً إلا وهو قاضيا، ولا رجع أحدٌ إليه في نازلة إلا وهو كافيا.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

هذا فيما لا يزال من حيث الخلقة، وهو الذي قدّر أحوالكم في الأزل كيف شاء، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسم.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

فلا يُعَقَّبُ حكمه بالنقض ، أو يُعَارَضُ تقديره بالإهمال والرفض .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أَمْ الْكِتَابِ وَالْأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ .

جَسَسَ عليهم الخطاب؛ فَمِنْ ظاهرٍ واضح تنزيله، ومن غامضٍ مشكل تأويله .
القِسْمُ الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر، والقِسْمُ الثاني لصيانة الأسرار عن اطلاع الأجانب عليها، فسيّل العلماء الرسوخ في طلب معناه على ما يوافق الأصول، فما حصل عليه الوقوف فمُقَابِلٌ بالقبول، وما امتنع من التأثير فيه بمعلول الفكر سلّموه إلى عالم الغيب .

وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب، فما سنح لفهومهم من لائح التعريفات بَنَوْا (عليه) إشارات الكشف .

إِنْ (طولبوا) باستدامة الستر وطَيَّ السَّرَّ تخارسوا عن النطق، وَإِنْ أُمِرُوا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق، ونطقوا عن تعريفات الغيبة، فأَمَّا الَّذِينَ أُيِّدُوا بأنوار البصائر فمستضيئون بشعاع شمس الفهم، وَأَمَّا الَّذِينَ أَلْبَسُوا غطاء الريب، وحرّموا لطائف التحقيق، فتنقسم بهم الأحوال وَتَتَرَجَّمُ بهم الظنون، ويطيحون في أودية الرِّيب والتليس، فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل، ونفوراً على شك .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ .

وَمَنْ وجد علمه من الله فيكون إيمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز بل عن صريحات الظهور، وصافيات اليقين . وَأَمَّا أصحاب العقول الصاحبة ففي صحبة التذكر، لظهور البراهين و(.....)^(١) أحكام التحصيل .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ .

ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب ويقال حين صدقوا في حسن الاستغانة أُمِدُّوا بأنوار الكفاية .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلْعِدَادُ﴾ .

(١) بياض في الأصل .

اليوم جمع الأحزاب على بساط الاقتراب، وغداً جمع الكافة لمحل الثواب والعقاب، اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال، وغداً جمع الأبرار لشهود الأحوال، ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

فلا فداء ينفعهم، ولا غناء يدفعهم، ولا مال يقبل منهم، ولا حجاب يرفع عنهم، ولا مقال يسمع فيهم، بهم يسعّر الجحيم، ولهم الطرد الأليم، والبعاد الحميم.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أصرّوا في العتوّ على سننهم، وأذمنا لهم في الانتقام سنناً، فلا عن الإصرار أقلعوا، ولا في المبارّ طعموا، ولعمري إنهم هم الذين ندموا وتحسّروا على ما قدّموا - ولكن حينما وجدوا الباب مسدوداً، والندم عليهم مردوداً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ تَحْتَثَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَنَسُّ إِلَيْهَا﴾.

أخبرهم أنهم يفوتهم حديث الحق في الآجل^(١)، ولا تكون لهم لذة عيش في العاجل، والذي يلقونه في الآخرة من شدة العقوبة بالخرقة فوق ما يصيبهم في الدنيا من الغيبة عن الله والفرقة، ولكن سقمت البصائر فلم يحسوا بأليم العقاب.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَةَ مَن يَشَاءُ لِمَا فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

إذا أراد الله إمضاء أمرٍ قلل الكثير في أعين قوم، وكثر القليل في أعين قوم، وإذا لبس على بصيرة قوم لم ينفعهم نفاذ أبصارهم، وإذا فتح أسرار آخرين فلا يضرهم انسداد بصائرهم.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّينَا لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنَاطِرِ الْمَقْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْلَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ﴾.

(١) يشير القشيري إلى سورة آل عمران الآية (٧٧): ﴿لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزَكِيهِمْ﴾.

يذكر بعض الشهوات على ما سواها مما هو في معناها، وفي الجملة ما يحجبك عن الشهود فهو من جملتها. وأصعب العوائق في هذه الطريق الشهوة الخفية. وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدودٌ عندهم في جملة الشهوة الخفية. ومن المقاطع المشكلة السكون إلى ما يلقاك به من فنون تقريبك، وكأنه في حال ما يناجيك يناغيك، فإنه بكل لطيفة يصفك فيطريك وتحتها خُدْعٌ خافية. ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله (لا)^(١) بإثباته في لطيف أحواله وما يخصه به من أفضاله وإقباله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أُو۟تِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

بيّن فضيلة أهل التقوى على أرباب الدنيا، فقال: هؤلاء لهم متابعة المني وموافقة الهوى وأولئك لهم الدرجات العلى، والله بصير بالعباد؛ أنزل كل قوم منزله، وأوصله إلى ما له أهله.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَرَحِمَا عَذَابَ النَّارِ﴾. أي ينقطعون إلينا بالكلية، ويتضرعون بين أيدينا بذكر المحن والرزية، أولئك ينالون منا القربة والخصوصية، والدرجات العلية، والقسم المرضية.

قوله جل ذكره: ﴿الْفَصِيرِينَ وَالْمُكَدِّينَ وَالْقَنِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَفِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾. الصبر حبس النفس، وذلك على ثلاث مراتب:

صبر على ما أمر به العبد، وصبر عما نُهي عنه وصبر هو الوقوف تحت جريان حكمه على ما يريد؛ إمّا في فوات محبوبك أو هجوم ما لا تستطيعه^(٢).

فإذا ترقيت عن هذه الصفة - بألا تصيبك مشقة أو تنال راحة - فذلك رضا^(٣) لا صبر ويقال الصابرين على أمر الله، والصادقين، فيما عاهدوا الله.

و﴿الْقَنِينَ﴾، بنفوسهم بالاستقامة في محبة الله.

و﴿الْمُسْتَفِينَ﴾ عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم في الله.

ويقال: ﴿الْفَصِيرِينَ﴾ بقلوبهم و﴿الْمُكَدِّينَ﴾ بأرواحهم و﴿الْقَنِينَ﴾ بنفوسهم، و﴿الْمُسْتَفِينَ﴾ بالسستهم.

(١) ربما تكون (لا) زائدة.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٧٨.

(٣) انظر الفرق بين الرضا والصبر في الرسالة القشيرية، فصل الصبر ص ١٨٣ - ١٨٩، وفصل الرضا ص ١٩٢ - ١٩٧.

ويقال «الصابرين» على صدق القصود «الصادقين» في العهود «القانتين» بحفظ الحدود و«المستغفرين» عن أعمالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد.

ويقال «الصابرين» الذين صبروا على الطلب ولم يتعللوا بالهرب ولم يحتشموا من التعب، وهجروا كل راحة وطلب. وصبروا على البلوى، ورفضوا الشكوى، حتى وصلوا إلى المولى، ولم يقطعهم شيء من الدنيا والعقبى.

و«الصادقين» الذين صدقوا في الطلب فقصدوا، ثم صدقوا حتى وردوا، ثم صدقوا حتى شهدوا، ثم صدقوا حتى وجدوا، ثم صدقوا حتى فقدوا. فترتيبهم قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود.

و«القانتين» الذين لازموا الباب، وداوموا على تجرّع الاكتئاب، وتركوا المحاب، ورفضوا الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب.

و«وَالْمُتَّقِينَ» الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال، (ثم جادوا بميسورهم من الأموال)، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال، ثم جادوا بترك كل حظ لهم في العاجل والآجل، استهلاكاً عند القرب والوصال بما لقوا من الاضطلام والاستتصال^(١).

و«وَالْمُسْتَغْفِرِينَ» عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الأسحار يعني ظهور الإسفار، وهو فجر القلوب لا فجر يظهر في الأقطار.

قوله جل ذكره: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي عَلِمَ اللَّهُ وأخبر الله وَحَكَمَ اللَّهُ بأنه لا إله إلا هو، فهو شهادة الحق للحق بأنه الحق، وَأَوَّلُ مَنْ شَهِدَ بأنه الله - الله، فشهد في آزاله بقوله وكلامه وخطابه الأزلي، وأخبر عن وجوده الأحدي، وكونه الصمدي، وعونه القيومي، وذاته الديمومي، وجلاله السرمدى، وجماله الأبدي. فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ ثم في آباده، «شهد الله» أي بَيَّنَّ اللَّهُ بما نَصَّبَ من البراهين، وأثبت من دلائل اليقين، وأوضح من الآيات، وأبدى من البينات. فكل جزء من جميع ما خلق وفطر، ومن كتم العدم أظهر، وعلى ما شاء من الصفة الذاتية حصل، من أعيان مستقلة، وآثار في (ثاني) وجودها مضمحلة، وذوات للملاقاة قابلة، وصفات في المَحَال متعاقبة - فهو لوجوده

(١) الاستتصال ما عبر عنه القشيري قال: كأس وأي كأس تصطلحهم عنهم وتفنيهم، وتخطفهم منهم ولا تبقيهم كأس لا تبقي ولا تذر، تمحوهم كلياً ولا تبقي شظية من آثار البشرية، كما قال قائلهم:

ساروا فلم يبق لا رسم ولا أثر

(الرسالة القشيرية ص ٧٦).

مُفْصِح، ولربوبيته مَوْضِح، وعلى قَدَمِهِ شاهد، وللعقول مُخْبِر بأنه واحد، عزيز ماجد، شهد سبحانه بجلال قُدْرِهِ، وكَمال عِزِهِ، حين لا جحد ولا جهود ولا عرفان لمخلوق ولا عقل، ولا وفاق، ولا كفر، ولا حدثان، ولا غير، ولا إلحاد، ولا شُرْك، ولا فهم ولا فكر، ولا سماء ولا فضاء، ولا ظلام ولا ضياء، ولا وصول للمزدوجات، ولا فضول باختلاف الآفات.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمَلَكُ﴾.

لم يؤيد شهادته بوحدانيتها بشهادة الملائكة بل أسعدهم وأيّدهم، حين وقّفهم بشهادة وسدّدهم، وإلى معرفة وحدانيته أرشدهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأُولُوا الْأَلْبَانِ﴾.

وهم أولياء بني آدم إذ علموا جلال قدرته، وعرفوا نعت عزته فأكرمهم حيث قرن شهادته بشهادتهم، فشهدوا عن شهود وتعيين، لا عن ظن وتخمين، إن لم يدركوه - اليوم - ضرورة وجسّاً، لم يعتقدوه ظناً وحسّاً؛ تعرّف إليهم فعرفوه، وأشهدهم فلذلك شهدوا، ولو لم يقلّ لهم إنه من هو لَمَّا عرفوا من هو.

ولكنّ العلماء يشهدون بصحو عقولهم، والمُؤخِّدون يشهدون بعد خمودهم؛ فهم كما قيل:

مُسْتَهْلِكُونَ بقهر الحق قد هَمَدُوا واسْتَطِيقُوا بعد افتنائهم بتوحيد

فالمُجْري عليهم ما يبدو منهم - سواهم، والقائم عنهم بما هم عليه وبه - غيرهم، ولقد كانوا لكنهم بانوا، قال قائلهم:

كتابي إليكم بعد موتي بليلة ولم أدري أني بعد موتي أكتب

وأولو العلم على مراتب: فَمِنْ عَالِمٍ نَعْتُهُ وفاق ورهبانية، ومن عالم وصفه فناء ورهبانية، وعالم يعرف أحكام حلاله وحرامه، وعالم يعلم أخباره وسننه وآثاره، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله، ومحكمه وتنزيله، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوي حججه وتوحيده بحديث يخرج به (١)، وعالم لطفه حتى أحضره ثم كاشفه فقهره، فالاسم باقي، والعين محو، والحكم طارق والعبد محق، قال قائلهم:

بنو حق غدوا بالحق صرفاً فنعت الخلق فيهمو مستور

وليست الإشارة من هذا إلا إلى فنائهم عن إحساسهم، وعند علمهم بأنفسهم، فأما أعمالهم أعيانهم فمخلوقة، وما يفهم بذواتهم من أحوالهم فمبسوقة، وذات الحق

(١) بياض في الأصل.

لا توصف بقبول حدثان، وصفات ذاته لا تقبل اتصالاً بالغير ولا انفصالاً عن الذات، تقدّس الحق عن كل ضدّ ونذ، ووصل وفصل، وجمع وفرق، وعين وخلق، وملك وفلك، ورسم وأثر، وعبد وبشر، وشمس وقمر، وشخص وغيّر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأُولِيْكُمْ﴾.

الذين الذي يرتضيه، والذي حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويعليه، وبالفضل يُلقبه - هو الإسلام.

والإسلام هو الإخلاص والاستسلام، وما سواه فمردود، وطريق النجاة على صاحبه مسدود.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

جاءهم العلم الذي عليهم حجة، لا المعرفة التي لها بيان ومحجة، فأصروا على الجحود، لأنهم حُجِبُوا عن محل الشهود.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَاسْلَمُوا فَقَدِ اسْتَمْسَكُوا بِالْإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ عَلَىٰ نَجْدٍ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلُوا لَأَكْثَرُ الْأُمَمِ أَلَا تَتَذَكَّرُ﴾.

طالِغُهُم بعين التصريف كيلا يفترق بك الحال في شهود اختلافهم وتباين أطوارهم؛ فَإِنَّ مَنْ طَالَعَ الكائنات بعين القدرة علم أن المُثَبِّت للكل - على ما اختص به كل واحد من الكل - واحد.

فأذعهم جهراً بجهر، واشهد تصريفنا إياهم سراً بسر، واشغل لسانك بنصحهم، وفرغ قلبك عن حديثهم، وأفرد سيرك عن شهودهم، فليس الذي كلفناك من أمورهم إلا البلاغ، والمُجْرِي للأمور والمبدي - نحن.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْتُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيَّرَهُمْ عَذَابُ الْيَمِينِ﴾.

إن الذين ربطناهم بالخدلان ووسمناهم بوصف الحرمان - أخبرهم بأن إعراضنا عنهم مؤبد، وأن حكمنا سبق بنقلهم عن دار الجنان إلى دار الهوان، من الخدلان والحرمان إلى العقوبة والنيران.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾.

أولئك الذين ليس لهم - اليوم - توفيق بأعمالهم، ولا غداً تحقيق لآمالهم، وما ذلك إلا لأنهم فقدوا في الدارين نصرتنا، ولم يشهدوا عزنا وقدرتنا.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُعْرِضُونَ﴾.

امتحانك بدعوة من سبق علمنا بأنهم لا يستجيبون، فاصبر على ما أُمِرْتَ فيهم، واعلم سوء أحوالهم، فإنهم أهل التولي عن الإجابة، لأنهم فقدوا منا حسن التجلي بسابق الإرادة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسَّكَ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَقَرُّونَ﴾.

عاقبتهم في الدنيا بالاستدراج حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة وتخفيف العقاب، وسوف يعلمون تضاعف البلاء عليهم، ويحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الكاذبون. ظن المخطئون حكماً...

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

هذه كلمة تعجب لما أخبر به عن تعظيم الأمر، وتفخيم الشأن عند بهتة عقولهم ودهشة أسرارهم، وانقطاع دواعيهم، وانخلاع قلوبهم من مكانها، وتراقبها إلى تراقبهم، ثم ما يلحقونه من الحساب والعتاب، والعذاب والعقاب، وعدم الإكرام والإيجاب، وما في هذا الباب.

وقيامة الكفار يوم الحشر، وقيامه الأحياء في الوقت، ولشرح هذا تفسير طويل.

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾.

«اللهم» معناها يا الله والميم في آخرها بدل عن حرف النداء وهو يا. فهذا تعليم الحق كيفية الثناء على الحق، أي صِفني بما أَسْتَحِقُّه من جلال القَدْر قُلْ: يا مالِكُ المُلْكِ لا شريك لك ولا مُعِين، ولا ظهير ولا قرين، ولا مُقَاسِمَ لك في الذات، ولا مُسَاهِمَ في المُلْكِ، ولا مُعَارِضَ في الإبداع.

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾.

حتى نعلم أن الملك لك، والمَلِكُ من المخلوقين مَن تَذَلَّلَ له، ومنزوع المُلْكُ ممن تكبر عليه؛ فَتَجْمَلُ الخَلْقِ في تذللهم للحق، وعزهم في محوهم فيه، ويقاؤهم في فناءهم به.

﴿وَعِزُّ مَنْ نَشَأَ﴾.

بعز ذاتك .

﴿وَتَذِلُّ مَنْ نَشَأَ﴾.

بخذلانك .

وتعز من نشأ بأن تهديه ليشهدك ويوحدك، وتذل من نشأ بأن يجحدك ويفقدك وتعز من نشأ بيمين إقبالك، وتذل من نشأ بوحشة إعراضك . وتعز من نشأ بأن تؤنسك بك، وتذل من نشأ بأن توحشه عنك . وتعز من نشأ بأن تشغله بك، وتذل من نشأ بأن تشغله عنك . وتعز من نشأ بسقوط أحكام نفسه، وتذل من نشأ بغلبة غاغة نفسه . وتعز من نشأ بطوالع أنسه وتذل من نشأ بطوارق^(١) نفسه . وتعز من نشأ ببسطه بك، وتذل من نشأ بقبضه عنك .

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَأَ﴾ يشد نطاق خدمتك، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَأَ﴾ بنفيه عن بساط عبادتك . تؤتي الملك من نشأ بإفراد سيره لك وتنزع الملك ممن نشأ بأن تربط قلبه بمخلوق، ﴿وَعِزُّ مَنْ نَشَأَ﴾ بإقامته بالإرادة، ﴿وَتَذِلُّ مَنْ نَشَأَ﴾ يردّه إلى ما عليه أهل العادة .
﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ .

ولم يذكر الشر حفظاً لأداب الخطاب، وتفاوتاً بذكر الجميل، وتطيراً من ذكر السوء .

﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

من الحجب والجذب، (والنصرة)^(٢) والخذلان، والأخذ والرد، والفرق والجمع، والقبض والبسط .

قوله جل ذكره: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَأَ بِمَعْرِ حِسَابٍ﴾ .

تولج الليل في النهار حتى يغلب سلطان ضياء التوحيد فلا يبقى من آثار النفس وظلماتها شيء، وتولج النهار في الليل حتى كأن شمس القلوب كُسِفَتْ، أو كأن الليل دام، وكأن الصبح فُقِدَ .

وتخرج الحي من الميت حتى كأن الفترة لم تكن، وعهد الوصال رجع فتياً، وعود القلوب صار غصاً طرياً .

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

(١) الطوارق: (ج) الطارق: الآتي ليلاً .

وتخرج الميت من الحي حتى كأن شجرة البرم أورقت شوكة وأزهرت شوكة، وكأن اليانس لم يجد خيراً، ولم يشم ريحاً، وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة.

﴿وَتَرْزُقْ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

حتى لا (كدر) ولا جهد ولا عرق جبين، ولا تعب يمين. لئله روح وراحة، ونهاره طرب وبهجة، وساعاته كرامات، ولحظاته قُرُبات، وأجناس أفعاله على التفصيل لا يحصرها لسان، ولا يأتي على استقصاء كتبها عبارة ولا بيان.

وفيما لوحنا من ذلك تنبيه على طريق كيفية الإفصاح عنه.

ويقال لما قال: ﴿وَتَنْزِيعُ الْمُلْكِ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ انكسر خمار كل ظان أنه ملك لأنه شاهد ملكه يعرض للزوال فعلم أن التذلل إليه في استبقاء ملكه أولى من الإعجاب والإدلال.

ويقال الملك في الحقيقة - مَنْ لا يشغله شيء بالالتفات إليه عن شهود من هو الملك على الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

من حقائق الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله.

وأولى مَنْ تسومه الهجران والإعراض عن الكفار - نفسك؛ فإنها مجبولة على المجوسية حيث تقول: لي ومني وبني^(١)، وقال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وإن الإيمان في هذه الطريقة عزيز، ومن لا إيمان له بهذه الطريقة من العوام - وإن كانوا قد بلغوا من الزهد والجهد مبلغاً عظيماً - فليسوا بأهل لموالاة الكفار، والشكل بالشكل أليق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَعِزِّدْكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

صحبة الحق سبحانه وقربته لا تكون مقرونة بصحبة الأضداد وقربتهم - ألبته.

﴿وَيَعِزِّدْكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾: هذا خطاب للخواص من أهل المعرفة، فأما الذين نزلت رُبُّبَتُهُمْ عن هذا فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي﴾ [آل عمران: ١٣١] وقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ...﴾ [البقرة: ٢٨١]. إلى غير ذلك من الآيات.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٠٢.

ويقال: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ أن يكون عندكم أنكم وصلتم؛ فإن خفايا المكر تعري الأكاير، قال قائلهم:

وَأَمِنْتُهُ فَأَتَانِي مَنْ مَأْمَنِي مَكْرًا، كَذَا مَنْ يَأْمَنُ الْأَحْبَابَا
ويقال: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ لأن يجري في وهم أحد أنه يصل إليه مخلوق،
أو يسطر العِزُّ قَدَمَ همة بشر، جَلَّتْ الْأَحْدِيَّةُ وَعَزَّتْ!
وإنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ فِي الْحَقِيقَةِ أَنَّهُ أَبْعَدُهُمْ عَنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُتَدَوِّعُوا بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يَغْزُبُ معلوم عن علمه، فلا تحتشم من نازلة بك تسوءك، فعن قريب سيايتك الغوث والإجابة، وعن قريب سيزول البلاء والمحنة، وَيُجَلُّ المَدَدَ والكفاية.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْصَرًّا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

وَدَّ أَهْلُ الطَّاعَاتِ أَنْ لَوْ اسْتَكْثَرُوا مِنْهَا، وَوَدَّ أَهْلُ الْمَخَالَفَاتِ أَنْ لَوْ كَبَحُوا
لجَاهَهُمْ عَنِ الرِّكْضِ فِي مِيَادِينِهِمْ، قال قائلهم:

ولو إِنِّي أُعْطِيتُ مِنْ دَهْرِي الْمُنَى وَمَا كُلُّ مَنْ يُعْطَى الْمُنَى بِمُسَدِّدٍ
لَقُلْتُ لِأَيَّامٍ مَضِينَ: أَلَا ارْجِعْ عَنِّي وَقُلْتُ لِأَيَّامٍ أَتِينَ أَلَا ابْعِدْ عَنِّي
قوله جل ذكره: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

الإشارة من قوله: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ للعارفين، ومن قوله ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ للمستأنفين، فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة.

ويقال لما قال: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ اقتضى أسمع هذا الخطاب تحويلهم فقال مقرونًا به ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ لتحقيق تأميلهم، وكذلك سُئِلَ يطمعهم في عين ما يروعههم.

ويقال أفتاهم بقوله ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ ثم أحياهم وأبقاهم بقوله ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ فرق، و﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ جمع.

﴿تُجَوِّنُ اللَّهَ﴾ مشوب بالعلة، و ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾ بلا علة، بل هو حقيقة الوصلة. ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية، وتقتضي منه تلك الحالة إثارة - سبحانه - على كل شيء وعلى كل أحد.

وشرط المحبة ألا يكون فيها حظ بحال، فَمَنْ لَمْ يَفْنَ عَنْ حَظِّهِ بِالْكُلِّيَّةِ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ شَيْئَةٌ.

ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانه إليه ولطفه به، وهي إرادة فضل مخصوص، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه، فعلى هذا تكون من صفات فعله.

ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك في محبوبك، قال قائلهم:

وما الحبُّ حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق بين الحبيب^(١) والخليل؛ قال الخليل: ﴿فَمَنْ يَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال الحبيب: ﴿فَاتَّبَعُونِي يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾.

فإن كان مُتَّبِعُ الخليل «منه» إفضالاً فإن متابع الحبيب محبوب الحق سبحانه، وكفى بذلك قرينة وحالاً.

ويقال قطع أطماع الكافة أن يسلم لأحد نفس إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ.

ويقال في هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة، أو التجرد عن آفة لأنه قال: ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. بين أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحب الله ويحبه الله.

ويقال قال أولاً: ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ والواو تقتضي الترتيب لِيُعْلَمَ أَنَّ المحبة سابقة على الغفران؛ أولاً يحبهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه، فالمحبة توجب الغفران لأن العفو يوجب المحبة.

والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حَبَبُ الأسنان^(٢) وهو صفاؤها.

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب في السر.

(١) المقصود بالحبيب سيدنا محمد ﷺ.

(٢) جاءت: الإنسان وهي خطأ (انظر الرسالة القشيرية ص ٣٢٠).

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب.

والحُبُّ حِرْفَانٌ حَاءٌ وَبَاءٌ، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البدن،
فالمُحِبُّ لَا يَدْخِرُ عَنْ مَحْبُوبِهِ لَا قَلْبَهُ وَلَا بَدَنَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

أمرهم بالطاعة ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي قَصُرُوا في الطاعة بأن خالفوا، ثم قال:
﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لم يَقُلْ العصاة بل قال الكافرين، ودليل الخطاب أنه يجب
المؤمنين وإن كانوا عُصَاة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالٍ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ
ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

اتفق آدم وذريته في الطينة، وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذي هو من قبيله، لا
بالنسب ولا بالسبب.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ
كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

المُحَرَّرُ الذي ليس في رِقٍّ شيء من المخلوقات، حرَّره الحق سبحانه في سابق
حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجوه والأحوال. فلما نذرت أم مريم ذلك،
ووضعتها أنثى خجلت، فلما رأتها قالت ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وهي لا تصلح أن تكون
محراً فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ ولعمري ليس الذكر كالأنثى في الظاهر،
ولكن إذا تَقَبَّلَهَا الحق - سبحانه وتعالى - طلع عنها كل أعجوبة.

ولما قالت ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قالت ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ فاستجاب،
وظهرت آثار القبول عليها وعلى ابنها، ونجا بحديثها عَالَمٌ وَهَلَكَ بسببها عَالَمٌ،
ووقعت الفتنة لأجلهما في عَالَمٍ.

قالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ استجارت بالله
من أن يكون للشيطان في حياتها شيء بما هو الأسهل، لتمام ما هم به من أحكام القلوب.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

حيث بَلَّغَهَا فوق ما تَمَنَّتْ أمها، ويقال تَقَبَّلَهَا بقبول حسن حتى أفردا لطاعته،
وتولَّاهَا بما تَوَلَّى به أولياءه، حتى أفضى جمع مَنْ في عصرها الْعَجَبَ من حُسْنِ توليه
أمرها، وإن كانت بتأ.

ويقال القبول الحسنُ حُسْنُ تربيته لها مع علمه - سبحانه - بأنه يُقال فيه بسببها ما يُقال، فلم يُبالِ بِقُبْحِ مقال الأعداء.

أجد الملامة في هواكِ لذيذة حُبّاً لذكرك فليلمني اللوم
وكما قيل:

ليقل من شاء ما شاء فلاني لا أبالي
ويقال القبول الحسن أن ربّاه على نعت العصمة حتى كانت تقول: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ [مريم: ١٨].

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ حتى استقامت على الطاعة، وآثرت رضاه - سبحانه - في جميع الأوقات، وحتى كانت الثمرة منها مثل عيسى عليه السلام، وهذا هو النبات الحسن، وكفلها زكريا. ومن القبول الحسن والنبات الحسن أن جعل كافلها والقَيِّمَ بأمرها وحفظها نبياً من الأنبياء مثل زكريا عليه السلام، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: إِنْ رَأَيْتَ لِي طَالِباً فَكُنْ لَهُ خَادِماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزِعُ لِي لَرَبِّ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

من أمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبّد فيه وهناك يوجد المحراب - فذلك عبّد عزيز.

ويقال من القبول الحسن أنه لم يطرح أمرها كُله وشغلها على زكريا عليه السلام: فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدا بطعام وجدّ عندها رزقاً ليغلّم العاملون أن الله - سبحانه - لا يُلقِي شُغْلَ أوليائه على غير، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إنه تكون عليه مشقة لأجل الأولياء. وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء.

ثم كان زكريا عليه السلام يقول: ﴿أَنِّي لَرَبِّ هَذَا؟﴾ لأنه لم يكن يعتقد فيها استحقاق تلك المنزلة، وكان يخاف أن غيره يغلبه ويتنزه فرصة تعهدا ويسبقه بكفاية شغلها، فكان يسأل ويقول: ﴿أَنِّي لَرَبِّ هَذَا؟﴾ ومن أتاك به؟

وكانت مريم تقول: هو من عند الله لا من عند مخلوق، فيكون لزكريا فيه راحتان: إحداها شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدا، ولم يسبق به. قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ فلفظة كُلماً للتكرار وفي هذا إشارة: وهو أن زكريا عليه السلام لم يذُرْ تعهدا - وإن وجد عندها رزقاً - بل كل يوم وكل وقت كان يتفقد حالها لأن كرامات الأولياء ليست مما يجب أن يدوم

ذلك قطعاً؛ فيجوز أن يُظهرَ الله ذلك عليهم دائماً، ويجوز ألا يظهر، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد حالها، ثم كان يُجَدِّدُ السؤال عنها بقوله: ﴿يَتَرَمَّزُ أُنَى لِلْأُنَى هَذَا؟﴾ لجواز أن يكون الذي هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس، فإنه لا واجب على الله سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إيضاح عن عين التوحيد، وأن رزقه للعباد، وإحسانه إليهم بمقتضى مشيئته، دون أن يكون مُعَلَّلاً بطاعتهم ووسيلة عباداتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

أي لما رأى كرامة الله سبحانه معها ازداد يقيناً على يقين، ورجاء على رجاء؛ فسأل الولد على كبر سنّه، وإجابته إلى ذلك كانت نقضاً للعادة.

ويقال إن زكريا عليه السلام سأل الولد ليكون عوناً له على الطاعة، ووارثاً من نسله في النبوة، ليكون قائماً بحق الله، فلذلك استحق الإجابة؛ فإن السؤال إذا كان لحق الحق - لا لحظ النفس - لا يكون له الرد.

وكان زكريا عليه السلام يرى الفاكهة الصيفية عند مريم في الشتاء، وفاكهة الشتاء عندها في الصيف، فسأل الولد في حال الكبر ليكون آية ومعجزة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

لما سأل السؤال، ولأزم الباب أتته الإجابة.

وفيه إشارة إلى أن من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة.

ويقال حكم الله - سبحانه - أنه إنما يقبل بالإجابة على من هو مُعَانِقٌ لخدمته، فأما مَنْ أعرض عن الطاعة ألقاه في ذلّ الوحشة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَبْلِ مُصَدِّقٍ إِنَّكَ مِنْكُمْ مَنْ أَلَّفَ وَحْشًا وَنَبِيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ﴾.

قيل سمّاه يحيى لحياة قلبه بالله، ولسان التفسير أنه حي به عقر أمه.

ويقال إنه سبب حياة من آمن به بقلبه.

قوله: مصدقاً بكلمة من الله: أن تصديقه بكلمة «الله» فيما تعبد به أو هو مكوّن بكلمة الله.

وقوله ﴿وَسَيِّدًا﴾: السيّد من ليس في رق مخلوق، تحرّر عن أسر هواه وعن كل

مخلوق، ويقال السيد من تحقق بعلوته سبحانه، ويقال السيد من فاق أهل عصره، وكذلك كان يحيى عليه السلام.

ويقال سيد لأنه لم يطلب لنفسه مقاماً، ولا شأهً لنفسه قُدرًا. ولما أخلص في تواضعه لله بكل وجهٍ رَفاه على الجملة وجعله سيداً للجميع.

وقوله ﴿وَحَصُورًا﴾ أي مُعْتَقًا من الشهوات، مكفياً أحكام البشرية مع كونه من جملة البشر. ويقال متوقياً عن المطالبات، مانعاً نفسه عن ذلك تعزراً وتقرباً، وقيل منعه استتصالات بواده الحقائق عليه فلم يبق فيه فضل لحظ.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي مستحقاً لبلوغ رتبهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

قيل كان بين سؤاله وبين الإجابة مدة طويلة ولذلك قال: أنى يكون لي غلام؟ ويحتمل أنه قال: بأي استحقاقٍ مني تكون له هذه الإجابة لولا فضلك؟ ويحتمل أنه قال أنى يكون هذا: أعلًى وجه التبني أم على وجه التناسل؟ ويحتمل أنه يكون من امرأة أخرى سوى هذه التي طعنت في السن أو من جهة التَّسْرِي بمملوكة؟ أم من هذه؟

فقيل له: لا بل من هذه؛ فإنكما قاسيتما وحشة الانفراد معاً، فكذلك تكون بشارة الولد لكما جميعاً.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾.

طلب الآية ليعلم الوقت الذي هو وقت الإجابة على التعيين لا لشك له في أصل الإجابة.

وجعل آية ولايته في إمساك لسانه عن المخلوقين مع انطلاقها مع الله بالتسبيح، أي لا تمتنع عن خطابي فإنني لا أمنع أوليائي من مناجاتي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾.

بقلبك ولسانك في جميع أوقاتك.

﴿وَسَيِّحٌ بِالْمَشِيِّ وَالْإِنْبَكْرِ﴾.

في الصلاة الدائمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى

نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

يجوز أن يكون هذا ابتداء خطاب من الملائكة على مريم من قبيلهم رفعاً بشأنها، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها: إن الله اصطفاك بتفضيلك، وإفرادك من أشكالك وأندادك، وطَهَّرَك من الفحشاء والمعاصي بجميل العصمة، وعن مباشرة الخلق، واصطفاك على نساء العالمين في وقتك.

وفائدة تكرار ذكر الاصطفاء: الأول اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة والثاني اصطفاك بأن حَمَلْتَ بعبسى عليه السلام من غير أب، ولم تشبهك امرأة - ولن تشبهك - إلى يوم القيامة، ولذلك قال ﴿عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَمْرُؤُا أَفْتَىٰ لِرَبِّكَ وَأَسْجُدَىٰ وَارْكَعَىٰ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

لازمي بساط العباد، وداومي على الطاعة، ولا تُقْصِرِي في استدامة الخدمة، فكما أفردك الحق بمقامك، كوني في عبادته أَوْحَدَ زمانك.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَكْفَلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي هذه القصص نحن عرفناكها و(خا) طبناك بمعانيها، وإن قَصَصْنَا نحن عليك هذا - فعزِّزْ خطابنا، وأعزْ وأتم مِنْ أَنْ لو كنت مشاهداً لها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لم يُبَشِّرْها بنصيب لها في الدنيا ولا في الآخرة من حيث الحظوظ، ولكن بَشَّرْها بما أثبت في ذلك من عظيم الآية، وكونه نبياً لله مؤيداً بالمعجزة.

ويقال عَرَّفَها أَنْ مَنْ وقع في تغليب القدرة، وانتهى عند حكمه يَلْقَى من عجائب القدرة ما لا عهد به لأحد. ولقد عاشت مريم مدةً بجميل الصيت، والاشتهار بالعفة، فشَوَّسَ عليها ظاهر تلك الحال بما كان عند الناس بسبب استحقاق ملام، ولكن - في التحقيق - ليس كما ظَنُّهُ الأغبياء الذين سكرت أبصارهم من شهود جريان التقدير.

وقيل إنه (...) ^(١) عَرَّفَها ذلك بالتدرّج والتفصيل، فأخبرها أن ذلك الولد يعيش حتى يُكَلِّمُ الناس صبيّاً وكهلاً، وأن كيد الأعداء لا يؤثر فيه.

وقيل كهلاً بعد نزوله من السماء.

ويقال ربط على قلبها بما عَرَّفَها أنه إذا لم ينطق لسانها بذكر براءة ساحتها يُنْطِقُ اللَّهُ عيسى عليه السلام بما يكون دلالة على صدقها وجلالتها.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ﴾ .

كما شاهدت ظهور أشياء ناقضة للعادة في رزقنا فكذلك ننقض العادة في خلق ولد من غير ميسس بشر .

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ﴾ .

أي أراد إمضاء حكم .

﴿فَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

فلا يتعسر عليه إبداء ولا إنشاء .

ولما بسطوا فيها لسان الملامة أنطق الله عيسى عليه السلام وهو ابن يوم حتى قال :

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ

أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ

طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُتْرِثُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَخِي الْمَوْتَىٰ يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا

تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ .

وتلك آياته الظاهرة، ودلالاته القاهرة الباهرة من إحياء الموتى، وإبراء الأكمة^(١)

والأبرص^(٢)، والإخبار عما عملوه مُسرِّين به، إلى غير ذلك من معجزاته . وأخبر أنه

مصدق لما تقدمه من الشرائع، ومختص بشريعة تنسخ بعض ما تقدمه، وأقرهم على

البعض - على ما نطق به تفصيل القرآن^(٣) .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ الآية .

حين بلغهم الرسالة واختلفوا - فمنهم من صدقه ومنهم من كذبه وهم الأكثرون -

علِمَ أن النبوة لا تنفك عن البلاء وتسليط الأعداء، فقطع عنهم قلبه، وصدق إلى الله

قصده، وقال لقومه: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ لِيَسَاعِدُونِي عَلَى التَّجَرُّدِ لِحَقِّهِ وَالْخُلُوصِ فِي

قصده؟ فقال مَنْ انبسطت عليهم آثار العناية، واستخلصوا بآثار التخصيص: نحن

أنصار الله، آمنا بالله، واشهد علينا بالصدق، وليس يشكل عليك شيء مما نحن فيه .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا آتَيْتَنَا وَتَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّسُولِ فَأَنْصُرْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

وأما الباقون فجدُّوا في الشقاق، وبالغوا في العداوة، ودسُّوا له المكائد،

ومكروا ولكن أذاقهم الله وبال مكروهم، فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام

(١) الأكمة: من ولد أعمى أو من فقد بصره .

(٢) الأبرص: من ابتلي بالبرص (البرص: بياض يظهر في الجسد لعله) .

(٣) الآيتان ٥٠ و ٥١ غير مذكورتين .

وقتلوه، وذلك جهل منهم، وَلَبَسَ عَلَيْهِمْ. فاللَّهُ - سبحانه - رفع عيسى عليه السلام نبيه ووليه، وَحَقُّ الطَّرْدُ وَاللَّعْنُ عَلَى أَعْدَائِهِ، وهذا مَكْرُهُ بهم:

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

الإشارة فيه إني متوفيك عنك، وقابضك منك، ورافعك من نعوت البشرية، ومطهرك من إرادتك بالكلية، حتى تكون مُصَرَّفًا بنا لنا، ولا يكون عليك من اختيارك شيء، ويكون إسبال التولي عليك قائماً عليك. وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة - جَلَّتْ.

ويقال طَهَّرَ قلبه عن مطالعة الأغيار، ومشاهدة الأمثال والآثار، في جميع الأحوال والأطوار.

﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُّوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

بالنصرة والقهر والحجة.

ومتبعوه مَنْ لم يُبَدِّل دينه وَمَنْ هو على عقيدته في التوحيد - وهم المؤمنون، فَهُمْ عَلَى الْحَقِّ، إلى يوم القيامة لهم النصرة، ثم إن الله سبحانه يحكم - يوم القيامة - بينه وبين أعدائه. فأما الكفار ففي الجحيم وأما المؤمنون ففي النعيم.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

ذلك نتلوه عليك يا محمد، نعرفك معانيه بما نوحى إليك، لا بتكلفك ما تصل إلى عِلْمِهِ، أو بتعلُّمك من الأمثال، أو استنباطك ما تنزع من الاستدلال.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ الآية.

خَصَّهَما بتطهير الروح عن التناسخ في الأصلاب وأفرد آدم بصفة البدء؛ وعيسى عليه السلام بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز، وهما وإن كانا كبيرى الشأن فَنَقُصُّ الحَدَثَانِ والمخلوقية لازِمٌ لهما:

﴿ثُمَّ قَالَ لِمَنْ كَانَ فَيَكُونُ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا محمد، فلا تُشَكَّنْ في أنه - سبحانه - لا يماثله في الإيجاد أَحَدٌ، ولا على إثبات بينه لمخلوق قدرة. والموجودات التي (...) ^(١)، وجودها عن كتم العَدَم - من الله مبدؤها وإليه عَوْدُهَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ الآية.

يعني بعدما ظَهَرَتْ على صدق ما يُقال لك، وَتَحَقَّقَتْ بقلبك معرفة ما خاطبك، فلا تحتشم من حملهم على المباهلة، وثق بأن لك القهر والنصرة، وأنا توليناك، وفي كنف قُرْبنا أوياناك، ولو أنهم رغبوا في هذه المباهلة لأحرقت الأودية عليهم نيراناً مؤججة، ولكن أخر الله - سبحانه - ذلك عنهم لعلهم يَمَنُّ في أصلابهم من المؤمنين.

والإشارة في هذه الآية لِمَنْ نزلت حالته عن أحوال الصديقين، فإنه إذا ظهرت أنوارهم انخست آثار هؤلاء فلا إقرار، ولا عنهم آثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.

لا يتسلط على شواهد التوحيد غبار شبهة، ولا يدرك سر حكمه وهم مخلوق، ولا يدانيه معلوم يحصره الوجود، أو موهوم يصوره التقدير.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

فإن تولوا - يا محمد - فإنه لا ثبات عند شعاع أنوارك لشبهة مُبْطِل.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ إما يجتاحهم، أو يحلم حتى إذا استمكنت ظنونهم يأخذهم بغتة وهم لا يُنصرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية.

هي كلمة التوحيد وإفراد الحق سبحانه في إنشاء الأشياء بالشهود.

وقوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾: لا تطالع بِسْرُك مخلوقاً. وكما لا يكون غيره معبودك فينبغي ألا يكون غيره مقصودك ولا مشهودك، وهذا هو اتقاء الشُرْك، وأنت أول الأغيار الذين يجب ألا تشهدهم.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ ويظهر صدق هذا بترك المدح والذم لهم.

ونفي الشكوى والشك عنهم، وتنظيف السر عن حساب ذرة من المحو والإثبات منهم. قال ﷺ: «أصدق كلمة قالها العرب قول لبيد»:

«ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل»^(١)

فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد. وأما أهل البداية فالأمر مُضَيِّقٌ عليهم

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤٣/٨)، ومسلم في (الصحيح الشعر المقدمة ٣)، وابن ماجه في (السنن ٣٧٥٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٣٩/٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٧٨٦)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢٤٩/٧).

في الوظائف والأوراد، فسييلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب، لفراغهم بقلوبهم من المعاني، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله جل ذكره:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

ضرب على خليله - صلوات الله - نقاب الضئيلة وحجاب الغيرة، فقطع سببه عن جميعهم بعد ادعاء الكل فيه، وحكم بتعارض شبهاتهم، وكيف يكون إبراهيم - عليه السلام - على دين من أتى بعده؟! إن هذا تناقض من الظن.

ثم قال:

﴿هَكَانَتْ هَؤُلَاءِ حُجَجَتُهُ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يعني ما كان في كتابكم له بيان، ويصح أن يكون لكم عليه برهان، فخصهم في ذلك إما بحق وإما بباطل، فالذي ليس لكم البتة عليه دليل ولا لكم إلى معرفته سبيل فكيف تصدقتم للحكم فيه، وادعاء الإحاطة به؟!

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مِّنْ قَبْلُ﴾.

الحنيف^(١) المستقيم على الحق، والأحنف هو المستقيم في حلقة الرجل، ويسمى مائل القدم بذلك على التفاؤل وإبراهيم عليه السلام كان حنيفاً لا مائلاً عن الحق، ولا زائغاً عن الشرع، ولا معرجاً على شيء وفيه نصيب للنفس، فقد سلم ماله ونفسه وولده، وما كان له به جملة - إلى حكم الله وانتظار أمره.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ لَإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لما تفرقت الأهواء والبدع وصار كل حزب إلى خطأ آخر، بقي أهل الحق في كل عصر وكل حين ووقت على الحجة المثلى، فكانوا حزباً واحداً، فبعضهم أولى ببعض. وإبراهيم صاحب الحق، ومن دان بدينه - كمثل رسولنا ﷺ وأمه - على الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم تولوا دينه، ووافقوا توحيدَه، وولاية الله إنما تكون بالعون والنصرة والتخصيص والقربة.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

(١) الحنف: الاعوجاج، والاستقامة (ضد).

من حَلَّتْ به فتنه، وأصابته محنة، واستهوته غواية - رَضِيَ لجميع الناس ما حلَّ به، فأهل الكتاب يريدون بالمؤمنين أن يزيغوا عن الحق، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره، وأن يعودَ إليهم وبأل فعلهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

قَبْلَ بعثه - ﷺ - على صحة نبوته، فما الذي يحملكم على غيكم حتى جحدتم ما علمتم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

تكتمون الحق في شأن محمد عليه السلام وأنتم تعلمون أنه النبي الصادق، وهل هذا إلا حكم الخذلان وقضية الحرمان، ثم أخبر أنّ منهم من ينافق في حالته، فيريد أن يدفع عنه أذى المسلمين، ولا يخالف إخوانه من الكافرين، فتواصوا فيما بينهم بموافقة الرسول عليه السلام والمسلمين جهراً، والخلوص في عقائدهم الفاسدة بعضهم مع بعض سراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُ لَعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فبين الله سبحانه أن نفاقهم كُشِفَ للمسلمين، وأن ذلك لا ينفعهم أمّا في الدنيا فَلَا ظِلَاعَ الله نبيّه عليه السلام والمؤمنين - عليه، وأمّا في الآخرة فَلَيَقْدِرُ إخلاصهم فيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

يحتمل أن يكون هذا ابتداء أمر من الله سبحانه للمسلمين، والإشارة فيه ألا تعاشرُوا الأضداد، ولا تفشوا أسراركم للأجانب.

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾.

فهو الذي يختص من يشاء بأنوار التعريف، ويختص من يشاء بالخذلان والحرمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يختص من يشاء بفضله وإنعامه، فالرحمة على هذا سبب لتخصيص النعمة لمن أَرَادَهُ. ولا بُدُّ من إضمار فيحتمل أن يختص بالرحمة من يشاء فلا تجري الرحمة مجرى السبب فالرحمة على هذا التأويل تكون بمعنى النبوة وتكون بمعنى الولاية.

وبمعنى العصمة وجميع أقسام الخيرات التي يختص - بشيء منها - عبداً من عباده، فيدخل تحت قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أي بنعمته.

فقومٌ اختصهم بنعمة الأخلاق وقوم اختصهم بنعمة الأرزاق، وقوم اختصهم بنعمة العبادة وآخرين بنعمة الإرادة، وآخرين بتوفيق الظواهر وآخرين بعباء الأبخار، وآخرين ببقاء الأسرار، قال تعالى: ﴿وَأِنْ تَقُودُوا يَمَوتَ اللَّهُ لَا تُحْصَوها﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ويقال لما سمعوا قوله: ﴿يَخْفَضُ رَحْمَتَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾، علموا أن الوسائل ليست بهادية^(١)، وإنما الأمر بالابتداء والمشئة.

ويقال: ﴿يَخْفَضُ رَحْمَتَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالفهم عنه فيما يكاشفه به من الأسرار ويلقيه إليه من فنون التعريفات.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَيَتَّهِمُ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ الآية.

أخبر أنهم - مع ضلالتهم وكفرهم - متفاوتون في أخلاقهم، فكُلُّهم حَوَنَةٌ في أمانة الدين، ولكن منهم من يرجع إلى سداد المعاملة، ثم وإن كانت معاملتهم بالصدق فلا ينفعهم ذلك في إيجاب الثواب ولكن ينفعهم من حيث تخفيف العذاب؛ إذ الكفار مُطالَبُونَ بتفصيل الشرائع، فإذا كانوا في كفرهم أقل ذنباً كانوا بالإضافة إلى الأخسرين أقل عذاباً، وإن كانت عقوبتهم أيضاً مؤبدة.

ثم يبين أنه ليس الحكم إليهم حتى إذا:

﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ﴾.

فلا تجري عليهم هذه الحالة، أو تنفعهم هذه القالة، بل الحكم لله تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الذين آثروا هواهم على عُقباهم، وقدموا مناهم على موافقة مولاهم أولئك لا نصيب لهم في الآخرة؛ فللاستمتاع بما اختاروا من العاجل خسروا في الدارين.

بقوا عن الحق، وما استمتعوا بحظ، جمَعَ عليهم فنون المَحَن ولكنهم لا يدرون ما أصابهم، لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم، ثم مع هذا يُخلدُهم في العقوبة الأبدية.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ

(١) أصاب الرسول الكريم حين قال: «إنه لن يدخل الجنة أحدًا عمله...» أخرجه أحمد بن حنبل ٦/

وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾

الإشارة من هذه الآية إلى المبطلين في الدعاوى في هذه الطريقة .

يزينون العبارات، ويطلقون ألسنتهم بما لا خَبَرَ في قلوبهم منه، ولا لهم بذلك تحقيق، تلبساً على الأغبياء والعوام وأهل البداية؛ يوهمون أن لهم تحقيق ما يقولونه بألسنتهم . قال تعالى في صفة هؤلاء ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، كذلك أرباب التلبيس والتدليس، يُرَوِّجون قائلتهم على المستضعفين، فأما أهل الحقائق فأسرارهم عندهم مكشوفة .

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي يعلمون أنهم كاذبون، كذلك أهل الباطل والتلبيس في هذه الطريقة يتكلمون عن قلوب خربة، وأسرار محجوبة، نعوذ بالله من استحقاق المقت!

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نَعْمًا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

أي ليس من صفة مَنْ اخترناه للنبوّة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخلق إلى نفسه، أو يقول بإثبات نفسه وحظّه، لأن اختياره - سبحانه - إياهم للنبوّة يتضمن عصمتهم عمّا لا يجوز، فتجوز ذلك في وصفهم مُنَافٍ لحالهم، وإنما دعاء الرسل والأولياء - للخلق - إلى الله سبحانه وتعالى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نَعْمًا﴾ أي إنما أشار بهم على الخلق بأن يكونوا ربانيين، والرباني منسوب إلى الرب كما يقال فلان دقياني ولحياني . . . وبابه .

وهم العلماء بالله الحكماء في الله القائمون بفنائهم عن غير الله، المستهلكة حظوظهم، المستغرقون في حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم، ينطقون بالله ويسمعون بالله، وينظرون بالله، فهم بالله مَخَوٍّ عمّا سوى الله .

ويقال الرباني من ارتفع عنه ظِلُّ نفسه، وعاش في كنف ظلّه - سبحانه .

ويقال الرباني الذي لا يُثْبِتُ غير ربّه مَوْحِداً، ولا يشهد ذرة من المحو والإثبات لغيره أو مِنْ غيرِه .

ويقال الرباني من هو مَخَوٍّ في وجوده - سبحانه - ومحو عن شهوده، فالقائم عنه غَيْرُهُ، والمُخْجَرِي لِمَا عليه سواه .

ويقال الرباني الذي لا تُؤَثِّرُ فيه تصارييف الأقدار على اختلافها .

ويقال الرباني الذي لا تُغَيِّرُهُ محنة ولا تَضُرُّهُ نعمة - فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق.

ويقال الرباني الذي لا يتأثر بورود واردة عليه، فَمَنْ استنطقته رقة قلب، أو استمَّاله هجومُ أمر، أو تفاوتت عنده أخطار حادث - فليس برباني.

ويقال إنَّ الرباني هو الذي لا يباي شيء من الحوادث بقلبه وسيره، ومن كان لا يقصر في شيء من الشرع بفعله.

﴿يَمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ مِنْ تَوَالِي إِحْسَانِي إِلَيْكُمْ، وتضاعف نعمتي لديكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي لا تنسبون إليهم ذرة من الإثبات في الخير والشر.
ويقال يعرفكم حدَّ البشرية وحقَّ الربوبية.

ويقال يأمركم بتوقيفهم من حيث الأمر والشرعية، وتحقير قدر الخلق - بالإضافة إلى الربوبية. ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَيَأْمُرُكُمْ بِإِثْبَاتِ الْخُلُقِ بَعْدَ شَهَادَةِ الْحَقِّ؟

ويقال: «أَيَأْمُرُكُمْ بِمُطَالَعَةِ الْأَشْكَالِ، وَنَسْبَةِ الْحَدَثَانِ إِلَى الْأَمْثَالِ، بَعْدَ أَنْ لَاحَتْ فِي أَسْرَارِكُمْ أَنْوَارُ التَّوْحِيدِ، وَطَلَعَتْ فِي قُلُوبِكُمْ شَمُوسُ التَّفْرِيدِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية.

أخذ الله ميثاق محمد ﷺ على جميع الأنبياء عليهم السلام، كما أخذ ميثاقهم في الإقرار بربوبيته - سبحانه، وهذا غاية التشريف للرسول عليه السلام، فقد قرَنَ اسمه باسم نفسه، وأثبت قُدْرَةَ كما أثبت قدر نفسه، فهو أَوْحَدُ الْكَافَةِ فِي الرِّبِّيَّةِ، ثُمَّ سَهَّلَ سَبِيلَ الْكَافَةِ فِي مَعْرِفَةِ جَلَالِهِ بِمَا أَظْهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

الإشارة فيه: فَمَنْ حَادٍ عَنْ سُنَّتِهِ، أَوْ زَاغَ عَنْ اتِّبَاعِ طَرِيقَتِهِ بَعْدَ ظُهُورِ دَلِيلِهِ، ووضوح معجزته فأولئك هم الذين خَبِثَتْ دَرَجَتُهُمْ، وَوَجِبَ الْمَقْتُ عَلَيْهِمْ لِجَحْدِهِمْ، وَسَقُوطُهُمْ عَنْ تَعَلُّقِ الْعَنَاءِ بِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

مَنْ لَاحِظُهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِيقَةِ، أَوْ طَالَعَ سِوَاهُ فِي تَوْهَمِ الْأَهْلِيَّةِ^(١) كَرَأْيِ السَّرَابِ ظَنَّهُ مَاءً فَلَمَّا أَتَاهُ وَجَدَهُ هَبَاءً. ومغاليط الحسابات مُقَطَّعَةٌ مُشْكَلَةٌ فَمَنْ حَلَّ بِهَا نَزَلَ بِوَادٍ قَفَرٍ. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ لإجراء حكم الإنهية على وجه القهر عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

آمنا بالله لا بنفوسنا أو حولنا أو قوتنا.

وآمنا بما أنزل علينا بالله، وأننا لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ - بالله سبحانه - لا بحولنا واختيارنا، وجهدنا واكتسابنا، ولولا أنه عَرَفْنَا أَنَّهُ مَنْ هُوَ مَا عَرَفْنَا وَإِلَّا فَمَتَى عَلِمْنَا ذَلِكَ^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. مَنْ سَلَكَ غَيْرَ الْخُمُودِ تَحْتَ جَرِيَانِ حُكْمِهِ سَبِيلًا زَلَّتْ قَدَمُهُ فِي وَهْدَةٍ^(٣) من المغاليط لا مدى لقعرها.

ويقال من توسّل إليه بشيء دون الاعتصام به فُخْصِرَانَهُ أَكْثَرَ مِنْ رِبْحِهِ.

ويقال من لم يَفْنِ عن شهود الكل لم يصل إلى مَنْ به الكل.

ويقال مَنْ لَمْ يَمْشِ تَحْتَ رَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ الْمُعْظَمِ فِي قَدْرِهِ، الْمُعْلَى فِي وَصْفِهِ، لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا ذَرَّةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ الآية.

مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ اسْتِحْقَاقِ الْوَصْلَةِ فِي سَابِقِ حُكْمِهِ فَمَتَى يَقْرِبُهُ مِنْ بَسَاطَةِ الْخِدْمَةِ بِفَعْلِهِ فِي وَقْتِهِ؟

ويقال: الذي أقصاه حكم (الأول) متى أدناه صدق العمل؟ والله غالبٌ على أمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

(١) الأهلية للأمر: الصلاحية له.

(٢) هنا أجرى مقارنة بقول ذي النون المصري عندما سُئِلَ: بماذا عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي. (الرسالة القشيرية ص ٣١٥).

(٣) الوهدة: الأرض المنخفضة كأنها حفرة. والهوة تكون في الأرض (ج) وهاد، ووهذ.

أولئك قصارى حالهم ما سبق لهم من حكمه في ابتداء أمرهم، ابتداءهم ردُّ القسمة، ووسائطهم الصدُّ عن الخدمة، ونهايتهم المصير إلى الطرد والمذلة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

خالدين في تلك المذلة لا يفتر عنهم العذاب لحظة، ولا يخفف دونهم الفراق ساعة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أولئك هم الذين تداركتهم الرحمة، ولم يكونوا في شق السبق من تلك الجملة، وإن كانوا في توهم الخلق من تلك الزمرة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

الإشارة منه: أن الذين رجعوا إلى أحوال أهل العادة بعد سلوكهم طريق الإرادة، وآثروا الدنيا ومطاوعة الهوى على طلب الحق سبحانه وتعالى، ثم أنكروا على أهل الطريقة، وازدادوا في وحشة ظلماتهم - لن تُقبل توبتهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الحق فإنه لا يقبل الأمانة بعد ظهور الخيانة. وعقوبتهم أنهم على ممر الأيام لا يزدادون إلا نفرة قلب عن الطريقة، ولا يتحسرون على ما فاتهم من صفاء الحالة. ولو أنهم رجعوا عن إصرارهم لها لُقِبلت توبتهم، ولكن الحق سبحانه أجرى سنته مع أصحاب الفترة في هذه الطريقة إذا رجعوا إلى أصول العادة ألا يتأسفوا على ما مضى من أوقاتهم.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَقْسَدَهُمْ وَابْسَدَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وإن المرتد عن الإسلام لأشدُّ عداوة للمسلمين من الكافر الأصلي، فكذلك الراجع عن هذه الطريقة لأشدُّ إنكاراً لها وأكثر إغراضاً عن أهلها من الأجنبي عنها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

الإشارة منه: لمن مات بعد فترته - وإن كانت له بداية حسنة - فلا يحشر في الآخرة مع أهل هذه القصة، ولو تشفع له ألف عارف، بل من كمال المكر به أنه يلقي شبهه في الآخرة على غيره حتى يتوهم معارفه من أهل المعرفة أنه هو - فلا يخطر ببال أحد أنه ينبغي أن يشفع له.

قوله جل ذكره: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾.

لَمَّا كَانَ وجود البرِّ مطلوباً ذكر فيه «مِنْ» التي للتبعية فقال: ﴿وَمَا تُحِبُّونَ؟﴾
فَمَنْ أَرَادَ البرَّ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا يَحِبُّهُ أَيُّ البَعْضِ، وَمَنْ أَرَادَ الْبَارَّ فَلْيَنْفِقْ جَمِيعَ مَا يَحِبُّهُ. وَمَنْ
أَنْفَقَ مَحْبُوبَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَجَدَ مَطْلُوبَهُ مِنَ الْحَقِّ تَعَالَى، وَمَنْ كَانَ مُرَبَّوْطاً بِحُظُوظِ نَفْسِهِ
لَمْ يَحِظْ بِقَرَبِ رَبِّهِ.

ويقال إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البار وأنت
تؤثر عليه حظوظك. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَلَيْهِ﴾ منهم من ينفق على
ملاحظة الجزاء والعوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحزن، ومنهم من
ينفق اكتفاء بعلمه، قال قائلهم:

ويهتز للمعروف في طلب العلى لتذكر يوماً - عند سلمى - شمائله
قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى
نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

الأصل في الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم، فما لا يوجد فيه حدٌ فذلك
من الحق - سبحانه - توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع؛ فإن الله - سبحانه -
وسَّعَ أحكامَ التكليف على أهل النهاية، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ما هم به
من أحكام القلوب، فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد. وأما أهل البداية فالأمر
مضيقٌ عليهم في الوظائف والأوراد؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم
بقلوبهم من المعاني، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ إلى أحوال
أهل الدعاوى والمغالطات؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبون إلى الله - سبحانه -
هواجسها، والله بريء عنها. وعزيرٌ عبدٌ يفرق بين الخواطر والهواجس.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الخروج إلى الله بالكلية، والتسليم لحُكْمِهِ من غير أن تبقى بقية؛
فإثبات ذرة في الحسبان من الحدثنان شرك - في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ مَا بَشَرْتُ
بِئِنَّكَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ
كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنَّا عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

البيت حَجَرَةٌ والعبد مَدَرَةٌ، فَرَبَطَ المَدَرَةَ بالحَجَرَةِ، فالمدَرُ مع الحجر. وتعزُّزٌ
وتَقَدُّسٌ من لم يزل.

لَمَّا كَانَ وجود البرِّ مطلوباً ذكر فيه «مِنْ» التي للتبويض فقال: ﴿وَمَا يُحِبُّونَ﴾؛ فَمَنْ أراد البر فلينفق مما يحبه أي البعض، وَمَنْ أراد البارَّ فلينفق جميع ما يحبه. ومن أنفق محبوبه من الدنيا وَجَدَ مطلوبه من الحق تعالى، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحظ بقرب ربه.

ويقال إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البار وأنت تؤثر عليه حظوظك. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ عِلْمِهِ﴾ منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء والعوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحزن، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه، قال قائلهم:

ويهتز للمعروف في طلب العلى لتذكر يوماً - عند سلمى - شمائله
قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فَلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاثْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

الأصل في الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم، فما لا يوجد فيه حدٌ فذلك من الحق - سبحانه - توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع؛ فَإِنَّ اللَّهَ - سبحانه - وَسَّعَ أحكام التكليف على أهل النهاية، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ما هم به من أحكام القلوب، فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد. وأما أهل البداية فالأمر مضيقٌ عليهم في الوظائف والأوراد؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم بقلوبهم من المعاني، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ إلى أحوال أهل الدعاوى والمغاليط؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبونها إلى الله - سبحانه - هواجسها، والله بريء عنها. وعزيزٌ عبدٌ يفرق بين الخواطر والهواجس.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
ملة إبراهيم الخروج إلى الله بالكلية، والتسليم لحكمه من غير أن تبقى بقية؛ فإثبات ذرة في الحسبان من الحدثان شركٌ - في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ مَا بَنَيْنَاً مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

البيت حَجَرَةٌ والعبد مَدْرَةٌ، فَرَبَطَ المدرة بالحجرة، فالمدر مع الحجر. وتعزَّز وتقدَّس من لم يزل.

ويقال البيت مطاف النفوس، والحق سبحانه مقصود القلوب!

البيت أطلال وآثار وإنما هي رسوم وأحجار ولكن:

تِلْكَ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ

ويقال البيت حجر، ولكن ليس كل حجر كالذي يجانسه من الحجر.

حَجَرٌ وَلَكِنْ لِقُلُوبِ الْأَحْبَابِ مَزْعَجٌ بَلْ لَأَكْبَادُ الْفُقَرَاءِ مَنْفَعٌ^(١)، لا بل لقلوب قومٍ مِثْلُجٍ مَبْهَجٍ، ولقلوب الآخرين منفع مزعج.

وهم على أصناف: بيت هو مقصد الأحباب ومزارهم، وعنده يسمع أخبارهم ويشهد آثارهم.

بيت من طالعه بعين التفرقة عاد بسرٍ خراب، ومن لاحظته بعين الإضافة حظي بكل تقريب وإيجاب، كما قيل:

إِنْ الدِّيارَ - وَإِنْ صَمَمْتُ - فَإِنَّ لَهَا عَهْدًا بِأَحْبَابِنَا إِذْ عِنْدَهَا نَزَلُوا

بيت من زاره بنفسه وجد الطافه، ومن شاهده بقلبه نال كشوفاته.

ويقال قال سبحانه: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦] وأضافه إلى نفسه، وقال ها هنا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وفي هذا طرف من الإشارة إلى عين الجمع.

وسميت (بكة) لازدحام الناس، فالكل يتناجون على البدار إليه، ويزدحمون في الطواف حوالته، وبذلون المهبج في الطريق ليصلوا إليه.

والبيت لم يخاطب أحداً منذ بَنِيَ بُنْيَةً، ولم يستقبل أحداً بحظوة، ولا راسل أحداً بسطر في رسالة، فإذا كان البيت الذي خلقه من حجر - هذا وصفه في التعزز فما ظنك بمن البيت له. قال ﷺ مخبراً عنه سبحانه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»^(٢).

ويقال إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى رب البيت بالهوينى دون تحمّل المشقات ومفارقة الراحة؟!.

ويقال لَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِأَوَّلِ بَيْتٍ وَضَعَ لَكَ وَلَكِنْ أَفْرِذْ سِرْكَ لِأَوَّلِ حَبِيبٍ أَتْرَكَ.

ويقال شتان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِعَ له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له.

(١) نفخ الشيء: ارتفع، والنفخ: الفخر والكبر أي فخر المرء بما ليس عنده.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٤١٤)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٣٢٨، ٨/

٣٣٦، ٩/٢٨٧)، والهيتمي في (موارد الظمان ٤٩)، وأبو حنيفة في (جامع المسانيد ١/٨٨ -

١١٣) وفي (المسند ١٦٠)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ١٣٨).

ويقال لا يكون دخول البيت - على الحقيقة - إلا بخروجك عنك، فإذا خرجت عنك صَحَّ دخولك في البيت، وإذا خرجت عنك أُمِنْتَ.

ويقال دخول بيته لا يصحُّ مع تعريضك في أوطانك ومعاهدك، فإن الشخص الواحد لا يكون في حالة واحدة في مكانين؛ فمن دخل بيت ربّه فبالحرّي أن يخرج عن معاهد نفسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا﴾.

شرط الغني ألا يدخّر عن البيت شيئاً من ماله، وشرط الفقير ألا يدخّر عن الوصول إلى بيته نفساً من روحه.

ويقال الاستطاعة فنون؛ فمستطيع بنفسه وماله وهو الصحيح السليم، ومستطيع بغيره وهو الزمّين المعصوب، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطاياها.

ويقال حج البيت فَرَضَ على أصحاب الأموال، ورب البيت فَرَضَ على الفقراء فرض حتم؛ فقد يَنْسُدُ الطريق إلى البيت ولكن لا يَنْسُدُ الطريق إلى رب البيت، ولا يُمنَعُ الفقير عن رب البيت.

ويقال الحج هو القصد إلى مَنْ تُعَظَّمُ: فقاصدٌ بنفسه إلى زيارة البيت، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت، فشتان بين حج وحج، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فريضهم، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند شهود ربهم، فأما القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن المعهودات من محرمات الإحرام، وأما القاصدون بقلوبهم فإنهم أحرموا عن المساكنات وشهود الغير وجميع الأنام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

ضرب رقم الكفر على من ترك حج البيت، ووقعت بسبب هذا القول قلوب العلماء في كد التأويل، ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا زيادة تهديد تدل على زيادة تخصيص.

ويقال إن سبيل من حج البيت أن يقوم بآداب الحج، فإذا عقد بقلبه الإحرام يجب أن يفسخ كلّ عَقْدٍ يصدّه عن هذا الطريق، وينقض كل عزم يرده عن هذا التحقيق، وإذا طَهَّرَ تَطَهَّرَ عن كل دَنَسٍ من آثار الأغيار بماء الخجل ثم بماء الحياء ثم بماء الوفاء ثم بماء الصفاء، فإذا تجرّد عن ثيابه تجرد عن كل ملبوس له من الأخلاق الذميمة، وإذا لبّي بلسانه وجب ألا تبقى شَعْرَةٌ مِنْ بَدَنِهِ إلا وقد استجابت لله. فإذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسيره حيث وقفه الحق بلا اختيار مقام، ولا تعرض لتخصيص؛

فإذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه، وعرف له تعالى حقّه على نفسه، ويتعرّف إلى الله تعالى بِتَبَرِّيهِ عَنْ مُنْتَهَى وَحَوْلِهِ، والحق سبحانه يتعرّف إليه بِمُنْتَهَى وَطَوْلِهِ، فإذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاة بنسيان نفسه، ولا يصحّ ذكره لربّه مع ذكره لنفسه، فإذا بلغ مِنِّي نفي عن قلبه كل طلب ومُنَى، وكلّ شهوة وهوى.

وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة في الدنيا والعقبى.
وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية، وتقرّب به إلى الحق سبحانه، فإذا دخل الحرم عزم على التباعد عن كل مُحَرَّم على لسان الشريعة وإشارة الحقيقة.
وإذا وقع طَرَفُهُ على البيت شهد بقلبه ربّ البيت، فإذا طاف بالبيت أخذ سيره بالجلولان في الملكوت.

فإذا سعى بين الصفا والمروة صفّى عنه كل كدورة بشرية وكل آفة إنسانية.
فإذا خلّق قطع كلّ علاقة بقيت له.
وإذا تحلل من إحرام نفسه وقصده إلى بيت ربّه استأنف إحراماً جديداً بقلبه، فكما خرج من بيت نفسه إلى بيت ربّه يخرج من بيت ربّه إلى ربّه تعالى.
فمن أكمل نُسكّه فإنما عمل لنفسه، ومن تكاسل فإنّ الله غني عن العالمين وقال ﷺ: «الحاج أشعث»^(١) أغبر، فمن لم يتحقق بكمال الخضوع والذوبان عن كليته فليس بأشعث ولا أغبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.
الخطاب بهذه الآية لتأكيد الحجة عليهم، ومن حيث الحقيقة والقهر يسدّ الحجة عليهم، فهم مدعوون - شرعاً وأمرأ، مطرودون - حُكماً وقهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَغُّوْهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شَٰهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

كيف يصد غيره مَنْ هو مصدود في نفسه؟ إنّ في هذا لَسرّاً للربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كُفْرِينَ﴾.

الوحشة ليست بلازمة لأصحابها، بل هي متعديّة إلى كل من يحوم حول أهلها، فَمَنْ أطاع عدوّ الله إلى شؤم صحبة (الأعداء) ألقاه في هودته.

(١) الشعث: التلبّد والتغير.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

لا ينبغي لمن أشرفت في قلبه شמושُ العرفان أن يوقع الكفر عليه ظله، فإنه إذا أقبل النهار من ها هنا أدبر الليل من ها هنا.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم﴾ الآية إنما يعتصم بالله مَنْ وَجَدَ العصمة من الله، فأما مَنْ لم يَهْدِهِ الله فمتى يعتصم بالله؟ فالهداية منه في البداية توجب اعتصامك في النهاية، لا الاعتصام منك يوجب الهداية.

وحقيقة الاعتصام صدق اللجوء إليه، ودوام الفرار إليه، واستصحاب الاستغاثة إليه. وَمَنْ كشف عن سِرِّه غطاء التفرقة تحقق بأنه لا لغير الله ذرة أو منه سينة، فهذا الإنسان يعتصم به ممن يُعْتَصِمُ به؛ قال سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وعلى آله: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ﴾.

وَمَنْ اعتصم بنفسه دون أن يكون محوياً عن حوله وقوته في اعتصامه - فالشِرْكُ وطنه وليس يشعر.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

حق التقوى أن يكون على وفق الأمر لا يزيد من قِبَلِ نَفْسِهِ ولا ينقص.

هذا هو المعتمد من الأقاويل فيه، وأمره على وجهين: على وجه الحشم وعلى وجه التذنب وكذلك القول في النهي على قسمين: تحريم وتنزيه، فيدخل في جملة هذا أن يكون حق تقاته أولاً اجتناب الزلة ثم اجتناب الغفلة ثم التوقي عن كل خلة ثم التنقي من كل علة، فإذا تَقَيَّتْ عن شهود تقواك بعد اتصافك بتقواك فقد اتَّقَيْتَ حَقَّ تقواك.

وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان، وصون العهود، وحفظ الحدود، وشهود الإلهية، والانسلاخ عن أحكام البشرية، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُزْم وظلم، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه، والتحقق بأنه لا يقبل أحداً بَعْلَةً ولا يَرُدُّ أحداً بَعْلَةً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

لا تُصَادِفُكُم الوفاة إلا وأنتم بشرط الوفاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْتُمْ كَانْتُمْ أَعْدَاءُ قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

الاعتصامُ بحبله - سبحانه - التمسكُ بآثارِ الواسطة - العزيز صلوات الله عليه - وذلك بالتحقق والتعلق بالكتاب والسنة.

ويصح أن يقال: الخواص يُقال لهم ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾، وخاص الخاص قبل لهم ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾، ولمن رجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله، أو فكرته واستدلّاه، أو معارفه وأشكاله، والتجأ إلى ظل تدبيره، واستضاء بنور عقله وتفكيره - فمرفوع عنه ظل العناية، وموكل إلى سوء حاله.

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: التفرقة أشد العقوبات وهي قرينة الشريك.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾. وكانوا أعداء حين كانوا قائمين بحظوظهم، مُعْرِجِينَ على ضيق البشرية، متزاحمين بمقتضى شح النفوس.

﴿قَالَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: بالخلاص من أسير المكنونات، ودفع الأخطار عن أسرارهم، فصار مقصودهم جميعاً واحداً؛ فلو أَلْفُ أَلْفِ شخص في طلب واحد - فهم في الحقيقة واحد.

﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ نعمته التي هي عصمته إياكم، إخواناً مُتَّفِقِي القصد والهمة، متفانين عن حظوظ النفس وخفايا البخل والشح.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾: بكونكم تحت أسير مُناكم، ورباط حظوظكم وهواكم.

﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾: بنور الرضاء، والخمود عند جريان القضاء، وتلك حقاً هي المكانة العظمى والدرجة الكبرى، ويدخل في هذه الجملة تركُ السكون إلى ما منك من المناقب والثقى، والعقل والحجا، والتحصيل والنهى، والفرار إلى الله - عز وجل - عن كل غير وسوى.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

هذه إشارة إلى أقوام قاموا بالله لله، لا تأخذهم لومة لائم، ولا تقطعهم عن الله استنامة إلى علة، وقفوا جملتهم على دلالات أمره، وقصروا أنفاسهم واستغرقوا أعمارهم على تحصيل رضاه، عملوا لله، ونصحوا الدين لله، ودعوا خلق الله إلى الله، فَرَبِحَتْ تجارتهم، وما خَسِرَتْ صفقتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هؤلاء أقوام أظهر عليهم في الابتداء رقوم الطلب، ثم وسمهم في الانتهاء بكَيِّ

الفرقة، فباتوا في شق الأحباب، وأصبحوا في زمرة الأجانب.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أرباب الدعاوى تسود وجوههم، وأصحاب المعاني تبيض وجوههم، وأهل الكشوفات غداً تبيض بالإشراق وجوههم، وأصحاب الحجاب تسود بالحجبة وجوههم، فتعلوها غبرة، وترهقها قشرة.

ويقال مَنْ ابيض - اليوم - قلبه ابيض - غداً - وجهه، وَمَنْ كان بالصد فتحاله العكس.

ويقال مَنْ أعرض عن الخلق - عند سوانحه - ابيض وجهه بروح التفويض، وَمَنْ علّق بالأغيار قلبه عند الحوائج اسود محياه بغبار الطمع؛ فأما الذين ابيضت وجوههم ففي أنس وروح، وأما الذين اسودت وجوههم ففي محن ونوح.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

نديم مخاطبتنا معك على دوام الأوقات في كل قليل وكثير، عمارة لسبيل الوداد: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ وأنى يجوز الظلم في وصفه تقديرًا ووجوداً - والخلق كلهم خلقه - والحكم عليهم حكمه؟

﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ حكماً.

قوله جل ذكره: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

لما كان المصطفى صلوات الله عليه أشرف الأنبياء كانت أمته - عليه السلام - خير الأمم. ولما كانوا خير الأمم كانوا أشرف الأمم، ولما كانوا أشرف الأمم كانوا أشوق الأمم، فلما كانوا أشوق الأمم كانت أعمارهم أقصر الأعمار، وخلقهم آخر الخلائق لثلاث بطول مكثهم تحت الأرض. وما حصلت خيريتهم بكثرة صلواتهم وعبادتهم، ولكن بزيادة إقبالهم، وتخصيصه إياهم. ولقد طال وقوف المتقدمين بالباب ولكن لما خرج الإذن بالدخول تقدّم المتأخرون:

وكم باسطين إلى وُضِلْنَا أَكْفَهُمْ لم ينالوا نصيبا

قوله جل ذكره: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

المعروف خدمة الحق، والمنكر صعبة النفس.
 المعروف إثارة حق الحق، والمنكر اختيار حظ النفس.
 المعروف ما يُؤْلَفُكُ إليه، والمنكر ما يحجبك عنه.
 وشرط الأمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف، وحق الثأبي عن المنكر أن يكون منصفاً عن المنكر.

﴿وَلَوْ مَأَمَكْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.
 لو دَخَلَ الكافة تحت أمرنا لوصلوا إلى حقيقة العز في الدنيا والعقبى، ولكن
 بَعُدُوا عن القبول في سابق الاختيار فصار أكثرهم موسوماً بالشرك.
 قوله جل ذكره: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ أَلَدَبَارًا ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسلط على أوليائه إلا بمقدار ما يصدق إلى الله
 فرارهم، فإذا حق فرارهم أكرم لديه قرارهم، وإن استطالوا على الأولياء بموجب
 حسابانهم انعكس الحال عليهم بالصغار والهوان.

قوله جل ذكره: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَنْ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَيَأْمُرُ
 بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ
 يَغْتَرِبُونَ فِي ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

عَلِمَ الهجران لا ينكتم، وَسِمَةُ البُغْدِ لا تَخْفَى، ودليل القطيعة لا يستتر؛ فهم في
 صغار الطرد، وذُلُّ الرد، يعتبر بهم أولو الأبصار، ويغتر بهم أضرابهم من الكفار
 الفُجَّار.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِذَا دُعا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى حَقٍّ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُكْفَرُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

كما غَايَر بين النور والظلام مغايرة تضاد فكذلك تضاد فكذلك أثبت منافاة بين
 أحوال الأولياء وأحوال الأعداء، ومتى يستوي الضياء والظلمة، واليقين والتهمة،
 والوصلة والفرقة، والبعد والألفة، والمعتكف على البساط والمنصرف عن الباب،
 والمتصف بالولاء والمنحرف عن الوفاء؟ هيهات يلتقيان! فكيف يتفقان أو يستويان؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.
 لن يخيب عن بابهِ قاصد، ولم يخسر عليه (تاجر)، ولم يستوحش معه
 مصاحب، ولم يذل له طالب.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ ضَالُّونَ﴾.

لا في الحال لهم بدل ولا في المال عنهم خلف. في عاجلهم خسروا، وفي آجلهم في قطع وهجر، وبلاء وخسر، وعذاب ونكر:

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْسِرَةَ لِمَنْ ابْتَغَى عَوْضًا لِسُلْمَى فَلَمْ يَجِدَ

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَكُنَّ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ما وجدوا ميراث ما بذلوا لغير الله إلا حسرات متتابعة، وما حصلوا من حساباناتهم إلا على محن مترادفة، وذلك جزاء من أعرض وتولى.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الركون إلى الضد - بعد تبين المشاق - إعانة على الحال بما لا يبلغه كيد العدو، فأشار الحق - سبحانه - على المسلمين بالتحرز عن الاعتراض، وإظهار البراءة عن كل غير، ودوام الخلو للحق - سبحانه - بالقلب والسر. وأخبر أن مضادات القوم للرسول ﷺ أصلية غير طارئة عليهم، وكيف لا؟ وهو صلوات الله عليه محل الإقبال وهم محل الإعراض. ومتى يجتمع الليل والنهار؟!.

قوله جل ذكره: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَكُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا نَائِلٌ مِنَ الْغِيظِ﴾.

أنتم بقضية كرمكم تصفو - عن الكدورات - قلوبكم؛ فتغلبكم الشفقة عليهم، وهم - لعتوهم وخلفهم - يكيّدون لكم ما استطاعوا، ولفرط وحشتهم لا ترشح منهم إلا قطرات غيظهم. ففرغ - يا محمد - قلبك منهم.

﴿قُلْ مَوْتُيَ يُعْطِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

دعهم يتفردوا بمقاساة ما تداخلهم من الغيظ، واستريحوا بقلوبكم عما يحل بهم، فإن الله أولى بعباده؛ يوصل إلى من يشاء ما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْفَ تَمُوتُ وَإِنْ تَصْنَعُوا سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية إلى المنصرفين عن طريق الإرادة، الراجعين إلى أحوال

أهل العادة؛ لا يعجبهم أن يكون لمريد نفاذ، وإذا رأوا فترةً لقاصِد استراحوا إلى ذلك. وإنَّ الله - بفضله ومِثته - يُثِمُّ نوره على أهل عنايته، ويَذَرُ الظالمين الزائغين عن سبيله في عقوبة بعادهم، لا يبالي بما يستقبلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْفِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أقامه - ﷺ - بتبويئه الأماكن للقتال، فانتدب لذلك بأمره ثم أظهر في ذلك الباب مكنونات سره، فالمدار على قضائه وقدره، والاعتبار بإجرائه واختياره.

قوله جلت قدرته: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

يُبْرِزُ الجميع في صدار الاختيار؛ كأن الأمر إليهم في نفهم وإتيانهم، وفعلهم وتركهم، وفي الحقيقة لا يتقبلون إلا بتصريف القبضة، وتقلب القدرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

تذكير ما سَلَفَ من الإنعام فتح لباب التملق في اقتضاء أمثاله في المُسْتَأْنَف^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

كان تسكين الحق سبحانه لقلب المصطفى - ﷺ - بلا واسطة من الله - سبحانه، والربط على قلوب المؤمنين بواسطة الرسول ﷺ - فلولا بقية بقيت عليهم ما رُدَّهم في حديث النصرة إلى إنزال الملك، وأنى بحديث الملك - والأمر كله بيد الملك؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَمَ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أجرى الله - سبحانه - سُنته مع أوليائه أنه إذا ضعفت نيأتهم، أو تناقصت إرادتهم أو أشرفت قلوبهم على بعض فترة - أراهم من اللطاف، وفنون الكرامات ما يُقَوِّي به أسباب عزفانهم، وتؤكد به حقائق يقينهم.

فعلى هذه السُّنة أنزل هذا الخطاب. ثم قطع قلوبهم وأسرارهم عن الأغيار بالكلية فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

(١) استأنف الشيء: أخذ أوله، ابتداءه، استقبله.

قوله جل ذكره: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

إنَّ الله لا يُشْمِئُ بأوليائه عدوًّا؛ فالمؤمن وإن أصابته نكبة، فعدوه لا محالة يكبه الله في الفتنه والعقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الإله من له الأمر والنهي، فلما لم يكن له في الإلهية نظير لم يكن له - (ﷺ) (١) - من الأمر والنهي شيء.

ويقال جرَّده - بما عرَّفه وخاطبه - عن كلِّ غير ونصيب ودعوى، حيث أخبر أنه ليس له من الأمر شيء، فإذا لم يَجْزُ أن يكون لسيد الأولين والآخرين شيء من الأمر فَمَنْ نزلت رتبته عن منزلته فمتى يكون له شيء من الأمر؟

ويقال استأثر (بِسُتْرِ عِبَادِهِ فِي حُكْمِهِ) فقال أنا الذي أتوب على من أشاء من عبادي وأعذب من أشاء، والعواقب عليك مستورة، وإنك - يا محمد - لا تدري سرى فيهم.

ويقال أقامه في وقتٍ مقاماً فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] رمى بقبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه، وقال له في وقت آخر: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ثم زاد في البيان فقال: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. فإذا كان المُلْكُ ملكه، والأمر أمره، والحكم حكمه - فَمَنْ شاءَ عذَّبه، ومن شاءَ قرَّبه، ومن شاءَ هداه، ومن شاءَ أغواه.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

حرَّم الربا على العباد ومنه إقراض الواحد بائنين تستردهما، وسأل منك القرض الواحد بسبعمائة إلى ما لا نهاية له، والإشارة فيه أن الكرم لا يليق بالخلق وإنما هو صفة الحق سبحانه.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: دليل الخطاب أنَّ المؤمن لا يُعَذَّبُ بها، وإنَّ عَذْبَها مُدَّةٌ فلا يُخْلَدُ فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قَرَنَ طاعة الرسول صلوات الله عليه بطاعة نفسه تشريفاً لِقَدْرِهِ، وتخفيفاً على

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

الامة حيث ردّهم إلى صحبة شخص من أنفسهم، فإنّ الجنس إلى الجنس أسكن.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالنَّصِيبِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

معناه سارعوا إلى علم يوجب لكم المغفرة، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ شديد فقال ﷺ: «الندم توبة» وإنما توجب المغفرة التوبة لأن العاصي هو الذي يحتاج إلى الغفران.

والناس في المسارعة على أقسام: فالعابدون يسارعون بقدّمهم في الطاعات، والعارفون يسارعون بهمهمهم في القربات، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرّع الحسرات. فمن سارع بقدّمه وجد مثوبته، ومن سارع بهممه وجد قربته، ومن سارع بندمه وجد رحمته.

ولما ذكر الجنة وصفها بسعة العرض، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول في مقابلة العرض، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض، فقوم قالوا: المغفرة من صفات الذات وهي بمعنى الرحمة فعلى هذا فمغفرته حكمه بالتجاوز عن العبد وهو كلامه، وصفة الذات تتقدس عن الطول والعرض.

ومن قال: مغفرته من صفات فعله قال لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية، إشارة إلى استغراقه جميع الذنوب.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

لا يذخرون عن الله شيئاً، ويؤثرونه على جميع الأشياء، ينفقون أبدانهم على الطاعات وفنون الأوراد والاجتهاد، وأمواهم في إفشاء الخيرات وابتغاء القربات بوجوه الصدقات، وقلوبهم في الطلب ثم دوام المراعاة، وأرواحهم على صفاء المحبّات والوفاء على عموم الحالات، وينفقون أسرارهم على المشاهدات في جميع الأوقات؛ ينتظرون إشارات المطالبات، متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات.

قوله: ﴿وَالْكَبِيرِ وَالنَّصِيبِ﴾: يتجاوزون عن الخلق لملاحظاتهم إياهم بعين النسبة، وأقوام يخلمون على الخلق علماً بأن ذلك بسبب جزمهم فيشهدونهم بعين التسلط، وآخرون يكظمون الغيظ تحقّقاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهنّ عليهم التحمل، وآخرون فنوا عن أحكام البشرية فوجدوا صافي الدرجات في الدّل لأن نفوسهم ساقطة فانية، وآخرون لم يشهدوا ذرة من الأغيار في الإنشاء والإجراء؛ فعلموا أنّ المنشئ الله؛ فزالت خصوماتهم ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لما أفردوه

بالإبداع انقادوا لحكمه؛ فلم يروا معه وجهاً غير التسليم لحكمه، فأكرمهم الحق سبحانه بيزد الرضاء، فقاموا له بشرط الموافقة.

قوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فرضاً رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس، قال قائلهم:

رُبَّ رام لي بأحجار الأذى لم أجذبُداً من العطف عليه
﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.. هذا في معاملة الحق، وأما في معاملة الخلق فالإحسان أن تدع جميع حقك بالكلية كم كان على من كان، وتقبل (...)^(١) منه ولا تقلده في ذلك مئة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبَيِّنُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام «قل للظلمة حتى لا يذكروني فإني أوجبت أن أذكر من ذكرني وذكرني للظلمة باللعنة». وقال لظلمة هذه الأمة.

﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ ثم قال في آخر الآية: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾.

ويقال فاحشة كل أحد على حسب حاله ومقامه، وكذلك ظلمهم وإن خطور المخالفات ببال الأكابر كفعلها من الأغيار، قال قائلهم:

أنت عيني وليس من حق عيني غرض أجفانها على الأقداء^(٢)
فليس الجُزم على البساط كالذنب على الباب.

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم، أو ظلموا أنفسهم بملاحظة أحوالهم، فاستغفروا لذنوبهم بالتبري عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به، فخلصهم من ظلمات نفوسهم. وإن رؤية الأحوال والأفعال لظلمات عند ظهور الحقائق، ومن طهره الله بنور العناية صانه عن التورط في المغاليط البشرية.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بردهم إلى شهود الربوبية، وما سبق لهم من الحسنی في سابق القسمة.

﴿وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ مؤجلاً من الفراديس، ومُعجلاً في روح المباحات وتمايم الأتس.

(١) بياض في الأصل.

(٢) الأقداء (ج) القذى: وهو ما يتكون في العين من زَمَصٍ وغمَصٍ. أو ما يقع في العين من تَبَنٍ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

يعني اعتبروا بمن سلف، وانظروا كيف فعلنا بمن وإلى وكيف انتقمنا ممن عادى، وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: بيان لقوم من حيث أدلة العقول، وآخرين من حيث مكاشفات القلوب، وآخرين من حيث تجلّى الحق في الأسرار.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

يعني إذا قلتُم بالله (ووصلتم) بالله فلا ينبغي أن تخافوا من غير الله، ولا تهنوا ولا تضعفوا فإن النصر من عند الله، والغالب الله، وما سوى الله فليس منهم ذرة ولا منهم سيرة.

قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ينبغي للمؤمن ألا تظله مهابة من غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فُجُورٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فُجُورٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَوِلُّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

إن نالكم فينا مشقة فالذين تقدموكم لقوا مثل ما لقيتم، ومُنُوا بمثل ما به مُنِيتُم، فمن صبر منهم ظفر، ومن ضجر من حُمِلَ ما لقي خسر، والأيام تُؤبِّ والحالات دُول، ولا يخفى على الحق شيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِيَصْحَبَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ الْكَافِرِينَ﴾.

اختبارات الغيب سبب للعبد فباختلاف الأطوار يخلصه من المشائب فيصير كالذهب الخالص لا خَبَثَ فيه، كذلك يصفو عن العلل فيتخلص لله.

﴿وَيَتَّخِذَ الْكَافِرِينَ﴾ في أودية التفرقة. ﴿فَأَمَّا الزُّبَيُّ يَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [الرعد: ١٧].

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾.

من ظنَّ أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألغته أمانيه في مهواة الهلاك، وإن من عرف قَدْرَ مطلوبه سَهَّلَ عليه بذلُ مجهوده: (.....) ^(١) وهو بلداته على من يظن يخلع العذار وقال قائلهم:

إذا شام ^(٢) الفتى برق المعاني فاهون فائت طيب الرقاد

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

(٢) شام: أي ظهرت بجلده الشامة.

(١) بياض في الأصل.

طوارق التمني بعد الصبر على احتمال المشاق ولكن :

إذا انسكبت دموع في خُدودٍ تبين من بكى ممن تباكى
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
أَنفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ وَمَنْ يَنفَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ .
إن الرسل موقوفون حيشما وقفوا، ومخبرون عما عرفوا بمقدار ما عرفوا؛ فإذا
أيدوا بأنوار البصائر أطلعوا على مكنونات السرائر بلطائف التلويح بمقدار ما أعطوا من
الإشراق بوظائف البلوغ.

﴿أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ﴾ لما تُوفِّي المصطفى - ﷺ - سقمت
البصائر إلا بصيرة الصديق رضي الله عنه فأمدّه الله بقوة السكينة، وأفرغ عليه قوة
التولي فقال: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات»^(١) فصار الكلُ مهوورين تحت
سلطان قائلته لما انبسط عليهم من نور حالته، كالشمس بطلوعها تندرج في شعاعها
أنوار الكواكب فيستتر فيها مقادير مطارح شعاع كل نجم.
وإنما قال: ﴿أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ لأنه ﷺ مات. وقيل أيضاً لأنه قال: «ما زالت
أكلة خبير تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ
ثَوَابَ الدُّنْيَا فُتُوهُ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فُتُوهُ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ .
الأنفاس محصورة؛ لا زيادة فيها، ولا نقصان منها.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا فُتُوهُ مِنْهَا﴾ : للصالحين العاقبة وللآخرين الغفلة.
﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فُتُوهُ مِنْهَا﴾ : وثواب الآخرة أوله الغفران ثم الجنان ثم
الرضوان.

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ : وجزاء الشكر الشكر.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ .

إن الذين درجوا على الوفاء، وقاموا بحق الصفاء، ولم يرجعوا عن الطريق،

(١) أخرجه البخاري (جناز ٣)، (فضائل أصحاب النبي ٥)، (مغازي ٨٣)، وابن ماجه (جناز ٦٥)،
وأحمد بن حنبل (٦، ٢٢٠).

(٢) أخرجه القاضي عياض في (الشفاء ١/٦٠٩)، والخطابي في (إصلاح خطأ المحدثين ٢٣) والقرطبي
في (التفسير ٥/١٦٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢١٨٩)، (وصاحب ميزان الاعتدال
٣٢١٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/١٢٣٩).

وطالبوا نفوسهم بالتحقيق، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق - وجدوا محبة الحق سبحانه ميراث صبرهم، وكان الخلف عنهم الحق عند نهاية أمرهم، فما زاغوا عن شرط الجهد، ولا زاغوا في حفظ العهد، وسلموا تسليماً، وخرجوا عن الدنيا وكان كل منهم للعهد مقيماً مستديماً، وعلى شرط الخدمة والوداد مستقيماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

تحققوا بحقائق المعنى فخرسوا عن إظهار الدعوى، ثم نطقوا بلسان الاستغفار، ووقفوا في موقف الاستحياء، كما قيل:

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسنته آثام
قوله جل ذكره: ﴿فَقَالَهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾.

وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الأُنس في الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح بلاقائه، ثم استقلال السر بوجوده.

﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يعني دخولهم الجنة محررون عنها، غير داخلين في أسرها.

ويقال ثواب الدنيا والآخرة الغيبة عن الدارين برؤية خالقهما^(١).

ولما قال ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ قال في الآخرة ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ فوجب أن يكون لثواب الآخرة مزية على ثواب الدنيا حيث خصه بوصف الحسن، وتلك المزية دوامها وتماها وثمارها، وأنها لا يشوبها ما ينافيها، ويوقع آفة فيها.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

يعني إن طاعتم الأضداد جزوكم إلى أحوالهم، فآلقوكم في ظلماتهم، بل الله مولاكم: ناصركم ومعينكم وسيدكم ومصلح أموركم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: لأنه يعينكم على أنفسكم ليكفيكم شرها، ومن سواه يزيد في بلاككم إذا ناصروكم لأنهم يعينون أنفسكم عليكم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ لأن من سواه بمن عليك بنصرته إياك، وهو يجازيك على استنصارك به.

(١) قال القشيري في حديثه عن الغيبة برسالته: الغيبة في المصطلح الصوفي هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحسن بما ورد عليه، ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب. (الرسالة القشيرية ص ٦٩).

ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن تُعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك، فإذا استنصرت - سبحانه - يعطيك كل لطيفة، ولا يرضى بألا ينصرك.

قوله جل ذكره: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَتْوًى الظَّالِمِينَ﴾.

إن الله سبحانه خص نبينا - ﷺ - بإلقاء الرعب منه في قلوب أعدائه، قال عليه السلام: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ»^(١). فكذلك أجرى هذه السُّنة مع أوليائه؛ يطرح الهيبة منهم في القلوب، فلا يكاد يكون محق إلا ومنه - على المبطلين وأصحاب الدعوى والتمويه - هيبة في القلوب وقهر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.

(إنه سبحانه يجازيك على استنصارك به، ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن تعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك، فإذا استنصرت - سبحانه - يعطيك كل لطيفة، ولا يرضى بألا ينصرك).

الإشارة من هذه الآية إلى أن الحق سبحانه أقام أوليائه بحق حقه، وأعدهم عن تحصيل حظوظهم، وقام سبحانه بكفائتهم بكل وجه، فمن لازم طريق الاستقامة، ولم يزغ عن حده ولم يُزِغ في عهده، فإنه سبحانه يصدق وعده له بنجميل الكفاية ودوامها، ومن ضل عن الاستقامة - ولو خطوة - عثر في مشيته، واضطربت عليه - بمقدار جُرمه - حاله وكفايته، فمن زاد زيد له، ومن نقص نقص له.

قوله جل ذكره: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ سَرَفْنَا عَنْهُمْ آيَاتِنَا وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قيمة كل أحد إرادته؛ فمن كانت همته الدنيا فقيمتُه خسيصة فقيرة كالدينا، ومن كانت همته الآخرة فشریف خطره، ومن كانت همته ربانية فهو سيد وقته. ويقال من صفا عن إرادته وصل إليه، ومن وصل إليه أقبل - بلطفه - عليه، وأزلفه بمحل الخصوصية لديه.

قوله: ﴿ثُمَّ سَرَفْنَا عَنْهُمْ﴾: الإشارة منه أنه صرف قوماً عنه فشغلهم بغيره عنه، وآخرون صرفهم عن كل غير فأفردهم له؛ فالزاهدون صرفهم عن الدنيا،

(١) أخرجه النسائي في (سننه ٣/٦)، وأحمد بن حنبل (المسند ٢/٢٦٤، ٢٦٨، ٣١٤، ٣٩٦، ٤١٢، ٤٥٥، ٥٠١)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١/٢٦٠، ٢٥٨/٨)، والحميدي في (المسند ٩٤٥).

والعابدون صرفهم عن اتباع الهوى، والمريدون صرفهم عن المنى، والموحدون صرفهم عما هو غير وسوى.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ نُنَزِّلُ عَلَيْكَ مِنْ بَدِّ السَّمَاءِ سَاسًا يَنْشَأُ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

قوله: ﴿إِذْ نُنَزِّلُ عَلَيْكَ﴾ الإشارة من هذه الآية لأقوام تقع لهم فترة، ودواعي الحق سبحانه - من أنفسهم، ومن جميع الأقطار حتى كأن الأحجار من الشوارع واللبن من الجدران - تناديه: لا تفعل يا عبد الله! وهو مُصِرٌّ في لُيْهِ، مقيمٌ على غيِّهِ، جاحدٌ لِمَا يعلم أنه هو الحقُّ والأولى من حاله، فإذا قضى وطره واستوفى بهمته، فلا محالة يمسك من إرسال عنانه، ويقف عن ركضه في ميدانه، فلا يحصل إلا على أنفاس متصاعدة، وحسرات متواترة؛ فأورثه الحق - سبحانه - وحشةً على وحشة. حتى إذا طال في التحسُّر مقامه تداركه الحق - سبحانه - بجميل لطفه، وأقبل عليه بحسن عطفه، وأنقذه من ضيق أسره، ونقله إلى سعة عفوه وفضله، وكثيرٌ من هؤلاء يصلون إلى محل الأكابر ثم يقفون بالله الله (.....)^(١) ويقومون بالله الله بلا انتظار قريب ولا ملاحظة ترحيب.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ بَدِّ السَّمَاءِ سَاسًا يَنْشَأُ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: فأهل التحقيق والتوحيد يصلون بعد فتراتهم إلى القول بتزكُّ أنفسهم، وغسل أيديهم منهم، ورفع قلوبهم عنهم فيعيشون بالله الله، بلا ملاحظة طمع وطلبية، بل على عقيدة اليأس عن كل شيء. عليه أكدوا العهد، وبدلوا اللحظ، وتركوا كل نصيب وحظ، وهذه صفة من أنزل عليه الأمانة.

فأما الطائفة التي أهتمتهم أنفسهم - فبقوا في وحشة نفوسهم، ومن عاجل عقوبتهم سوء عقيدتهم في الطريقة بعد إيمانهم بها؛ قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

(١) بياض في الأصل.

والإشارة في قوله تعالى: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لهؤلاء أنهم يتحيرون في أمرهم فلا إقبال لهم على الصواب بالحقيقة، ولا إعراض بالكلية، يحيلون فترتهم على سوء اختيارهم، ويضيفون صفوة - لو كانت لقلوبهم - إلى اجتهدهم، وينسئون ربهم في الحالين، فلا يصرون تقدير الحق سبحانه. قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾: فَمَنْ عَرَفَ أَنَّ الْمُنْشِئَ اللَّهَ انسلخ عن اختياره وأحواله كانسلاخ الشَّغِيرِ عن العجين، وسَلَّمَ أموره إلى الله بالكلية. وأمارة مَنْ تحقق بذلك أن يستريح من كد تدبيره، ويعيش في سعة شهود تقديره.

وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: لم يُخْلِصُوا في عقائدهم، وأضمرُوا خلاف ما أظهروا، وأعلنوا غير ما ستروا، وأحالوا الكائنات على أسباب توهموها.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾. أخبر أن التقدير لا يُزَاحِمُ، والقَدَرُ لا يُكَابِرُ، وأن الكائنات محتومة، وأن الله غالب على أمره.

وقوله: ﴿وَلَيَبْتَغِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: فأما أهل الحقائق فإنه تعالى ينتزع من قلوبهم كل آفة وحجة، ويستخلص أسرارهم بالإقبال والزلفة، فتصبح قلوبهم خالصة من الشوائب، صافية عن العلائق، منفردة للحق، مجردة عن الخلق، مُحَرَّرَةٌ عن الحظِّ والنَّفْسِ، ظاهرة عليها آثارُ الإقبال، غالباً عليها حُسْنُ التَّوَلَّى، بادية فيها أنوار التجلي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية إلى أحوال من سَقَمَتْ إرادتهم، وَضَعُفَتْ نيَّاتهم، وقادهم الهوى، ومَلَكَتْهُمْ الفترة.

قابَلَهُم نصْحُ الناصحين، ودعوة المني، ووساوس الشياطين فركنوا إلى الغيبة، وآثروا الهوى على التَّقَى فبقوا عنه، ولم يتهنؤا بما آثروه عليه.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَمُيَسِّرُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

مَنْ تَعَوَّدَ أن يتلَهف على ماضيه وسالفه، أو يتدبر في مستقبله وآئنه، فأقلَّ عقوبة له ضيق قلبه في تفرقة الهموم، وامتنحاء نعت الحياة عن قلبه لغفلته وقالته ليت كذا

ولعلّ كذا، وثمرَةُ الفكرة في ليت ولعلّ - الوحشة والحسرة وضيق القلب والتفرقة.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنْ قُلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مَتَّعْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَكِنْ مَّتَّمَّ أَوْ قُلْتُمْ لَإِلَهِ اللَّهِ تَحْشُرُونَ﴾.

بذل الروح في الله خير من الحياة بغير الله، والرجوع إلى الله خير لمن عرف الله من البقاء مع غير الله، وما يؤثره العبد على الله فغير مبارك، إن شئت: والدنيا، وإن شئت: والعقبى.

قوله: ﴿وَلَكِنْ مَّتَّمَّ أَوْ قُلْتُمْ لَإِلَهِ اللَّهِ تَحْشُرُونَ﴾: إذا كان المصير إلى الله طاب المسير إلى الله: وإن سَفَرَهُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا نَحْطُ رَحَالَنَا لِمُقَاسَاتِهَا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ!

قوله جل ذكره: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

جرّده عن أوصاف البشرية، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولي، لا من آثار الوفاق والتبري، ولولا أنه استخلقه بما ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة؟!

ويقال إن من خصائص رحمته - سبحانه - عليه أن قَوَاهُ حَتَّى صَحِبَهُمْ، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم - مع سلطان ما كان مستغرقاً له ولجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه، فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها وإلا متى أطلق صحبتهم؟!

ألا ترى إلى موسى عليه السلام لما كان تريب العهد بسماع كلامه كيف لم يصبر على مخاطبة أخيه فأخذ برأس أخيه يعجره إليه؟

ويقال لولا أنه ﷺ شاهدتهم محوياً فيما كان يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْكَامِ التَّصْرِيفِ، وتحقّق أن منشئها الله - لما أطاق صحبتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: لو سَقَيْتَهُمْ صِرَفَ شَرَابِ التَّوْحِيدِ غَيْرَ مَمْزُوجٍ بِمَا فِيهِ لَهُمْ حِطٌّ لَتَفَرَّقُوا عَنْكَ، هَانِمِينَ عَلَى وَجْهِهِمْ، غير مطيقين للوقوف لحظَةً، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يكون تقصيراً منهم في حقك وتوقيعك، وما عثرت عليه مِنْ تَفْرِيطِهِمْ فِي خِدْمَتِنَا وَطَاعَتِنَا - فانتصِبْ لَهُمْ شَفِيعاً إِلَيْنَا.

ويقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فاعف - أنت - عنهم فإن حكمك حكمنا، فأنت لا تغفو إلا وقد عَفَوْنَا، ثم رَدَّهُ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ بِمَا أَثْبَتَهُ فِي مَقَامِ الْعِبَادِيَّةِ، ونقله إلى وصف

التفرقة فقال: ثم قِفْ في محل التذلل مبتهلاً إلينا في استغفارهم. وكذا سُنَّته - سبحانه - مع أنبيائه عليهم السلام وأوليائه، يردُّهم مِنْ جمع إلى فرقي ومن فَرَّقِي إلى جمع، ف قوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ جمع، وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فرق.

ويقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ وتجاوز عنهم في حقوقك، ولا تكتفِ بذلك ما لم تستغفِرْ لهم إكمالاً للكرم؛ ولهذا كان يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

ويقال ما يُقَصِّرُون في حَقِّكَ تعلُّق به حَقَّان: حَقِّك وحقي، فإذا عفوت أنت فلا يكفي هذا القَدْرُ بل إن لَمْ أتجاوز عنهم في حقي كانوا مستوجبين للعقوبة؛ فمن أَرْضَى خصمه لا يَنْجِبِرْ حاله ما لم يغفر الله له فيما ترك من أمره.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي أثبت لهم محلاً؛ فإنَّ المعفو عنه في صدار الخجلة لا يرى لنفسه مقام الكرامة، فإذا شاورتهم أزلت عنهم انكسارهم، وطبَّيْتُ لهم قلوبهم.

ويقال تجسَّسوا في أحوالهم: فَمِنْ مُقَصِّرٍ في حقه أَمِرٌ بالعفو عنه، ومن مرتكب لذنوبه أَمِرٌ بالاستغفار له، ومن مطيع غير مقصرٍ أَمِرٌ بمشاورته.

ثم قال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا تتكل على رأي مخلوق وكلِّ الأمور إلي، فإننا لا نخليك عن تصريف القبض بحال.

وحقيقة التوكل شهود التقدير، واستراحة القلوب عن كد التدبير.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ يذيقهم بَرْدَ الكفاية ليزول عنهم كل لغب^(١) ونَصَب، وإنه يعامل كلاً بما يستوجه؛ فقومٌ يغنيهم - عند توكلهم - بعطائه، وآخرون يكفيهم - عند توكلهم - ببقائه، وقوم يرضيهم في عموم أحوالهم حتى يكتفون ببقائه، ويقفون معه به له - على تلوينات قَدَرِهِ وقضائه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

المؤمنون نصرته لهم بالتوفيق للأشباح ثم بالتحقيق للأرواح.

ويقال ينصركم الله بتأييد الظواهر وتسديد السرائر.

ويقال للنصرة إنما تكون على العدو، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك. والنصرة على النفس بأن تهزم دواعي مُتَّبِعِها بعواصم رحمته حتى تَنْفُضَ جنود الشهوات بهجوم وفود المنازلات فتبقى الولاية لله خالصةً من شهبات الدواعي التي هي أوصاف

(١) اللغب: التعب والإعياء الشديد. والنَّصَب: التعب.

البشرية، وشهوات النفوس وأمانيتها، التي هي آثار الحجة وموانع القربة.

﴿وَإِنْ يَخْذُكُمُ﴾ الخذلان التخلية مع المعاصي، فَمَنْ نَصَرَهُ قَبْضَ عَلَى يَدَيْهِ عَنْ تعاطي المكروه، وَمَنْ خَذَلَهُ أَلْقَى حَبْلَهُ عَلَى غَارِبِهِ، وَوَكَّلَهُ إِلَى سُوءِ اخْتِيَارِهِ، فيفترق عليه الحال في أودية الشهوات، فمرة يُشْرَقُ غير محتشم، وتارة يُغْرَبُ غير مُحْتَرَمٍ، أَلَا وَمَنْ سَبَّهَ الْحَقَّ فَلَا أَخْذَ بِيَدِهِ، وَمَنْ أَسْلَمَهُ فَلَا مَجِيرَ لَهُ.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: في وجدان الأمان عند صدق الابتهاال، وإسبال ثوب العفو على هناة الجُزْم عند خلوص الالتجاء، بالتبري من المنة والحوال.

ويقال لما كان حديث النصرة قال: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، ولما كان حديث الخذلان لم يقل «فلا ناصر لكم» بل قال بالتلويح والرمز: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِي﴾: وفي هذا لطيفة في مراعاة دقائق أحكام الخطاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

نزّه أحوال الأنبياء عن الدَّنَس بالخianات، فمن حَمَلْنَاهُ مِنَ الرِّسَالَةِ إِلَى عِبَادِنَا يوصلها إلى مستحقها واجباً، ولا يعتني بشأنٍ حميمٍ له مِنْ دُونِ أَمْرِنَا، ولا يمنع نصيب أحدٍ أَمْرِنَاهُ بِإِيصَالِهِ إِلَيْهِ، بحقدٍ ينطوي عليه. أَلَا تَرَى كَيْفَ قَالَ: «أَذْهَبْ فَوَارِهِ» لأبي طالب لَمَّا قَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَاتَ عَمُّكَ ^(١) الضال. وكيف قَبِلَ الْوَحْشِي ^(٢) قَاتِلَ حِمْزَةَ لَمَّا أَسْلَمَ؟

ويقال ما كان لنبي من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يضل أسرارنا في غير أهلها، بل يُنْزِلُونَ كُلَّ أَحَدٍ عِنْدَمَا يَسْتَوْجِبُهُ، وفي الأثر «أَمْرُنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ».

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَا أُوتِيَ جَهَنَّمَ وَرِثَسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) أخرجه النسائي في (السنن ١/ ١١٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ١٣٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٥٨/ ٣، ٣٩٨، ٦٧/ ٧)، وابن حبان في (المجروحين ١/ ١١١)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ١/ ١٨٠)، والساعاتي في (منحة المعبود ٢٣٢٧)، وفي (بدائع المنن ٥٥٥)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/ ٣٤٨).

(٢) هو وحشي بن حرب الحبشي أو دسمة، مولى بني نوفل (... - نحو ٢٥هـ - ... - نحو ٦٤٥م) صاحب من سودان مكة كان من أبطال الموالى في الجاهلية وهو قاتل الحمزة عم النبي ﷺ قتله يوم أحد. شهد اليرموك وشارك في قتل مسيلمة وكان يقول قتلت بحريتي هذه خير الناس وشر الناس، وسكن حمص فمات بها في خلافة عثمان.
(الأعلام ٨/ ١١١) (الإصابة ت ٩١١١) والاستيعاب بهامشها (٣/ ٦٠٧ - ٦١٠).

لا يستوي مَنْ رضي عنه في آزاله وَمَنْ سخط عليه فخذله في أحواله، وجعله متكللاً على أعماله، ناسياً لشهود أفضاله، واتباع الرضوان بمفارقة زُجر عنه، ومعانقة ما أُمِرَ به، فَمَنْ تجرَّد عن المزجور، وتجلَّد في اعتناق المأمور فقد اتبع الرضوان، واستوجب الجنان.

﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي هم أصحاب درجات في حكم الله، فَمِنْ سعيدٍ مُقَرَّب، وَمِنْ شقيٍّ مُبْعَد.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

أجزل لديهم العارفة، وأحسن إليهم النعم حيث أرسل إليهم مثل المصطفى سيد الورى صلوات الله عليه وعلى آله، وعرفهم دينهم، وأوضح لهم براهينهم، وكان لهم بكل وجه فلا نعمة شكروا، ولا حقه وقروا، ولا بما أرشدهم استبصروا، ولا عن ضلالتهم أقصروا. . هذا وصف أعدائه الذين جحدوا واستكبروا. وأما المؤمنون فتقلدوا المنة في الاختيار، وقابلوا الأمر بالسمع والطاعة عن كنه الاقتدار، فسعدوا في الدنيا والعقبى، واستوجبوا من الله الكرامة والزلفى^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا فَلَمْ أَنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

عادة الخلق نسيان ما منهم من الخطأ والعصيان، والرجوع إلى الله بالتهمة فيما يتصل بهم من المحن والخسران، وفنون المكارة والافتتان، وإنْ مَنْ تعاطى^(٢) . . . الإجماع فحقيق بألا ينسى حلول الانتقام.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِي اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْقِعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأْتَيْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

هوَّن على المؤمنين وأصحاب البصائر ما لقوا من عظيم الفتنة يوم أحد، بأن قال إن ذلك أجمع كان بإذن الله، وإنْ بلاء يصيب بإذن الله لِمَنْ العسل أحلى، ومن كل نعيم أشهى. ثم أخبر أن الذين لم يكن لهم في الصعبة خلوص كيف تعللوا وكيف تكاسلوا:

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعةً ملَّ الوصال وقال كان وكانا

(٢) يياض في الأصل.

(١) الزلفى: المنزلة والدرجة والقربة.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فلا جَرَمَ (سَقَوْا الْعَسَلَ وَدَسُّوا لَهُ فِيهِ الْحَنْظَلَ) ^(١)، ومكروا ومكر الله والله خبر الماكرين.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الذين ركنوا إلى ما سئلت لهم نفوسهم من إيثار الهوى، ثم اعترضوا على من يصرف أحكام القضاء وقالوا لو تَحَرَّزُوا عن البروز للقتال لم يسقطوا عن درجة السلامة.. لَمَذْمُومَةٌ تلك الظنون، وَلَذَاهِبَةٌ عن شهود التحقيق تلك القلوب.

قُلْ لَهُمْ - يا محمد - استديموا لأنفسكم الحياة، وادفعوا عنها هجوم الوفاة!
ومتى تقدرون على ذلك؟! هيهات هيهات!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الحياة بذكر الحق بعد ما تتلف النفوس في رضاء الحق أتم من البقاء بنعمة الخلق مع الحجة عن الحق.

ويقال إن الذي وارثه الحي الذي لم يزل فليس بميت - وإن قُتِلَ:

وإن كانت العبدان للموت أَثْبِتَتْ فقتل امرئ في الله - لا شك - أفضل

قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: مَنْ علم أن أحبائه ينتظرونه وهم في الرَّفَّة والنعمة لا يهنأ بعيش دون التأهب والإمام بهم والنزول عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

عَلَّه استبشارهم وموجبه فضل من الله ونعمة منه، أي لولا فضله ونعمته بهم وإلا متى استبشروا؟ فليس استبشارهم بالنعمة إنما استبشارهم بأنهم عباده وأنه مولاهم ^(٢)، ولولا فضله ونعمته عليهم لما كانت لهم هذه الحالة.

(١) الحنظل: نبات عشبي بري حولي معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديدة المرارة، كان ولا يزال يُستعمل في الطب. ويُرْوَى في الحدائق الطبية.

(٢) قال القشيري: سمى الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس شيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية. ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته في الدنيا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾، وقال تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾، فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به، وفي هذا المعنى أنشدوا:

لا تدعني إلا بعبداً
فإنه أشرف أسمائي

(الرسالة القشيرية ص ٢٠٠).

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

للاستجابة مزية وفضيلة على الإجابة من حيث الإشارة لا من مقتضى العربية وهو أنه يستجيب طوعاً لا كرهاً، فهم استجابوا لله من غير انطواء على تحمل مشقة بل بإشارة القلب ومحبة الفؤاد واختيار الروح واستحلاء تحمُّل الحُكم. فالاستجابة للحق بوجوده، والاستجابة للرسول - عليه السلام - بالتخلُّق بما شرع من حدوده.

استجابة الحق بالتحقق بالصفاء في حق الربوبية، واستجابة الرسول عليه السلام بالوفاء في إقامة العبودية.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: في ابتداء معاملاتهم قبل ظهور أنوار التجلي على قلوبهم، وابتسام الحقائق في أسرارهم.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه...» - وهو المشاهدة والتقوى -... فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) - وهو المراقبة في حال المجاهدة.

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لاهل البداية مؤجلاً، ولاهل النهاية مُعجلاً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

لم يلتبس على ظواهرهم شيء من أحوال الدنيا إلا انفتحت لهم - في أسرارهم - طوابع من الكشوفات، فازدادوا يقيناً على يقين.

ومن أمارات اليقين استقلال القلوب بالله عند انقطاع المُنَى مِنَ الخَلْق في توهم الإنجاد والإعانة.

قوله جل ذكره: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ فَفَضَّلَهُمْ اللَّهُ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

كذا سُنة الحق - سبحانه - مع مَنْ صَدَقَ في التجائه إليه أن يمهد مقيله في ظل كفايته؛ فلا البلاء يمسه، ولا العناء يصيبه، ولا النَّصَب يَظْلُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخْوَفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في (صحيحه ١٤٤/٦). والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/١٠) وابن خزيمة في (الصحيح ٢٢٤٤) والهيتمي في (موارد الظمان ١٦) وابن حجر في (فتح الباري ٥١٣/٨)، والزيدي في (تحاف السادة المتقين ٤٣٤/٨، ٩٤/١٠)، وابن كثير في (التفسير ٣٥٦/٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩، ٥٢٥٤).

الإشارة في تسليط دواعي الشيطان على قلوب الأولياء صدق فرارهم إلى الله؛ كالصبي الذي يخوف بشيء يفزع الصبيان، فإذا خاف لم يهتد إلى غير أمه، فإذا أتى إليها آوئته إلى نفسها، وضمته إلى نحرها، وألصقت بخده خدها.

كذلك العبد إذا صدق في ابتهاله إلى الله، ورجوعه إليه عن مخالفته، آواه إلى كنف قربته، وتداركه بحسن لطفه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَ يُصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

زاد في قوة قلبه بما جدّد من تأكيد العهد، بأنه لا يشمت به عدواً، ولا يوصل إليه من قبلهم سوءاً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَ يُصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إن أضروا فما أضروا إلا بأنفسهم، وإن أضروا فما أضروا إلا على خسرانهم:

فما نحن عذبتنا ببغدي ديارهم ولا نحن ساقطنا إليهم نوازغ
قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ومن تمام المكر بهم، والمبالغة في عقوبتهم أننا نعدّ بهم وهم لا يشعرون؛ ﴿سَنَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] نملي لهم فيظنون ذلك إنعاماً، ولا يحسبونه انتقاماً، فإذا برزت لهم كوامن التقدير عند مغاراتها علموا أنهم لفي خسران، وقد اتضح لكل ذي بصيرة أن ما يكون سبب العصيان وموجب النسيان غير معدود من جملة الإنعام.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

جمعهم اليوم من حيث الأشخاص والمباني، ولكنه فرقهم في الحقائق والمعاني؛ فمن طيبة سجيته^(١)، وزمن خبيثة طبيئته. وهم وإن كانوا مشائب^(٢) ففي بصيرة الخواص هم ممتازون.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾: فإن أسرار الغيب لا تظهر للمتلوئين بأدناس

(١) السجّة: الخلُق والغريزة والطية (ج) سجيات وسجايا.

(٢) مشائب: من الشوب: وهو الخلط والغش، وما اختلط بغيره من الأشياء.

البشرية، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلّ وقلّ، فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسرارهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَخْصَى الَّذِينَ يَسْلُطُونَ بِمَا أَمَّاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

مَنْ أثر شيئاً على الله لم يبارك له فيه؛ فلا يدوم له - في الدنيا - بذلك استمتاع، ولا للعقوبة عليه - في الآخرة - عنه دفاع.

والبخل - على لسان العلماء - منع الواجب، وعلى مقتضى الإشارة إبقاء شيء ولو ذرة من المال أو نفساً من الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

هذا الخطاب لو كان بين المخلوقين لكان شكوى. والشكوى إلى الأولياء من الأعداء سنة الأحاب.

ويقال علم أن في المؤمنين مَنْ يغتاب الناس، وذلك قبيح من قالتهم، فأظهر ثبناً فوق ذلك ليتصاغر قبح قول المؤمنين بالإضافة إلى قبح قول الكفار، فكانه قال: لئن قبحت قالتهم في الاغتيال فأقبح من قولهم قول الكفار حيث قالوا في وصفنا ما لا يليق بنعمتنا.

وفيه أيضاً إشارة إلى الدعاء إلى الخلق، والتجاوز عن الخصم، فإن الله - سبحانه - لم يسلبهم ما أولاهم مع قبح ما ارتكبوه من التقصير في حقوقه.

قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: هذه الكلمة من موجبات الخجلة لأهل التقصير بأدق إشارة؛ يعني أنهم وإن نسوا أحوالهم وأقوالهم فإننا ننشر لهم ما كتبنا عليهم قال قائلهم:

صحائف عُنْدِي لِلْعِتَابِ طَوِيلَتِهَا سَتُنَشِّرُ يَوْمًا وَالْعِتَابُ يَطْوُلُ

سأصبر حتى يجمع الله بيننا فإن نلتقي يوماً فسوف أقول

قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ هذا لو كان من مخلوق مع مخلوق لأشبه العذر مما عمله به، فكانه - سبحانه - يقول: «عبدى هذا الذي تلقاه - اليوم - من العقوبة لأن الذنب لك، ولو لم تفعله لما عذبتك».

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نؤمنَ إِلَّا رَسُولِي حَتَّى يَأْتِينَا يُقْرَبَانِ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَالْبَيْنَتِ وَيَالَّذِي قُلْتُمْ قَلِيلَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

تقولوا على الله - سبحانه - فيما تعللوا به من ترك الإيمان، فقالوا: لقد أمرنا ألا نصدق أحداً إلا لو أتانا بقربان يتقرب به إلى السماء، وتنزل نار من السماء، فتأخذ القربان عياناً ببصر، فقال تعالى قل لهم إن من تقدمني من الأنبياء عليهم السلام أتوكم بما اقترحتم علي من القربان، ثم لم تؤمنوا، فلو أجبتكم إليه لن تؤمنوا بي أيضاً؛ فإن من أقصته السوابق - فلو خاطبته الشمس بلسان فصيح، أو سجدت له الجبال رآها بلحظ صحيح - لم يبلغ العرفان في قلبه، وما ازداد إلا شكاً على شك.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا يَالْبَيْنَتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

أي عادة الكفار تكذيب الرسل: وعلى هذا النحو درج سلفهم، وبهديهم اقتدى خلفهم.

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْخِجَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾.

أي كأس الموت توضع على كف كل حي فمن تحلأها طيبة نفسه أوزنته سُكَّرَ الوجد، ومن تجرّعها على وجه التعبس، وقع في وهدة الرّد، ووسيم بكّي الصّد، ثم يوم القيامة: فمن أجبر من النار وصل إلى الراحة الكبرى، ومن ضلّى بالسعير وقع في المحنة الكبرى.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾: لأن ما هو آتٍ فقريب.

قوله جل ذكره: ﴿لَتَنبَلُوكَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ الْأُمُورِ﴾.

كفاهم أكثر أسباب الضرر بما أخبرهم عن حلولها بهم قبل الهجوم، وعرفهم أن خير الأمرين لهم إيثار الصبر واختيار السكون تحت مجاري الأقدار.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبَسَّ مَا بَشَرُوكَ﴾.

أخبر أنهم أبرموا عهودهم أن لا يزولوا عن وفائه، ولكنهم نقضوا أسباب الدّمام

بما صاروا إليه من الكفران، ثم تبين أن ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبَارَكْ لهم فيه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ لَكُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إن من باشر رؤية الخلق قلبه، ولأحظهم بسره فلا تظن أن عقوبتهم مؤخرة إلى يوم القيامة، بل ليسوا من العذاب - في الحال - بمفازة، وأي عذاب أشد من الرد إلى الخلق والحجاب عن الحق؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية ها هنا إلى غناه - سبحانه - عما في الكون، وكيف يحتاج إليهم؟! ولكنهم لا يجدون عنه خلفاً، ولا عليه بدلاً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

الآيات التي تعرّف الحق سبحانه وتعالى بها إلى العوام هي التي في الأقطار من العبر والآثار، والآيات التي تعرّف بها إلى الخواص فالتى في أنفسهم. قال سبحانه: ﴿سَرِّبْنَاهُمَا إِلَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ فالآيات الظاهرة توجب علم اليقين، والآيات انباطنة توجب عين اليقين.

والإشارة من اختلاف الليل والنهار إلى اختلاف ليالي العباد؛ فليالي أهل الوصلة قصيرة، وليالي أهل الفراق طويلة؛ فهذا يقول:

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار
ويقول:

صباحك سكر والمساء خمار فنمت وأيام السرور قصار
والثاني يقول:

ليالي أقر الظاعنين^(١) (...) ^(٢)شكوت وليل العاشقين طويل
وثالث ليس له خبر عن طول الليل ولا عن قصره فهو لما غلب عليه يقول:

لست أدري أطلال ليلى أم لا؟ كيف يدري بذاك من يتقلّى؟!
لو تفرغت لاستطالة ليلى ورغيت النجوم كنت مجلاً

(٢) بياض في الأصل.

(١) الظاعنين: (ج) ظاعن: السائر والمرتعلين.

قوله تعالى: ﴿لَا تُؤْخِذُكَ أَلْبَابُ﴾ : أولو الأبواب هم الذين صَحَّتْ عقولهم من سكر الغفلة. وأمارة مَنْ كان كذلك أن يكون نظره بالحق؛ فإذا نظر من الحق إلى الحق استقام نظره، وإذا نظر من الخلق إلى الحق انتكست نعمته، وانقلبت أفكاره مُورَثَةً للشبهة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا﴾ الآية.

استغرق الذكر جميع أوقاتهم؛ فإن قاموا فبذكره، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكة في حقائق الذكر، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره، ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها^(١).
ويذكرون الله قياماً على بساط الخدمة ثم يقعدون على بساط القربة.
وَمَنْ لَمْ يَسْلَمْ فِي بَدَايَةِ قِيَامِهِ عَنِ التَّقْصِيرِ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ قَعُودٌ فِي نَهَائِهِ بِوَصْفِ الحضور.

والذكر طريق الحق - سبحانه - فما سلك المريدون طريقاً أصح وأوضح من طريق الذكر، وإن لم يكن فيه سوى قوله: «أنا جليس من ذكرني» لكان ذلك كافياً.
والذاكرون على أقسام، وذلك لتباين أحوالهم: فذكر يوجب قبض الذاكر لما يذكره من نَقْصِ سَلَفٍ له، أو قُبْحِ حَصْلٍ منه، فيمنعه خجله عن ذكره، فذلك ذكر قبض.

وذكر يوجب بسط الذاكر لما يجد من لذائذ الذكر ثم تقرب الحق إياه بجميل إقباله عليه.

وذاكر هو محو في شهود مذكوره؛ فالذكر يجري على لسانه عادةً، وقلبه مُضْطَلَمٌ فيما بدا له.

وذاكر هو محل الإجلال يأنف من ذكره ويستقذر وصفه، فكأنه لتصاغره عنه لا يريد أن يكون له في الدنيا والآخرة (ثناء) ولا بقاء، ولا كون ولا بهاء، قال قائلهم:

ما إن ذكرتك إلا هم يلعنني قلبي وروحي وسرى عند ذكراكا
حتى كأني رقيباً منك يهتف بي إياك ويحك والتذكاري إياكا

والذكر عنوان الولاية، وبيان الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحة البداية، ودلالة صفاء النهاية، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر، ومُنْشَأَةٌ عن الذكر.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٣.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا كَرِّمْ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ .

التفكر نعمة كل طالب، وثمرته الوصال بشرط العلم، فإذا سلم الذكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق، وإذا حصل الشهود والحضور سما صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر، فالذكر سرمد^(١).

ثم فكر الزاهدين في فناء الدنيا وقلة وفائنها لطلابها فيزدادون بالفكرة زهداً فيها. وفكر العابدين في جميل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبةً فيه. وفكر العارفين في الآلاء والنعم فيزدادون محبةً للحق سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ .

التسبيح يشير إلى سبح الأسرار في بحار التعظيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ . من ابتليته في الآجل بالحرقة فقد أخزيت، ومن ابتليته بالفرقة في العاجل فقد أشقيته، ومن أوليته بيمين الوصله فقد آوئته وأذنيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ . يعني أجبنا الداعي ولكن أنت الهادي، فلا تكلنا إلينا، ولا ترفع ظلّ عنايتك عنا.

والإيمان الدخول في موجبات الأمان، وإنما يؤمن بالحق من آمنه الحق، فأمان الحق للعبد - الذي هو إجارته - يوجب إيمان العبد بالحق الذي هو تصديقه ومعرفته. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ : وهم المختصون بحقائق التوحيد، القائمون لله بشرائط التفريد، والواقفون مع الله بخصائص التجريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ .

حقّق لنا ما وعدتنا على السنة الوسائط من إكمال التعمى (....)^(٢) وغفران كل ما سبق منا من متابعك الهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ بِعَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقَتَلُوا لَا كُفِرَن عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

(١) السرمد: الدائم الذي لا ينقطع . انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٣.

(٢) بياض في الأصل.

وَلَا ذُنُوبَهُمْ جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٠٠﴾

كيف لا يستجيب لهم وهو الذي لَقَّنَهُم الدعاء، وهو الذي ضمن لهم الإجابة، ووَعَدَهُ جميل الثواب على الدعاء زائد على ما يدعون لأجل الحوائج.

﴿قَالِ الَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: يعني الديار والمزار، وجميع المخالفين والموافقين من الأغيار.

﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: إلى مفارقة معاهدهم من مألوفاتهم.

﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِ﴾: غُيِّرُوا بالفقر والملام، وفتنوا بفنون المحن والآلام.

﴿وَقَتَّلُوا وَقُتِّلُوا﴾: ذاقوا من اختلاف الأطوار الحلو والمر.

﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: يعني لنعطينهم فوق آمالهم وأكثر، مما استوجبوه بأعمالهم وأحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَغْرِبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْهَادِ﴾.

لا تتداخلنك تهمة بأن لهم عندنا قدراً وقيمة إنما هي أيام قلائل وأنفاس معدودة، ثم بعدها حسرات مترادفة، وأحزان متضاعفة.

قوله جل ذكره: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾.

الذين وسمناهم بذل الفرقه بثست حالتهم، والذين رفعوا قدماً لأجلنا فنعمت الحالة والزلفة؛ وصلوا إلى الثواب المقيم، وبقوا في الوصلة والنعيم، وما عند الله مما أذكرنا لهم خير مما أملوه باختيارهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَائِنَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

يريد من ساعدتهم القسمة بالحسني فهم مع أولياء الله نعمة كما كانوا معهم قسمة.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الصبر فيما تفرد به العبد، والمصابرة مع العدو.

والرباط نوع من الصبر ولكن على وجه مخصوص .

ويقال أول الصبر التصبر، ثم الصبر ثم المصابرة ثم الاضطبار وهو نهاية^(١) .

ويقال اصبروا على الطاعات وعن المخالفات، وتصابروا في ترك الهوى والشهوات، وقطع المنى والعلاقات، ورابطوا بالاستقامة في الصحبة في عموم الأوقات والحالات .

ويقال اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم، ورابطوا بأسراركم .

ويقال اصبروا على ملاحظة الثواب، وصابروا على ابتغاء القربة، ورابطوا في محل الدنو والزلفة - على شهود الجمال والعزة .

والصبر مُرٌّ مذاقه إذا كان العبد يتحسّاه على الغيبة، وهو لذيذ طعمه إذا شربه على الشهود والرؤية .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ : الْفَلَاحُ الظَّفَرُ بِالْبُغْيَةِ، وَهَمَّتْهُمْ الْيَوْمَ الظَّفَرُ بِنَفْسِهِمْ، فعند ذلك يتم خلاصهم، وإذا ظفروا بنفوسهم ذبحوها بسيف المجاهدة، وصلبوها على عيدان المكابدة، وبعد فنائهم عنها يحصل بقاؤهم بالله .

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٨٣ - ١٨٩ (الصبر) .

السورة التي يذكر فيها النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اختلفوا في الاسم عن ماذا اشتق؟ فمنهم من قال إنه مشتق من السمو وهو العلو. ومنهم من قال إنه مشتق من السمة وهي الكيئة.

وكلاهما في الإشارة: فَمَنْ قال إنه مشتق من السمو فهو اسمٌ مَنْ ذَكَرَهُ سَمَتْ رَتْبُهُ، وَمَنْ عَرَفَهُ سَمَتْ حَالَتُهُ، وَمَنْ صَحِبَهُ سَمَتْ هِمَّتُهُ؛ فسمو الرتبة يوجب وفور المثوبات والمبار، وسمو الحالة يوجب ظهور الأنوار في الأسرار، وسمو الهمة يوجب التحرز عن رِقْ الأغبار.

ومن قال أصله من السمة فهو اسمٌ مَنْ قَصَدَهُ وَبَسَمَ بِسْمَةِ الْعِبَادَةِ، وَمَنْ صَحِبَهُ وَبَسَمَ بِسْمَةِ الْإِرَادَةِ، وَمَنْ أَحْبَبَهُ وَبَسَمَ بِسْمَةِ الْخَوَاصِ، وَمَنْ عَرَفَهُ وَبَسَمَ بِسْمَةِ الْإِخْتِصَاصِ. فِسْمَةُ الْعِبَادَةِ توجب هبة النار أن ترمي صاحبها بشرها، وسمة الإرادة توجب حشمة الجنان أن تطمع في استرقاق صاحبها - مع شرف خطرهما، وسمة الخواص توجب سقوط العُجْبِ من استحقاق القرية للماء والطينة على الجملة، وسمة الاختصاص توجب امتحاء الحكم عند استيلاء سلطان الحقيقة.

ويقال اسمٌ مَنْ واصله سما عنده (عن) الأوهام قَذَرُهُ (سبحانه). ومن فاصله وَبَسَمَ بِكَيْيِ الْفُرْقَةِ قَلْبُهُ.

وعلى هذه الجملة يدل اسمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾.

الناس اسم جنس، والاشتقاق فيه غير قوي. وقيل سمي الإنس إنساً لظهوره^(١) فعلى هذه الإشارة: يا مَنْ ظهرت عن كتم العدم بحكم تكليفي، ثم خصصت مَنْ

(١) الإنس: البشر وواحد إنسي، والجمع أناسي، وهنا ربما قصد القشيري إلى ذلك حتى يقابل الجن: وقد خلقهم الله من مارج من نار، وقد سموا بذلك لاستئثارهم واختفائهم عن الأبصار.

شئتُ منكم بتشريفي، وحرمتُ من شئتُ منكم هدايتي وتعريفي، ونقلتكم إلى ما شئتُ بل أوصلتكم إلى ما شئتُ بحكم تصريفي.

ويقال لم أظهِرَ مِنَ الْعَدَمِ أمثالكم، ولم أظهِرَ عَلَى أَحَدٍ ما أَظْهَرْتُ عَلَيْكُمْ من أحوالكم.

ويقال سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِنَسْيَانِكَ، فَإِنْ نَسِيتَنِي فلا شيءَ أَحْسَنَ مِنْكَ، وَإِنْ نَسِيتَ ذَكَرِي فلا أَحَدَ أَحْطَ مِنْكَ.

ويقال من نَسِيَ الحقَّ فلا غايةَ لمحتته، ومن نسي الخَلْقَ فلا نهايةَ لعلوِّ حالته.

ويقال يقول للمُذْنِبِينَ، يَا مَنْ نَسِيتَ عَهْدِي، وَرَفَضْتَ وَدِي، وَتَجَاوَزْتَ حَدِّي حَانَ لَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى بَابِي، لَتَسْتَحِقَّ لَطْفِي وَإِجَابِي. ويقول للعارفين يَا مَنْ نَسِيتَ فِينَا حَظَّكَ، وَصُتَّ عَنْ غَيْرِنَا لِحَظِّكَ وَلَفْظِكَ - لَقَدْ عَظُمَ عَلَيْنَا حَقُّكَ، وَوَجِبَ لَدِينَا نَصْرُكَ، وَجَلَّ عِنْدَنَا قَدْرُكَ.

ويقال يَا مَنْ أُنِسْتَ بِنَسِيمِ قُرْبِي، وَاسْتَرَوْجَتْ إِلَى شُهُودِ وَجْهِي، وَاعْتَزَزْتَ بِجَلَالِ قَدْرِي - فَأَنْتَ أَجَلُ عِبَادِي عِنْدِي.

قوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: التقوى جماع الطاعات، وأوله ترك الشُّرُكِ وآخره اتقاء كل غير، وأولُ الأغيار لك نفسُكَ، وَمَنْ اتَّقَى نَفْسَهُ وَقَفَ مَعَ اللَّهِ بِلا مَقَامٍ وَلَا شُهُودِ حَالٍ، وَ (وقف) لله.. لا لشهود حظٍّ في الدنيا والعقبى.

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: وهو آدم عليه السلام، وإذا كنا مخلوقين منه وهو مخلوق باليد فنحن أيضاً كذلك، لَمَّا أَظْهَرَتْ مِزْيَةَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ وَالْمَخْلُوقات فَكَذَلِكَ وَصَفْنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَّلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

ولفظ «النفس» للعموم والعموم يوجب الاستغراق.

قوله: ﴿وَوَلَدَ مِنْهَا رُجُلًا﴾: حَكَمَ الحقُّ - سبحانه - بِمَسَاكِنَةِ الْخُلُقِ مَعَ الْخُلُقِ لِبَقَاءِ النِّسْلِ، وَلِرُدِّ الْمِثْلِ إِلَى الْمِثْلِ فَرَبَطَ الشَّكْلَ بِالشَّكْلِ.

قوله: ﴿وَبَنَى مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾: تعرَّفَ إِلَى الْعُقُلَاءِ عَلَى كِمَالِ الْقُدْرَةِ بِمَا أَلَحَ مِنْ بُرَاهِينِ الرُّبُوبِيَّةِ وَدَلَالَاتِ الْحِكْمَةِ؛ حَيْثُ خَلَقَ جَمِيعَ هَذَا الْخُلُقِ مِنْ نَسْلِ شَخْصٍ وَاحِدٍ، عَلَى اخْتِلَافِ هَيْئَتِهِمْ، وَتَفَاوُتِ صُورِهِمْ، وَتَبَايُنِ أَخْلَاقِهِمْ، وَإِنْ اِثْنَيْنِ مِنْهُمْ لَا يَتَشَابَهُانِ، فَلِكُلِّ وَجْهٍ فِي الصُّورَةِ وَالْخُلُقِ، وَالْهَمَّةِ وَالْحَالَةِ، فَسَبْحَانِ مَنْ لَا حَدَّ لِمَقْدُورَاتِهِ وَلَا غَايَةَ لِمَعْلُومَاتِهِ.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تكرير الأمر بالتقوى يدلُّ على تأكيد حكمه.

وقوله: ﴿سَاءَ لَوْ بَدَىٰ وَأَلَّا زَمَامٌ﴾: أَيِ اتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا، فَمَنْ قَطَعَ الرَّحِمَ قُطِعَ، وَمَنْ وَصَلَهَا وَصَل.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: مطلعاً شهيداً، يعدُّ عليك أنفاسك، ويرى حواسك، وهو مُتَوَلٍّ خطراتك، ومنشئ حركاتك وسكناتك. وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَسْتَحْيَ مِنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَتُوا أَلَيْسَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَبِثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي أَمْوَالُكُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حُبًّا كَبِيرًا﴾.

مَنْ أَقِيمَ بِمَحَلِّ الرِّعَايَةِ فَجَاءَ عَلَى رِعْيَتِهِ فَخَضَّمُهُ رَبُّهُ؛ فَإِنَّهُ - سَبْحَانَهُ - يَنْتَقِمُ لِعِبَادِهِ مَا لَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ. قَوْلِي الْيَتِيمَ إِنْ أَنْصَفَ وَأَخْسَنَ فَحَقُّهُ عَلَى اللَّهِ، وَإِنْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى فَخَضَّمُهُ اللَّهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.

أَبَاحَ اللَّهُ لِلرِّجَالِ الْأَحْرَارِ التَّزْوِجَ بِأَرْبَعٍ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَوْجَبَ الْعَدْلَ بَيْنَهُمْ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَرَاعِيَ الْوَاجِبَ فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقُومُ بِحَقِّ هَذَا الْوَاجِبِ آثَرَ هَذَا الْمُبَاحِ، وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقْصُرُ فِي الْوَاجِبِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لِهَذَا الْمُبَاحِ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ مَسْئُولٌ عَنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيًّا﴾.

دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ طَعَامَ الْفَتَيَانِ^(١) وَالْأَسْخِيَاءَ مَرِيءٌ لَأَنَّهُمْ لَا يُطْعَمُونَ إِلَّا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ، وَطَعَامُ الْبِخْلَاءِ رَدِيءٌ لَأَنَّهُمْ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَإِنَّمَا يُطْعَمُونَ عَنْ تَكَلُّفٍ لَا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ. قَالَ ﷺ: «طَعَامُ السَّخِيِّ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

السُّفَهَاءُ مَنْ يَمْنَعُكَ عَنِ الْحَقِّ، وَيَشْغَلُكَ عَنِ الرَّبِّ.

وَالسُّفَهَاءُ مِنَ الْعِيَالِ وَالْأَوْلَادِ مَنْ تَوَثَّرَ حُظُوظُهُمْ عَلَى حَقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى.

قوله: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾: حِفْظُ التَّجَمُّلِ فِي الْحَالِ أَجْدَىٰ عَلَيْكُمْ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلتَّبْذُلِ وَالسُّؤَالِ، وَالْكَدِيَّةُ^(٣) وَالْإِحْتِيَالُ. وَإِنَّمَا يَكُونُ الْبَذْلُ خَيْرًا مِنَ الْإِمْسَاكِ

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٦ - ٢٣١ في حديث القشيري عن الفتوة.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٧٥)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٠٨).

(٣) الكدية: حرفة السائل المُلِحِّ (الشحاذة).

عند تحرُّر القلب والثقة بالصبر. فأما على نية الكدية وأن تجعل نفسك وعيالك كلاً على الناس فحفظك ما جعله الله كفاية لنفسك أولى، ثم الجود بفاضل كفايتك.

قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: إذا كان ذات يدك يتسع لكفاية يومهم ويُفَضَّل فلا تدخره عما تدعو إليه حاجتهم معلومك خشية فقر في الغد، فإن ضاقت يدك عن الإنفاق فلا يتسعين لسانك بالقبيح من المقال.

ويقال إذا دَعَيْتَ نَفْسَكَ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي الْبَاطِلِ فَأَنْتَ أَصْفَى السَّفَهَاءِ فَلَا تُطِغْ نَفْسَكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾.

إناس الرشد العفة والديانة، والسخاء والصيانة، وصحبة الشيوخ، والحرص على مشاهدة الخير، وأداء العبادات على قضية الأمر.

ويقال الرشيد من اهتدى إلى ربه، وعندما تسنح له (حاجة) من حوائجه لا يتكلم على حوله وقوته، وتدبيره واختياره.

قوله جل ذكره: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾.

حكم الميراث لا يختلف بالفضل والمنقبة، ولا يتفاوت بالعيب والنقص والذنب؛ فلو مات رجل وخلف ابنين تساويان في الاستحقاق وإن كان أحدهما براً تقياً والآخر فاجراً عصياً، فلا للثقي زيادة لتقواه، ولا للفاجر بخس لفجوره، والمعنى فيه أن الميراث ابتداء عطية من قبل الله، فيتساوى فيه البر والفاجر. كذلك حكم الإيمان ابتداء عطية للمسلمين: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ...﴾ [فاطر: ٣٢] الآية.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

يريد إذا حضر قسمة الميراث ذوو السهمان والمستحقون، وحضر من لا نصيب لهم في الميراث من المساكين فلا تحرمهم من ذلك. فإن كان المستحق مؤلى عليه، فعُدوهم وعداً جميلاً وقولوا: «إذا بلغ الصبي قلنا له حتى يعطيك شيئاً» وهذا معنى قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾. وفي هذا إشارة لطيفة للمذنبين إذا حضروا لعرضته غداً، والحق سبحانه يغفر للمطيعين ويعطيهم ثواب أعمالهم، فمن كان منكم من فقراء

المسلمين لا يحرمهم الغفران إن شاء الله بعدما كانوا من أهل الإيمان، وكذلك يوم القسمة لم تكن حاضراً، ولا لك استحقاق سابق فبفضله ما أهلك لمعرفة مع علمه بما يحصل منك في مستأنف أحوالك من زلتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضَعُفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

يَبَيِّنُ في هذه الآية أن الذي ينبغي للمسلم أن يدخره لعياله التقوى والصلاح لا المال؛ لأنه لم يقل فليجمعوا المال وليكثروا لهم العقار وليخلفوا الأثاث بل قال: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنه يتولى الصالحين.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْفُونَ سَعِيرًا﴾.

إنما تولى الحق سبحانه خسيمة اليتيم، لأنه لا أحد لليتيم غيره، وكل من وكل أمره إليه فثبراً من حوله وقوته فالحق سبحانه ينتقم له بما لا ينتقم لنفسه.

قوله جل ذكره: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَخَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّ مِنْ بَيْنِ وَصِيَّهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾.

الوصية ها هنا بمعنى الأمر، فإنه سبحانه جعل الميراث بين الورثة مستحقاً بوجهين:

١ - الفرض ٢ - التعصيب، والتعصيب أقوى من الفرض لأن العَصَبَةَ قد تستغرق جميع المال أما أكثر الفروض فلا يزيد على الثلثين، ثم إن القسمة تبدأ بأصحاب الفروض وهم أضعف استحقاقاً، ثم العَصَبَةُ وهم أقوى استحقاقاً. قال ﷺ:

«ما أَبْقَتْ الفرائض فَلَأُولَى عَصَبَةٍ ذَكَرَ»^(١) كذلك أبداً سنته، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] أعطاهم الكتاب بلفظ الميراث ثم قَدَّمَ الظالم على السابق، وهو أضعف استحقاقاً إظهاراً للكرم مع الظالم لأنه مُكْسِبُ القلب ولا يحتمل وقته طول المدافعة.

وقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ﴾. لو كان الأمر بالقياس لكانت الأنثى بالتفضيل أُولَى لضعفها، ولعجزها عن الحراك، ولكن حُكِمَ - سبحانه - غير معلل.

(١) أخرجه القرطبي في (التفسير ٧١/٥ - ١٦٧)، وصاحب (شرح معاني الآثار ٤/٣٩٠).

قوله جل ذكره: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الأبناء ينفعونكم بالخدمة، والآباء بالرحمة؛ الآباء في حال ضعفك في بداية عمرك، والأبناء في حال ضعفك في نهاية عمرك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّو يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدٍ وَصِيَّةً يُّوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدٍ وَصِيَّةً يُّوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدٍ وَصِيَّةً يُّوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضْكَرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

الإشارة في ثبوت الميراث للأقربين من الورثة بالنسب؛ والسبب أن الميت إذا مات تحمّل القريب أحزانه فعوض الله الوارث على ما يقاسيه ويخامر قلبه من التوجع مآل الموروث... وكذا سنّه - سبحانه - التعويض على مقاساة الأذى - جوداً منه لا وجوباً عليه^(١) - كما تؤهم قوم. وكل من كان أقرب نسباً أو أقوى سبباً من الميت كان أكثر استحقاقاً لميراثه، وفي معناه أنشدوا:

وما بات مطوباً على أريحية^(٢) (... ..) (عقب النوى موت الفتى ظل مغرماً

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

حدوده: أوامره ونواهيه، وما تعبد به عباده.

وأصل العبودية حفظ الحدود، وصون العهود، ومن حفظ حده لم يصبه مكروه ولا آفة، وأصل كل بلاء مجاوزة الحدود.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَقْصِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وإنما هما عقوبتان: معجلة ومؤجلة، ويقترن بهما جميعاً الذل؛ فلو اجتهد الخلاق على إذلال المعاصي بمثل الذل الذي يلحقهم بارتكاب المعصية لم يقدموا عليها؛ لذلك قال قائلهم: من بات ملماً بذنب أصبح وعليه مذلة، فقلت ومن أصبح مبرأً ببر ظل وعليه مهابة.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٩١ - ٩٧ في حديث القشيري عن التوبة.

(٢) الأريحية: الارتياح للكرم والمعروف.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْجَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

إنما اعتبر في ثبوت الفاحشة - التي هي الزنا - زيادة الشهود إسبالات لستر الكرم على إجرام العباد، فإن إقامة الشهود - على الوجه الذي في الشرع لإثبات تلك الحالة - كالمُتَعَذِّرِ.

وفي قوله - ﷺ - لَمَّا عَزَّ لَمَّا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ - صلوات الله عليك - إني زنيْتُ فَطَهَّرْنِي. فقال: لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ^(١). ثم قال في بعض المرات: «استنكهوه»^(٢).

ففي هذا أقوى دليل لما ذكرت من إسبالات الستر على الأعمال القبيحة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِفُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

الأمر بفنون العقوبات لهم على فعل ذلك أبلغ شيء في الردع والمنع منه بالرفع، لعل العبد يحذر ذلك فلا يستحق التعذيب الأعظم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

لا استغفار مع الإصرار: فإن التوبة مع غير إقلاع سمة الكذابين.

وقوله: ﴿السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾: يعني عَمِلَ عَمِلَ الْجَهَالِ.

وذنب كل أحد يليق بحاله، فالخواص ذنوبهم حسبانهم أنهم بطاعتهم يستوجبون محلاً وكرامة، وهذا وَهْنٌ فِي الْمَكَانَةِ؛ إذ لا وسيلة إليه إلا به.

قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: على لسان أهل العلم: قبل الموت، وعلى لسان المعاملة: قبل أن تعود النفس ذلك فيصير لها عادة، قال قائلهم:

قُلْتُ لِلنَّفْسِ إِن أَرَدْتُ رَجُوعاً فَارْجِعِي قَبْلَ أَنْ يُسَدَّ الطَّرِيقُ

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَّا وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/٢٣٨، ٢٨٩)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/٣٣٨) والدارقطني في (السنن ٣/١٢١)، والقرطبي في (التفسير ١٩/١٠٥).

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٦/٢٧٩).

استنكهوه: شم رائحة فمه.

يعني إذا كُثِفَ الغطاء وصارت المعارف ضرورية^(١) أُغْلِقَ بابُ التوبة؛ فإن من شرط التكليف أن يكون الإيمان غيبياً. ثم إن في هذه الطريقة إذا عُرِفَ بالخيانة لا يشم بعده حَقِيقَةُ الصدق. قال داود - عليه السلام - في آخر بكائه لما قال الله تعالى لِمَ تَبْكِي يا داود، وقد غفرت لك وأرضيت خصمك وقبلت توبتك؟

فقال: إلهي، الوقت الذي كان بي رُدَّةُ إليّ.

فقال: هيهات يا داود، ذاك وُدٌّ قد مضى!!

وفي معناه أنشدوا:

فَحَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبَكَاءِ فَلَيْسَ لِأَيَّامِ الصَّفَاءِ رَجُوعُ
قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ إِنْ تَزَاجَرْتُمْ عَلَيْهِنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

التلبسُ على المستضعفين، والتدليسُ على أهل السلامة والوداعة من المسلمين - غير محمودين عند الله. فمن تعاطَ ذلك انتقم الله منه، ولم يبارك له فيما يختزل من أموال الناس بالباطل والاحتيال. ومن استصغر خصمه في الله فأهون ما يعاقبه الله به أن يخرجه الوصول إلى ما يأمل من محبوبه.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أي بتعاليم الدين والتأدب بأخلاق المسلمين وحُسنِ الصحبة على كراهة النفس، وأن تحتمل أذاهن ولا تحملهن كلف خدمتك، وتتعامى عن مواضع خجلتهن.

قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا...﴾ كل ما كان على نفسك أشقَّ كانت عاقبته أهناً وأمرأً.

واعلم أن الحق سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على غَيْبِهِ، فأكثر ما يعافه الإنسان قد تكون الخيرة فيه أتم. وقد حكم الله - سبحانه - بأن مخالفة النفس توصل صاحبها إلى أعلى المنازل، وبالعكس ذلك موافقتها، كما أن مخالفة القلوب توجب عمى البصيرة، وبالعكس ذلك موافقتها.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٌ وَءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِنْخَدَعْتُمْ قَنَاطَرًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٠٠.

يعلمهم حسنَ العهد ونعتَ الكرم في العشرة، فيقول لا تجمعُ الفرقَةَ واستردادَ المال عليها، فإن ذلك تَزْكُ الكرم؛ فإن خَوَّلْتَ واحدة مالا كثيرا ثم جفوتها بالفراق فما آتيتها يسير في جنب ما أَدَقَّتْهَا من الفراق.

قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ...﴾: يعني أن للصحبة السالفة حرمة أكيدة، فقفوا عند مراعاة الذمام، وأوفوا بموجب الميثاق.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

تشير الآية إلى حفظ الذمام، والوقوف على حدِّ الاحترام، فإن السَّجِيَّة تتداخلها الأنفَةُ من أن ينكح فراشه غيره، فمنهى الأبناء عن تخطي حقوق الآباء في استغراش منكوحة الأب.

قوله جل ذكره: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

تكلفُ انتزاع المعاني التي لأجلها حصل هذا التحريم محال من الأمر؛ لأن الشرع غيرُ مُعَلِّل، بل الحق تعالى حرَّم ما شاء على من شاء، وكذلك الإباحة، ولا عِلَّة للشرائع بخال، ولو كانت المحرَّمات من هؤلاء محللات [محرّمات] ^(١) لكان ذلك سائغا.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَتَزَوَّا بِأَقْرَبِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

إذا حافظت الحدود، وراعت العهود، وحصل التراضي بين النساء بحكم الشرع فما لا يكون فيه للخلق خصيمة، ولا من الحق سبحانه منه تبعه، فذلك مباح طلق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَاذْكُرُوهُنَّ بِإِذْنِ

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

أَهْلِيهِمْ وَآثُورَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ مُحَصَّنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْنَّ فَضْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

الرخص جعلت للمستضعفين، فأما الأقوياء فأمرهم الجِدَّة، والأخذ بالاحتياط والتضييق؛ إذ لا شغل لهم سوى القيام بحق الحق، فإن كان أمر الظاهر يشغلهم عن مراعاة القلوب فالأخذ في الأمور الظاهرة بالسهولة والأخف أولى من الاستقصاء فيما يمنع من مراعاة السر، لأنه ترك بعض الأمور لما هو الأهم والأجل، فمن نزلت درجته عن الأخذ بالأوثق والأحوط فمباح له الانحدار إلى وصف الترخص^(١).

ثم قال في آخر الآية: ﴿وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾: يعني على مقاساة ما فيه الشدة، وفي هذا نوع استمالة للعبيد حيث لم يقل اصبروا بل قال: ﴿وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾. قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

لما عرّف النبي - ﷺ - وأُمَّته أخبار مَنْ مضى من الأمم، وما عملوا، وما عاملهم به انتظروا ما الذي يفعل بهم؛ فإن فيهم أيضاً من ارتكب ما لا يجوز، فقالوا: ليت شِعرنا بأي نوع يعاملنا... أبا لخسف أو بالمسخ^(٢) أو بالعذاب أو بماذا؟

فقال تعالى: ﴿وَيُذْهِبُ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ نعرفكم ما الذي عملنا بهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أمّا أنتم فأتوب عليكم، أمّا من تقدّم فلقد دمرّت عليهم. ويقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾: أي يكاشفكم بأسراره فيظهر لكم ما خفي على غيركم.

ويقال يريد الله ليبين لكم انفرادَه - سبحانه - بالإيجاد والإبداع، وأنه ليس لأحد شيء. ﴿وَيُذْهِبُ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ طريقة الأنبياء والأولياء وهو التفويض والرضاء، والاستسلام للحكم والقضاء.

وقيل: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يتقبل توبتكم بعدما خلق توبتكم، ثم يُبَيِّنُكُمْ على ما خلق لكم من توبتكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقِيلُوا مِثْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٨٠ في حديثه عن الوصية للمريدين.

(٢) الخسف: الظلم والإذلال. والمسخ: تحويل صورة إلى ما هو أقرب منها.

عزل بهذا الحديث حديث الأولين والآخرين .

ومن أراد الله توبته فلا يُشِمْتُ به عدواً، ولا يناله في الدارين سوء .

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ : إرادتهم منكوسة ، وهي عند إرادة الحق - سبحانه - ضائعة مردودة .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ : يعني ثقل الأوزار بمواترة الأوراد إلى قلوبكم ، ويقال يريد الله أن يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يلج لقلوبكم من أنوار المشاهدات .

ويقال يريد الله أن يخفف عنكم آتاعب الخدمة بحلاوة الطاعات .

ويقال يخفف عنكم كلف الأمانة بحملها عنكم .

ويقال يخفف عنكم آتاعب الطلب بروح الوصول .

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ : وصف بهذا فقرهم وضُرهم ، و(. . .)^(١) بها عذرهم .

قوله جل ذكره : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحُكْمٍ عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا ظَلَمًا فَنُصِيبْهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ .

كل نفقة كانت لغير الله فهي أكل مالٍ بالباطل .

ويقال القبض إذا كان على غفلة ، والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة ، فكل ذلك باطل ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ : يعني بارتكاب الذنوب ، ويقال تعريضها لمساخطه سبحانه . ويقال بنظركم إليها وملاحظتكم إياها .

ويقال باستحسانكم شيئاً منها بإيثارها دون رضا الحق .

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فإننا لا نُخلّيه من عقوبة شديدة ، وهو أن نكلها إلى صاحبها ، ونلقي حبلها على غاربها .

قوله جل ذكره : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ .

الكبائر - على لسان العلم - ها هنا الشرك بالله ، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشرك الخفي . ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق ، واستحلاء قبولهم ، والتودد إليهم ، والإغماض على حق الله بسببهم .

(١) بياض في الأصل .

ويقال إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة الحد فهو بعيد عن التكفير .
 ويقال أكبر الكبائر إثباتك نفسك فإذا شاهدت نفيها تخلّصت من أسر المحن .
 ﴿وَذُلِّكُمْ﴾ في أموركم ﴿مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ إدخالاً حسناً لا ترون منكم دخولكم ولا خروجكم وإنما ترون المَصْرُفَ لكم .
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ .

لسان المعاملة أن الأمر بالتعني لا بالتمني، ولسان التوحيد أن الأمر بالحُكم والقضاء لا بالإرادة والمنى . ويقال اسلكوا سبيل من تقدّمكم في قيامكم بحق الله، ولا تعرضوا لنيل ما خُصّوا به من فضل الله . قوموا بحق مولاكم ولا تقوموا بمتابعة هواكم واختيار مناكم .

ويقال لا تمنوا مقام السادة دون أن تسلكوا سُبُلَهُمْ، وتلازموا سيرهم، وتعملوا عملهم . . فإن ذلك جَوْرٌ من الظن .

ويقال: كُن طالب حقوقه لا طالب نصيبك على أي وجه شئت: دنيا وآخرة (وَأَلَّا)^(١) أشركت في توحيدك من حيث لم تشعر .

ويقال لا تتمنّ مقامات الرجال فإن لكل مقام أهلاً عند الله، وهم معدودون؛ فما لم يمت واحد منهم لا يورث مكانه غيره، قال تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَفًا﴾ [الأنعام: ١٦٥، وفاطر: ٣٩] والخليفة من يخلف من تقدّمه، فإذا تمثّيت مقام وليّ من الأولياء فكأنك استعجلت وفاته؛ على الجملة تمنيت أو على التفصيل، وذلك غير مُسَلَّم .

ويقال خمودك تحت جريان حكمه - على ما سبق به اختياره - أخطى لك من تعرضك لوجود مناك، إذ قد يكون حتفك في مُنيّتك .

ويقال مَنْ لم يؤدّب ظاهره بفنون المعاملات، ولم يهذّب باطنه بوجوه المنازل فلا ينبغي أن يتصدّى لنيل المواصلات، وهيئات هيات متى يكون ذلك!

﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾: الفرق بين التمني وبين السؤال من فضله من وجوه: يكون التمني للشيء مع غفلتك عن ربك؛ فتتمنى بقلبك وجود ذلك الشيء من غير توقعه من الله، فإذا سألت الله فلا محالة تذكره، والآخر أن السائل لا يرى استحقاق نفسه فيخيمه صدق الإرادة على التملّق والتضرع، والتمني يخلو عن هذه الجملة .

والآخر أن الله نهى عن تمني ما فضل الله به غيرك إذ معناه أن يسلب صاحبك ما

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

أعطاه ويعطيك إياه، وأباح السؤال من فضله بأن يعطيك مثل ما أعطى صاحبك .
ويقال لا تتمُّ العطاء وسئل الله أن يعطيك من فضله الرضا بِفَقْدِ العطاء وذلك
أتمُّ من العطاء، فَإِنَّ التَّحَرُّرَ مِنْ رِقِّ الْأَشْيَاءِ أَتَمُّ مِنْ تَمَلُّكِهَا .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ
أَيْمَانُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ .

جعل المعاقدة في ابتداء الإسلام نظيرة النسب في ثبوت الميراث بها فَنَسَخَ حكم
الميراث وبقي حكم الاحترام، فإذا كانت المعاقدة بين الناس بهذه المثابة فما ظنك
بالمعاهدة مع الله؟ قال الله تعالى: ﴿رَبَّالَّذِينَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .
وأشدوا:

إِنَّ الْأَلَى مَاتُوا عَلَى دِينِ الْهَوَى وَجَدُوا الْمَنِيَّةَ مِنْهُلًا مَعْسُولًا
قوله جل ذكره: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا
أَنْفَعُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ قَتَلْتُمْ حَفِظْتُ لَهُمْ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ
فَعُظُّوهُمْ وَأَفْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا بُغْيَاءَ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ .

خصَّ الرجال بالقوة فزيد بالحمل عليهم؛ فالحمل على حسب القوة . والعبرة
بالقلوب والهمم لا بالنفوس والجثث .

قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعُظُّوهُمْ وَأَفْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ﴾: أي
ارتقوا في تهذيبهن بالتدريج والرفق، وَإِنْ صَلَحَ الْأَمْرُ بِالْوَعظِ فَلَا تَسْتَعْمِلُ الْعَصَا
بِالضَّرْبِ، فَالآيَةُ تَتَضَمَّنُ آدَابَ الْعِشْرَةِ .

ثم قال: ﴿فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا بُغْيَاءَ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾: يعني إِنْ وَقَفْتَ فِي الْحَالِ عَنْ
سُوءِ الْعِشْرَةِ (.....) (١) وَرَجَعْتَ إِلَى الطَّاعَةِ فَلَا تَنْتَقِمُ مِنْهَا عَمَّا سَلَفَ، وَلَا تَمْنَعُ
مِنْ قَبُولِ عَذْرَاهَا وَالتَّائِبِي عَلَيْهَا .

يقال: ﴿فَلَا بُغْيَاءَ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ بمجاوزتك عن مقدار ما تستوجب من نَقْمَتِكَ .
قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

يقال لك عليها الطاعة بالبدن، فأما المحبة والميل إليك بالقلب فذلك إلى الله، فلا

(١) بياض في الأصل .

تكلّفها ما لا يرزقك الله منها؛ فإن القلوب بقدرة الله، يُحبّب إليها من يشاء، ويُبغضُ إليها من يشاء.

ويقال: ﴿فَإِنْ أَمَنَّاكُمْ فَلَا لَبَغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي لا تنسَ وفاءها في الماضي بنادر جفاء يبدو في الحال فربما يعود الأمر إلى الجميل.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾: العبودية معانقة الأمر ومفارقة الزجر.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ الشُّركُ جليله اعتقادُ معبودٍ سواه، وخفيّه: ملاحظةُ موجودٍ سواه، والتوحيد أن تعرف أن الحادثات كلها حاصلةٌ بالله، قائمةٌ به؛ فهو مجريها ومنشيها ومبقيها، وليس لأحد ذوة ولا شظية^(١) ولا سينة ولا شمة من الإيجاد والإبداع.

ودقائق الرياء وخفايا المصانعات وكوامن الإعجاب والعمل على رؤية الخلق، واستحلاء مدحهم والذبول تحت رذمهم وذمهم - كل ذلك من الشُّركِ الخفي.

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾ الإحسان إلى الوالدين على وجه التدرّيج إلى صحبة فإنك أُمِرت أولاً بحقوقهما لأنهما من جنسك ومنها تربيتك، ومنهما تصل إلى استحقاق زيادتك وتتحقق بمعرفتك. وإذا صلّحت للصحبة والعشرة مع ذوي القربى والفقراء والمساكين واليتامى ومن في طبقهم - رُقِيتَ عن ذلك إلى استيجاب صحبته - سبحانه.

قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾... الآية من جيرانك (...)^(٢) فلا تؤذهما بعصيانك، وراعِ حقهما بما تُؤلي عليهما من إحسانك.

فلذا كان جار دارك مستوجباً للإحسان إليه ومراعاة حقه فجار نفسك - وهو قلبك - أولى بالأرضية ولا تغفل عنه، ولا تُمكن حلول الخواطر الرديئة به.

وإذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك - وهو روحك - أولى أن تحامي على حقّها، ولا تُمكن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها. وجار روحك - وهو سِرُّك - أولى أن ترعى حقّه، فلا تمكنه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات.

(١) الشظية: جمع شظايا، وهي فلقة العود أو العظم ونحوها.

(٢) بياض في الأصل.

قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] الإشارة منه غير ملتبسة على قلوب ذوي التحقيق.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾... الآية البخل على لسان العلم منع الواجب، وعلى بيان الإشارة ترك الإيثار في زمان الاضطراب. وأمر الناس بالبخل معناه منعه من مطالبات الحقائق في معرض الشفقة عليهم بموجب الشرع، وبيان هذا أن يقع بلسانك الانسلاخ عن العلائق وحذف فضولات الحالة فمن نصحه بأن يقول: «ربما لا تقوى على هذا، ولأن تكون مع معلومك الحلال أولى بأن تصير مكدياً، وربما تخرج إلى سؤال الناس وأن تكون كلاً على المسلمين - ويؤذي له في هذا الباب الأخبار والآثار أمثال هذا...» فلو لا بخله المستكن في قلبه لأعانه بهيمته فيما يسبح لقلبه بذل أن يمنع عنه ما (يجب أن) يقول في معرض النصيح. ومن كانت هذه صفته أدركه عاجل المقت حيث أطفأ شرر إرادة ذلك المستضعف بما هو عند نفسه أنه نصيحة وشفقة في الشرع.

وقوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: إن كان الله أغناهم عن طلب الفضيلة بما خولهم وآتاهم كتموا ذلك طمعاً في الزيادة على غير وجه الإذن. ويقال يكتمون ما آتاهم الله من فضله إذا سألهم مريد شيئاً عندهم فيه نجاته، وضنوا عليه بإرشاده.

ويقال بخل الأغنياء بمنع النعمة، وبخل الفقراء بمنع الهمة. قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيشَةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

أدخل هؤلاء أيضاً تحت قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ فعقوبتهم في العاجل أنهم ليسوا من جملة محبيه، وكفى بذلك محنة.

والمختال الذي ينظر إلى نفسه والمرائي الذي ينظر إلى أبناء جنسه، وكلاهما مسؤومان بالشرك الخفي والله لا يحب المشركين. والفخور من الإبل كالمصراة من الغنم وهو الذي سدت أخلافه ليجتمع فيها الدر^(١)، فيتوهم المشتري أن جميع ذلك معتاد لها وليس كذلك، فكذلك الذي يرى من نفسه حالاً ورتبة وهو في ذلك مدع وهو الفخور، والله لا يحبه، وكذلك المرائي الذي ينفق ماله رياء الناس.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا دَا عَلَىٰ هُمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

(١) الدر: اللين.

ليس في إيمانهم بالله عليهم مشقة، بل لو آمنوا لوصلوا إلى عِزِّ الدنيا والآخرة، ولا يحملهم على الإعراض عنه إلا قلة الوفاء والحرمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرَّةً وَإِن تَكْ حَسَنَةٌ يَضْعَفُهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لا ينقص من ثوابهم شيئاً بل يبتدئهم - من غير استحقاقهم - بفضل، وبضاعف أجورهم على أعمالهم؛ فأما الظلم فمحالٌ تقديره في وصفه لأن الخلق خلقه، والمُلك ملكه. والظالم من يعتدي حداً رُسم له - وهو في وصفه مُحالٌ لِعِزِّه في جلال قدره.

قوله جل ذكره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَ يَوْمَ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا لَوَسَّوْا بِهِمُ الْآرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

إذا كان الرسول - ﷺ - الشهيد على أمته، وهو الشفيع لهم، فإنما يشهد بما يُبقي للشفاعة موضعها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية: يحصلون على ندم ثم لا ينفعهم، ويعضون على أناملهم ثم لا يسكن عنهم جزعهم، فيتقنعون بِخِمار^(١) الذل، وينقلبون إلى أوطان المحن والضر.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُمْ مَرْهُقِيٍّ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَمْ يَأْتِ الْمَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

النهي عن موجب السكر من الشراب لا من الصلاة، أي لا تصادفكم الصلاة وأنتم بصفة السكر، أي امتنعوا عن شُرْبِ ما يُسكر فإنكم إن شربتم سكرتم، ثم إذا صادفكم الصلاة على تلك الحالة لا تُقبل منكم صلاتكم.

والسكر ذهاب العقل والاستشعار، ولا تصحُّ معه المناجاة مع الحق. المصلي يناجي ربه؛ فكلُّ ما أوجب للقلب الذهول عن الله فهو ملحق بهذا من حيث الإشارة؛ ولأجل هذه الجملة حصَّل، والسكر على أقسام:

فسكر من الخمر وسكر من الغفلة لاستيلاء حب الدنيا.

وأصعب السكر سكر من نفسك فهو الذي يلقيك في الفرقة عنه، فإن من سكر من الخمر فقصاراه الحرقه - إن لم يُغفر له. ومن سكر من نفسه فحال الفرقة - في الوقت - عن الحقيقة.

(١) الخمار: ما تغطي به المرأة رأسها (ج) أخمرة وخمر وخمر.

فَأَمَّا السُّكْرُ الَّذِي يَشِيرُ إِلَيْهِ الْقَوْمُ ^(١) فَصَاحِبُهُ مَحْفُوظٌ عَلَيْهِ وَقْتُهُ حَتَّى يَصْلِيَ وَالْأَمْرُ مَخْفَفٌ عَلَيْهِ: (فإذا خرج عن الصلاة هجم عليه غالبه فاخطفه عنه ومن لم يكن محفوظاً) ^(٢) عليه أحكام الشرع (فمَشُوبٌ بحظ) ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾... الآية: أذن للمضطرب أن يترخص في عبور المسجد وهو على وصف الجنابة، فإذا عرج زائداً على قدر الضرورة فمُعَاتَبٌ غيرُ معذور، وكذلك فيما يحصل من معاذير الوقت في القيام بشرائط الوقت فمرفوعة عن صاحبه المطالبة به.

ثم إنه - سبحانه - بفضلُه جعل التيمم ^(٤) بدلاً من الطهارة بالماء عند عَوَزِ الماء كذلك النزولُ إلى ساحات الفرقِ عن ارتقاء ذرة الجمع - بِقَدْرٍ ما يحصل من الضعف - بَدَلُ لأهل الحقائق.

ثم إن التيمم - الذي هو بَدَلُ الماء - أعمُّ وجوداً من الماء، وأقلُّ استعمالاً من الأصل، فإن كل من كان أقرب كانت المطالبات عليه أصعب.

ثم في الظاهر أَمَرْنَا باستعمال التراب وفي الباطن باستشعار الخضوع واستدامة الذبول.

ورَدَّ التيمم إلى التقليل، وراعى فيه صيانة لرأسك عن التراب ولَقَدَمِكَ؛ فَإِنَّ الْعَزَّ بِالْمُؤْمِنِ - ومولاه باستحقاق الجلال - أولى من الذلِّ لِمَا هو مفلس فيه من الحال، ولئن كان إفلاسه عن أعماله يوجب له التذللُ فعرفانه بجلال سيده يوجب كلَّ تَعَزُّزٍ وَتَجَمُّلٍ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّمْنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ومكروا مكرأ ولم يشعروا وجهة مكرهم أن أعطوا الكتاب ثم حُرِّمُوا بركاتِ الفهم حتى حَرَّفُوا وَأَصْرُوا.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٧١ - ٧٢ في حديث القشيري عن الصحو والسكر.

(٢) ما بين قوسين زيادة من الهامش.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٧٢.

(٤) التيمم: تيمم للصلاة: مسح وجهه ويديه بالتراب الظاهر على هيئة مخصوصة، عوض الوضوء.

قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾... الآية: تركوا حشمة الرسول - ﷺ - ورفضوا حرمة، فعوقبوا بالشك في أمره، ولذلك لم يترك أحد حشمة (محتشم)^(١) إلا حيل بينه وبين نيل بركات صحبتة وزوائد خدمته. ولو أنهم عاجلوا في نفي ما داخلهم من الحسد وقابلوا حاله بالتبجيل والإعظام لوجدوا بركات متابعتة، فأسعدوا به في الدارين، وكيف لم يكونوا كذلك وقد أقصتهم السوابق فأقعدتهم القسمة عن بساط الخدمة؟ وإنَّ مَنْ قعدت به الأقدار لم ينهض به الاحتياال.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهَافَرْدَهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَعْصَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

صرف القلوب عن الإرادة إلى أحوال أهل العادة حتى كانت دواعيه يتوفر في رفض الدنيا فعاد لا يصبر عن جميعها ومنعها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

العوام طولبوا بترك الشرك الجلي، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفي، فمن توسل إليه بعمله ويظنه منه، أو توهم أن أحكامه - سبحانه - معلولة بحركاته وسكناته، أو راعى خلقاً أو لاحظ نفساً فوطنه الشرك عند أهل الحقائق^(٢).

والله لا يغفر أن يُشرك به وكذلك من توهم أن مخالفته حصلت من غير تقديره فهو ملتحق بهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فَنِيلاً أَنْظَرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبَ وَكَفَىٰ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

مَنْ ركن إلى تزكية الناس له، واستحلى قبول الخواص له - فضلاً عن العوام - فهو من زكى نفسه، ورؤية النفس أعظم حجاب، ومن توهم أنه يتكلفه يزكي نفسه: بأوراده^(٣) أو اجتهداه، بحركاته أو سكناته - فهو في غطاء جهله.

قوله: ﴿أَنْظَرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ﴾... الآية: الإشارة إلى من أطلق لسان الدعوى من غير تحقيق، والمُفتري - في قائلته في هذا الأمر - لا ينطق بشيء إلا أجبته الأذان وانزجرت له القلوب، فإذا سكت عاد إلى قلب خراب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ

(١) المحتشم: إنسان يتمتع بالحياء، ويقصد به إنسان من الأعيان والوجهاء.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٤ - ٦٦ حديث القشيري عن الجمع والفرق.

(٣) الورد: النصيب من القرآن أو الذكر (ج) أوراد.

وَالظَّالِمُونَ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿١﴾

طاغوت كل أحد نفسه وهواه وجبته وهو (١) (....) مقصوده من الأغيار، فمن لاحظ شخصاً أو طالع سبباً أو عرج على علة أو طاع هوى، فذلك جبته وطاغوته. وأصحاب الجبب (٢) والطاغوت (٣) يستوجبون اللعن؛ وهو الطرد عن بساط العبودية، والحجاب عن شهود الربوبية.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَمْ نَمِيتْ بَيْنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلٍ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

من جُبِلَ على الشُّخ لا يزداد بسعة يده إلا تأسفاً على راحة ينالها الخلق، كأنَّ مَنْ شَرِبَ قطرة ماءٍ قد تحسَّى بل رَشَفَ من ماء حياته!

قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾: بل ينكرون تخصيص الحق سبحانه لأوليائه بما يشاء حسداً من عند أنفسهم فلا يقابلونهم بالإجلال، وسنة الله سبحانه مع أوليائه مضت بالتعزيز والتوقير لهم. ودأب الكافرين جرى بالارتياح في القدرة؛ فمنهم من آمن بهم، ومنهم من رد ذلك وجحد، وكفى بعقوبة الله متقماً عنهم.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾: الملوك العظيم معرفة الملوك، ويقال هو الملوك على النفس.

ويقال الإشراف على أسرار المملكة حتى لا يخفى عليه شيء.

ويقال الاطلاع على أسرار الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

الإشارة منه إلى الجاحدين آيات الأولياء، يُقيمهم بوصف الصغار ويبقيهم في وحشة الإنكار؛ كلما لاح لقلوبهم شيء من هذه القصة جرهم إنكارهم إلى ترك الإيمان بها والإزراء بأهلها على وجه الاستبعاد، فهم مؤبدة عقوبتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

(١) بياض في الأصل.

(٢) الجبب: كل ما عُبد من دون الله تعالى، والصنم والسحر والساحر والكاهن.

(٣) الطاغوت: الشيطان أو كل ما عُبد من دون الله من الجن والإنس والأصنام (ج) طاغوت.

الْأَنْهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّمْ فِيهَا أَرْزَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿١٠﴾ .

هم اليوم في ظل الرعاية، وغداً في ظل الحماية والكفاية، بل هم في الدنيا والعقبى في ظل العناية .

والناس في هذه الدنيا متفاوتون: فمنهم من هو في ظل رحمته، ومنهم من هو في ظل رعايته، ومنهم من هو في ظل كرامته، ومنهم من هو في ظل عنايته، ومنهم من هو في ظل قربته .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم .

ويقال لله - سبحانه وتعالى - أماناتٌ وَضَعَهَا عِنْدَكَ؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله - سبحانه - سالمةً مِنْ خِيَانَتِكَ فيها؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك فيها، والخيانة في أمانة السرِّ ملاحظتك إياها .

وَالْحُكْمُ بين الناس بالعدل تسويةً القريب والبعيد في العطاء والبذل، وألا تحملك مخامرةٌ حقدٍ على انتقام لنفسٍ .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ .

قَرَنَ طاعته بطاعة الرسول - ﷺ - تفخيماً لشأنه ورفعاً لِقُدْرِهِ .

وأما أولو الأمر - فعلى لسان العلم - السلطان، وعلى بيان المعرفة العارف ذو الأمر على المستأنف، والشيخُ أولو الأمر على المريد، وإمامُ كل طائفةٍ ذو الأمر عليهم .
ويقال الولي أولى بالمريد (من المريد)^(١) للمريد .

قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ على لسان العلم - إلى الكتاب والسنة، وعلى بيان التوحيد فَوْضَ ذلك وَوَكَلَ عِلْمَهُ إلى الله سبحانه، وإذا اختلف الخاطران في قلب المؤمن فَإِنْ كان له اجتهد العلماء تأمل ما يستحق لخطره بإشارة فهمه، ومن كان صاحب قلب وكلَّ ذلك إلى الحق - سبحانه - وراعى ما خطب به في سرائره، وألقبى - بلا واسطة - في قلبه .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ

(١) ما بين قوسين استدراك من الهامش .

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١﴾.

أظهروا الإخلاص، وناقضوا في السر، ففضحهم - سبحانه - على لسان جبريل عليه السلام بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي يرفضوه. فمن حاد عن طريقه ورجع إلى غير أستاذه استوجب الحرمان والذم. قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

كل شيء سوى كلمة الحق فهو خفيف على المنافقين، فأما التوحيد فلا يسمع كلمته إلا مخلص، وأهل الفترة في الله وأصحاب النفرة لا يسمعون ما هو الحق؛ لأن خلاف الهوى يَشُقُّ على غير الصديقين. وكما أن ناظرَ الخلق لا يقوى على مقابلة الشمس فكذلك المنافقون لم يطبقوا الثبات له - ﷺ - فلذلك كان صدودهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَنَنصِرُكَ إِنَّا لَنَنصِرُكَ إِنَّا لَنَنصِرُكَ﴾.

تَضَرُّعُ غير المخلص عند هجوم الضر لا أصل له، فلا ينبغي أن يكون به اعتبار لأن بقاءه إلى زوال المحنة، والمصيبة العظمى ترك المبالاة (بما يحصل من التقصير)^(١).

ويقال من المصيبة أن يمحقك وقتك فيما لا يجدي عليك^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

أَبْطَأَ لهم لسان الوعظ بمقتضى الشفقة عليهم، ولكن انقبض بقلبك عن المبالاة بهم والسكون إليهم، واعلم أن من لا نكون نحن له لا يغني عنه أن تعينه شيئاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُطَاعُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

ما أَمَرْنَا الرسل إلا بدعوة الخلق إلينا.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾. لو جعلوك ذريعتهم^(٣) لوصلوا

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٥ - ٦٦ حديث القشيري عن الوقت.

(٣) الذريعة: الوسيلة والسبب إلى الشيء (ج) ذرائع.

إلينا، ويقال لو لازموا التذلل والافتقار وركبوا مطية الاستغفار لأناخوا بعقوة^(١) المبار .
قوله جل ذكره: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .

سدَّ الطريق - إلى نفسه - على الكافة إلا بعد الإيمان بمحمد ﷺ، فَمَنْ لم يمشِ تحت رايته فليس له من الله نفس .

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضات بالكلية بقلبك .

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا﴾ : فلا بُدَّ لك من (...) ^(٢) تلك المهالك بوجه ضاحك، كما قال بعضهم :

وحبيب إن لم يكن منصفاً كنتُ منصفاً أتحنسى له الأمرُ وأسقيه ما صفا
إن يقل لي انشقق اخترتُ رضا لا تكلِّفَا

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَلَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنَزُّيَاتٍ إِذَا لَا تَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ .

أخبر عن سُقْم إخلاصهم وقوة إفلاسهم، ثم أخبر الله بعلمه بتقصيرهم .
خلاهم عن كثير من الامتحانات ثم قال ولو أنهم جنحوا إلى الخدمة، وشدوا نطاق الطاعة لكان ذلك خيراً لهم من إصرارهم على كفرهم واستكبارهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لآتيناهم من عندنا ثواباً عظيماً، ولأرشدناهم صراطاً مستقيماً ولأوليناهم عطاء مقيماً .

والأمر - على بيان الإشارة - يرجع إلى مخالفة الهوى وذبح النفوس بمنعها عن المآلوفات، والخروج من ديار (تَقْبُلُ النَّفْسُ)، ومفارقة أوطان (إرادة) الدنيا .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ .

جعل طاعة المصطفى - ﷺ - مفتاح الوصول إلى مقامات النبيين والصديقين والشهداء على الوجه الذي يصح للأمة وكفى له عليه السلام بذلك شرفاً .

ثم قال: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ : جرَّد عليهم محلهم عن كل علة واستحقاق وسبب؛ فإن ما لاح لهم وأصابهم صرفُ فضله وابتداء كرمه .

(١) العقوة: الساحة وما حول الدار والمحلة، وجمعها عقاء .

(٢) بياض في الأصل .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَعِرُوا جَمِيعًا وَإِن مِّنْكُمْ لَمَن لِّيُبَاحِثَ فَنَاصِحَةً قَالِ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيدًا وَلَئِن أَصَابَكُمْ مِّنْ فَضْلٍ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

الفرار إلى الله من صفات القاصدين، والفرار مع الله من صفات الواصلين؛ فلا يجد القرار مع الله إلا من صدق في الفرار إلى الله. والفرار من كل غير شأن كل مؤخذ.
قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْكُمْ لَمَن لِّيُبَاحِثَ﴾ الآية: أي لم تستقر عقائدهم على وصف واحد، فكانوا مرتبطين بالحفظ؛ فإذا رأوا مكروهاً يظل المسلمون شكروا وقالوا: الحمد لله الذي حفظنا من متابعتهم فكان يصيبنا ما أصابهم، وإن كانت لكم نعمة وخير سكنوا إليكم، وتمنوا أن لو كانوا معكم، خسروا في الدنيا والآخرة: فهُمْ لَا كَافِرَ قَبِيحٌ وَلَا مُؤْمِنٌ مُّخْلِصٌ.

قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾: يعني طرحوا حشمة الحياة فلم يراعوا حرمتكم.

قوله جل ذكره: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

مَنْ لَمْ يَقْتُلْ نَفْسَهُ فِي نَفْسِهِ لَا يَصْحُ جِهَادُهُ بِنَفْسِهِ؛ فأولا (إخراج خطر الروح) من القلب ثم تسليم النفس للقتل.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني بقاؤنا بعده خير له من حياته بنفسه لنفسه، قال قائلهم:

ألست لي عوضاً مني؟ كفى شرفاً فما وراءك لي قصد ومطلوب

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمُ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

أي شيء يمنعكم عن القتال في سبيل الله؟ وما الذي لا يُرْعِبُكُمْ فِي بَذْلِ الْمُهْجَةِ لله؟ وماذا عليكم لو بذلتم أرواحكم في الله والله؟ أتخافون أن تخسروا على الله؟ أم لا تعلمون أنكم تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ؟ فلم لا تكفون ببقائه بعد فناءكم في الله؟

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَيَقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

المخلصون لله لا يؤثرون شيئاً على الله، ولا يضنون بشيء عن الله، فهم أبدأ على نفوسهم لأجل الله، والذين كفروا على العكس من أحوال المؤمنين. ثم قواهم

وشجعهم بقوله: ﴿فَقِيلُوا أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تُضْمِرُوا لَهُمْ مَخَافَةَ، فَإِنِّي مَتَوَلِيكُمْ وَكَافِيكُمْ عَلَى أَعْدَانِكُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

أُخْرِجُوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ أُمُورِكُمْ، وَكُلُّوْهَا إِلَى مَعْبُودِكُمْ.

ويقال اقصروها عن أخذ الحرام والتصرف فيه.

ويقال امْتَنِعُوا عَنِ الشَّهَوَاتِ.

ويقال: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ إِلَّا عَنْ رَفْعِهَا إِلَى اللَّهِ فِي السُّؤَالِ بِوصف الابتغال.

فلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ اسْتَثْقَلُوا أَمْرَهُ، وَاسْتَعْجَلُوا لُطْفَهُ. وَالْعِبُودِيَّةُ فِي تَرْكِ الْاسْتِثْقَالِ، وَنَفْيِ الْاسْتَعْجَالِ، وَالتَّبَاعِدِ عَنِ التَّبَرُّمِ وَالْاسْتِثْقَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

مَكَّنَكَ مِنَ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فَلَمْ يَعْطِهَا شَيْئاً لَكَ ثُمَّ لَوْ تَصَدَّقْتَ مِنْهَا بِشَقِّ تَمْرَةٍ لَتَخَلَّصْتَ مِنَ النَّارِ، وَحُظِيتَ بِالْجَنَّةِ، وَهَذَا غَايَةُ الْكَرَمِ.

وَاسْتِقْلَالُ الْكَثِيرِ مِنْ نَفْسِكَ - لِأَجْلِ حَبِيبِكَ - أَقْوَى أُمَارَاتِ صُحْبَتِكَ.

ويقال لما زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا قَلَّلَهَا فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَهُونَ (عَلَيْهَا) تَرْكُهَا.

ويقال قل متاع الدنيا بجملتها قليل، والذي هو نصيبك منها أقل من القليل، فَمَتَى يَنَاقِشُكَ لِأَجْلِهَا (بِالتَّخْلِيلِ)، وَلَوْ سَلِمَ عَهْدُكَ مِنَ التَّبْدِيلِ؟

وَإِذَا كَانَتْ قِيَمَةُ الدُّنْيَا قَلِيلَةً فَأَخْسُ مِنَ الْخَسِيسِ مَنْ رَضِيَ بِالْخَسِيسِ بَدَلاً عَنْ النَّفْسِ.

وَقَدْ اخْتَلَعَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكُونِ بِالتَّدرِجِ. فَقَالَ أَوَّلًا: ﴿قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ (فَأَحْفَظْهُمْ) عَنْ الدُّنْيَا بِالعَقْبَى، ثُمَّ سَلَبَهُمْ عَنِ الْكُونَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه ٧٣].

قوله جل ذكره: ﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَقِيقًا﴾.

الموت فرح للمؤمن، فالخبر عن قرْبه بِشَارَةٍ لَهُ، لِأَنَّهُ سَبَبٌ يُوَصِّلُهُ إِلَى الْحَقِّ، وَمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ.

ويقال إذا كان الموت لا بد منه فالاستسلام لحكمه طوعاً خيرٌ من أن يحمل كرهاً.

ثم أخبر أنهم - لضعف بصائرهم ومرض عقائدهم - إذا أصابتهم حسنة فرحوا بها، وأظهروا الشكر، وإن أصابتهم سيئة لم يهتدوا إلى الله فجرى فيهم العزق المجوسي^(١) فأضافوه إلى المخلوق، فردّ عليهم وقال: قل لهم يا محمد كل من عند الله خلقاً وإبداعاً، وإنشاء واختراعاً، وتقديراً وتيسيراً.

قوله جل ذكره: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً وكلاهما من الله سبحانه خلقاً.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾. هذه الآية تشير إلى الجُمع لحال الرسول - ﷺ، فقال سبحانه طاعته طاعتنا، فمن تقرب منه تقرب منا، ومقبوله مقبولنا، ومردوده مردودنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

يعني إذا حضروك استسلموا في مشاهدتك، فإذا خرجوا انقطع عنهم نور إقبالك، فعادوا إلى ظلمات، كما قالوا:

إذا ارعوى عباد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه
قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَارَى لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ آخِذًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

تدبر إشارة المعاني بغوص الأفكار، واستخراج جواهر المعاني بدقائق الاستنباط.

قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾: لما كانوا غافلين عن الحق لم يكن لهم من ينقل إليه أسرارهم فأظهروا السرّ بعضهم لبعض. فأما المؤمنون فعالم أسرارهم مولاهم، وما

(١) المجوس: معزب عن (منج كوش) بالفارسية ومعناها: صغير الأذنين. وهم أمة يعبدون الشمس أو النار، وواحد مجوسي.

يسنح لهم خَاطَبُوهُ فيه فلم يحتاجوا إلى إذاعة السِّر لمخلوق؛ فسامعُ نجواهم الله، وعالمُ خطابهم الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي لو بشوا أسرارهم عند من هو (...).^(١) ومن هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكال، وأمدوهم بنور الهداية والإرشاد^(٢).

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ مع أوليائه لهاموا في كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم في الوقت.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِصَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكُفَّ بِأَسِ الْأَذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

استقيم معنا بتسليم الكل منك إلى أمرنا؛ فإنك - كما لا يقارنك أحد في ربتك لعلوك على الكل - فنحن لا نكلف غيرك بمثل ما تكلفت، ولا نحمل غيرك ما تحملت لانفرادك عن أشكالك في القدوة.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِلًا﴾.

الشفيع يخلص للمشفوع له حاله. ويستوجب الشفيع - من الله سبحانه على شفاعته - عظيم الرتبة، ومن سعى في أمرنا بالفساد تحمّل الوزر واحتقّب^(٣) الإثم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَيُؤَاخِصْنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهُا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

تعليم لهم حُسن العشرة وآداب الصحبة. وإن من حمّلك فضلاً صار ذلك - في ذمتك - له قرضاً، فإمّا زدت على فعله وإلا فلا تنقص عن مثله.

(١) بياض في الأصل.

(٢) أشار القشيري في هذا الخصوص في حديثه عن الوصية للمريدين قال: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: تجب البداية بتصحيح الاعتقاد بينه وبين الله تعالى. صافٍ عن الظنون والشبه خالٍ من الضلال والبدع، صادر عن البراهين والحجج، ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة، وليس انتساب الصوفي إلى مذهب المختلفين سوى طريقة الصوفية إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة، فإن حجج هؤلاء في مسائلهم أظهر من حجج كل واحد، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب. فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال. (الرسالة القشيرية ص ٣٧٨).

(٣) الوزر: الإثم والذنب أو الحمل الثقيل. احتقّب الإثم: ارتكبه.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

هذا الخطاب يتضمن نفياً وإثباتاً؛ فالنفي يعود إلى الأغيار ويستحيل لغيره ما نفاه، والإثبات له بالإلهية ويستحيل له النفي فيما أثبتته.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

(.....)(١) العهد فيهم أنهم أعدائي، لا ينالون مني في الدنيا والعقبى رضائي، وإنكم لا تثقون بهمكم من أقمته بقسمتي فإن المدار على القسم دون (.....)(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَدُّوا أَنْ تَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذَرُهُمْ وَأَفْسَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ مِّنْهُمُ فَأَنْ يُّفْتَلِكُمْ أَوْ يَفْتَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلْتُمُوهُمْ فَلَمَّا عَزَّزْتُكُمْ فَإِنْ أَغْرَبْتُمُوهُمْ فَلَمَّا يُفْتَلِكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمُ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

الإشارة إلى أرباب التخليط والأحوال السقيمة يتمنون أن يكون الصديقون منهم، وهيئات أن يكون لمناهم تحقيق! وما دام المخالفون لكم غير موافقين فبائنوهم وخالفوهم ولا تطابقوهم بحال، ولا تعاشرهم، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً؛ وموافق لك في قصديك خير لك من مخالف على الكره تعاشره.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ الإشارة من هذه الآية أن عند الأعذار أذن في معاشره في الظاهر رفقاً بالمستضعفين.

﴿فَإِنْ أَغْرَبْتُمُوهُمْ﴾ الإشارة منه أنه إذا عاشركم من ليس من أهل القصة معرجين في أوطان نصيبهم فلا تدعوهم إلى طريقتكم وسلموا لهم أحوالهم. فإن أمكنكم أن تلاحظوهم بعين الرحمة بحيث تؤثر فيهم همتمكم وإلا فسلموا لهم أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَىٰ أَلْفَنَةٍ أَوْ كَثُورٍ فَإِنْ لَمْ يَمَازِلُوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمُ وَيَكْفُؤْا أَيْدِيَهُمْ فَحُذَرُهُمْ وَأَفْسَلُوهُمْ حَيْثُ يَقْفُتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

إن من رام الجمع بين الضدين خاب سعيه، ولم يرتفع عزمه، فكما لا يكون شخص

(١) بياض في الأصل.

واحد منافقاً ومسلماً لا يكون شخص واحد مريداً للحق ومقيماً على أحكام أهل العادة .
فإن الإرادة والعادة^(١) ضدان، والواجب مباينة الأضداد، ومجانبة الأجانب .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَتْ لِأَيِّمٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

خفف أمر الخطأ على فاعله حتى حمل موجب قتل الخطأ على العاقلة ؛
فالخواص عاقلة المستضعفين من الأمة، وأهل المعرفة عاقلة المريدين، والشيوخ عاقلة الفقراء ؛ فسيبلهم أن يحملوا أثقال المستضعفين فيما ينوبهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .

كما يحرم قتل غيرك يحرم قتل نفسك عليك، ومن اتبع هواه سعى في دم نفسه،
ومن لم ينصح مريداً بحسن وعظه ولم يُعنه بهمته فقد سعى في دمه، وهو مأخوذ بحاله وخليق بأن تكون له عقوبة الأذية بألا يتمتع بما ضن به على المريدين من أحواله : ولقد قال - سبحانه - : يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له (خادماً) .

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَتَّبِعُونَهَا وَلَا يَقُولُوا لِمَنْ أَشْءٌ إِلَيْنَا سَلَّمَ لَسَتْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَعَدَ اللَّهُ مَغَايِرَ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ أَكَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَتَّبِعُونَهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .

عاشروا الناس على ما يُظهرون من أحوالهم، ولا تتفرسوا^(٢) فيهم بالبطلان؛

(١) قال القشيري برسالته : وقد تكلم الناس في معنى الإرادة فكلٌ عثر حسب ما لاح لقلبه فأكثر المشايخ قالوا: الإرادة ترك ما عليه العادة، وعادة الناس في الغالب التعرّيج في أوطان الغفلة، والركون إلى اتباع الشهوة، والإخلاد إلى ما دعت إليه المنية، والمريد منسلخ عن هذه الجملة، فصار خروجه أمانة ودلالة على صحة الإرادة فسميت تلك الحالة إرادة، وهي خروج عن العادة فإذا ترك العادة أمانة الإرادة، وأما حقيقتها فهي نهوض القلب في ترك الحق سبحانه وتعالى، ولهذا يقال: إنها لوعة تهون كل روعة. (الرسالة القشيرية ص ٢٠١ - ٢٠٢) .

(٢) الفراسة: المهارة في تعرّف بواطن الأمور من ظواهرها. والثبت والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال، وقد تكون وهبية إلهامية يخلقها الله من القلب وهي المراد غالباً عند القوم .

فَإِنْ مَتَوَلَّى الْأَسْرَارَ اللَّهُ . هذا إذا كان غرضُ فاسدٍ يحملكم عليه من أحكام النفس ، فأما من كان نظره بالله ولم يَسْتَسِرْ عليه شيءٌ فَلْيَحْفَظْ سِرَّ اللَّهِ فيما كُشِفَ به ، ولا يظهر لصاحبه ما أراد الله فيه .

قوله جل ذكره : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْقَرْرَةِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ .

الحق سبحانه جمع جميع أوليائه في أفضاله لكنه غايَر بينهم في الدرجات ، فمن غني ومن عبد هو أغنى منه ، ومن كبير ومن هو أكبر منه ، هذه الكواكب ذرية ولكن القمر فوقها ، وإذا طلعت الشمس بهرت الجميع بنورها !

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَاعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَكِ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾ .

الإشارة منه إلى من أدركه الأجل وهو في أسر نفسه وفي رق شهواته - ليس له عذر حيث لم يهاجر إلى ظل قُربته ليتخلص من هوى نفسه إذ لا حجاب بينك وبين هذا الحديث إلا هواك .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ .

الإشارة منه إلى الذين ملكتهم المعاني فأفنتهم عنهم ، فبقوا مُضْرَفِينَ له ، لا لهم حَوْلٌ ولا قوة ، يبدو عليهم ما يُجْرِيه - سبحانه - عليهم ، فهم بعد عود نفوسهم بحق الحق محو عنهم ، فلا يهتدون إلى غيره سبيلاً ، ولا ينتقسون لغيره نفساً .

ويقال على موجب ظاهر الآية إن الذين أقعدتهم الأعذار عن الاختيار فعسى أن يتفضل الحق - سبحانه - عليهم بالعتف .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ .

مَنْ هَاجَرَ فِي اللَّهِ عما سوى الله ، وصحح قَصده إلى الله وَجَدَ فسحة في عقوبة الكرم ، ومقيلاً في ذرى القبول ، وحياة وسعة في كنف القرب .

والمهاجر - في الحقيقة - من هجر نفسه وهواه ، ولا يصح ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته ، وَمَنْ قَصده ثم أدركه الأجل قبل وصوله فلا ينزل إلا بساحات وصله ، ولا يكون محط روحه إلا أوطان قربه .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَرَّكُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

القَصْرُ في الصلاة سُنَّةٌ في السفر، وكان في ابتداء الشرع عند الخوف، فأقر ذلك مع زوال الخوف رفقا بالعباد، فلما دخل الفرض القصر لأجل السفر عوضوا بإباحة الثفل^(١) في السفر على الراحة أينما توجهت به دابته من غير استقبال، فكذاك الماشي؛ ليُعلم أنَّ الإذن في المناجاة مستديم في كل وقت؛ فإن أردت الدخول فمتى شئت، وإن أردت التباعد مترخصاً فلك ما شئت، وهذا غاية الكرم، وحفظ سُنَّة الوفاء، وتحقيق معنى الولاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْيَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

تدل هذه الآية على أن الصلاة لا ترتفع عن العبد ما دام فيه نفس من الاختيار لا في الخوف ولا في الأمن، ولا عند غلبات أحكام الشرع إذا كنت بوصف التفرقة، ولا عند استيلاء سلطان الحقيقة إذا كنت بعين الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَنُحُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

الوظائف الظاهرة موقته وحضور القلب بالذكر مسرمد غير منقطع؛ أما بالرسوم فوقاً دون وقت، وأما بالقلوب فإياكم والغيبة عن الحقيقة لحظة كيفما اختلفت بكم الأحوال.. الذكر كيفما كنتم وكما كنتم، وأما الصلاة فإذا اطمأننتم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

قوموا بالله وليكن استنادكم في جهادكم إلى الله.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾: القوم شاركوكم في إحساس الألم، ولكن خالفوكم في شهود القلب، وأنتم تشهدون ما لا يشهدون، وتجدون لقلوبكم ما لا يجدون، فلا ينبغي أن تستأخروا عنهم في الجد والجهد.

(١) الثفل: ما شرع زيادة على الفريضة والواجب.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

لم يأمرُك بالحكم بينهم على عمى ولكن بما أراك الله أي كاشفك به من أنوار البصيرة حتى وقفت عليه بتعريفنا إياك وتسديدنا لك، وكذلك من يحكم بالحق من أمتك.

قوله: ﴿وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا﴾: أي لا تناضل عن أرباب الحظوظ ولكن مع أبناء الحقوق، ومن جنح إلى الهوى خان فيما أودع نفسه من التقوى، ومن ركنَ إلى أنواع نوازع المنى خان فيما طولب به من الحياء لاطلاع المولى.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ لا متك؛ فإننا قد كفييناك حديثك بقولنا: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُجَدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَشِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

هم المؤثرون حظوظهم على حقوقه، والراضون بالتعريج في أوطان هواهم دون النقلة إلى منازل الرضا، إن الله لا يحب أهل الخيانة فيذلهم - لا جرم - ولا يكرمهم.

قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ولا يشعرون أنَّ الحق مُطْلِعٌ على قلوبهم أولئك الذين وَسَمَ الله قلوبهم بوسم الفرة.

قوله جل ذكره: ﴿هَتَأْتُهُ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

أي ندفع عنهم - بحرمتك - لأنك فيهم، فكيف حالهم يوم القيامة إذ زالت عنهم بركاتكم أيها المؤمنون؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ثم: «حرف يدل على التراخي؛ أي يزجون عمرهم في البطالات والمخالفات ثم في آخر أعمارهم يستغفرون الله.

وقوله: ﴿يَجِدِ اللَّهَ﴾: الوجود غاية الحديث^(١)، والمعاصي لا يطلب غير الغفران، ولكن الله - سبحانه يوصله إلى النهاية بفضله - إذا شاء، فسُئله تحقيق ما فوق المأمول لمن رجاه.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٦١ - ٦٤ في حديث القشيري عن التواجد والوجد والوجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .
الحق غني عن طاعة المطيعين، وزلة العاصين، فمن أطاع فحفظه حصّل، ومن عصى فحفظه أخذ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ آخَضَ آخِذًا وَيُنَاقِضُ مُنَاقِضًا﴾ .

من نسب إلى بريء ما هو صفته من المخازي عكس الله عليه الحال، وألبس ذلك البريء ثواب محاسن راميّه، وسحب ذيل العفو على مساويه، وقَلَبَ الحال على المتعدّي بما يفضحه بين أشكاله، في عامة أحواله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ .

الفضل^(١) إحسانٌ غيرُ مستحق، والإشارة ههنا - من الفضل - إلى عصمته إياه، فالحق - سبحانه - عَصَمَهُ تخصيصاً له بتلك العصمة، وكما عصمه عن تركِ حقه - سبحانه - عصمته بأن كفَّ عنه كيد خلقه فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ الآية.

كلّا، لن يكون لأحد سبيلٌ إلى إضلالك فانت في قبضة العزة، وما يُضِلُّونَ إلا أنفسهم، وما يضرّونك بشيء، إذ المحفوظ منا محروس عن كلّ غير، وإنّ الله سبحانه قد اختصك بإنزال الكتاب، واستخلصك بوجوه الاختصاص والإيجاب، وعلمك ما لم تكن تعلم، ولم يمن عليك بشيءٍ بمثل ما مَنَّ به على من خصّه به من العلم. ويحتمل أنه أراد به علمه - صلى الله عليه - بالله وبيجلاله، وعلمه بعبودية نفسه، ومقدار حاله في استحقاق عِزِّه وجماله.

ويقال علمك ما لم تكن تعلم من آداب الخدمة إذ لم تكن ملتبساً عليك معرفة الحقيقة.

ويقال أغناك عن تعليم الأغيار حتى لا يكون لأحد نور إلا مُقْتَبَساً مِنْ نورك، ومن لم يمشِ تحت رايتك لا يصل إلى جميع برّنا، ولا يحظى بقرينا ووصلنا.

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾: في الآباد؛ أنّك كنت - لنا بشرف العز وكرم الربوبية في الآزال - معلوماً. ويقال وعلمك ما لم تكن تعلم من علو رُتبتك على الكافة.

ويقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أَنَّ أَحَدًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُنَا إِلَّا بِمِقْدَارِ مُوَافَقَتِهِ لِأَمْرِنَا.

قوله جل ذكره: ﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أفضل الأعمال ما كانت بركاته تتعدى صاحبه إلى غيره؛ ففضيلة الصدقة يتعدى نفعها إلى من تصل إليه، والفتوة أن يكون سعيك لغيرك، ففي الخبر: «شَرُّ النَّاسِ مَنْ أَكَلَ وَخَذَهُ» وكلُّ أصناف الإحسان ينطبق عليها لفظ الصدقة.

قال ﷺ في قُصْرِ الصلاة في السفر: «هذه صدقة تصدقها الله عليكم فاقبلوها صَدَقَتَهُ»^(١).

والصدقة على أقسام: صدقتك على نفسك، وصدقتك على غيرك؛ فأما صدقتك (على نفسك فحُمِّلَهَا على أداء حقوقه تعالى، وَمَنَعَهَا عن مخالفة أمره، وقصرُ يدها عن أذية الخَلْقِ وَصَوْنُ خواطرها وعقائدها عن السوء. وأما صدقتك)^(٢) على الغير فَصَدَقَةٌ بالمال وصدقة بالقلب وصدقة بالبدن.

فصدقة بالمال بإنفاق النعمة، وصدقة بالبدن بالقيام بالخدمة، وصدقة بالقلب بحسن النية وتوكيد الهمة.

والصدقة على الفقراء ظاهرة لا إشكالَ فيها، أمَّا الصدقة على الأغنياء فتكون بأن تجود عليهم بهم، فتقطع رجاءك عنهم فلا تطمع فيهم.

وأما المعروف: فكلُّ حَسَنٍ في الشرع فهو معروف، ومن ذلك إنجاد المسلمين وإسعادهم فيما لهم فيه قربة إلى الله، وزلفى عنده، وإعلاء النواصي^(٣) بالطاعة.

ومن تصدَّق بنفسه على طاعة ربه، وتصدَّق بقلبه على الرضا بحكمه، ولم يخرج بالانتقام لنفسه، وحثَّ الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية إلى ربه، وأصلح بين الناس بِصِدْقِهِ في حاله - فَإِنَّ لِسَانَ فعله أبلغ في الوعظ من لسان نطقه، فهو الصَّدِيق في وقته. ومن لم يؤدِّبْ نَفْسَهُ لم يتأدَّب به غيره، وكذلك من لم يهذَّب حاله لم يتهذَّب به غيره.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ غير سائل به مالا أو حائز لنفسه به حالا فعن قريب يبلغ رتبة الإمامة في طريق الله، وهذا هو الأجر الموعود في هذه الآية.

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٣/٢٦٤)، والقرطبي في (التفسير ٥/٣٦٣).

(٢) ما بين قوسين مستدرك من الهامش يقتضيه السياق

(٣) الزلفى: المنزلة والدرجة والقربة. والنواصي (ج) الناصية: ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُضَاقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِيهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

خواطر الحق سفرأوه تعالى إلى العبد، فمن خالف إشارات ما طولب به من طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب، ومنها أن يغمى عن إِبصار رُشدِه. وكما أن مخالف الإجماع عن الدين خارج فمخالف ما عرف من الحقيقة بعد ما تبين له الطريق - ساقط.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۚ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۚ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخَادِنُ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۚ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتُهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْكُوا ۚ إِذَا كَانَ الْآخِرُ فَلْيُكْفِرْهُمْ فَلْيَكْفِرْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾: إثبات الغير في توهم ذرة من الإبداع عين الشرك، فلا للعفو فيه مساغ. وما دون الشرك فللعفو فيه مساغ، ومن توسل إليه سبحانه بما توهم من نفسه فقد أشرك من حيث لم يعلم. كلاً، بل هو الله الواحد.

قوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَّا إِنْتًا﴾: أوقعوا على الجمادات تسميات، وانخرطوا في سلك التوهم، وركنوا إلى مغاليط الحسبان، فضلوا عن الحقيقة.

﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ﴾، أي ما يدعون إلا إبليس الذي أبعد الحق عن رحمته، وأسحقه ببعده، وما إبليس إلا مقلَّب في القبضة على ما يريده المنشئ، ولو كان به ذرة من الإثبات لكان به شريكاً في الإلهية. كلاً، إنما يجري الحق - سبحانه - على الخلق أحوالاً، ويخلق عقيب وساوسه للخلق ضلالاً، فهو الهادي والمضل، وهو - سبحانه - المصرف للكل، فيخلق (...) (١) في قلوبهم عَقَب وساوسه إليهم طول الآمال، ويحسن في أعينهم قبيح الأعمال، ثم لا يجعل لأمانيتهم تحقيقاً، ولا يعقب لما أملوه تصديقاً، فهو تعالى مُوجِد تلك الآثار جملةً، ويضيفها إلى الشيطان مرةً، وإلى الكافر مرةً، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتُهُمْ﴾... الآية ومعنى قوله تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۚ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

الذين قسم لهم الضلالة في الحال حكم عليهم بالعقوبة في المال، ولولا أنه

(١) بياض في الأصل.

أظهر ما أظهر بقدرته وإلا متى كانت شظية من الضلالة والهداية لأربابها؟! والوقوف على صدق التوحيد عزيز، وأرباب التوحيد قليل.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

الذين أسعدناهم حكماً وقولاً، أنجدناهم حين أوجدناهم كرمًا وطولاً، ثم إننا نحقق لهم الموعود من الثواب، بما نكرمهم به من حسن المآب.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

مَنْ زَرَعَ الحنظل^(١) لم يجتنِ الورد والعبر^(٢)، ومن شرب السمِّ الرِّعاف^(٣) لم يجد طعم العسل، كذلك مَنْ ضَيَّعَ حقَّ الخدمة لم يستمكِنَ على بساط القربة، وَمَنْ وُسمَ بالشَّقوة لم يُرزَقِ الصَّفوة، وَمَنْ نَفَثَ القضية فلا ناصر له من البرية.

قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ الآية. مَنْ تَعَنَّى في خدمتنا لم يبق عن نيل نعمتنا، بل من أغنيناه في طلبنا أكرمناه بوجودنا، بل من جرَّعناه كأسَ اشتياقنا أنلناه أنسَ لقائنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾.

لا أحد أحسن دِيناً ممن أسلم وجهه لله؛ يعني أفرد قصده إلى الله، وأخلص عقده لله عما سوى الله، ثم استسلم في عموم أحواله لله بالله، ولم يدخِر شيئاً عن الله؛ لا من ماله ولا من جسده، ولا من روحه ولا من جلده، ولا من أهله ولا من ولده، وكذلك كان حال إبراهيم عليه السلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: الإحسان - بشهادة الشرع - أن تعبد الله كأنك تراه، ولا بد للعبد من بقية^(٤) من عين الفرق حتى يصح قيامه بحقوقه - سبحانه - لأنه إذا حصل

(١) الحنظل: نبات عشبي بري حولي معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة. كان ولا يزال يُستعمل في الطب، ويُزرع في الحدائق الطبية.

(٢) العبر: الياسمين، سمي به لنعمته، وقيل: النرجس، وقيل: هو نبت ولم يُحلَّ (اللسان ٥٣٦/٤).

(٣) سم زعاف: سريع القتل.

(٤) أي يجب أن يرد إلى الفرق الثاني وهو أن يرد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله تعالى. (الرسالة القشيرية ص ٦٦).

مستوفي بالحقيقة لم يصح إسلامه ولا إحسانه، وهذا أتباع إبراهيم عليه السلام الحنيف الذي لم يبق منه شيء على وصف الدوام.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: جرد الحديث عن كل سعي وكيد وطلب وجه حيث قال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ فعلم أن الخلّة لبسة يلبسها الحق لا صفة يكتسبها العبد.

ويقال الخليل المحتاج بالكلية إلى الحق في كل نفس ليس له شيء منه بل هو بالله لله في جميع أنفاسه وأحواله، اشتقاقاً من الخلّة التي هي الخصاصة وهي الحاجة. ويقال إنه من الخلّة التي هي المحبة، والخلّة أن تباشر المحبة جميع أجزائه، وتتخلل سيره حتى لا يكون فيه مساغ للغير.

فلما صفاه الله - سبحانه - (عليه السلام) عنه، وأخلاه منه نصبه للقيام بحقه بعد امتحانه عن كل شيء ليس الله سبحانه.

ثم قال: ﴿وَأُذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] لا يلبي الحاج إلا لله، وهذه إشارة إلى جمع الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَمَنَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغْبُونَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ إِنْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

نهاهم عن الطمع الذي يحملهم على الحيف^(١) والظلم على المستضعفين من النِّسوان واليتامى، ويبيّن أن المتقيّم به لهم الله، فمن راقب الله فيهم لم يخسر على الله بل يجد جميل الجزاء، ومن تجاسر عليهم قاسى لذلك أليم البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

صحبة الخلق بعضهم مع بعض إن تجردت عن حديث الحق فإنها تتعرض للوحشة واللامامة، وممازجة النفرة والسامة^(٢). فمن أعرض عن الله بقلبه أعرض الخلق عن مراعاة حقه، وخرج الكافة عليه باستصغار أمره واستحقار قدره. ومن رجع إلى الله بقلبه، استوى له - في الجملة والتفصيل - أمره، واتسع لاحتمال ما يستقبل من

(١) الحيف: الجور والظلم.

(٢) النفرة: من الأمر: الانتفاض منه. والسامة: الملل والضجر.

سوء خُلِقَ الخَلْقُ صدره فهو يسحب ذيلَ العفو على هَنَاتٍ جميعهم، ويُؤثِرُ الصلح بترك نصيبه وتسليم نصيبهم قال الله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

واتضاعك في نفسك عن منافرة مَنْ يخاصمك أجدى عليك، وأحرى لك من تطاولك على خصمك باغياً الانتقام، وشهود مَالِكَ في مزية المقام. وأكثر المنافقين في أسر هذه المحنة.

قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾: وشُحُّ النَّفْسِ قيام العبد بحظه.

فلا محالة مَنْ حُجِبَ عن شهود الحق رُدَّ إلى شهود النَّفْسِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾: يعني يكن ذلك خيراً لكم. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

﴿وَتَتَّقُوا﴾: يعني عن رؤيتكم مقام أنفسكم، وشهود قَدْرِكُمْ، يعني وأن تروا ربكم، وتنفوا برؤيته عن رؤية قَدْرِكُمْ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: يعني إذا فنيتم عنكم وعن عملكم، فكفى بالله عليمًا بعد فنائكم، وكفى به موجداً عقب امتحانكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

يعني أنكم إذا (...) (١) في أموركم انعكس الحال عليكم، وانعكس صلاح ذات بينكم فساداً لكم، فإذا قمتم بالله في أموركم استوى العيش لكم، وصفا عن الكدر وقتكم.

ويقال مَنْ حَكَمَ الله بنقصان عقله في حاله فلا تقتدرون أن تجبروا نقصانهم بكفائتكم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾: يعني لا تزيغوا (٢) عن نهج الأمر. قفوا حيثما وقفتم، وأنفذوا فيما أمرتكم.

وقوله: ﴿فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ يعني أنكم إذا منعمتموهن عن صحبة أغياركم ثم قطعتم عنهن ما هو حظوظهن منكم أضرتن بهن من الوجهين؛ لا منكم نصيب، ولا إلى غيركم سبيل، وإن هذا الحيف عظيم. والإشارة من هذا أنه إذا انسد عليك طريق حظوظك فَتَحَ - سبحانه - عليك شهود حقه، ووجود لطفه؛ فإن من كان في الله تلفه فالحق - سبحانه - خَلَفَهُ، وإن تُصْلِحُوا ما بينكم وبين الخلق،

(٢) الزيغ: الميل عن الحق.

(١) بياض في الأصل.

وتثقوا فيما بينكم وبين الحق فإن الله غفور لعيوبكم، رحيم بالعفو عن ذنوبكم .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًَّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ .

الصحة التي لا بُدَّ منها صحة القلب مع دوام افتقار إلى الله؛ إذ الحق لا بُدَّ منه . فأما الأغيار فلا حاجة لبعضهم إلى بعض إلا من حيث الظاهر، وذلك في ظنون أصحاب التفرقة، فأما أهل التحقيق فلا تحرية لهم أن حاجة الخلق بجملتها إلى الله سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ .

كلَّف الكافة بالرجوع إليه، ومجانبة مَنْ سواه، والوقوف على أمره، ولكن فريقاً وُفِّق وفريقاً خُذِل . ثم عرَّف أهل التحقيق أنه غنيٌّ عن طاعة كلٍّ وليٍّ، وبريء عن زلة كل غويٍّ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

قَطَعَ الأسرار عن التعلُّق بالأغيار بأن عرَّفهم انفرادهم بمُلْك ما في السموات والأرض، ثم أطمعهم في حسن تولُّيه، وقيامه بما يحتاجون إليه بجميل اللطف وحسن الكفاية بقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يصلح يملك حالك ولا يختزل مالك .

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ .

من استغنى عنه في آزاله فلا حاجة له إليه في آباده . ويقال لا يحتاج إلى أحدٍ والعبد لا يستغنى عنه في نفسٍ .

ويقال لا نهاية للمقدورات فإن لم يكن عمرو فزَيْدٌ، وإن لم يكن عبدٌ فعبيدٌ، والذي لا بَدَل عنه ولا خَلَف فهو الواحد احد .

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

لَمَّا عَلَّمُوا قلوبهم بالعاجل من الدنيا ذكَّروهم حديث الآخرة، فقال: ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تعريفاً لهم أن فوق همهم من هذه الخسيسة ما هو أعلى منها من نعيم الآخرة، فلمَّا سَمَتْ إلى الآخرة قصودهم قطعهم عن كل مرسوم ومخلوق بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣] .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ

أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرْتُمْ فَلِلَّهِ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٠﴾

القسط العدل، والقيام بالله العدل بإيفاء حقوقه من نفسك، واستيفاء حقوقه من كل مَنْ هو لك عليه أمر، وإلى تحصيل ذلك الحق سبيل إمّا أمر بمعروف أو زجر عن مكروه أو وعظ بنصح أو إرشاد إلى شرع أو هداية إلى حق.

ومن بقي لله عليه حق لم يباشر خلاصة التحقيق سره لله.

وأصل الدين إيثار حق الحق على حق الخلق، فمن أثر على الله - سبحانه أحداً إمّا والدأ أو أمأ أو ولدأ أو قريباً أو نسيباً، أو أذخر عنه نصيباً فهو بمعزل عن القيام بالقسط.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

يا أيها الذين آمنوا من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن تؤمنوا من حيث الكشف والعيان.

ويقال يا أيها الذين آمنوا تصديقاً آمنوا تحقيقاً بأن نجاتكم بفضله لا بإيمانكم.

ويقال يا أيها الذين آمنوا في الحال آمنوا باستدامة الإيمان إلى المآل.

ويقال يا أيها الذين آمنوا وراء كل وصل وفصل ووجد وفقد.

ويقال يا أيها الذين آمنوا باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا أنختم بعقوة الوصول، واستمكنت منكم حيرة البديهة وغلطات الذهول ثم أفقتم عن تلك الغيبة فآمنوا أن الذي كان غالباً عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات فإن الصمدية منزهة متقدسة عن كل قرب وبعد، ووصل وفصل.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَّهِ يَكُنِ اللَّهُ لِعِيفَةِ لَكُم وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا بُشِّرِ الْمُتَوَفِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الذين تبدلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم، أولئك الذين قصمتهم سطوة العزة حكماً، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالاً - فالحق سبحانه لا يهديهم لقصد، ولا يدلهم على رشد، فبشرهم بالفُرقة الأبدية، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية^(١).

(١) السُرمَد: الدائم الذي لا ينقطع.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْذَرْتُمُوهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

من اعتصم بمخلوق فقد التجأ إلى غير مُجير، واستند إلى غير كهف، وسقط في مهواة من الغلط بعيد قعرها، شديد مكرها. أيبغون العِزَّ عند الذي أصابه ذلُّ التكوين؟! متى يكون له عزٌّ على التحقيق؟ ومن لا عزُّ له يلزمه فكيف يكون له عز يتعدى إلى غيره؟

ويقال لا ندري أي حالتهم أقبح: طلب العز وهم في ذل القهر وأسر القبضة أم حسابان ذلك وتوهمه من غير الله؟

ويقال مَنْ طَلَبَ الشيء من غير وجهه فالإخفاق غاية جهده، ومن رام الغنى في مواطن الفاقة فالإملاق قصارى كده.

ويقال لو هُذُوا بوجدان العِزِّ لما صُرِفَتْ قُصُودُهُمْ إلى من ليس بيده شيء من الأمر.

قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ العِزُّ على قسمين: عزٌّ قديم فهو لله وصفاً، وعزٌّ حادث يختص به سبحانه من يشاء فهو له - تعالى - ملكاً ومنه لطفاً.

قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية: لا تجاوروا أرباب الوحشة فإن ظلمات أنفسهم تتعدى إلى قلوبكم عند استنشاقكم ما يَرُدُّون من أنفاسهم، فمن كان بوصفٍ ما متحققاً شاركة حاضره فيه؛ فجليسٌ مَنْ هو في أنسٍ مستأنسٍ، وجليسٌ من هو في ظلمةٍ مستوحشٍ.

ويقال هجران أعداء الحق فرض، ومخالفة الأضداد ومفارقتهم دين، والركون إلى أصحاب الغفلة قرع باب الفرقه.

قوله: ﴿إِذْ أَنْذَرْتُمُوهُمْ﴾: أوضح برهان على سريرة (.....) (١) صحبة من يقارنه وعشرة مَنْ يخادنه؛ فالشكل مقيد بشكله، والفرع متشيز عن أصله.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلُ الْغَيْبِ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ أَلْفٌ وَفَرِحْتُمْ بِمَا أُوتِيتُمْ وَالْكَافِرِينَ تَصِيبُ الْآلَاءُ نَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ أَنْ يَتَّبِعُنَا وَمَنْ يَتَّبِعُنَا فَسَوْفَ نَبْتَلِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

لَمَّا عَدِمُوا الْإِخْلَاصَ فِي الْحَقِيقَةِ، وَمَا ذُقُوا فِيمَا اسْتَشْعَرُوا مِنَ الْعَقِيدَةِ،
 اِمْتَاذُوا^(١) عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحُكْمِ، وَبَايَنُوا الْكَافِرِينَ فِي الْأَسْمِ، وَوَجِبَ عَلَى أَهْلِ
 الْحَقِّ التَّحَرُّزُ عَنْهُمْ وَالتَّحَفُّظُ مِنْهُمْ، ثُمَّ ضَمَّنَ لَهُمْ - سُبْحَانَهُ - جَمِيلَ الْكَفَايَةِ بِقَوْلِهِ:
 ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وَهَذَا عَلَى الْعُمُومِ؛ فَإِنْ وَبَالَ كَيْدِهِمْ إِلَيْهِمْ
 مَصْرُوفٌ، وَجِزَاءٌ مَكْرَهُمْ عَلَيْهِمْ مَوْقُوفٌ، وَالْحَقُّ - مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ - مَنْصُورٌ
 أَهْلُهُ، وَالْبَاطِلُ - بِنَصْرِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ - مُجْتَنًى أَصْلُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
 كَسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُدَّبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ
 يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

خداع المنافقين: إظهار الوفاق في الطريقة واستشعار الشريك في العقيدة.

وخداع الحق إياهم: ما توهموه من الخلاص، وحكموا به لأنفسهم من
 استحقاق الاختصاص، فإذا كُشِفَ الغطاء أيقنوا أن الذي ظنوه شراباً كان سراباً، قال
 تعالى: ﴿وَبَدَّلَ لَهُمُ رَبُّكَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا﴾ الآية: علامة النفاق وجود النشاط عند
 شهود الخلق، وفطور العزم عند فوات رؤية الخلق.

وقوله: ﴿مُدَّبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الآية: أَحْسُ الْخَلْقِ مَنْ يَدْعُ صِدَارَ الْعُبُودِيَّةِ، وَلَمْ
 يَجِدْ سَبِيلًا إِلَى حَقِيقَةِ الْحَرِيَّةِ^(٢)، فَلَا لَهُ مِنَ الْعِزِّ شُطْبِيَّةٌ، وَلَا فِي الْغَفْلَةِ عَيْشَةٌ هَنِئَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَنْخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
 أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

كُرِّرَ عَلَيْهِمُ الْوَعْدُ، وَأُكِّدَ بِمُبَايَنَةِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، إِبْلَاغاً فِي الْإِنْذَارِ،
 وَتَغْلِيظاً فِي الزَّجْرِ، وَالْزَاماً لِلْحُجَّةِ (...)^(٣) مَوْضِعُ الْعُذْرِ.

قوله: ﴿أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: تَوَعَّدَهُمْ عَلَى مَوَالَاتِهِمْ
 لِلْكَفَّارِ بِمَا لَمْ يَتَوَعَّدْ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَخَالَفَاتِ، لَمَا فِيهِ مِنْ إِثَارِ الْغَيْرِ عَلَى الْمَعْبُودِ؛
 وَإِثَارُ الْغَيْرِ عَلَى الْمَحْبُوبِ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ فِي أَحْكَامِ الْوُدَادِ. فَإِذَا شَغَلَ مِنْ قَلْبِهِ

(١) امتاذا الشيء: اعتزل وانفرد، أو بان من غيره لا يختلط ولا يلتبس.

(٢) قال القشيري برمائه: إن الحرية تتحدد في أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات ولا يجري عليه سلطان المكونات، وعلامة صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء، فتتساوى عنده أخطار الإعراض. (الرسالة القشيرية ص ٢١٨ - ٢١٩).

(٣) بياض في الأصل.

محلاً - كان للمؤمنين - بالأغيار استوجب ذلك العقوبة فكيف إذا شغل محلاً من قلبه - هو للحق - بالغير؟!

والعقوبة التي تَوَعَّدَهُم بِهَا أَنْ يَكْلَهُمْ وما اختاروه من موالاة الكفار، وبش البدل! كذلك مَنْ بقي عن الحق تركه مع الخَلْق؛ فيتضاعف عليه البلاء للبقاء عن الحق والبقاء مع الخلق، وكلاهما شديدٌ مِنَ العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

دَلَّتْ الآية على أَنَّ المنافق ليس بِمُسْتَأْمِنٍ لِأَنَّ الإيمان ما يوجب الأمان، فالمؤمن يتخلَّص بإيمانه من النار، فما يكون سبب وقوعه في الدرك الأسفل من النار لا يكون إيماناً، ويقال هذا تحقيق قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمُنْكَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤، والأنفال: ٣٠] أي مَكْرُهُ فوق كل مَكْرٍ. لَمَّا أظهر المنافق ما هو مكر مع المؤمنين كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر بكفره.

ويقال نقلهم في آجلهم إلى أشد ما هم عليه في عاجلهم، لِمَا في الخبر: «من كان بحالة لقي الله بها» فالمنافق - اليوم - في الدرك - الأسفل من الحجر - فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار. والدرك الأسفل من الحجر - اليوم - لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية وهذا هو البلاء الأكبر.

ويقال استوجبوا الدرك الأسفل من النار لأنهم صحبوا اليوم اسم الله الأعظم لا على طريقة الحرمة. ويقال استوجبوا ذلك لأنهم أساءوا الأدب في حال حضورهم بالستهم، وسوء الأدب يوجبُ الطرد.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لم يشترط كل هذه الشرائط في رجوع أحدٍ عن جُزْئِهِ ما اشترط في رجوع المنافقين عن نفاقهم لصعوبة حالهم في كفرهم. وبعد تحصيلهم هذه الشروط قال لهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل من المؤمنين، وفي هذا إشارة أيضاً إلى نقصان رتبهم وإن تداركوا بإخلاصهم ما سبق من آفتهم، وفي معناه أنشدوا:

والعُذر مبسوطٌ ولكنما شتان بين العذر والشكر

ويقال إن حرف (مع) للمصاحبة، فإذا كانوا مع المؤمنين استوجبوا ما يستوجب جماعة المؤمنين، فالتوبة ههنا أي رجعوا عن نفاقهم، وأصلحوا - بصدقهم في إيمانهم، واعتصموا بالله بالتبرؤ من حولهم وقوتهم، وشاهدوا المِثَّةَ لله عليهم حيث هداهم، وعن نفاقهم نجاهم.

قوله: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾: ونجاتهم بفضل ربهم لا بإيمانهم في الحال، ورجوعهم عن نفاقهم فيما مضى عليهم من الأحوال.

ويقال أخلصوا دينهم لله وهو دوام الاستعانة بالله في أن يشبتهم على الإيمان، ويعصمهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من النفاق.

ويقال: تابوا عن النفاق، وأصلحوا بالإخلاص في الاعتقاد، واعتصموا بالله باستدعاء التوفيق وأخلصوا دينهم لله في أن نجاتهم بفضل الله ولطفه لا بإتيانهم بهذه الأشياء - في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

هذه الآية من الآيات التي توجب حُسْنَ الرجاء وقوة الأمل، لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبات شيئين اثنين: الشكر والإيمان، وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان؛ فإن الشكر حالة، والإيمان حالة، ولقد هوّن السبيل على العبد حين رضي منه بقلته وحالته. والشكر لا يصح إلا من المؤمنين فأما الكافر فلا يصح منه الشكر؛ لأن الشكر طاعته والطاعة لا تصح من غير المؤمن.

وقوله: ﴿وَءَامَنْتُمْ﴾ يعني في المال؛ فكأنه بيّن أن النجاة إنما تكون لمن كانت عاقبته على الإيمان، فمعنى الآية لا يعذبكم الله عذاب التخليد، إن شكرتم في الحال وآمتم في المال.

ويقال: إن شكرتم وآمتم صدقتم بأن نجاتكم بالله لا بشركم وبإيمانكم. ويقال الشكر شهود النعمة من الله والإيمان رؤية الله في النعمة، فكأنه قال: إن شاهدتم النعمة من الله فلا يقطعكنم شهودها عن شهود المنعم.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي والله شاكر عليم، ومعنى كونه شاكرًا أنه مَادِحٌ للعبد ومُشْهِدٌ عليه فيما يفعله لأن حقيقة الشكر وحْدَهُ الثناء على الْمُخْسِنِ بذكر إحسانه؛ فالعبد يشكر الله أي يشني عليه بذكر إحسانه إليه الذي هو نعمته عليه، والرب يشكر للعبد أن يشني عليه بذكر إحسانه الذي هو طاعته له، فإن الله يشني عليه بما يفعله من الطاعة مع علمه بأن له ذنوباً كثيرة.

ويقال يشكره - وإن عَلِمَ أنه سيرجع في المستأنف إلى قبيح أعماله. ويقال يشكره لأنه يعلم ضعفه، ويقال يشكره لأنه يعلم أنه لا يعصي وقصده مخالفة ربه ولكنه يُذَيَّبُ لاستيلاء أحوال البشرية عليه من شهوات غالبية. ويقال يشكره لأن العبد يعلم في حالة ذنوبه أنه له رباً يغفر له.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا عَلِيمًا﴾.

قول المظلوم في ظالمه - على وجه الإذن له - ليس بسوء في الحقيقة، لكنه يصح وقوع لفظة السوء عليه كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والجزاء ليس بسيئة.

ويقال مَنْ عَلِمَ أن مولاه يسمع استحيا من النطق بكثير مما تدعو نفسه إليه. ويقال الجهر بالسوء هو ما تسمعه نفسك منك فيما تحدث في نفسك من مساءة الخلق؛ فإن الخواص يحاسبون على ما يتحدثون في أنفسهم بما (يعد) لا يطالب به كثير من العوام فيما يسمع منهم الناس. قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾: قيل ولا من ظلم. وقيل معناه ولكن مَنْ ظلمَ فله أن يذكر ظالمه بالسوء.

ويقال من لم يؤثّر مدح الحق على القذح^(١) في الخلق فهو المغبون في الحال. ويقال من طالع الخلق بعين الإضافة إلى الحق بأنهم عبيد الله لم يبسط فيهم لسان اللوم؛ يقول الرجل لصاحبه: «أنا أحتمل من (...)»^(٢) خدمتك لك ما لا أحتمله من ولدي، فإذا كان مثل هذا معهوداً بين الخلق فالعبد ي مراعاة هذا الأدب - بينه وبين مولاه - أولى.

ويقال لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من العوام، ولا يحب ذلك بخطوره من الخواص.

ويقال الجهر بالسوء من القول من العوام أن يقول في صفة الله ما لم يرذ به الإذن والتوفيق.

والجهر بالسوء من القول في صفة الخلق أن تقول ما ورد الشرع بالمنع منه، وتقول في صفة الحق ما لا يتصف به فإنك تكون فيه كاذباً، وفي صفة الخلق عن الخواص ما اتصفوا به من النقصان - وإن كنت فيه صادقاً.

قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا عَلِيمًا﴾: سميعاً لأقوالكم، عليمٌ بعيوبكم، يعني لا تقولوا للأغيار ما تعلمون أنكم بمشابهتم.

ويقال سميعاً لأقوالكم عليماً ببراءة ساحة مَنْ تَقَوْلْتُمْ عليه، فيكون فيه تهديد للقاتل - لبريء الساحة - بما يتقوّل عليه.

(٢) بياض في الأصل.

(١) القذح: الطعن والذم.

ويقال سميعاً: أيها الظالم، عليمّاً: أيها المظلوم؛ تهديدٌ لهؤلاء وتبشيرٌ لهؤلاء.
 قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.
 ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ تخلقاً بأداب الشريعة، وتخفوه تحقّقاً بأحكام الحقيقة.
 ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ﴾ أخذاً من الله ما ندبكم إليه من محاسن الخلق.
 ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ لعبوبكم ﴿قَدِيرًا﴾ على تحصيل محبوبكم وتحقيق مطلوبكم.
 ويقال إن تبدوا خيراً لتكونوا للناس قدوة فيما تُسْتُون وما تعينون غيركم على ما يُهْدُونَ به من سلوك سُئْتكم، وإن تخفوه اكتفاءً بعلمه، وصيانةً لنفوسكم عن آفات التصنّع، وثقةً بأن من تعملون له يرى ذلك ويعلمه منكم، وإن تعفوا عن سوءٍ أي تركوا ما تدعوكم إليه نفوسكم فالله يجازيكم بعفوه على ما تفعلون، وهو قادر على أن يتليكم بما ابتلى به الظالم، فيكون تحذيراً لهم من أن يغفلوا عن شهود المنة، وتنبهاً على أن يستعيذوا أن يُسلبوا العصمة، وأن يُخَذَّلُوا حتى يقعوا في الفتنة والمحنة.
 ويقال إن تبدوا خيراً فتحسنوا إلى الناس، أو تخفوه بأن تدعوا لهم في السرّ، أو تعفوا عن سوءٍ إن ظلمتم.

ويقال من أحسن إليك فأبد معه خيراً جهراً، ومن كفاك شره فأخلص بالولاء والدعاء له سراً، ومن أساء إليك فاعف عنه كرمًا وفضلاً؛ تجذ من الله عفوه عنك عما ارتكبت، فإن ذنوبك أكثر، وهو قادر على أن يُعطيك من الفضل والإنعام ما لا تصل إليه بالانتصاف من خصمك، وما تجده بالانتقام.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

أخبر عنهم أنهم أضافوا إلى قبيح كفرهم ما عُدَّ من ذميم فعلهم، ثم بيّن أنه ضاعف من عذابهم ما كان جزاء جرمهم، لتعلم أنه لأهل الفساد بالمرصاد.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾.

لما آمنوا بجميع الرسل، وصدقوا في جميع ما أمروا به استوجبوا القبول وحسن الجزاء. وتقاصر الإيمان عن بعض الأعيان كتقاصره عن بعض الأزمان، فكما أنه لا يقبل إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع (...)(١) إلى آخر ما له - كذلك لا يقبل

(١) بياض في الأصل.

إيمان من لم يستغفر إيمانه جميع من أُمِرَ بالإيمان به؛ إذ جعل ذلك شرط تحقيقه وكماله. فالإشارة في هذا أن من لم يخرج عن عهدة الإلزام بالكلية فليس له من حقيقة الوصل شظية، قال ﷺ: «الحجُّ عرفة»^(١) فمن قطع المسافة - وإن كان من فج عميق - ثم بقي عن عرفات^(٢) بأدنى بقية لم يُدرك الحج.

وقال ﷺ: «المكاتبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم»^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّوَاعِقُ يَطْلِمُهُمْ ثُمَّ أَتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُسْلِمُونَ سُلْطَنًا مُّبِينًا﴾.

اشتملت الآية على جنسين من قبيح ما فعلوه: أحدهما سؤالهم الرؤية والثاني عبادة العجل بعدما ظهرت لهم الآيات الباهرة.

فأما سؤالهم الرؤية فذموا عليه لأنهم اقترحوا عليه ذلك بعد ما قطع عذرهم بإقامة المعجزات، ثم طلبوا الرؤية لا على وجه التعليم، أو على موجب التصديق به، أو على ما تحملهم عليه شدة الاشتياق، وكل ذلك سوء أدب.

الإشارة فيه أيضاً أن مَنْ يكتفي بأن يكون العجلُ معبوده - متى - يسلم له أن يكون الحقُّ مشهوده؟.

ويقال القومُ لم يبايئوا العرفانُ أسرارهم فلذلك عكفوا بقولهم^(٤) على ما يليق بهم من محدودٍ جوَّزوا أن يكون معبودهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَنًا مُّبِينًا﴾.

حجة ظاهرة، بل تفرداً صائمه من التمثيل والتعطيل.

والسلطان المبين التحصيل والتنزيه المانع من التعطيل والتشبيه.

(١) أخرجه أبو داود في السنن (المناكب ب٦٩)، والترمذي في (السنن ٨٨٩)، والنسائي في (السنن ٥/ ٢٥٦، ٢٦٤)، وابن ماجه في (السنن ٣٠١٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٥٢/ ٥ - ١٧٣) والحاكم في (المستدرک ١/ ٢٦٤، ٢/ ٢٧٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ٩٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٤/ ٢٥٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤/ ٢٨٩)، والزيلعي في (نصب الراية ٣/ ٩٢، ٩٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٢/ ٢٥٥)، وابن الجوزي في (زاد المسير ١/ ٢١٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٢٠٦١، ١٢٠٦٥)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ١١١، ٥/ ٢٤٢)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٨٢٢)، والعقيلي في (الضعفاء ٢/ ٣٢) والمجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٤٠)، والدارقطني في (السنن ٢/ ٢٤١).

(٢) عرفات: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة.

(٣) أخرجه أبو داود (عتاق، ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

(٤) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٧٨.

ويقال السلطان المبين القوة بسماع الخطاب من غير واسطة .
ويقال السلطان المبين لهذه الأمة غداً، وهو بقاؤهم في حال لقائهم - قال ﷺ :
« لا تضامون في رؤيته »^(١) - في خبر الرؤية .

قوله جل ذكره: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ .

ما زادهم في الظاهر آية إلا زادوا في قلوبهم جحداً ونكراً، فلم تنفعهم زيادة نصيب الإعلام؛ لما لم تنفتح لشهودها بصائر قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَمَا تَعْنِي الْأَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] .

قوله جل ذكره: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ بِمِثْقِهِمْ وَكَفَرِهِمْ بَيَّانَتِ اللَّهُ وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِخَيْرٍ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

معناه لارتكابهم هذه المناهي، ولاتصافهم بهذه المخازي، أحللتناهم منازل الهوان، وأنزلنا بهم من العقوبة فنون الألوان .

ويقال لِحَقِّهِمْ شُؤْمُ المخالفات حالة بعد حالة، لأن من عقوبات المعاصي الخذلان لغيرها من ارتكاب المناهي؛ فَبِتَقْضِهِمِ الميثاق، ثم لم يتوبوا، جرَّهم إلى كفرهم بالآيات، ثم لشُؤْمِ كفرهم خذِلُوا حتى قتلوا أنبياءهم - عليهم السلام - بغير حق، ثم لشُؤْمِ ذلك تجاسروا حتى ادَّعوا شدة التفهُّم، وقالوا: قلوبنا أوعية العلوم، فَرَدَّ الله عليهم وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فَحَجَبَهُمْ عن محلِّ العرفان، فعمهوا في ضلالتهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الْقُلُوبِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

مجاورة الحدِّ ضلالاً، كما أن النقصان والتقصير عن الحقِّ ضلالاً، فقومٌ تَقَوَّلُوا على مريم ورموها بالزنا، وآخرون جاوزوا الحدَّ في تعظيمها فقالوا: ابنتها ابنُ الله، وكلا الطائفتين وقعوا في الضلال .

ويقال مريم - رضي الله عنها - كانت وليَّة الله، فَشَقِيَ بها فرقتان: أهل الإفراط وأهل التفريط . وكذلك كان أولياؤه - سبحانه - فمُنْكَرُهُمْ يَشْقَى بِتَرْكِ احترامهم،

(١) أخرجه مسلم (مساجد ٢١١)، والبخاري (توحيد ٢٤)، (مواقيت ١٦، ٢٦)، (تفسير سورة ٥٠، ٢)، وأبو داود (سنة ١٩)، والترمذي (جنة ١٦، ١٧)، وابن ماجه (مقدمة ١٣)، وأحمد بن حنبل ٤، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥ .

والذين يعتقدون فيهم ما لا يستوجبونه يَشْقَوْنَ بالزيادة في إعظامهم، وعلى هذه الجملة دَرَجَ الأكثرون من الأكابر.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْنَاءَ الظَّالِمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ قيل أوقع الله شُبَّهُه على الساعي به فقتل وصلب مكانه، وقد قيل: مَنْ حفر بئراً لأخيه وقع فيها.

وقيل إن عيسى عليه السلام قال: مَنْ رَضِيَ بَأْسَ يُلْقَى عليه شُبِّهِي فيقتل دوني فله الجنة، فرضي به بعض أصحابه، فيقال لما صبر على مقاساة التلف لم يعدم من الله الخلف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ويقال لما صَحَّتْ صحبة الرجل مع عيسى - عليه السلام - بِنَفْسِهِ صَحْبَهُ بروحه، فلما رُفِعَ عيسى - عليه السلام - إلى محل الزلفة، رفع روح هذا الذي فداه بنفسه إلى محل القربة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

لما حكم بأن لا أمان لهم في وقت اليأس لم ينفعهم الإيمان في تلك الحالة، فعُلِمَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِأَمَانِ الْحَقِّ لا بإيمان العبد.

قوله جل ذكره: ﴿فَيُظَاهَرُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبَصَدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْبَهُمْ آمُولُ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يقال ارتكاب المحظورات يوجب تحريم المباحات.

فَمَنْ ركب محظوراً بظاهره حُرِمَ ما كان يجده من الأحوال المباحة، والألطف الحاصلة في سرائره.

قوله جل ذكره: ﴿لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتِينَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الراسخ في العلم هو ألا يكون في الدليل مُقْلَدًا، كما لا يكون في الحكم مُقْلَدًا، بل يضع النظر موضعه إلى أن ينتهي إلى حد لا يكون للشك في عقله مساغ.

ويقال الراسخ في العلم من يرتقي عن حد تأمل البرهان ويصل إلى حقائق البيان.

ويقال الراسخ في العلم أن يكون بعلمه عاملاً حتى يفيد علم ما خفي على غيره، ففي الخبر: «من عمل بما علمه ورثه الله علم ما لم يعلم».

وخصّ ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ في الإعراب فنصب اللفظ بإضمار أعني على المدح لِمَا للصلاة من التخصيص من بين العبادات لأنها تالية الإيمان في أكثر المواضع في القرآن، ولأن الله - سبحانه - أمر الرسول ﷺ (بها) ^(١) ليلة المعراج ^(٢) بغير واسطة جبريل عليه السلام... وغير هذا من الوجوه.

قوله تعالى ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾: الأجر العظيم هو الذي يزيد على قدر الاستحقاق بالعمل.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زُكْرًا﴾.

إفراد النبي ﷺ من الأنبياء بالإيمان لإفرادهم بالتخصيص والفضيلة؛ فأفرد نوحاً على ما استحقه من المقام وأفرد رسولنا عليه السلام على ما استحقه هو، فاشتركا في الأفراد لكنهما تباينا في الفضيلة على حسب المقام، فتفرد واحد من بين أشكاله بغير فضائل، وتفرد آخر من بين أضرابه بألف فضيلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

سنة الله في أوليائه ستر قوم، وشهر قوم، وبذلك جرت سنته أيضاً في الأنبياء - عليهم السلام - أظهر أسماء قوم وأجمل تفصيل آخرين. والإيمان واجب بجميع الأنبياء جملة وتفصيلاً، كما أن الاحترام واجب لجميع الأولياء جملة وتفصيلاً، وكذلك أحوال العباد ستر عليهم بعضاً وأظهر لهم بعضها، فما أظهرها لهم - طالبهم بالإخلاص فيها، وما سترها عليهم - فلا نه غار ^(٣) على قلوبهم من ملاحظة أحوالهم تأهيلاً لهم للاختصاص بحقائق أفردهم بمعانيها.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) المعراج: ما عرج عليه النبي ﷺ ليلة الإسراء.

(٣) جاء في حديث القشيري عن الغيرة: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أغبر من الله تعالى، ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار وغيره الله تعالى أن يأتي العبد المؤمن ما حرم الله تعالى عليه». فالغيرة كراهية مشاركة الآخرين، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة غيره معه، فيما هو حق له من طاعة عبده. (الرسالة القشيرية ص ٢٥٤ - ٢٥٥).

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾: إخبار عن تخصيصه إياه باستماع كلامه بلا واسطة.
قوله جل ذكره: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

وقَفَ الخلق عند مقاديرهم؛ وبين أنه أرسل إليهم الرسل فتفردوا عليهم إلى اجتباء ثوابهم، واجتناب ما فيه استحقاق عذابهم، وأنه ليس للخلق سبيل إلى راحة يطلبونها ولا إلى آفة يجتنبونها إما في الحال أو في المآل.

قوله جل ذكره: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.
أنى يكون لمن له إلى الله حاجة على الله حجة؟! ولكن الله خاطبهم على حسب عقولهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلُهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

سأله الله عن تكذيب الخلق إياه بما ذكره من علم الله بصدقه، ولذلك قال:
﴿وكفى بالله شهيدًا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُمْ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

جعل صدهم المؤمنين من اتباع الحق كفرهم بالله، والله تعالى عظم حقوق أوليائه كتعظيم حق نفسه، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا﴾ جعل ظلمهم سبيل كفرهم، فعلق استحقاق العقوبة المؤبدة عليها جميعاً. والظلم - وإن لم يكن كالكفر في استحقاق وعيد الأبد - فليشؤم الظلم لا يبعد أن يخذله الله حتى يوافي ربه على الكفر.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: أخبر أنه سبحانه غني عنهم، فإن آمنوا فحفظوا أنفسهم اكتسبوها وإن كفروا فبلايأهم لأنفسهم اجتلبوها. والحق - تعالى - منزّه الوصف عن (الجهل) لوفاق أحد، والنقص لخلاف أحد.

قوله: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني إن خرجوا عن استعمال العبودية - فعلاً، لم يخرجوا عن حقيقة كونهم عبيده - خلقاً، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

غُلُّوهم في دينهم جَزَيْهِم على مقتضى حسابانهم؛ حيث وصفوا - بمشابهة الخلق - معبودهم، ثم مناقضتهم؛ حيث قالوا الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، والتمادي في الباطل لا يزيد غير الباطل.

قوله جل ذكره: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْمِلُهُ إِلَهِهِ جِيعًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

كيف يستنكف عن عبوديته وبالعبودية شرفه، وكيف يستكبر عن التذلل وفي استكباره تَلَفُّه، ولهذا الشأن نطق المسيح أول ما نطق بقوله: إني عبد الله، وتجمل العبيد في التذلل للسادة، هذا معلوم لا تدخله ريبه.

وقوله: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ لا يدل على أنهم أفضل من المسيح، لأنه إنما خاطبهم على حسب عقائدهم، والقوم اعتقدوا تفضيل الملائكة على بني آدم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

العذاب الأليم ألا يصلوا إليه أبداً بعدما عرفوا جلاله، فإذا صارت معارفهم ضرورة فإنهم يعرفون أنهم عنه بقوا، فَحَسَرَاتِهِمْ حيثُذ على ما فاتهم أشد عقوبة لهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

البرهان ما لاح في سرائرهم من شواهد الحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ تُورًا مُبِينًا﴾.

وهو خطابه الذي في تأملهم معانيه حصول استبصارهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَاسَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُخِّدْلَهُمْ فِي رَحْمَتِي وَنَتْنُهُ وَقَصِّلْ﴾.

﴿فَسُخِّدْلَهُمْ فِي رَحْمَتِي﴾: والسين للاستقبال أي يحفظ عليهم إيمانهم في المال عند التوفي، كما أكرمهم بالعرفان والإيمان في الحال.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

هذه الهداية هي إكرامهم بأن عرفوا أن هذه الهداية من الله فضل لا لأنهم استوجبوها بطلبهم وجهدهم، ولا بتعبهم وكدهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرْتُكُمْ هَلْكَ لَيْسَ لَكُمْ وَلَدٌ وَلَكُمْ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا اثْنَتَيْنِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قطع الخصومة بينهم في قسمة الميراث فيما أظهر لهم من النص على الحكم، فإن المال محبب إلى الإنسان، وجبِلَت النفوس على الشح؛ فلو لم ينص على مقادير الاستحقاق (لقابله الأشباه) في الاجتهاد، فكان يؤدي ذلك إلى التجاذب والتواثب؛ فَحَسَمَ تلك الجملة بما نص على المقادير في الميراث قطعاً للخصام. ولتوريثه للنسوان - وإن لم يوجد منهن الذب عن العشيرة - دلالة على النظر لضعفهن. وفي تفضيل الذكور عليهن لِمَا عليهم مِنْ حَمْلِ الْمُؤْن وكذا السعي في تحصيل المال، والقيام عليهن.

السورة التي تذكر فيها المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَمِعُ اسم الله يُوجِبُ الهيبة، (والهيبة)^(١) تتضمن الفناء والغيبة، وسماع الرحمن الرحيم يوجب الحضور والأوبة، والحضور يتضمن البقاء والقربة.

فمن أسمع «بسم الله» أدهشه في كشف جلاله، ومن أسمع «الرحمن الرحيم» عَيْشه يُلْطِفُ أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

«يا» حرف نداء، و «أي» اسم منادى، «ها» تنبيه و ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صلة المنادى. ناداهم قبل أن بداهم، وسمّاهم قبل أن يراهم، وأهلهم في آزاله لِمَا أوصلهم إليه في آباه.

شَرَّفهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكَلَّفهم بقوله ﴿أوفوا﴾ ولَمَّا عَلِمَ أن التكليف يوجب المشقة قَدَّمَ التشريف بالثناء على التكليف الموجب للعناء.

ويقال الإيمانُ صنفان: أحدهما يشير إلى عين الجود، والثاني إلى بذل المجهود. فَبَذَلَ المجهودَ خِدْمَتَكَ، وعين الجود قِسْمَتُهُ؛ فبخدمتك عناء الأشباح، وبقسمته ضياء الأرواح.

وحقيقة الإيمان تحقق القلب بما أخبر من الغيب.

ويقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يا مَنْ دخلوا في إيماني، ما وصلتكم إلا أمانى إلا بسابق إحساني. ويقال يا مَنْ فتحتُ بصيرتَهُم لشهود حقي حتى لا يكونوا كمن أعرضت عنهم مِنْ خَلْقِي.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

كُلُّ مُكَلَّفٍ مُطَالَبٌ بالوفاء بعقده، والعقد، ما ألزمك بسابق إيجابه، ثم وفَّقك -

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

بعدما أظهر ك عند خطابه - بجوابه^(١)، فانبرم العقد بحصول الخطاب، والقبول بالجواب.

ويدخل في ذلك - بل يلتحق به - ما عَقَدَ القلبُ معه سِرًّا سِرًّا؛ من خلوص له أضمره، أو شيء تبيَّنه، أو معنى كُشِفَ به أو طُوبِ به فقبَّله.

ويقال الوفاء بالعهد بصفاء القصد، ولا يكون ذلك إلا بالتبرِّي من المُنَّة، والتحقق بتولي الحق - سبحانه - بلطائف المِنَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

تحليل بعض الحيوانات وإباحتها من غير جُزْم سَبَقَ منها، وتحريم بعضها والمنع من ذبحها من غير طاعة حصلت منها - دليل على أَلَّا عِلَّةَ لصنعه.

وحُرْمَ الصيد على الْمُحَرَّم خصوصاً لأن الْمُحَرَّم متجرّد عن نصيب نفسه بقصده إليه، فالأليق بصفاته كُفُّ الأذى عن كل حيوان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

لا حَجَرَ عليه في أفعاله، فيخصّ من يشاء بالثغمي، ويفرد من يشاء بالبلوى؛ فهو يُنْضِي الأمور في آباده على حسب ما أراد وأخبر وقضى في آزاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُنَادِي السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْبُيُوتُ الْحَمْدَ لِلَّهِ مَا يَكُونُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ شَهِيدٌ﴾.

الشعائر معالم الدِّين، وتعظيم ذلك وإجلاله خلاصة الدين، ولا يكون ذلك إلا بالاستسلام عند هجوم التقدير، والتزام الأمر بجميل الاعتناق، وإخلال الشعائر (يكون) بالإخلال بالأوامر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا أَلْبَسْتَهُ الْحَرَامَ وَلَا أَلْبَسْتَهُ﴾.

تعظيم المكان الذي عظمه الله، وإكرام الزمان الذي أكرمه الله. وتشريف الإعلام على ما أمر به الله - هو المطلوب من العبيد أمراً، والمحبوب منه حالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا أَلْبَسْتَهُ الْحَرَامَ يَنْفَعُونَ فَضْلًا مِمَّنْ دَرَبَهُمْ وَرِضْوَانًا﴾.

وبالحري لمن يقصد البيت ألا يخالف ربّ البيت.

والابتغاء للفضل والرضوان بتوقّي موجبات السخط، ومجانبة العصيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُكُمْ أَنْ مَكُودَكُمْ عَنِ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾.

(١) يلمح هنا القشيري إلى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] شهدوا بذلك (اللسان ٣٠٤/٤).

وإذا خرجتم عن أمر حقوقنا فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم، فأما ما دمتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم، وإنكم لنا.

قوله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ...﴾ أي لا يحملكم بغض قوم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام على ألا تجاوزوا حد الإذن في الانتقام، أي كونوا قائمين بنا، متجربين عن كل نصيب وحظ لكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَعَاؤُا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾.

البرُّ فعل ما أمرت به، والتقوى ترك ما رُجرت عنه.

ويقال البرُّ إثارة حقه - سبحانه، والتقوى ترك حظك.

ويقال البرُّ موافقة الشرع، والتقوى مخالفة النفس.

ويقال المعاونة على البرِّ بخسني النصيحة وجميل الإشارة للمؤمنين، والمعاونة على التقوى بالقبض على أيدي الخطائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ وبلغ الزجر، وتامام المنع على ما يقتضيه شرط العلم.

والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعمل شيئاً مما يقتدى بك لا يرضاه الدين، فيكون قولك الذي تفعله ويقتدى بك (فيه) سئة تظهرها و (عليك) نبؤ وزرها. وكذلك المعاونة على البر والتقوى أي الاتصاف بجميل الخصال على الوجه الذي يقتدى بكل فيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

العقوبة ما تعقب الجرم بما يسوء صاحبه. وأشد العقوبة حجاب المعاقب عن شهود المعاقب؛ فإن تجرع كاسات البلاء بشهود المبلي أحلى من العسل والشهد.

قوله جل ذكره: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ﴾.

وأكل الميتة أن تتناول من عريض أخيك على وجه الغيبة، وليس ذلك مما فيه رخصة بحالٍ لا بالاضطرار ولا بالاختيار، وغير هذا من الميتة مباح في حال الضرورة.

ويقال كما أن في الحيوان ما يكون المزكى منه مباحاً والميتة منه حراماً وكذلك من ذبح نفسه بسكاكين المجاهدات وطهر نفسه - مباح قربه، حلال صحبته. ومن ماتت نفسه في ظلمة غفلته حتى لا إحساس له بالأمر الدينية فخبثته نفسه، محظور قربها، حرام معاشرته، غير مباركة صحبته.

وإن السلف سموا الدنيا خنزيرة، ورأوا أن ما يلهي قلبه، وينسي المعبود ركوته، ويحمل على العصيان جنوحه - فهو مُحَرَّمٌ على القلوب؛ ففي طريقة القوم

حب الدنيا حرام على القلوب، وإن كان إمساك بعضها حلالاً على الأبدان والنفوس.
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَهْلَ لَيْعٍ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَّةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ﴾.

كما أن المذبوح على غير اسمه ليس بطيب فمن بدل روحه فيه وجد روحه منه، ومن تهارشته^(١) كلاب الدنيا، وقلته مخالب الأطماع، وأسرت مطالب الأغراض والأعراض - فحرام ماله على أهل الحقائق في مذهب التعزز، فللشريعة الظرف والتقدير.

وأما المنخفة فالإشارة منه إلى الذي ارتبك في جبال المني والرغائب، وأخذ خناق الطمع، وخنقته سلاسل (الجزص) فحرام على السالكين سلوك خطتهم، ومحذور على المريدين متابعة مذهبيهم.

وأما الموقوذة فالإشارة منها إلى نفوس جُبلت على طلب الخسائس حتى استملكتها كلها فهي التي ذهبت بلا عوض حصل منها، وأمثال ذلك حرام على أهل هذه القصة.

والإشارة من المتردية إلى من هلك في أودية التفرقة، وعمي عن استبصار رشد الحقيقة؛ فهو يهيم في مفاوز الظنون، وينهك في متاهات المني.

والإشارة من النطيحة إلى من صارع الأمثال، وقارع الأشكال، وناطح كلاب الدنيا فحطموه بكل حرصهم، وهزموه بزيادة تكليهم، وكذلك الإشارة من:
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّيِّئُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

وأكلة السيئ ما ولغت^(٢) فيه كلاب الدنيا، فإن الدنيا جيفة، وأكله الجيف الكلاب ويستثنى منه المزكى وهو ما تقرر من متاع الدنيا لله؛ لأن زاد المؤمنين من الدنيا: ما كان لله فهو محمود، وما كان للنفس فهو مذموم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْقِمُوا بِالْأَزْلَرِ﴾.

فهو ما أُرْصِدَ لغير الله، ومقصود كل حريص - بموجب شرعه - معبوده من حيث هواه قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] يعني اتخذ هواه إلهه.

﴿وَأَنْ تَسْقِمُوا بِالْأَزْلَرِ﴾، الإشارة منه إلى كل معاملة ومُصاحبة بُنيَتْ على استجلاب الحظوظ الدنيوية - لا على وجه الإذن - إذ القمار ذلك معناه. وقلَّت المعاملات المجردة عن هذه الصفة فيما نحن فيه من الوقت.

(١) تهارشت الكلاب: توائت وتقاتلت.

(٢) ولغ الكلب وغيره من السباع في الإناء، ومنه، وبه: شرب ما فيه بطرف لسانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكُمْ فَتَنُّ﴾ .

أي إيثار هذه الأشياء انسلاخ عن الدين .

قوله جلّ ذكره: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ .

أي بعدما أَرَحْتُمْ عن قلوبكم آثار الحسبان، وتحققتم بأن المتفرد بالإبداع نحن فلا تلاحظوا سواي، ولا يُظَلِّلَنَّ قلوبكم إشفاقاً من غيري .

ويقال إذا كانت البصائر متحققة بأن النفع والضرر، والخير والشر لا تحصل شظية منها إلا بقدرة الحق - سبحانه، فمن المحال أن تنطوي - من مخلوق - على رَغَبٍ أو رَهَبٍ .

قوله جلّ ذكره: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

إكماله الدين - وقد أضافه إلى نفسه - صَوْنُهُ العقيدة عن النقصان؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أَمْلَها بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَهُ من غير تقصير، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور:

ويقال إكمال الدين تحقيقُ القَبُولِ في المَالِ، كما أن ابتداء الدين توفيقُ الحصول في الحال: فلولوا توفيقه لم يكن للدين حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول .

ويقال إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق - سبحانه - من أوصافه وقد عَلَّمَك .

ويقال إكمال الدين أن ما تقصر عنه عقلك من تعيين صفاته - على التفصيل - أكرمك بأن عَرَفَك ذلك من جهة الإخبار .

وإنما أراد بذكر ﴿الْيَوْمَ﴾ وقتَ نزول الآية . وتقييد الوقت في الخطاب بقوله ﴿الْيَوْمَ﴾ لا يعود إلى عين إكمال الدين، ولكن إلى تعريفنا ذلك الوقت .

والدين موهوبٌ ومطلوبٌ؛ فالمطلوب ما أمكن تحصيله، والموهوب ما سبق منه حصوله .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ .

النعمة - على الحقيقة - ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه والنعمة المذكورة ها هنا نعمة الدين، وإتمامها وفاء المَالِ، واقتران الغفران وحصوله . فإكمال الدين تحقيق المعرفة، وإتمام النعمة تحصيل المغفرة . وهذا خطاب لجماعة المسلمين، ولا شك في مغفرة جميع المؤمنين، وإنما الشك يعتري في الآحاد والأفراد هل يبقى على الإيمان؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

وذلك لما قَسَمَ لِلخَلْقِ أديانهم؛ فخصَّ قومًا باليهودية، وقومًا بالنصرانية، إلى غير ذلك من النحل والملل، وأفرد المسلمين بالتوحيد والغفران.

وقدَّمَ قومَ الإكمال على الإتمام، فقالوا: الإتمام يقبل الزيادة، فلذلك وَصَفَ به النعمة لقبول النعم للزيادة، ولا رتبة بعد الكمال فلذلك وصف به الدين.

ويقال لا فرق بين الدين والنعمة المذكورة ها هنا، وإنما ذُكِرَ بلفظين على جهة التأكيد، ثم أضافه إلى نفسه فقال: ﴿نِعْمَتِي﴾ وإلى العبد فقال: ﴿دِينَكُمْ﴾. فَوَجَّهَ إضافته إلى العبد من حيث الاكتساب، ووجه إضافته إلى نفسه من حيث الخلق.

فالدين من الله عطاء، ومن العبد عناء، وحقيقة الإسلام الإخلاص والانقياد والخضوع لجريان الحكم بلا نزاع في السر.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية أنه لو وقع لسالك فترة، أو لمريد في السلوك وقفة، ثم تنبَّه لعظيم وقاعة فبادر إلى جميع الرجعة باستشعار التحسّر على ما جرى تداركته الرحمة، ونظر الله - سبحانه - إليه بقبول الرجعة.

والإشارة من قوله ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي غير معرّج على الفترة، ولا مستديم لعقدة الإصرار، ويحتمل أن يكون معناه من نزل عن مطالبات الحقائق إلى رخص العلم لضعف وجده في الحال فربما تجري معه مُساهلة إذا لم يفسخ عقد الإرادة.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ وَأَقْوُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

لما علموا أن الحسن من أفعالهم ما ورد به الأمر وحصل فيه الإذن تعرّفوا ذلك من تفصيل الشرع، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ ثم قال:

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُتُ﴾ وهو الحلال الذي تحصل من تناوله طيبة القلوب فإنَّ أكل الحرام يُوجب قسوة القلب، والوحشة مقرونة بقسوة القلب، وضياء القلوب وطيب الأوقات متصل بصون الخلق عن تناول الحرام والشبهات.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾: ولما كان الكلب المُعلَّم ترك حظه، وأمسك ما اصطاده على صاحبه حلت فريسته، وجاز اقتناؤه، واستغرق في ذلك حكم خساسته فكذلك من كانت أعماله وأحواله لله - سبحانه - مختصة، ولا يشوبها حظ تجل رتبته وتعلو حالته.

ويقال حُسْنُ الأدب يُلْحِقُ الأخسة برتبة الأكابر، وسوء الأدب يَرُدُّ الأعزة إلى حالة الأصاغر.

ثم قال: ﴿وَاذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ عَلَّمَكُمْ﴾: بَيَّنَّ أَنَّ الْأَكْلَ - عَلَى الْغَفْلَةِ - غَيْرَ مَرْضِيٍّ عَنْهُ (فِي الْقِيَمَةِ).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ بحيث لا يشغله شأن عن شأن، وسريع الحساب - اليوم - مع الأحباب والأولياء، فهم لا يُسامحون في الخطوة ولا في اللحظة، معجِّل حسابهم، مُضَاعَفٌ - فِي الْوَقْتِ - ثَوَابُهُمْ وَعِقَابُهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الْكُفَرَاءِ وَأُولَئِكَ يَحْصَنُ الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا مَا اتَّيَسَّرَ مِنْ أَجْرِهِمْ يُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْكِنِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

ليس الطَّيِّبُ ما تستطيبه النفوس، ولكن الطيب ما يوجد فيه رضاء الحق - سبحانه - فتوجد عند ذلك راحة القلوب.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾: الْقَدْرُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْوِفَاقِ فِي إثبات الربوبية لم يَغَرَّ من أثر في القرية فقال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ﴾ [المائدة: ٨٢].

وكذلك الأمر في المحصنات من نسائهم. وأُحِلَّ الطَّعَامُ وَالذَّبِيحَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ من الوجهين فيحل لنا أكل ذبائحهم، ويجوز لنا أن نطعمهم من ذبائحنا، ولكن التزوج بنسائهم يجوز لنا، ولا يجوز تزوجهم بنسائنا لأن الإسلام يعلو ولا يُغْلَى.

ثم قال ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْكِنِينَ﴾ يعني إنهم وإن كانوا كفاراً فلا تجب صحبتهم بغير نكاح تعظيماً لأمر السُّفَاح، وتنبهاً على وجوب مراعاة الأمر من الحق. وكذلك ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ لأنه إذا لم يَجْزِ تعلق قلبك بالمؤمنين على وجه المخادنة^(١) فمتى يسلم ذلك مع الكفار الذين هم الأعداء؟

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

كما أن في الشريعة لا تصح الصلاة بغير الطهور فلا تصح - في الحقيقة - بغير طهور.

وكما أن للظاهر طهارة فللسرائر أيضاً طهارة، وطهارة الأبدان بماء السماء أي المطر، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل، ثم بماء الحياء والوجل.

(١) المخادنة: المصادقة.

وكما يجب غسلُ الوجه عند القيام إلى الصلاة يجب - في بيان الإشارة - صيانة الوجه عن التبذل للأشكال عن طلب خسائس الأعراض .
وكما يجب غسلُ اليدين في اليدين في الطهارة يجب قصرهما عن الحرام والشبهة .

وكما يجب مسحُ الرأس يجب صونه عن التواضع والخفض لكل أحد .
وكما يجب غسل الرجلين في الطهارة يجب صونهما في الطهارة الباطنة عن التنقل فيما لا يجوز .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهِّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ .

كما يقتضي غسل جميع البدن في الطهارة، كذلك في الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء؛ وذلك عندما تقع للمريد فترة فيقوم بتجديد عقد، وتأكيده عهد، والتزام عزيمة، وتسليم وقت، واستدامة ندامة، واستشعار خجل .

وكما أنه إذا لم يجد المتطهر الماء ففرضه التيمم فكذا إذا لم يجد المريد من يفيض عليه صوب همته، ويغسله ببركات إشارته، ويعينه بما يؤوب به من زيادة حالته - اشتغل بما تيسر له من اقتفاء آثارهم، والاستراحة إلى ما يجد من سالف سيرهم، وما ورد من حكاياتهم .

وكما أن فرض التيمم على الشطر والنقصان فكذا المطالبات على إصفاء هذه الحالة تكون أخف لأنه وقت الفترة وزمان الضعف .

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

وتلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقي المريد عن أحكام الإرادة فليخطط رجله بساحات العبادة، فإذا عديم اللطائف في سرائره فليستدِّم الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقق بأحكام الحقيقة فليخلق بآداب الشريعة، وإن لم يتخرج عن تزكته الفضيلة فلا يدنس تصرفه بالحرام والشبهة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ .

أي يظهر ظواهركم عن الزلة بعصمته، ويظهر قلوبكم عن الغفلة برحمته .
ويقال يطهر سرائركم عن ملاحظة الأشكال، ويظهر ظواهركم عن الوقوع في شباك الأشغال .

ويقال يطهر عقائدكم عن أن تتوهموا تدنس المقادير بالأعلال .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِيُثَبِّتَ يَمَنَّتَهُمْ عَلَيْكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

إتمام النعمة على قومٍ بنجاة نفوسهم، وعلى آخرين بنجاتهم عن نفوسهم، وشئان بين قوم وقوم!

ويقال إتمام النعمة في وفاء العاقبة؛ فإذا خرج من الدنيا على وصف العرفان والإيمان فقد ثمت سعادته، وصفت نعمته.

ويقال إتمام النعمة في شهود المنعم؛ فإن وجود النعمة لكل أحد ولكن إتمامها في شهود المنعم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾.

الإشارة منه إلى التعريف السابق الذي لولاه ما علمت أنه من هو.

ويقال أمرهم بتذكّر ما سبق لهم من القسَم وهم في كُثم العَدَم، فلا للأغيار عنهم خبر، ولا لهم عين ولا أثر، ولا وقع عليهم بصيرة، وقد سَمَّاهم بالإيمان، وحكم لهم بالغفران قبل حصول العصيان، ثم لما أظهرهم وأحياهم عرّفهم التوحيد قبل أن كلفهم الحدود، وعرض عليهم بعد ذلك الأمانة وحذرهم الخيانة، فقابلوا قوله بالتصديق، ووعدوا من أنفسهم الوفاء بشرط التحقيق، فأمدهم بحسن التوفيق، وثبتهم على الطريق، ثم شكرهم حيث أخبر عنهم بقوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: يعني في نقض ما أبرمتم من العقود، والرجوع عما قدمتم من العهود، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَايَ الصُّدُورِ﴾ لا يخفى عليه من خطرات قلوبكم ونيات صدوركم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

لا يُعَوِّقُكُمْ حصول نصيب لكم في شيء عن الوفاء لنا، والقيام بما يتوجب عليكم من حقنا.

ويقال من لم يقسط عند مواعد رغائبه، ولم يمح عنه نواجم شهواته ومطالبه لم يقيم لله بحق ولم يفي لواجباته بشرط.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي لا تحملكم ضغائن صدوركم على الحلول بجنبات الحيف فإن مرتع الظلم وبيء، ومواضع الزيف مهلكة.

ثم صرّح بالأمر بالعدل فقال: ﴿اعدلوا﴾ ولا تكون حقيقة العدل إلا بالعدول عن كل حظ ونصيب.

والعدلُ أقربُ إلى التقوى، والجَزُورُ أقربُ من الرَّذَى، ويوقِعُ عن قريبٍ في عظيمِ البَلَوِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

والمغفرة لا تكون إلا للذنوب، فوصفهم بالأعمال الصالحات، ثم وعدهم المغفرة ليُعْلَمَ أن العبد تكون له أعمال صالحة وإن كانت له ذنوب تحتاج إلى غفرانها، بخلاف ما تَوَهَّم مَنْ قال إن المعاصي تُخَبِّطُ الطاعات.

ويقال بيّن أن العبد وإن كانت له أعمال صالحة فإنه يحتاج إلى عَفْوِهِ وغفرانه، ولولا ذلك لَهَلَكَ، خلافاً لمن قال إنه لا يجوز أن يَعَذَّبَ البريء ويجب أن يثيب المحسنين.

ويقال لو كان ثوابُ المحسنين واجباً، وعقوبةُ البريء غيرَ حسنة لكان التجاوزُ عنه واجباً عليه، ولم يكن حيثنذ فضل يمن به عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

لهم عقوبتان: معجلة وهي الفراق، ومؤجلة وهي الاحتراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُورَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

يذكّرهم ما سلف لهم من نِعَمِ الدفع وهو ما قصر عنهم أيدي الأعداء، وذلك من أمارات العناية. ولقد بالغ في الإحسان إليك مَنْ كان يُظْهَرُ لك الغيب من غير التماسٍ أو سَبَقِ شفاعة فيك، أو رجاءٍ نفع من المستأنف منك، أو حصول ربح في الحال عليك، أو وجود حق في المستأنف لك.

ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني كما أحسنت إليكم في السالف من غير استحقاق فانتظروا جميل إحساني في الغابر من غير استيجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

يذكّرهم حُسْنَ أفضاله معهم، وقبح (فعلهم) في مقابلة إحسانه بتقصهم عهدهم. وعرف المؤمنين - تحذيراً لهم - ألا ينزلوا منزلتهم فيستوجبوا مثل ما استوجبوه من عقوبتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.

أي لئن قمتم بحقي لأوصلن إليكم حظوظكم، ولئن أجللتم أمري في العاجل لأجلن قذركم في الآجل.

وإقامة الصلاة أن تشهد من تعبد، ولذا قال النبي ﷺ: «اغبد الله كأنك تراه»^(١).

ويقال إقامة الصلاة شرطها أن تُقبل على ما من تناجيه بأن تستقبل القطر الذي الكعبة فيه.

وأما إيتاء الزكاة فحقه أن تكسب المال من وجه، وتصرفه في حقه، ولا تمنع الحق الواجب فيه عن أهله، ولا تؤخر الإيتاء عن وقته، ولا تُخرج الفقير إلى طلبه فإن الواجب عليك أن توصل ذلك إلى مستحقه.

وتعزيز الرسل الإيمان بهم على وجه الإجلال، واعتناق أمرهم بتمام الجِد والاستقلال، وإيثارهم عليك في جميع الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

الأغنياء ينفقون أموالهم في سبيل الله، والفقراء يبذلون مهجتهم وأرواحهم في طلب الله، (فأولئك) عن مائتي درهم يُخْرِجُونَ خَمْسَةَ، وهؤلاء لا يدخرون عن أمره نفساً ولا ذرة.

قوله جل ذكره: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَدَلْنَكُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

التكفير هو الستر والتغطية، وإنه يستر الذنوب حتى عن العاصي فيمحو من ديوانه، وينسي الحفظ سوائف عصيانه. وينفي عن قلبه تذكر ما أسلفه، ولا يوقفه في العرصة^(٢) على ما قُدِّم من ذنبه، ثم بعد ذلك يدخله الجنة بفضلته كما قال: ﴿وَلَا دُلُّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، كما قيل:

ولما رضوا بالعفو عن ذي زلة حتى أنالوا كفه وازدادوا

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/١٣٢)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٢/٤٠، ٤/٢١٨) وابن حجر في (المطالب العالية ٣٠٩٦ - ٣٠٩٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/٢٦٨، ٣/٥٩٢، ٤/٢٤٧)، وابن كثير في (التفسير ٢/١٧٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/١١٥) وابن حجر في (فتح الباري ١١/٢٣٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/١٢٤، ٧/٤٥٣، ١٠/٥٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/١٠٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/٢٩٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٥٠ - ٥٢٥١ - ٥٢٥٦ - ٥٢٧٩ - ٤٤١٥٤) وابن أبي شيبه في (المصنف ١٣/٢٢٥).

(٢) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء (ج) عرصات وعراض.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ .
فَمَنْ جَحَدَ هذه الأيادي بعد اتصاحها فقد عَدَلَ عن نَهْجِ أهل الوفاء، وحاد عن سَنَنِ أصحاب الولاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ .
جعل جزاء العصيان الخذلان للزيادة في العصيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْيسَةً يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ .
وتحريفهم الكلم عن مواضعه نوعٌ عصيان منهم، وإنما حرّفوا لقساوة قلوبهم. وقسوة القلب عقوبة لهم مِنْ قِبَلِ الله تعالى على ما نقضوه من العهود، ونقض العهد أعظمُ وِزْرٍ يلم به العبد، والعقوبة عليه أشد عقوبة يُعاقَبُ بها العبد، وقسوة القلب عدم التوجع مما يُمتَحَنُ به من الصدّ، وعن قريبٍ يُمتَحَنُ بمحنة الرد بعد الصدّ، وذلك غاية الفراق، ونهاية البعد.

ويقال قسوة القلب أولها فَقْدُ الصفة ثم استيلاء الشهوة ثم جريان الهفوة ثم استحكام القسوة، فإن لم يتفق إقلاع من هذه الجملة فهو تمام الشقوة.

ومن تحريف الكلم - على بيان الإشارة - حَمْلُ الكلم على وجوه من التأويل مما تسوّل لصاحبه نفسه، ولا تشهد له دلائل العلم ولا أصله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ .
أَوَّلُ آفَاتِهِمْ نسيانهم، وما عصوا ربهم إلا بعد ما نسوا، فالنسيان أول العصيان، والنسيان حاصل من الخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ .
الخيانة أمرها شديد وهي من الكبار أبعد، وعليهم أشد وأصعب. ومن تعود اتباع الشهوات، وأَشْرَبَ في قلبه حُبُّ الخيانة فلا يزال يعيش بذلك الخُلُقَ إلى آخر عمره، اللهم إلا أن يجود الحق - سبحانه - عليه بجميل اللطف.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعَفُّ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .
قد يكون موجب العفو حقارة قدر المعفو عنه إذ ليس كل أحدٍ أهلاً للعقاب. وللصفح على العفو مزية وهي أن في العفو رفع الجناح، وفي الصفح إخراج ذكر الإثارة من القلب، فمن تجاوز عن الجاني، ولم يلاحظه - بعد التجاوز - بعين الاستحقار والازدراء^(١) فهو صاحب الصفح.

(١) ازدراء: احتقره.

والإحسان تعميم - للجُمهور - بإسداء الفضل .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّةٌ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

الإشارة في هذه الآية أن النصارى أثبت لهم الاسم بدعواهم فقال: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّةٌ﴾ وسموا نصارى لتناصرهم، وبدعواهم حرّفوا وبدّلوا، وأما المسلمون فقال: ﴿هُوَ سَتَنَكِّمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] .

كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٢] فلا جَرَمَ ألا يسموا بالتناصر . ولما سَمَّاهم الحق بالإسلام ورضي لهم به صانهم عن التبديل فَعَصِمُوا .

ولما استمكن منهم النسيان أبدلوا بالعداوة فيما بينهم، وفساد ذات البين^(١)؛ فأرباب الغفلة لا ألفة بينهم . وأهل الوفاء لا مباينة لبعضهم من بعض، قال ﷺ: «المؤمنون كنفس واحدة»^(٢)، وقال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصفات: ٤٤] .

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ .

وصف الرسول - ﷺ - بإظهار بعض ما أخفوه، وذلك علامة على صدقه؛ إذ لولا صدقه لما عَرَفَ ذلك . ووصفه بالعفو عن كثير من أفعالهم، وذلك من أمارات خُلُقِهِ؛ إذ لولا خُلُقُهُ لَمَا فعل ذلك؛ فإظهار ما أبداه دليل عِلْمِهِ، والعفو عما أخفى برهان جِلْبِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغني عن البصيرة، فمن استخلصه بقديم العناية أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحن عن سِرِّهِ شواهد الأغيار، وذلك نعت كل من وقف على الحجة المثلى .

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ

(١) ذات البين: ما بين القوم من العداوة والبغضاء أو القرابة والصلة والمودة .

(٢) هناك رواية أخرى للحديث: «المؤمنون كرجل واحد» أخرجه مسلم (بر ٦٧ - ٦٨) .

يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٠﴾

مَنْ اشتملت عليه أرحامُ الطوائف^(١) متى يفارقه نَقْصُ الخَلْقَةِ؟

وَمَنْ لاحَت عليه شواهدُ التَّغْيِيرِ أُنَّى يليقُ به نعتُ الربوبية؟

ولو قَطَعَ البقاءُ عن جميع ما أوجد فأي نقصٍ يعود إلى الصمد؟

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلُوبَهُمْ فَلَمَّ يُعَذِّبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

البنوة تقتضي المجانسة، والحقُّ عنها مُنْزَعٌ، والمحبةُ بين المتجانسين تقتضي الاحتفاظ والمؤانسة، والحق سبحانه عن ذلك مُقَدَّسٌ.

فردَّ الله - سبحانه - عليهم فقال تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾.

والمخلوق لا يصلح أن يكون بعضاً للقديم؛ فالقديم لا بعض له لأن الأحدية حقه، فإذا لم يكن له عدد لم يجوز أن يكون له ولد. وإذا لم يجوز له ولد لم تجز - على الوجه الذي اعتقدوه - بينهم وبينه محبة.

ويقال في الآية بشارة لأهل المحبة بالأمان من العذاب والعقوبة به لأنه قال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.

ويقال بيِّن في هذه الآية أن قصارى الخلق إمَّا عذاب وإمَّا غفران ولا سبيل إلى شيء وراء ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يقال في: كل زمان تقع فَتْرَةٌ في سبيل الله ثم تجدد الحال، ويُعَمُّ الطريق بإبداء السالكين من كتم العَدَم، ولقد كان زمانُ الرسول - ﷺ - أكثرَ الأزمنة بركةً، فأحيا بظهوره ما اندرس من السبيل، وأضاء بنوره ما انطمس من الدليل، وبذلك مَنْ عليهم، وذكرهم عظيمَ نعمته فيهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَلْقَوُكُمْ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾.

(١) طمئت المرأة: حاضت أول ما تحيض فهي طامث أي: حائض.

كان الأمر لبني إسرائيل - على لسان نبيهم - بأن يتذكروا نعمة الله عليهم، وكان الأمر لهذه الأمة - بخطاب الله لا على لسان مخلوق - بأن يذكروه فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وشتان بين من أمره بذكره - سبحانه - وبين من أمره بذكر نعمته! ثم جعل جزاءهم ثوابه الذي هو فضله، وجعل جزاء هذه الأمة خطابه الذي هو قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾.

الْمَلِكُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مَنْ عَبْدَ الْمَلِكِ الْحَقِيقِي.

ويقال الْمَلِكُ مَنْ مَلَكَ هَؤُلَاءِ، والعبد من هو في رِقِّ شهواته.

ويقال ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾: لم يخرجكم إلى أمثالكم، ولم يحجبكم عن أنفسه بأشغالكم، وسَهَّلَ إليه سبيلكم في عموم أحوالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتَيْنَكُم مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

لئن أتى بني إسرائيل بمقتضى جوده فقد أغنى عن الإتياء هذه الأمة فاستقلوا بوجوده، والاستقلال بوجوده أتم من الاستغناء بمقتضى جوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَقُومُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

من الفرق بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل أنه أباح لهم دخول الأرض المقدسة على الخصوص فقال: ﴿يَقُومُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ثم إنهم لم يدخلوها إلا بعد مدة، وبعد جهد وشدة، وقال في شأن هذه الأمة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فأولئك كتب لهم دخول الأرض كتابة تكليف ثم قصرُوا، وهذه الأمة كتب لهم جميع الأرض على جهة التشريف، ثم وصلوا إلى ما كتب لهم وما قصرُوا.

وقال: ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ وقال لهذه الأمة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا﴾ [الملك: ١٥] فهؤلاء ذُلِّلَ لهم وسَهِّلَ عليهم، وأولئك صَعَّبَ عليهم الوصول إلى ما أمرهم فيما أنزل الله عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَزِدُّوا عَلَى آدَارِكِهِ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

الارتداد على قسمين: عن الشريعة وإقامة العبودية وذلك يوجب عقوبة النفوس بالقتل، وعن الإرادة وذلك يوجب الشَّقْوة - التي هي الفراق - على القلوب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

لاحظوا الأغيار بعين الحسبان فتوهموا أن شيئاً من الحدثان، وداخلتهم هواجم الرعب فأصروا على ترك الأمر. ومن طالع الأغيار بأنوار البصائر شاهدتهم في أسر التقدير قوالب متعربة عن إمكان الإيجاد، ولم يقع على قلبه ظل التوهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

أنعم الله (عليهما)^(١) بأنوار العرفان فلم يحتشما من المخلوقين، وعلمنا أن من رجع إليه بنعت الاستكفاء تداركنه عواجل الكفاية ثم قال:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي من شأن المؤمنين أن يتوكلوا، وينبغي للمؤمن أن يتوكل.

ويحتمل أن يقال التوكل من شرط الإيمان. وظاهر التوكل الذي لعوام المؤمنين العلم بأن قضاءه لا راد له، وحقائق التوكل ولطائفه التي لخواص المؤمنين شهود الحادثات بالله ومن الله والله، فإن من فقد ذلك انتفى عنه اسم الإيمان.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَسُوءُ إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾.

من أقصته سوابق التقدير لم يزده تواتر (العظة) إلا نفوراً وجحوداً.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾.

تركوا آداب الخطاب فصرّحوا ببيان الجحد ولم يحتشموا من مجاهرة الرد.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

لما ادّعى أنه يملك نفسه عرف عجزه عن ملكه لنفسه حيث أخذ برأس أخيه يجره إليه.

ويقال: لا أملك إلا نفسي أي لا أدرها عن البذل في أمر. لا أملك إلا أخي فإنه لا يؤثر نفسه عن الذي أكلفه من قبلك.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

مجاهرة الرد تعجل العقوبة؛ فإن من مآكر الحقيقة أبدت الحقيقة له من مكامن التقدير ما يلجئه إلى التطوُّح في أوطان الدُّل.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

ويقال حيَّره في مفاوزهم حتى عموا عن القصد؛ فصاروا يبيتون حيث يصبحون، بعد طول التعب وإدامة السير، وكذلك من حيَّره الله في مفاوز القلب يتقلب ليلاً ونهاراً في مطارح الظنون ثم لا يحصل إلا على مناهل الحيرة، فيحطون بحيث يرحلون عنها، فلا وجه للرأي الصائب يلوح لهم، ولا خلاص من بعده للتجوز يساعدهم، والذي التجأ إلى شهود الصمدية استراح عن نقلة فكره، ووقع في روح الاستبصار بعد أتعاب التوهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

كانت الدنيا بحذاقها في أيديهما فحسد أحدهما صاحبه، فلم يصبر حتى أسرع في شيء بإتلافه، وحين لم يُقبل قربانه اشتد حسده على صاحبه، ورأى ذلك منه فهذَّه بالقتل.

فأجابه بنطق التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

يعني إنما يُتقبلُ القربان^(١) ممن طالع في القربان مساعدة القدرة، وألقى توهم كونه باستحقاقه واستيجابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

لئن بدأتني بالإثارة لم أقابلك كأوصاف أهل الجهل بل أكلُ أمري إلى من بيده مقاليد الأمور.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

تحقق بأن العقوبة لا حجة به على ما يسلفه من الذنب فَرَضِيَّ بانتقام الله دون انتقامه لنفسه.

وقوله: ﴿أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِنَّكَ﴾ الذي تستوجهه بسبب قتلك إياي، فأضافه إلى نفسه، وإذا رأى المظلوم ما يحل بالظالم من أليم البلاء يهون عليه ما يقاسيه ويطيب قلبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

(١) القربان: ما يُتقرب به إلى الله من ذبيحة وغيرها (ج) قرابين.

لا تستولي هواجس النفوس على صاحبها إلا بعد استتار مواعظ الحق، فإذا توالى العزائم الرديئة، واستحكمت القصود الفاسدة من العبد صارت دواعي الحق خفية مغمورة. والنفس لا تدعو إلا إلى اتباع الشهوات ومتابعة المعصية، وهي مجبولة على الأخلاق المجوسية. فمن تابع الشهوات لا يلبث أن ينزل بساحات الندم ثم لا ينفعه ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَتَانِ فَأَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

إرادة الحق - سبحانه - وصول الخلق إلى لطف الاحتياط في أسباب التعيش، فإذا أشكل عليهم وجه من لطائف الحيلة سبب الله شيئاً يعرفهم ذلك به.

قوله جل ذكره: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

هذا قريب مما قال النبي ﷺ:

«من سنَّ حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

السعي في الفساد على ضربين: بالظاهر وعقوبته معلومة في مسائل الفقه بلسان العلم، وفي الباطن وعقوبته واردة على الأسرار، وذلك بقطع ما كان متصلاً من واردات الحق، وكسوف شمس العرفان، والستر بعد الكشف، والحجاب بعد البسط. والحجاب استشعار الوحشة بعد الأُنس، وتبديل توالي التوفيق بصنوف الخذلان، والنفي على بساط العبادة، والإخراج إلى متابعة النفوس، وذلك - والله - جزئي عظيم وعذاب أليم.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١) أخرجه مسلم (زكاة ٦٩)، (علم ١٥)، والنسائي (زكاة ٦٤)، وابن ماجه (مقدمة ١٤).

من أقلع عن معاصيه، وارتدع عن ارتكاب مساويه، قبل أن يهتك عنه ستر السداد لا تقام عليه - في الظاهر - حدود الشريعة لاشتباهاها على الإمام، ولا يؤاخذ به الحق سبحانه بقضايا إجرامه أخذاً بظاهر ما يثبت من حاله ماله في استيجاب السداد، فإذا بدا للإمام جُرمه أُقيم عليه الحدُّ وإن تقنّع بنقاب التقوى.

وكذلك إذا سقط العبد عن عين الله لم يصل بعده إلى ما كان عليه من معاودة تقرب الحق - سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ابتغاء الوسيلة التبري عن الحول والقوة، والتحقق بشهود الطول والمِنة.

ويقال ابتغاء الوسيلة هو التقرب إليه بما سبق لك من إحسانه.

ويقال الوسيلة ما سبق لك من العناية القديمة.

ويقال الوسيلة اختياره لك بالجميل.

ويقال الوسيلة خلوص (العقد) عن الشك.

ويقال ابتغاء الوسيلة استدامة الصدق في الولاء إلى آخر العمر.

ويقال ابتغاء الوسيلة تجريد الأعمال عن الرياء، وتجريد الأحوال عن الإعجاب،

وتخليص النفس عن الحظوظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

اليوم - يقبل من الأحباب مثقال ذرة، وغداً - لا يقبل من الأعداء ملء الأرض ذهباً، كذا يكون الأمر.

ويقال إفراط العدو في التقرب موجبٌ للمقت، وتستتر الولي في التردد إحكاماً لأسباب الحب.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

كما أن الأعداء لا محيص^(١) لهم من النار كذلك المُبْعَدُونَ عن التوفيق كلما أرادوا إقلاعاً عن التهلك أدركهم - من فجأة الخذلان - ما يركسهم في وهدة^(٢) العناء.

(١) المحيص: المهرب والمفر.

(٢) ركس الشيء: ردّ أوله على آخره وقلبه على رأسه. والوهدة: الأرض المنخفضة كأنها حفرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لو أنَّ ولياً من الأولياء سرق نصاباً^(١) من جرد، ووجد فيه استحقاق القطع، أقيم عليه الحدُّ كما يقام على المتهتك، ولا يَنْسَقُطُ الحدُّ لصلاحه. والإشارة فيه أن أمرَ الملك مُقَابِلٌ بالتعظيم، بل كل من كان أعلى رتبةً فَخَطَرُهُ أتمُّ وأخفى، والمطالبة عليه أشد. فلا يَسْتَخِفُّ أحدُ الإلمام بزلة ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

قوله جل ذكره: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. من استوفى أحكام التوبة فتَذَارَكَ ما ضَيَّعَهُ، وندم على ما صنعه، وأصلح من أمره ما أفسده - أقبل الله عليه بفضلِهِ فَعَفَرَهُ، وعاد إليه باللطف فَجَبَّرَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بَيَّنَّ أنه لا يعذب مَنْ يعذبُ بِعِلَّةٍ، ولا يرحم من يرحم بعلة، وإنما يتصرف في عبده بحق ملكه، وأنَّ الحكمَ حكمه، والأمرُ أمره.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تَوْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾.

مَنْ أَقْصَاهُ الْحَقُّ عَنْ محلِّ التقريب، وأرْخَى له عنان الإمهال وَكَلَّهُ إلى مكروه، وَلَبَسَ عليه حاله وسِرَّهُ، فهو ينهمك في أودية حسبانهِ، وإنما يسعى في أمر نفسه فيعمل بما يعود إليه وبأله، فأَمَرَ نَبِيَّهُ - ﷺ - بترك المبالاة بأمثالهم، وقلة الاهتمام بأحوالهم، وعَرَفَهُ أنهم بمعزلٍ عن رحمته؛ وإنَّ مَنْ رَدَّتْهُ القسمة الأزلية لا تنفعه الأعلال في الاستقبال، فقال: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يعني إنَّ أَهْلَهُ الله للحرمان، وقيدَه بشباك الخذلان فشفاعاة الأغيار فيه غير مقبولة، ولطائف القبول إليه غير موصولة.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أولئك الذين لم تعجن طينتهم بماء السعادة فَجَبِلُوا على نجاسة الشِرْكِ فإن عدم الطهارة الأصلية لا يتنقى بفنون المعاملات.

(١) النصاب: القدر من المال الذي تجب فيه الزكاة إذا بلغه.

ويقال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾: مَنْ أُرْسِلَ عَلَيْهِ غَاغَةُ الْهَوَى، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ نَوَازِعَ الْمُنَى، وَأَذَلَّهُ (....) ^(١) الْقَضَاء، فَلَيْسَ يَلْقَى عَلَيْهِ غَيْرَ الشَّقَاء.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿كُلُّهُمْ فِي الْأُتَيَا خِرَتِي وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وَرَزَدُوا مِنَ الْهَوَانِ إِلَى الْهَوَانِ، وَوَعِدُوا بِالْفِرَاقِ، وَرَزَدُوا إِلَى الْإِحْتِرَاقِ، فَلَا تَدْرِي أَيُّ حَالِهِمْ أَقْرَبُ مِنْ اسْتِجَابِ الدَّلِّ؟ بِدَايَتِهِمْ فِي الرَّدِّ أَمْ نِهَائَتِهِمْ فِي الشَّرِّكَ وَالْجَحْدِ؟

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿سَتَجِدُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

يعني إنهم طرخوا حشمة الدين، وقنعوا بالحظوظ الخسيسة واكتفوا بالأعراض النذرة، فإذا تحاكموا إليك فأجللهم من حلمك على ما يستحق أمثالهم من الأزال، وأنت مُخَيَّرٌ فيما تريد؛ فسواء أقبلت عليهم فحكمت أو أعرضت فرددت فلاختيار لك.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: الإِقْسَاطُ الْوُقُوفُ عَلَى حَدِّ الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ (حَتْفِ) ^(٢) إِلَى الْحِظِّ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

يعني أنهم قارفوا الجحد، وأصرُّوا على الغي، وتعودوا الإعراض عن الإيمان، فمتى تَوَثَّرَ فِيهِمْ دَعْوَتُكَ، وَقَدْ سُدَّتْ مَسَامِعُهُمْ عَنِ الْقَبُولِ، وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ سَابِقُ الْحُكْمِ؟

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيِّنُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾.

يخبر أنه استحفِظَ بني إسرائيل التوراة فحرفوها، فلما وَكَلَّ إِلَيْهِمْ حِفْظَهَا ضَيَّعُوهَا.

وأما هذه الأمة فخصَّهم بالقرآن، وتولَّى - سبحانه - حفظه عليهم فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فلا جَرَمَ لو غَيَّرَ وَاحِدٌ حَرَكَةً أَوْ سَكُونًا مِنَ الْقُرْآنِ لَنَادَى الصَّبِيَّانِ بِتَخْطِئَةٍ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشَوْنَ﴾.

(٢) الْحَتْفُ: الْإِعْوَاجُ وَالِاسْتِقَامَةُ (ضَدٌّ).

(١) بِيَاضٍ فِي الْأَصْلِ.

إِنَّ الْخَلْقَ تَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْقُدْرَةِ وَأَقْسَامُ التَّصْرِيفِ؛ فَالْخَشْيَةُ مِنْهُمْ فَرَعٌ مِنَ الْمَحَالِ، فَإِنَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ شُطْبِيَّةٌ مِنَ الْإِبْجَادِ فَأَتَى تَصَحُّهُ مِنْهُ الْخَشْيَةُ؟! قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

لا تأخذوا على جحدِ أوليائي والركونِ إلى ما فيه رضاء أعدائي عوضاً يسيراً فتبقوا بذلك عني، ولا يُبَارِكْ لَكُمْ فيما تأخذون من العوض. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾ فمن اتخذ بغيره حكماً، ولم يجد - تحت جريان حكمه - رضى واستسلاماً ففي شركٍ خامر قلبه، وكفرٍ قارنٍ سيره. وهيهات أن يكون على سِوَاء!

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ عَتَبَارَ الْعَدَالَةِ كَانَ حَتْمًا فِي شَرْعِهِمْ، وَلَمَّا جَنَحُوا إِلَى التَّضْيِيعِ اسْتَوْجَبُوا الْمَلَامَ. ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾، يَعْنِي فَمَنْ أَثَرَ تَرَكَ مَالَهُ بِاعْتِنَاقِ الْعَفْوِ لَمْ يَخْصِرْ عَلَيْنَا بِاسْتِجَابِ الشُّكْرِ، وَمَنْ أَبَى إِلَّا تَمَادِيًا فِي إِجَابَةِ دَوَاعِي الْهَوَى فَهُمْ الَّذِينَ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ؛ أَيِ اسْتَبَدَّلُوا بِلُزُومِ الْحَقَائِقِ مُتَابَعَةَ الْحُظُوظِ، وَبِإِثَارِ الْفِتْنَةِ^(١) مُوَافَقَةَ الْبَشَرِيَّةِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى مَاءِ نَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

يعني أتبعناهم بعيسى ابن مريم، وخصصناه بالإنجيل، وفي الإنجيل تصديق لما تقدّمه، وتحقيق لِمَا أوجب الله وألزمه، فلا الدينَ قضاوا حقه، ولا الإنجيلَ عرفوا فرضه، ولا الرسولَ حفظوا أمره؛ ففسقوا وضلوا، وظلموا وزلوا.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلْيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقال في موضع آخر ﴿... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وقال في هذه الآية ﴿... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أما في الأول فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ﴿فَأُولَئِكَ

هُمْ الْكَافِرُونَ ﴿١٠﴾ لأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو جاحد والجاحد كافر.

وفي الثاني قال: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأن من جاوز حد القصاص واعتبار المماثلة، وتعدى على خصمه فهو ظالم لأنه ظلم بعضهم على بعض.

وأما ما هنا فقال: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَقْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أراد به معصية دون الكفر والجحد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾.

قدّم تعريفه... - قصص الأولين على تكليفه باتباع ما أنزل الله عليه لئلا يسلك سبيل من تقدّمه فيستوجب ما استوجبوه.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

لا تملكك مودة قريب أو حميم، واعتنق ملازمة أمر الله - تبارك وتعالى - بترك كل نصيب لك.

ثم قال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يعني طريقة وسنة؛ أي أفردنا كل واحد منكم - معاشير الأنبياء - بطريقة، وأما أنت فلا يدانيك في طريقتك أحد، وأنت المقدّم على الكافة، والمفضل على الجملة، ولو شاء الله لسوّى مراتبكم، ولكن غاير بينكم ابتلاء، وفصل بعضكم على بعض امتحاناً.

قوله جل ذكره: ﴿فَاسْتَفِؤْا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾.

مسارعة كل أحد على ما يليق بوقته؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد، والعارفون همته من حيث المواجد.

ويقال استباق الزاهدين برفض الدنيا، واستباق العابدين بقطع الهوى، واستباق العارفين بنفي المني، واستباق الموحدين بترك الوري، ونسيان الدنيا والعقبى.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنِّي أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

ثم بالله فيما تحكم بينهم، وأقم حقوقه فيما تؤخر وتقدم، ولا تلاحظ الأغيار فيما (تؤثر) أو تذر، فإن الكل محو في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

يعني (عظيمهم) بلسان العلم فإن أبوا قبولاً فشاهدهم بعين الحكم. ويقال: أشدُّ عليهم باعتناق لوازم التكليف، فإن أعرضوا فعانهم بعين التصريف؛ فإن الحق - سبحانه - بشرط التكليف يلزمهم؛ وبحكم التصريف يؤخرهم ويقدمهم، فالتكليف فيما أوجب، والتصريف فيما أوجد، والعبرة بالإيجاد والإيجاب.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أيعودون في ظلمة الحجاب ووحشة الالتباس بعد ما سطع فجرُ العرفان، وطلعت شمسُ التحقيق، وانتهكت أستارُ الرب؟

ويقال أيطالبون منك أن تحيدَ عن المحبة المثلى، وقد اتضحت لك البراهين وتجلَّى اليقين؟

ويقال أيطعمون في استتار الحقائق في السرائر وقد تجلت شمس اليقين؟

ويقال أتحسبون أن (. . . .) ^(١) ظلمة الشك لها سلطان، وقد متتَع نهارُ الحقائق؟ كلا، فإن ذلك محال.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

لا تجنحوا إلى الموالاة مع أعدائه - سبحانه - إشاراً للسكون إلى الحظ، أو احتشاماً من القيام للحق، أو ركوناً إلى قرابة نسب، أو استحقاقاً لمودة حميم، أو تهيئاً من استيحاش صديق. بل صمموا عقودكم على التبري منهم بكل وجه فهم بعضهم أولياء بعض، والضدية بينكم وبينهم قائمة إلى الدين. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ التحق بهم، وانخرط في سلكهم، وعُدَّ في جملتهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُدْعَوْنَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشُو أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ وَيَقُولَ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

يعني إن الذين سقمت ضمائرهم، وضعفت في التحقيق بصائرهم تسبق إلى قلوبهم مداراة الأعداء خوفاً من معاداتهم، وطمعاً في المأمول من صحبتهم، ولو استيقنوا أنهم في أسر العجز وذل الإعراض ونفي الطرد لأمَلُوا الموعود من كفاية

(١) بياض في الأصل.

الحق، والمعهود من جميل رعايته، ولكنهم حُجِبُوا عن محل التوحيد؛ ففترقوا في أودية الحساب والظنون، وعن قريب يأتِيكم الفَرَجُ - أيها المؤمنون، وتُزْزَقُونَ الفَتْحَ بحسن الإقبال، والظفر بالمسؤول لسابق الاختيار، فيشعرون الندم، ويقاسون الألم، وأنتم (تعلون) رؤوسكم بعد الإطراق، وتصفوا لكم مَشَارِبُ الإكرام، وتضيء بزواهر القرب مَشَارِقُ القلوب. حينئذ يقول الذين آمنوا هؤلاء اللذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ليعاینون بأبصارهم ما تحققوه بالغيب في أسرارهم، وَيَصِلُونَ من موعودهم إلى ما يوفي ويربو على مقصودهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ وِثْقِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾.

جعل صفة من لا يرتد عن الدين أن الله يحبه ويحب الله، وفي ذلك بشارة عظيمة للمؤمنين لأنه يجب أن يُعْلَمَ أن من كان غير مرتد فإن الله يحبه. وفيه إشارة دقيقة فإن من كان مؤمناً يجب أن يكون لله محباً، فإذا لم تكن له محبة فالخطر بصحة إيمانه. وفي الآية دليل على جواز محبة العبد لله وجواز محبة الله للعبد.

ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه: إما أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه، والمدح والثناء عليه. أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله.

وكما أن رحمته إرادته لإنعامه فمحبته إرادته لإكرامه، والفرق بين المحبة والرحمة على هذا القول أن المحبة إرادة إنعام مخصوص، والرحمة إرادة كل نعمة فتكون المحبة أخص من الرحمة، واللفظان يعودان إلى معنى واحد فإن إرادة الله تعالى واحدة وبها يريد سائر إراداته، وتختلف أسماء الإرادة باختلاف أوصاف المتعلق.

وأما محبة العبد لله - سبحانه - فهي حالة لطيفة يجدها في قلبه، وتحمله تلك الحالة على إيثار موافقة أمره، وترك حظوظ نفسه، وإيثار حقوقه - سبحانه - بكل وجه.

وتحصل العبارة عن تلك الحالة على قدر ما تكون صفة العبد في الوقت الذي يعبر عنه؛ فيقال المحبة ارتياح القلب لوجود المحبوب، ويقال المحبة ذهاب المُحِبِّ بالكلية في ذكر المحبوب، ويقال المحبة خلوص المحب لمحبيه بكل وجه، والمحبة بلاء كل كريم، والمحبة نتيجة الهمة فمن كانت همة أعلى فمحبته أصفى بل أوفى بل أعلى.

ويقال المحبة سُكْرٌ لا صحو فيه وذهش في لقاء المحبوب يوجب التعطل عن التمييز، ويقال المحبة بلاء لا يُزْجَى شفاؤه، وسقام لا يعرف دواؤه. ويقال المحبة

غريمٌ يلازمك لا يبرح، ورفيقٌ من المحبوب يستوفي له منك دقائق الحقوق في دوام الأحوال، ويقال المحبة قضية توجب المحبة؛ فمحبة الحق أوجبت محبة العبد^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

لولا أنه يحبهم لما أحبههم، ولولا أنه أخبر عن المحبة فأنى تكون للطينة ذكرُ المحبة؟ ثم بيّن الله تعالى صفة المحبين فقال: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. يبذلون المَهْجَ في المحبوب من غير كراهة، ويبذلون الأرواح في الذَّبِّ عن المحبوب من غير ادخار شظية من الميسور.

ثم قال تعالى في صفتهم: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يجاهدون بنفوسهم من حيث استدامة الطاعة، ويجاهدون بقلوبهم بقطع المنى والمطالبات، ويجاهدون بأرواحهم بحذف العلاقات، ويجاهدون بأسرارهم بالاستقامة على الشهود في دوام الأوقات.

ثم قال: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي لا يلاحظون نُضَحَ حميم، ولا يركنون إلى استقلال حكم، ولا يجنحون إلى حظ ونصيب، ولا يزيغون عن سَنَنِ الوفاء بحالٍ.

ثم بيّن - سبحانه - أن جميع ذلك إليه لا منهم فقال: ﴿وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ متفضلٌ عليهم بِمَن يَخُصُّ بذلك من عبيده.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكِيمُونَ﴾.

الولي أي الناصر، ولا موالاة بين المؤمنين وبين أعداء الحق - سبحانه - فأعداء الحق هم أعداء الدين.

و «إنما» حرفٌ يقتضي أن ما عداه بخلافه، وأعدى عدوك نفسك - كما في الخبر - وَمَن عَادَى نَفْسَهُ لَمْ يَخْرُجْ بِالْمَخَاصِمَةِ عَنْهَا مَعَ الْخَلْقِ وبالمعارضة فيها مع الحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

الفائزون على حظوظهم الذين هم خصمٌ للحق على أنفسهم لا خصمٌ لأنفسهم على مولاهم، والغلبة بالحُجَّةِ والبرهان دون اليد.

ويقال من قام لله بصدق انخنس دونه كلُّ مُبْطِلٍ. ويقال إذا طلعت أنوار الحق أدبر ليل الباطل.

(١) انظر حديث القشيري بالرسالة عن المحبة ص ٣١٧ - ٣٢٩.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ﴾.

نَبَّهَهُمْ عَلَى وجوب التحيز عنهم والتميز منهم، فإن المخالف في العقيدة لا يكون موافقاً في الحقيقة.
ويقال: أَمَرَهُمْ بِأَنْ يلاحظوهم بعين الاستصغار كما لاحظوا دين المسلمين بعين الاستحقار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.
الآذَانُ دَعَاءٌ إِلَى محلّ النجوى، فَمَنْ تَحَقَّقَ بَعْلُوَ المحلّ فسماعُ الأذانِ يوجب له رُوحُ القلب واسترواح الروح، ومن كان محجوباً عن حقيقة الحال لاحظَ ذلك بعين اللعب وأدركه بسمع الاستهزاء، وذلك حكمُ الله: غَايَرَ بَيْنَ عِبَادِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ.
قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِفُونَ مِثًّا إِلَّا أَن ۖ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن ۖ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ما لنا عندكم عيبٌ إلا أننا تحققنا أننا محو في الله وأن الكائنات حاصلة بالله ولا نتقى أثراً سوى الله في الله، وهذا - والله - عيبٌ زائلٌ، ونقصٌ ليس له - في التحقيق - حاصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ أُتَيْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

يعني أخسُّ من المذكورين قذراً، وأقل منهم خطراً من سقط عن عين الله فأذلةً، وأبعده عن نعت التخصيص فأضله، ومنعه عن وصف التقريب وأبعده، وحجبه عن شهود الحقيقة وطرده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ۖ آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

أظهروا الصدق، وفي التحقيق نافقوا، واقتضحوا من حيث أوهموا ولبسوا؛ فلا حالهم بقيت مستورة، ولا أسرارهم كانت عند الله مكبوتة، وهذا نعتٌ كل مبطل. وعند أرباب الحقائق أحوالهم ظاهرة في أنوار فراستهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبِّى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْبَاهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾.

تَمَلَّكَتْهُمُ الْأَطْمَاعُ فاستهوتهم في متاهات العناء، وذلك نعت كل (طالع) في غير مطمع؛ ذُلٌّ حاضر، وصَغَارٌ مستولٍ.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِلَٰهَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَلِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

الرباني من كان لله وبالله؛ لم تبق منه بقية لغير الله.

ويقال الرباني الذي ارتقى عن الحدود.

والرباني من توفى الآفات ثم ترقى إلى الساحات، ثم تلقى ما كوشف به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصفا عن وصفه، وقام لزبه وبربه.

وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدين، فهم خلفاء ينهون الخلق بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يؤمنون إليه، وتحقق ما علقوا همهم به.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُفَيْنَا وَكُفِّرُوا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْمَدَوَّةَ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

صغر سوء قالة الموحدين - في اغتيال بعضهم لبعض بعد ما كانوا بالتوحيد قائلين وبالشهادة ناطقين - بالإضافة إلى ما قاله الكفار من سوء القول في الله؛ يعني أنهم وإن أساءوا قولاً فلقد كان أسوأ قولاً منهم من نسبنا إلى ما نحن عنه منزّه، وأطلق في وصفنا ما نحن عنه مقدّس.

ثم إن الحق - سبحانه - قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ فلا ربح الصدق يشمون، ولا نفساً من الحق يجدون.

ثم أنشأ على نفسه فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي بل قدرته بالغة ومشيته نافذة، ونعمته سابقة وإرادته ماضية.

ويقال ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي يرفع ويضع، وينفع ويدفع، ولا يخلو أحد عن نعم النفع وإن خلا عن نعم الدفع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَخْلَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

إنما وعدهم الغفران بشرط التقوى. ودليل الخطاب يقتضي أنه لا يغفر لمن لم يتق منهم.

وقال لظالمي هذه الأمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

لِنَفْسِهِ. [فاطر: ٣٢] ثم قال في آخر الآية: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣] أي أهل التقوى لأنه أهل المغفرة، فإن تركتم التقوى فهو أهل لأن يغفر.

ويقال لو أنهم راعوا أمرنا أصلحنا لهم أمرهم، ولكنهم وَقَفُوا فَوْقَهُوا.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَبِئْسَ أَزْجَالُهُمْ﴾.

أي لو سلكوا سبيل الطاعة لو سَعْنَا عليهم أسباب المعيشة وسهلنا لهم الحال حتى إن ضربوا بيمين ما لقوا غير اليُمْن، وإن ذهبوا يعسرة ما وجدوا إلا اليُسْر.

قوله جل ذكره: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

المقتصد الواقف على حد الأمر؛ لا يَقْصُرُ فَيَقْصُصَ، ولا يجاوز فيزيد.

ويقال المقتصد الذي تساوى في هِمَّتِهِ الفَقْدُ والوجودُ في الحادثات.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ﴾.

لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك ملاحظَةً لِغَيْرٍ، إذ لا غير - في التحقيق - إلا رسوم موضوعة، وأحكام القدرة عليها جارية.

ويقال بَيَّنْ لِلْكَافَةِ أَنَّكَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَنَّ آدَمَ دُونَ لَوَائِكَ.

ويقال بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنِّي أَغْفِرُ لِلْعَصَاةِ وَلَا إِبَالِي، وَأَرُدُّ مِنَ الْمُطِيعِينَ مَنْ شِئْتُ وَلَا أَبَالِي.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَعصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

يحفظ ظاهره من أن يَمْسَكَ أذاهم، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدو، أو يصون سِرِّكَ عنهم حتى لا يقع احتشامٌ منهم.

ويقال يعصمك من الناس حتى لا تغرق في بحر التوهم؛ بل تشاهدهم كما هم؛ وجوداً بين طرفي العَدَمِ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِيْدَتٌ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مُطَاعِينَ وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

أي ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم، ولا قَدْرُكم في الدنيا والعقبى، ولا مقداركم ولا منزلكم في حال من حالاتكم إلا بمراعاة الأمر والنهي، والمحافظة على أحكام الشرع.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئُونَ وَالنَّاصِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّهُمْ - وَإِنْ تَجَسَّسْتَ أحوالهم - فبعدما تجمعهم أصول التوحيد فلهم الأمان من الوعيد، والفوز بالمزيد.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَ هُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَكْمُلُونَ﴾.

داروا مع الهوى فوقعوا في البلاء. ومن أمارات الشقاء الإصرار على متابعة الهوى، وحسبوا ألا تكون فتنة، فعموا وصموا. واغتروا بطول الإمهال فأصرروا على قبيح الأعمال، فلما أَخَذَتْهُمْ فجاءة الانتقام لم ينفعهم الندم، وبرز بهم الألم.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

سَقَمَتْ بصائرهم والتبست عليهم أمارات الحدوث، فخلطوا في عقائدهم استحقاق أوصاف القدم بنعوت الحدوث!

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَن يَدْعُ إِلَى إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بلغ الخذلان بهم حداً أن كابروا الضرورة فحكموا للواحد بأنه ثلاثة، ولا يخفى فساد هذا على مجنون.. فكيف على عاقل؟!!

قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لم يُغْلِقْ باب التوبة عليهم - مع قبيح أقوالهم، وفساد عقائدهم - تضعيفاً لأمال المؤمنين بخصائص رحمته.

قوله جل ذكره: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَنَّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾.

مَنْ اشتملت عليه الأرحام، وتناوبته الآثار المتعاقبة أنى يليق بوصف الإلهية؟

ثم مَنْ مَسَّتْهُ الْحَاجَةُ حَتَّى اتَّصَفَ بِالْأَكْلِ وَأَصَابَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى أَنْ يَخْلُصَ مِنْ بَقَايَا الطَّعَامِ فَأَتَى يَلِيقُ بِهِ اسْتِجَابُ الْعِبَادَةِ وَالتَّسْمِيَةُ بِالْإِلَهِيَّةِ؟
انظر - يا محمد - كيف نزيد في إيضاح الحجة وكيف تلبيس عليهم سلوك المحجة؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

تعلقُ القلوب - بدون الرب - في استدفاع الشر واستجلاب الخير تمحيق للوقت فيما لا يُجدي، وإذهاب للعمر فيما لا يُغني؛ إذ المتفرد بالإيجاد بريء عن الأنداد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

التعمق في الباطل قطع لآمال الرجوع؛ فكلما كان بُعد المسافة مِنَ الْحَقِّ أتمَّ كان اليأس من الرجعة أوجب، ومُتَّبِعُ الضلالة شرٌّ مِنْ مَبْتَدِعِهَا؛ لأن المبتدع يبني والمُتَّبِع يقيم البناء، ومن به كمال الشرُّ شرٌّ ممن منه ابتداء الشر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

أمر الأنبياء - عليهم السلام - حتى ذكروا الكفار بالسوء، وأما الأولياء فخصّهم بذكر نفسه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فلعنة الكفار بلسان الأنبياء، وذكر المؤمنين بالجميل بلسان الحق - سبحانه، ولو كان ذلك ذكراً بالسوء لكان فيه استحقاق فضيلة، فكيف وهو ذكر بالجميل؟! ولقد قال قائلهم:

لئن ساءني أن تلقني بمساءة فقد سرّني أني خطرتُ ببالِكَ
قوله جلّ ذكره: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

الرضا بمخالفة أمر الحبيب موافقة للمخالف، ولا أنفة بعد تميز الخلاف. والسكوت عن جفاء تعامل به كرم، والاعضاء عما يُقال في محبوبك دناءة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

شر خصال اللثام مطابقة مَنْ يصاد الصديق، فإذا كان سخط الله في موالة أعدائه فرحمته - سبحانه - في معاداة أعدائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾.

صَرَّحَ بِأَنَّ مُوَافِقَ مَنْ نَاوَأَكَ أَثَرَ التَّبَاعَدِ عَنْكَ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ بَيْنَكُمَا شَفَرَةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ لَأَخْلَصْتَ فِي مَوَالَاتِهِ، وَأَخْلَصَ فِي مَصَافَاتِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنَجْجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنَجْجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ لَآتٍ بِهُمْ فَنَقِصِبْهُمْ وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ كَذِبًا﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ صِفَةَ الْعَدَاوَةِ وَإِنْ كَانَتْ تَجْمَعُهُمْ فَمَعَادَاةٌ بَعْضُهُمْ تَزِيدُ عَلَى بَعْضٍ، وَبِقَدْرِ مَا لِلنَّصَارَى مِنَ التَّرْهُّبِ أَثَرٌ فِيهِمْ بِالْمُقَارَبَةِ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِمْ مِنْ حَيْثُ الْخِلَاصُ فَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ - بِمُقَارَبَةِ أَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

هَذِهِ صِفَةٌ مِنْ نَظَرِ إِلَيْهِ الْحَقِّ نَظَرَ الْقَبُولِ، فَإِذَا قَرَعَتْ سَمْعُهُمْ دَعْوَةَ الْحَقِّ ابْتَسَمَتِ الْبَصِيرَةُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَسَكَنُوا إِلَى الْمَسْمُوعِ لَمَّا وَجَدُوا مِنَ التَّحْقِيقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

وَأَيُّ عَذْرِ لَنَا فِي التَّعْرِيجِ فِي أَوْطَانِ الْإِرْتِيَابِ، وَقَدْ تَجَلَّتْ لِقُلُوبِنَا الْحُجُجُ؟ ثُمَّ مَا نُؤْمِلُهُ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ... مَتَى بِدُونِهِ يُمْكِنُ أَنْ نَطْلُبَهُ؟

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لَمَّا صَدَّقَتْ أَمَالُهُمْ قَابِلُهَا بِالتَّحْقِيقِ، سُنَّتْ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ - أَلَا يَخِيبُ رَاجِيَهُ، وَلَا يَرُدُّ مُؤْمِلِيَهُ، وَإِنَّمَا عَلَّقَ الثَّوَابَ عَلَى قَوْلِ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ شَهَادَةٌ عَنْ شَهْوَدِهِ، فَأَمَّا النَّظَرُ الْمُنْفَرِدُ عَنِ الْبَصِيرَةِ فَلَا ثَوَابَ عَلَيْهِ وَلَا إِجَابَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

(هَذَا) أَثَرُ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْأَعْدَاءِ فِي مُقَابَلَةِ أَثَرِ الْإِقْبَالِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ مُعْجَلًا وَمُؤْجَلًا.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيعَتِ مَا آتَى اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَلِينَ﴾.

من أمارات السعادة الوقوف على حد الأمر؛ إن أَبَاحَ الْحَقُّ شَيْئاً قَبْلَهُ، وقابله بالخشوع، وإنْ خَطَرَ شَيْئاً وَقَفَ وَلَمْ يَتَعَرَّضَ لِلْجُحُودِ.

ومما أَبَاحَهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الْإِسْتِرَاحَ إِلَى نَسِيمِ الْقَرَبِ فِي أَوْطَانِ الْخُلُوعِ، وَتَحْرِيمِ ذَلِكَ: إِنَّ اسْتَبْدَلَ تِلْكَ الْحَالَةَ بِالْخُلُوعِ دُونَ الْعِزَّةِ؛ وَالْعِزَّةُ دُونَ الْخُلُوعِ، وَذَلِكَ هُوَ الْعَدْوَانُ الْعَظِيمُ وَالْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَانْقُضُوا إِلَيْهِ أَيْمَانُكُمْ﴾. الْحَلَالُ الصَّافِي بِأَنْ يَأْكُلَ الْعَبْدُ مَا يَأْكُلُ عَلَى شَهْوَاهِ - سَبْحَانَهُ - فَإِنْ نَزَلَتْ الْحَالَةُ عَنْ هَذَا فَعَلَى ذِكْرِ - سَبْحَانَهُ - فَإِنَّ الْأَكْلَ عَلَى الْغَفْلَةِ حَرَامٌ فِي شَرِيعَةِ الْإِرَادَةِ. قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّزْتُهُمْ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسَكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الإشارة منه إلى وقتٍ يغلب على قلبك التعطشُ إلى شيءٍ من إقباله أو وصاله، فَتُقَسِّمُ عَلَيْهِ بِجَمَالِهِ أَوْ جَلَالِهِ أَنْ يَرْزُقَكَ شَطِيطَةً مِنْ إقباله، فَكَذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ الرِّضَا نَوْعٌ مِنَ الْيَمِينِ، فَيَعْفُو عَنْكَ رَحْمَةً عَلَيْكَ لضعف حالك. والأولى الذوبان والخمود بحسن الرضا تحت ما يُجْرِي عَلَيْكَ مِنْ أَحْكَامِهِ فِي الرَّدِّ وَالصَّدِّ، وَأَنْ تَوْثِرَ اسْتِقَامَتَكَ فِي آدَاءِ حَقِّهِ عَلَى إِكْرَامِكَ بِحَسَنِ تَقْرِيْبِهِ وَإقباله، كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ:

أُرِيدُ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

وَمِنْ اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ - عِنْدَهُمْ - مَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِمْ فِي حَالِ غَلَبَاتِ الْوَجْدِ مِنْ تَجْرِيدِ الْعَهْدِ وَتَاكِيدِ الْعَقْدِ، فَيَقُولُ:

وَحَقُّكَ مَا نَظَرْتُ إِلَى سِوَاكَ، وَلَا قُلْتُ بِغَيْرِكَ. . . وَلَا خُلْتُ عَنْ عَهْدِكَ، وَأَمْثَالُ هَذَا. . .

وَكُلُّهُ فِي حَكْمِ التَّوْحِيدِ لِقَوْلِهِ، وَعَنْ شَهَادَةِ عَهْدِ الْأَحَدِيَّةِ سَهْوً. . . وَمَنْ أَنْتَ فِي الرُّفْعَةِ حَتَّى تَغْدِمَ نَفْسَكَ؟ وَأَيْنَ فِي الدَّارِ دِيَارٌ حَتَّى تَقُولَ بِتَرْكِهِ أَوْ تَتَحَقَّقَ بِوَصْلِهِ أَوْ هَجْرِهِ؟ كَلَّا. . . بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(١).

(١) قَالَ الْقَشِيرِيُّ بِرِسَالَتِهِ فِي حَدِيثٍ مُشَابِهٍ عِنْدَمَا تَحْدُثُ عَنِ التَّوْحِيدِ: سُنِّلَ الشُّبْلِيُّ عَنِ تَوْحِيدِ مُجْرَدٍ بِلِسَانِ حَقٍّ مُفْرَدٍ، فَقَالَ: وَيْحَكَ مِنْ أَجَابٍ عَنِ التَّوْحِيدِ بِالْعِبَارَةِ فَهُوَ مُلْحَدٌ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَهُوَ ثَنَوِي وَمَنْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ فَهُوَ عَابِدٌ وَثَنٌ، وَمَنْ نَطَقَ فِيهِ فَهُوَ غَافِلٌ، وَمَنْ سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَمَنْ وَهَمَ أَنَّهُ وَاصِلٌ فَلَيْسَ لَهُ حَاصِلٌ، وَمَنْ رَأَى قَرِيبَ فَهُوَ بَعِيدٌ، وَمَنْ تَوَاجَدَ فَهُوَ فَاقِدٌ، وَكُلٌّ مَا مِيزْتُمُوهُ بِخِيَالِكُمْ وَأَدْرَكْتُمُوهُ بِعُقُولِكُمْ فِي أَتَمِّ مَعَانِيكُمْ، فَهُوَ مُصْرُوفٌ مُرَدُّودٌ إِلَيْكُمْ. فَحَدَّثَ مُصْنَعٌ مِثْلَكُمْ. (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٣٠١).

وكما أن الكفارة الشرعية إمّا عِثْق أو إطعام وإما كسوة فإن لم تستطع فصيام ثلاثة أيام: فكفارتهم - على موجب الإشارة - إمّا بذل الروح بحكم الوجد، أو بذل القلب بصحة القصد، أو بذل النفس بدوام الجهد، فإن عجزت فإمساك وصيام عن المناهي والزواج.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا فَعَلْنَا لَكُمْ خَيْرًا وَلَآ أَلَمَّا أَتَىٰ لَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَكُمْ تَقْلُحُونَ﴾.

الخمير ما خامر العقول، والخمر حرام.

والإشارة فيه أنه يزيد نقاذ العقل بما يوجب عليه من الالتباس.

وَمَنْ شَرِبَ مِنْ خمر الغفلة فسكّره أصعب؛ فشرب الغفلة يوجب البعد عن الحقيقة.

وكما أن من سكّر من خمر الدنيا ممنوع عن الصلاة فمن سكّر من خمر الغفلة فهو محجوب عن المواصلات.

وكما أن من شرب من خمر الدنيا وجب عليه الحد فكذلك من شرب شراب الغفلة فعليه الحد إذ يضرب بسياط الخوف.

وكما أن السكران لا يقام عليه الحد ما لم يفق فالغافل لا ينجح فيه الوعظ ما لم ينته.

وكما أن مفتاح الكبائر شرب الخمر (فالغفلة)^(١)، أصل كل زلة، وسبب كل ذلة وبدء كل بُعد وحجة عن الله تعالى.

ويقال لم يحرم عليه الشراب في الدنيا إلا وأباح له شراب القلوب؛ فشرب الكبائر محظور وشراب الاستثناس مبدول، وعلى حسب المواجد حظي القوم بالشراب، وحيثما كان الشراب كان السكر، وفي معناه أنشدوا:

فما ملّ ساقيتها وما ملّ شارب عقار لحاظ كأسه يسكر اللبّا

فصحوك من لفظي هو الوصل كله وسكرك من لحظي يبيح لك الشربا

وحُرّم الميسر^(٢) في الشرع، وفي شريعة الحب القوم مقهورون؛ فمن حيث الإشارة أبدانهم مطروحة في شوارع التقدير، يطؤها كل عابر سبيل من الصادريين من عين المقادير، وأرواحهم مستباحة بحكم القهر، عليها خرجت القرعة من (...).^(٣) قال تعالى ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١].

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. (٢) الميسر: قمار العرب في الجاهلية.

(٣) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

طال بُغْضُهُم عن الحقيقة ففاسوا الهوان في مطارح الغربة، وصاروا سخرة للشيطان؛ فبقوا عن الصلاة التي هي محل النجوى وكمال الراحة، وفَسَدَتْ ذاتُ بَيْنِهِمْ بما تولد من الشحناء والبغضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾.

كما كان العبد أعرف بربه كان أخوف من ربه، وإنما ينتفي الحذر عن العبد عند تحقيق الموعد بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] وذلك عند دخول الجنة. وحقيقة الحذر نهوض القلب بدوام الاستغاثة مع مجاري الأنفاس.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ﴾.

من حافظ على الأمر والنهي فليس للقمة يتناولها من الخطر ما يضايق فيها، وإنما المقصود من العبد التأدب بصحبة طريقه سبحانه، فإذا اتقى الشِرْكَ تعرّف، ثم اتقى الحرام فما تصرف، ثم اتقى الشحّ فأثر وما أسرف.

وقوله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ يعني اتقوا المنع وأحسنوا للخلق - وهذا للعموم. ثم اتقوا شهود الخلق؛ فأحسن الشهود الحق، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه - وهذا للخواص.

والله يحب المحسنين أعمالاً والمحسنين (أمالاً) والمحسنين أحوالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَقِيٍّ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعَدَّيْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بِبَلِّغِ الْكُتُبِ أَوْ كَثْرَةٍ طَعَمَاءُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أباح الصيد لمن كان حلالاً، وحرّم الصيد على المخرم الذي قصده زيارة البيت. والإشارة فيه أن من قصد بيتنا فينبغي أن يكون الصيد منه في الأمان، لا يتأذى منه حيوان بحال، لذا قالوا: البرّ من لا يؤذي الذر ولا يضرّ الشر.

ويقال الإشارة في هذا أن من قصدنا فعليه نبذ الأطماع جملة، ولا ينبغي أن تكون له مطالبة بحالٍ من الأحوال.

وكما أَنَّ الصيدَ على المُحَرَّمِ حرامٌ إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار - على الواجد - حرامٌ ما دام مُحَرَّمًا بقلبه .

ويقال العارفُ صيدُ الحق ، ولا يكون للصيد صيد .

وإذا قَتَلَ المُحَرَّمُ الصيدَ فعليه الكفَّارة ، وإذا لاحظ العارفُ الأغيارَ ، أو طمع أو رغب في شيءٍ أو اختار لَزِمَتَهُ الكفَّارة ، ولكن لا يُكْتَفَى منه بجزاء المثل ، ولا بأضعاف أمثال ما تصرَّف فيه أو طمع ، ولكن كفَّارته تجرده - على الحقيقة - عن كل غير ، قليل أو كثير ، صغير أو كبير .

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَمًا لَكُمْ وَاللَّيْتَارَ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

حُكْمُ الْبَحْرِ خِلَافَ حُكْمِ الْبَرِّ . وإذا غرق العبدُ في بحار الحقائق سَقَطَ حكمه ، فصيد البحر مباح له لأنه إذا غرق صار محوًّا ، فما إليه ليس به ولا منه إذ هو محوٌّ ، واللَّهُ غالبٌ على أمره .

قوله جلَّ ذكره: ﴿جَمَلَ اللَّهُ الْكَفْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهَرَ الْحَرَامَ وَالْمَدَنَى وَالْقَلْبَ الَّذِي لَمْ يَلْمَسُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكِلُ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ .

حَكَمَ اللَّهُ سبحانه - بأن يكون بيته - اليومَ ملجأ يلوذ به كل مؤمل ، ويستقيم ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الاستقامة ، ويستنجح بابتهاله هنالك كلُّ ذي أَرْبٍ . والبيتُ حَجَرٌ والعبدُ مَذْرُؤٌ^(١) ، والحق سبحانه ربط المدر بالحجر ليُعْلَمَ أنه الذي لم يَزَلْ لا سبيل إليه للحدثان والغير .

قوله جلَّ ذكره: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

شديد العقاب للأعداء ، غفور رحيم للأولياء .

ويقال شديد العقاب للخواص بتعجيل الحجاب إن زاغوا عن الشهود لحظةً ، غفور رحيم للعوام إن رجعوا إليه بتوبة وحسرة .

قوله جلَّ ذكره: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْغَيْبُ وَالظَّاهِرُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْغَيْبِ فَاْتَقُوا اللَّهَ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابَ لَمَّا لَكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

المتفرِّد بالإلهية اللُّهُ . والرسولُ - وإنَّ جلَّ قَدْرُهُ - فليس عليه إلا البلاغ وهو أيضاً (بتسييره) .

(١) المدر: قطع الطين اليابس المتماسك .

قوله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾: الخبيث ما اكتسبه الغافل عن الله تعالى في حالة اكتسابه، والطيب ما اكتسبه على شهود الحق.

ويقال الخبيث ما لم يُخْرِجْ منه حقُّ الله تعالى، والطيب ما أُخْرِجَ منه حقه - سبحانه. ويقال الخبيث ما ادخرته لنفسك، والطيب ما قدمته لأمره.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

إذا أسبل عليكم ستر اللطف فلا تتعرضوا لعلم أخفي عنكم، فيتغنص (بالتجسس...) - عليكم - عيشكم.

ويقال لا تتعرضوا للوقوف على محل الأكابر - حيث لا تستوجبون ذلك - فيسوءكم تقاصر رتبك.

ويقال إذا بدا من الإعراض علم فاطلبوا له عندكم وجهاً من التفال ولا تطلبوا أسرار الباري، واركنوا إلى روح المني في استدفاع ما ظلكم ولا تبحثوا عن سر ذلك، وراعوا الأمر مجملاً.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

يعني توهم قوم أنهم محرورون عن التأثير فيما يصادفهم في فجاءة التقدير، وذلك منهم ظن، كما يقول بعضهم:

تبين يوم البين أن اعتزامه على الصبر من إحدى الظنون الكواذب
قوله جل ذكره: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وِصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

هذه أحكام ابتدعوها، فردهم الحق - سبحانه - عن الابتداع، وأمرهم بحسن الاتباع، وأخبر أن ما صدر من عاداتهم لا يُعَدُّ من جملة عبادتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوْا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

إذا هتفت بهم دواعي الحق بالجنوح إلى وصف الصدق صدّهم عن الإجابة ما مرونا عليه من سهولة التقليد، وإن أسلافهم الذين وافقوهم لم يكونوا إلا في ضلال.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصْرَحُكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(١) بقية الكلمة بياض في الأصل.

يكفي للفقير أن يمشي وقد جبر بعض كسره، فأما إذا ادعى التقدم أو الطمع في إنجاد من سواه فمحال من الحدث والظن.

ويقال من يفرغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه، ومن اشتغل بنفسه لم يتفرغ إلى غيره.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ حَضَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تُحْسِنُونَهَا مِنْ بَعْدِ الْمَعْلُومَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَئِمِّينَ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَيْهِمَا وَمَا أَغْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَنْتُمْ اللَّهُ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

حكم هذه الآية كان ثابتاً في الشرع ونسخ، وفي بيان التفسير تفصيله. والنسخ هو الإزالة، وذلك جائز في العبادات.

ومعنى النسخ يوجد في سلوك المريدين؛ فهم في الابتداء فرضهم القيام بالظواهر من حيث المجاهدات، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شيء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر، فهو كالنسخ من حيث الصورة.

قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. واتصافهم بمراعاة القلوب أنهم بتأديبهم بأحكام المعاملات.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّا كُنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾.

يكاشفهم بنعت الجلال فتختس فهمهم وعلومهم حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق ويقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، وهكذا تكون الحالة غداً: مَنْ قال لشيء، أو مَال لشيء مما يكون نعتاً بمخلوق فعند ظهور وابل التعرُّز تتلاشى الجملة، فالملائكة يقولون: «ما عبدناك حق عبادتك» والأنبياء يقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِبَ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَرَىٰ الْأَكْشَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لِيُسْبِتَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُّبِينٌ﴾.

التذكيرُ بوجوه النعم يستخرج خلاصة الحب والهيمنان في المذكور وكل وقتٍ للأحباب يمضي يصير لهم حديثاً يتلى من بعدهم: إما عليهم وإما عنهم .
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَآمَنَّا وَآمَنَّا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

وإنما خصَّهم بالوحي إلهاماً وإكراماً لانسباط ضياء عيسى عليهم^(١)، وفي الأثر: «هُم الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسٌ»^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نَزِّلْهُ رَبُّكَ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

طلبوا المائدة لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة، فعذروا وأجيبوا إليها؛ إذ كان مرادهم حصول اليقين وزيادة البصيرة .

ويقال كل يطلب سؤله على حسب ضرورته وحالته، فمنهم من كان سكونه في مائدة من الطعام يجدها، ومنهم من يكون سكونه في (فائدة) من الموارد يردها، وعزيز منهم من يجد الفناء عن برهان يتأمله، أو بيان دليل يطلبه .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

شأن بين أمة طلب لهم نبئهم سكوناً بانزال المائدة عليهم، وبين أمة بداهم - سبحانه بانزال السكينة عليهم، من غير سؤال أحد، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] .

وقال في صفتهم: ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] .

وفرق بين من زيادة إيمانه بآياته التي تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تُباح لهم .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُتْلِمِينَ﴾ .

أجابه إلى سؤاله لهم، ولكن توعدهم بالليم العقاب لو خالفوا بعده ليغلم السالكون أن المراد إذا حصل، وأن الكرامة إذا تحققت - فالخطر أشد والحال من الآفة أقرب،

(١) هذا شبيه بفكرة الفشيري في الولاية . (انظر الرسالة في حديثه عنها ص ٢٥٩ - ٢٦٣) .

(٢) أخرجه الترمذي (دعوات ١٢٩)، وأحمد بن حنبل ٢، ٢٥٢، ٣٥٩، ٣٨٣ .

وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى، ومحن الأكابر إذا حلت جلّت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا تَقُولُ لِلنَّاسِ أُخَذُونِي وَأُمِّي إِلَهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾.

المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث^(١)، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشریف.

ثم إن عيسى - عليه السلام - حفظ أدب الخطاب فلم يُزكّ نفسه، بل بدأ بالثناء على الحق - سبحانه - فقال: تنزيهاً لك! إنني أنزهك عما لا يليق بوصفك.

ثم قال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي إنني إن كنت مخصوصاً من قبلك بالرسالة - وشرط النبوة العصمة - فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لي؟

ثم إنني ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾: كان واثقاً بأن الحق - سبحانه - عليم بنزاهته من تلك القالة.

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾: أي علمك محيط بكل معلوم.

﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي لا أطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعرّفني بإعلامك. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ الذي لا يخرج معلوم عن علمك، ولا مقدور عن حكمك.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ما دعوتهم إلا لعبادتك، وما أمرتهم إلا لتوحيدك وتقديسك، وما دمت حياً فيهم كنت (...) (٢) على هذه الجملة، فلما فارقتهم كان تصرفهم في قبضتك على مقتضى مشيئتكم، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وُضْعِي وفاقهم وخلافهم، وِنِعْمَتِي اقتصادهم وإسرافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

بيّن أن حكم المولى في عبيده نافذ بحكم إطلاق ملكه، فقال إن تعذيبهم يحسن منك تعذيبهم وكان ذلك لأنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم أي المُعِز لهم بمغفرتك لهم.

(١) التثليث: ما كَوّن من ثلاثة، ومنه الثالوث الأقدس رمزاً للأقانيم الثلاثة عند النصارى الأب والابن وروح القدس.

(٢) بياض في الأصل.

ويقال أنت العزيز الحكيم الذي لا يضرَكَ كُفْرُهُمْ.

ويقال ﴿الْعَزِيزُ﴾ القادر على الانتقام منهم فالعفو (عند) القدرة سِمَةُ الكرم، وعند العجز أَمَارَةُ الدُّل.

ويقال إن تغفر لهم فإنك أعزُّ من أن تتجمل بطاعة مطيع أو تنتقص بِزِلَّةِ عاصٍ. وقوله ﴿الْحَكِيمُ﴾ ردُّ على من قال: غفران الشُّركِ ليس بصحيح في الحكمة.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

مَنْ تعَجَّلَ ميراثَ صدقه في دنياه من قبولٍ حصل له من الناس، أو رياسةٍ عقدت له، له أو نفع وصل إليه من جاءه أو مالٍ. فلا شيء له في آجله من صواب صدقه، لأن الحق - سبحانه - نصَّ بأنَّ يومَ القيامة ينفع فيه الصادقين صدقهم.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ورضاء الحق - سبحانه - إثباتٌ مَحَلٍّ لهم، وثناؤه عليهم ومدحُه لهم، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله. ورضاؤهم عن الحق - سبحانه في الآخرة وصولهم إلى مناهم؛ فهو الفوز العظيم والنجاة الكبرى.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾.

تَمَدَّحٌ لحق - سبحانه - بقدرته القديمة الشاملة لجميع المقدورات، الصالحة لإيجاد المصنوعات، ولم يتجمل بإضافة غيرِ إلى نفسه من اسمٍ أو أثرٍ، أو عينٍ أو طلل.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من الإبعاد والإسعاد، والصد والرد، والدفع والنفع، والقمع والمنع.

السورة التي تذكر فيها الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باسمه استنارت القلوب واستقلت، وباسمه زالت الكروب واضمحلت، وبرحمته عرفت الأرواح وارتاحت، وبأ... (١) انْخَسَتْ (٢) العقول فطاحت.

ويقال باسم الله نال كل مؤمل مأموله، وبرحمة الله وجد كل واجد وصوله.
قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

بدأ الله - سبحانه - بالثناء على نفسه، فحمد نفسه بشنائه الأزلي وأخبر عن سنائه الصمدي، وعلائه الأحدي فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: «فالذي» إشارة و ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ عبارة. استقلت الأسرارُ بسماع «الذي» لتحقيقها بوجوده؛ ودوامها لشهوده، واحتاجت القلوب عند سماع «الذي» إلى سماع الصلة لأن «الذي» من الأسماء الموصولة بكون القلوب تحت ستر الغيب فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.
خَلَقَ ظِلْمَةَ الليل وضياء النهار، ووحشة الكفر والشرك، ونور العرفان والاستبصار.

ويقال جَعَلَ الظلمات نصيب قوم لا لجُزْمِ سَلَفٍ، والنور نصيب قوم لا لاستحقاق سبق، ولكنه حُكْم به جرى قضاؤه.

ويقال جعل ظلمات العصيان محنة قوم، ونور العرفان نزهة قوم.
قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمَعُّونَ﴾.

(٢) الانخاس: التأخر والتخلف.

(١) بياض في الأصل.

أثبت الأصل من الطين وأدعها عجائب (السير) وأظهر عليها ما لم يظهر على مخلوق، فالعبرة بالوصل لا بالأصل؛ فالوصل قُرْبَةٌ والأصل تَرْبَةٌ، الأصل من حيث النطفة والقطرة، والوصل من حيث القرينة والنصرة.

قوله ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ﴾: جعل للامتحان أجلاً، ثم جعل للامتحان أجلاً، فأجل الامتحان في الدنيا، وأجل الامتحان في العقبى.

ويقال ضَرَبَ للطلب أجلاً وهو وقت المهلة، ثم عقبه بأجل بعده وهو وقت الوصلة؛ فالمهلة لها مدى ومنتهى، والوصلة بلا مدى ولا منتهى؛ فوقت الوجود له ابتداء وهو حين تطلع شمس التوحيد ثم يتسرد فلا غروب لها بعد الطلوع.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

وهو الذي هو معبود من في السماء، مقصود من في الأرض، وهو الموجود قبل كل سماء وفضاء، وظلام وضياء، وشمس وقمر، وعين وأثر، وغير وغير.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. أي لا يزيدهم كشفاً ولطفاً إلا قابله جحداً وكفراً، ولا يؤليهم إقبالاً إلا قابله بإعراض، ولا يلقاهم بسطاً إلا (١) بانقباض.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَدَّيْنِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

إنهم أصرُّوا على الخلاف مستكبرين، وعن قريب يقاسون وبال أمرهم، ويدوقون غيب جُحْدِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ كَمَا مَخْلَقْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُرٍّ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

يعني من تقدَّمهم كانوا أشدَّ تمكناً في إمهالنا، وأكثر نصيباً - في الظاهر - من أقوالنا؛ سهلنا لهم أسباب المعاش، وسعنا عليهم أبواب الانتعاش، فحين وطَّئوا على كواذب المنى قلوبهم، وأدركوا من الدنيا محبوبهم ومطلوبهم فتحنا عليهم من مكامن التقدير، وأبرزنا لهم من غوامض الأمور ما فزعوا عليه من اللذم، وذاقوا دونه طعم الألم. ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين، وأورثناهم مساكنهم، وأسكناهم

(١) بياض في الأصل.

أماكنهم، فلما انخرطوا - في الغي - عن سلوكهم، ألحقناهم في الإهلاك بهم، سنّة منا في الانتقام قضيناها على أعدائنا، وعادة في الإكرام أجريناها لأوليانا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

يُخْبِرُ عن كمالِ قدرته في إبداء ما يريد بعد ما قَضَى لهم الضلال، فلو أشهدهم كُلّ دليل، وأوضح لهم كل سبيل ما ازدادوا إلا تمادياً في الضلال والنفرة، وانهماكاً في الجهل والغي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾.

بَيِّنَ أَنَّ العبرة بالقسمة دون الاعتبار بالحجة، وما يغني السراج عند مَنْ فَقَدَ البصر؟ كذلك ما تغني الحجج عند مَنْ عدم عناية الأزل؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾.

مَنْ لم يُقَدِّسْ سِرَّهُ لَبَسَ عليه أمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

أي سَبَقَكَ - يا محمد - مَنْ كَذَّبَ به كما كُذِّبْتَ، فحقّ لهم نصرنا، فانتقمنا ممن ناوئهم، فعاد إليهم وبأل كيدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

قُلْ دوخوا في الأرض، وسيحوا^(١) في سيركم فيها من الطول والعرض، ثم انظروا هل أفلت من حكمنا أحد، وهل وجد من دون أمرنا مُلتحداً^(٢)؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ

لِيَجْمَعَنَّهُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لَا رَبَّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

سَلِّهُم هل في الدار ديار؟ وهل للكون - في التحقيق - عند الحق مقدار؟ فإن بقوا عن جواب يشفي، فَقُلْ: الله في الربوبية يكفي.

قوله: ﴿كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾: أَخْبَرَ وَحَكَمَ وأَرَادَ على حسب ما عَلِمَ، فَمَنْ تَعَلَّقَ بنجاته عِلْمُهُ سَبَقَ بدرجاته حُكْمُهُ، وَمَنْ عَلِمَهُ في آزاله أنه يَشْقَى فبقدر شقائه في البلاء يبقى.

(١) ساح فلان في الأرض: ذهب في الأرض أو سار فيها.

(٢) التحد إلى الحصن أو الصديق: لجأ إليه أو اعتمد عليه. والمُلتحد: الملجأ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمْ مَّا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

الحوادث لله ملكاً، وبالله ظهوراً، ومن الله بدءاً، وإلى الله رجوعاً. وهو ﴿السَّمِيعُ﴾ لأنّين المشتاقين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحنين الواجدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَمْعِدُ وَلِيًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أبعد ما أكرمني بجميل ولايته أتولى غيره؟ وبعد ما وقّع عليّ ضياء عنايته أنظر في الدارين إلى أحد؟ إنّ هذا محال في الظن والتقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾.

له نعت الكرم فلذلك يطعم، وله حق القدم فلذلك لا يطعم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي إني بعجز متحقق، ومن عذاب ربي مشفق، وبمتابعة أمره متخلّق.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

من أدركه سابق عنايته صرف عنه لاحق عقوبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إنّه من ينجيك من البلاء، ومن يُلقيك في العناء. وإذا المتفرّد بالإبلاغ واحد فالأغيار كلهم أفعاله؛ وإن الإيجاد لا يضلح من الأفعال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

علت رتبة الأحدية صفة البشرية، فهذا لم يزل لم يكن فحصل. ومتى يكون بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التوحيد؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ يُلْحِقْ أَيْتَكُمْ لَتَشْهَدُوا أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

غلبت شهادة الحق - سبحانه - كلّ شهادة، فهم إذا أقبلوا يشهدون فلا تحيط بحقائق الشيء علومهم، والحق - سبحانه - هو الذي لا يخفى عليه شيء، ثم أخبره - ﷺ أنه مبعوث إلى الكافة ومن سيوجد إلى يوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِمِرْثَتِهِمْ كَمَا بِمِرْثَتِ آبَائِهِمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أحاط علمهم بصدق المصطفى - ﷺ - في نبوته، ولكن أدركتهم الشقاوة الأزلية

فَعَقَدْتُ أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ الْإِقْرَارِ بِهِ؛ فَجَحَدُوهُ جَهْرًا، وَعَلِمُوا صِدْقَهُ سِرًّا.
 قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

شؤم الخذلان بلغ بالنكاية فيهم ما جرَّهم إلى الإصرار على الكذب على الله تعالى، ثم لم يستحيوا من اطلاعه، ولم يخشوا من عذابه.
 قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمَاعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

يجمعهم ليوم الحشر والنشر، لكنه يفرقهم في الحكم والأمر، فالبعث يجمعهم ولكن الحكم يفرقهم.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ لَوْ كُنْ فَتَنَّاهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.
 هذا الذي أخبر عنهم غاية التمرد؛ حيث جحدوا ما كذبوا فيه وأقسموا عليه، ولو كان لهم بالله علم بأنه يعلم سرهم ونجواهم، ولا يخفى عليه شيء من أولاهم وعقباهم، لكن الجهل الغالب عليهم استنطقهم بما فيه فضائحهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.
 هذه كلمة تعجب؛ يعني إن قصتهم منها ما هو محل التعجب لأمثالكم.
 قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

بَيَّنَّ أَنْ السَّمْعَ - فِي الْحَقِيقَةِ - سَمْعُ الْقَبُولِ، وَذَلِكَ عَنْ عَيْنِ الْيَقِينِ يَصْدُرُ، فَأَمَّا سَمْعُ الظَّاهِرِ فَلَا عِزَّةَ بِهِ.

ويقال مَنْ ابْتَلَاهُ الْحَقُّ بِقَلْبٍ مُطْبِقٍ، وَوَضَعَ فَوْقَ بَصِيرَتِهِ غِطَاءَ التَّلْبِيسِ لَمْ يَزِدْهُ ذَلِكَ إِلَّا نَفْرَةً عَلَى نَفْرَةٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُفْلًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾.

يعني مَنْ أَقْصَتْهُ الْقِسْمَةُ الْأَزَلِيَّةُ لَمْ تَنْعَشْهُ الْحِيلَةُ الْأَبَدِيَّةُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

في هذه الآية إشارة صعبة (لمن) يدعو إلى الحق جهراً ثم لا يأتي بذلك سراً.
 ويقال خَالَفَتْ أحوالهم قضايا أقوالهم، وجرى إجرامهم مجرى مَنْ ألقوا جبالهم على غاربيهم، وكذلك من أبعدته عن القسمة لم يقربه فعله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ رَرَيْتَ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يعني حين ينجز للعبد ما وعده له من القربة يشغل من شاء بنوع من العلة حتى لا يطلع أحد على محل الأسرار.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَقُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

غداً يوم تنتهك الأسرار، وتظهر الأسرار - فكم من مجلّل بشوب تقواه، وبخكم له معارفه بأنه زاهد في دنياه، راغب في عقباه، محب لمولاه، مفارق لهواه، فيكشف الأمر عن خلاف ما فهموه، ويفتضح عندهم بغير ما ظنوه.

وكم من متهتك ستر بما أظهر عليه! ظن الكل أنه خليع العذار هيئ الأعلال، مشوش الأسرار، فظهر لذوي البصائر جوهره، وبدت عن خفايا الستر حقيقته.

ثم قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أخبر عما علم أنه لا يكون أنه لو كان كيف كان يكون؛ فقال لو ردّ أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم، وكذلك لو ردّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى حسن أعمالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ رَرَيْتَ إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

يا حسرة عليهم من موقف الخجل، محل مقاساة الوجّل، وتذكر تقصير العمل! فهم واقفون على أقدام الحسرة، يقرعون أسنان الندز حين لا ندم ينفعهم، ولا شكوى تُسمع منهم، ولا رحمة تنزل عليهم.

وحين يقول لهم: أليس هذا بالحق؟ يُقِرُّون كارهين، ويصرخون بالتبري عن كل غير.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَعْتَهُ قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَى مَا قَرَرْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَكَ أَلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

خسران وأي خسران! لم يخسروا مالا، ولا مقاماً ولا حالاً، ولكن كما قيل:

لعمري لئن أنزفتُ دمعِي فإنه لفرقهِ مَنْ أفْنَيْتُ في ذكره عمري
المصيبة لهم والحسرة على غيرهم، ومن لم يعرف جلال قدره متى تأسف على ما يفوته من حديثه وأمره!

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: ما كان للنفس فيه حظ ونصيب اليوم فهو من الدنيا، وما كان من الدنيا فإنه - لا محالة - يلهيك عن مولاك، وما يشغلك عن الحق ركونه فغير مبارك قربة.

قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾: هذه تعزية للرسول - ﷺ - وتسلية. أي قد نعلم ما قالوا فيك وهم إنما قالوا ذلك بسببنا ولأجلنا. ولقد كنت عظيم الجاه فيهم قبل أن أوقعنا عليك هذا الرقم؛ وكانوا يسمونك محمداً الأمين، فإن أصابك ما يصيبك فلا أجل حديثنا، وغير ضائع لك هذا عندنا، وحالك فينا كما قيل:

أشاعوا لنا في الحي أشنع قصة
وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حرباً
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّى آتَيْنَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ﴾.

يعني إن من سلك سبيلنا صبر على ما أصابه من حديثنا، فلا خسرنا فينا صفقته، ولا خفيت علينا حالته، وما قابل حكمنا من عرفنا إلا بالمهيج، وما حملوا ما لقوا فينا إلا على الحق:

إن الألى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنية منهلاً معسولا
قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَغْفَتْ أَنْ تَبْنِيَ نَقًّا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

لفرط شفقتهم - ﷺ - استقصى في التماس الرحمة من الله لهم، وحمل على قلبه العزيز بسبب ما علم من سوء أحوالهم ما أثر فيه من فنون الأحزان. فعرفه أنهم مبعدون عن التقريب، منكوبون بسالف القسمة.

ولو أراد الحق - سبحانه - لخفف عنهم، ولو شاء أن يهديهم لكان لهم مقيل في الصدور، ومثوى على النشاط، ولكن من كبسته العزة لم تُنعشه الحيلة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. من فقد الاستماع في سرائره عدم توفيق الاتباع بظاهره، والاختيار السابق في معلومه - سبحانه - غالب.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

استزادوا من المعجزات وقد حصل من ذلك ما يذبح العذر، ولم يعلموا أن الله

المانع لهم فلولا ما (.. .) (١) من بصائرهم لما تواهموا من عدم دلائلهم .
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَتَيْنَاهُمْ مَا قَدَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ .

يعني تساوت المخلوقات، وتماثلت المصنوعات في الحاجة إلى المُنشئ: في حال الإبداع ثم في حال البقاء، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت عن الإيجاد والاختيار، فما من شيء من عين وأثر، ورسم وظلل .. إلا وهو على وحدانيته شاهد، وعلى كون أنه مخلوق .. دليل ظاهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءُ بِكْرِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يُشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

الذين فاتتهم العناية الأزلية. سدّ الحرمان أسماعهم، وغشى الخذلان أبصارهم .
 والإرادة لا تعارض، والمشية لا تزاحم، والحق - سبحانه - في جميع الأحوال غالب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِلَٰهَ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَلْسَنُونَ مَا تُنْشِرُونَ﴾ .

إذا مسّكم الضرّ، ونابكم أمرٌ فيمن ترومون كشفه؟ ومن الذي تؤملون لطفه؟
 أم مخلوقاً شرقياً أم شخصاً غريباً؟ أم ملكاً سماوياً أم عبداً أرضياً؟

ثم قال: ﴿بَلْ إِلَٰهَ تَدْعُونَ﴾: أي إنكم - إن تذللتم بنفوسكم أو فكرتم طويلاً بقلوبكم - لن تجدوا من دونه أحداً، ولا عن حكمه ملجأ، فتعودون إليه في استكشاف الضر، واستلطاف الخير والبر، كما قيل:

ويرجعني إليك - وإن تناءت ديارني عنك - معرفة الرجال
 وقد تركناك للذي تريد فعسى إن خبّرتّه أن تعودا
 فإذا جرّبت الكل، ودقّت الحلو والمرّ، أفضى بك الضرّ إلى بابه، فإذا رجعت بنعت الانكسار، وشواهد الذل والاضطرار، فإنه يفعل ما يريد: إن شاء أتاح اليسر وأزال العسر، وإن شاء ضاعف الضرّ وعوّض الأجر، وإن شاء ترك الحال على ما (قبل) السؤال والابتهاال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يُضْطَرُّونَ﴾ .

(١) بياض في الأصل.

يخبر عن سالف سنته في أبداء الأمم وما أوجب لمن أطاعه منهم من النعم والكرم، وما أحلّ بمن خالفه من الألم وفنون النقم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

يعني أنهم لما أظلمهم البلاء، فلو رجعوا بجميل التضرع وحسن الابتهاال والتملق لكشفنا عنهم المحن، ولأتحنّا لهم المنن، ولكن صدّهم الخذلان عن العقبي فأصروا على تمردهم، فقسّت قلوبهم وتضاعفت أسباب شقوتهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يخبر عن خفيّ مكره بهم، وكيف أنه استدريجهم، ثم أذاقهم وبال أمرهم فقال: لما طالث عن الحضرة غيبتهم، ولم تنجح مواعظنا فيهم سهّلنا لهم أسباب العوافي وصببنا عليهم عزالي^(١) النعم، وفتحنا لهم أبواب الرفاهية، فلما استمكن الرجاء من قلوبهم أخذناهم بغتة وعذبناهم فجأة، وأدقناهم حسرة فإذا هم من الرحمة قانطون، ولما خامر قلوبهم - من أسباب الوحشة عن الاستراحة بدوام المناجاة - آيسون.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَقُطِعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى لم يبق منهم عين ولا أثر، ولم يرّد حديث منهم أو خبر، والله - سبحانه وتعالى - بنعت العزّ واستحقاق الجلال لا عن فقدهم له استيحاش، ولا بوجودهم استرواح أو استبشار.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾.

عرّفهم محلّ عجزهم، وحقيقة حاجتهم إلى القدرة القديمة لدوام فقرهم.

وحذّره فقال: إنّ لم يدم عليهم نعمة أسماعهم وأبصارهم، ولم يوجب لهم ما ألبسهم من العوافي - بكل وجه في كل لحظة - فمن الذي يهب ما سلبه، أو يضع ما منعه، أو يعيد ما نفاه، أو يرّد ما أبداه؟ كلا... بل هو الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أُنْكَمَ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

يقول إنّ عجل موعوده لكم من العقاب أفترون أن غير المستوجب يُنتلى؟ أو أن

(١) العزالي: يقال: أرسلت السماء عزاليها: كثر مطرها على المثل (اللسان ١١/٤٤٣).

المستحق له يجد من دونه مهرباً ومنجى؟ إن هذا محال من الظن.
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بِمَسْئُمِ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِقُونَ﴾.

يعني ليس أمرنا لهم إلا بالتزام ما فيه نجاتهم، ثم بجميل الوعد لهم، ومفارقة ما فيه هلاكهم، ثم باليم العقوبة في الآجل ما يحل من خلافهم.
فَمَنْ ءَامَنَ وَصَدَّقَ أَنْجَزْنَا لَهُ الْوَعْدَ، وَمَنْ كَفَرَ وَجحد عارضنا عليه الأمر، وأدخلنا عليه الضر.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

يعني قل لهم إني لا أتخطى خطي، ولا أتعدى حدي، ولا أثبت من ذات نفسي شيئاً، وإنما يقال لي أبلغت؟ وأقول: أجل، أوصلت.

ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾: هل يتساكل الضوء والظلام؟ وهل يتمثل الجحْد والتوحيد؟ كلا... لا يكون ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الإنذار إعلام بمواضع الخوف، وإنما خص الخائفين بالإنذار كما خص المتقين بإضافة الهدى إليهم حيث قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] لأن الانتفاع والاتباع بالتقوى، والإنذار اختص بهم.

ويقال: الخوف ها هنا العلم، وإنما يخاف من علم، فأما القلوب التي هي تحت غطاء الجهل فلا تباشرها طوارق الخوف.

قوله: ﴿مَنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤] يعني كما أنه لا ناصر لهم من الأغيار فلا معتمد لهم من أفعالهم، ولا مستند من أحوالهم، ولا يؤمنون شيئاً سوى صرف العناية وخصائص الرحمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَأُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْطَرُدَهُمْ فَكَفُونَهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

هذه وصية له - ﷺ - في باب الفقراء والمستضعفين، وذلك لما قصروا لسان المعارضه عن استدفاع ما كانوا بصدده من أمر إخلاء الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - مجلسه منهم، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدي الله أراد أن يبين له أثر حسن الابتغال فتولّى - سبحانه - خصيمتهم.

وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: لا تنظر يا محمد إلى خرقتهم على ظاهريهم وانظر إلى خرقتهم في سرائريهم.

ويقال كانوا مستورين بحالتهم فشهريهم بأن أظهر قصتهم، ولولا أنه - سبحانه - قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فشهد لهم بالإرادة وإلا فمن يتجاسر أن يقول إن شخصاً مخلوقاً يريد الحق سبحانه؟

ويقال إذا كانت الإرادة لا تتعلق - في التحقيق - إلا بالحدوث، وحقيقة الصمدية متقدمة عن الاتصاف بالحدثان، فمن المعلوم أن هذه الإرادة ليست بمعنى المشيئة، ولا كاشتقاق أهل اللغة لها^(١).

فيقال تكلم الناس في الإرادة: وأثر تحقيقها أنها احتياج يحصل في القلوب يسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله؛ فصاحب الإرادة لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً، ولا يجد من دون وصوله إليه - سبحانه - سكناً ولا قراراً، كما قال قائلهم:

ثم قطعت الليل في مهمّة لا أسداً أخشى ولا ذيباً^(٢)

يغلبني شوقي فأطوي السرى ولم يزل ذو الشوق مغلوباً

ويقال تقيدت دعوتهم بالغداة والعشي لأنها من الأعمال الظاهرة، والأعمال الظاهرة مؤقتة، ودامت إرادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم لأنها من الأحوال الباطنة، والأحوال الباطنة مسرمة غير مؤقتة، فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ثم قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي مريدين وجهه فهي في موضع الحال.

ويقال أصبحوا ولا سؤال لهم من دنياهم، ولا مطالبة من عقابهم، ولا هم سوى حديث مولاهم، فلما تجردوا لله تمحضت عناية الحق لهم، فتولّى حديثهم وقال: ولا تطردهم - يا محمد - ثم قال: ما عليك من حسابهم من شيء؛ فالفقير خفيف الظهر لا يكون منه على أحد كثير مؤنة؛ قال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا تطالب بحسابهم ولا يطالبون بحسابك، بل كل يتولى الحق - سبحانه - حساب؛ فإن كان أمره خيراً فهو ملاقيه، وإن كان شراً فهو مقاسيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

أما الفاضل فليشكر، وأما المفضول فليصبر.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٠١ في حديث القشيري عن الإرادة.

(٢) المهمة: المفازة البعيدة (ج) مهامه.

ويقال سبيل المفضل على لسان المحبة الشكر، ولا يتقاصر شكره عن شكر الفاضل، قال قائلهم في معناه:

أتاني منك سبك لي فسبني أليس جرى بفيك اسمي؟ فحسبي وقال آخر:

وإن فؤاداً بغته - لك شاكر - وإن دماً أجريته - لك حامد
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

أحلّه محل الأكابر والسادة، فإن السلام من شأن الجاني إلا في صفة الأكابر؛ فإن الجاني أو الآتي يسكت لهية المأتي حتى يتبدى ذلك المقصود بالسؤال، فعند ذلك يجيب الآتي.

ويقال إذا قاسوا تعب المجيء فازل عنهم المشقة بأن قل: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾. ويقال السلام هو السلامة أي قل لهم سلام عليكم؛ سلمتم في الحال عن الفرقة وفي المال عن الحزقة.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾
إن وكل بك من كتب عليك الزلة فقد تولّى بنفسه لك كتابة الرحمة. ويقال كتب بمعنى حكّم، وإنه ما حكم إلا بما علم. ويقال كتابته لك أزية، وكتابته عليك وقية، والوقية لا تبطل الأزية.
قوله جل ذكره: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ شَرَّ تَابٍ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنْتُمْ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.

يعني من تعاطى شيئاً من أعمال الجهال ثم سوف في الرجوع والأوبة قابلناه، يعني من تعاطى شيئاً بحسن الإمهال وجميل الأفضال، فإذا عاد بتوبة وحسرة أقبلنا عليه بكل لطف وقبول.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَلْبَابَ وَالْعِصْيَانَ سَبِيلَ الْمُتَكِبِينَ﴾.
نزيل الإشكال، ونقصح طريق الاستدلال، ونطليع شمس التوحيد، ونمد أهله بحسن التأيد، ونسب قلوب الأعداء بوسم الخذلان، ونذيقهم شؤم الحرمان لئلا يبقى لأحد عذر، ولا في الطريق إشكال.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾.

يعني صرح بالاعتراف بجميل ما خصصناك به من وجوه العصمة والنعمة،

وأخبرهم أنك في كنف الإيواء مُتَقَلَّبٌ، وفي قبضة (الصون) مُصَرَّفٌ؛ فلا للهوى عليك سلطان، ولا لك من محل التحقيق تباعد أو عن الحضور غيبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصَحُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ ۚ﴾.

قل إن الله - سبحانه - لم يغادرني في قطر الطلب والتباس التحير، وأغواني عن (كُد) الاستدلال، وروّحني بشموس الحقيقة. ولئن بقيتم في ظلمة الالتباس فليس لي قدرة على إزالة ما مُننيتم به من التحير، ونفي ما أمّختنتم به من الجهالة والتردد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ۚ﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۚ.

لو قدرتُ على إبداء ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم عليّ - شفقةً عليكم، لكن المتفرد بالحكم لا يُعَارِضُ فيما يريد.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾: المفتاح ما به يرتفع العَلَقُ، والذي يحصل مقصود كل أحد، وهو قدرة الحق - سبحانه؛ فإن التأثير لها في الإيجاد، والموصوف بقدره الإيجاد هو الله.

ويقال أراد بهذا شمول علمه، أي هو المتفرد بالإحاطة بكل معلوم، وقطعاً لا يُسأل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

ويقال عندك مفاتيح الغيب وعنده مفاتيح الغيب فإن أمنت بغيبه مدّ الشمس على غيبك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ﴾.

إنه يتوفّى الأنفس في حال النوم وفي حال الوفاة، وكما أنه لا يعاقبك بالليل فإنه لا يعذبك - إذا توفّاك - على ما جرحت بالنهار مع علمه بأفعالك، فبالحرى ألا يعذبك عدأً - إذا توفّاك - على ما علمه من قبيح أحوالك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ۚ﴾.

فوق عباده بالقهر والرفعة، وفوقهم بالقدرة على أن يُعَذَّبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم والسخطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَانُهُمْ الْحَقُّ لَا لَهُ الْخُفْيَةُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ .

ردّهم إلى نفسه . وما غابوا عن القبضة .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْمَلْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَكُمْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ .

تذكير النعمة يوجب الزيادة في المحبة، فإنه إذا عرف جميلاً أسداه تمكّن من قلبه الحبّ .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ .

المتفرّد بالقدرة على إيجادكم منها، والذي هو (الخَلْفَ) عما يفوتكم الله، والذي حكّم بنجاتكم الله، والذي يأخذ بأيديكم كلما عثرتم الله .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا﴾ .

إذا أراد الله هلاك قوم أمر البلاء حتى يحيط بهم سراقه^(١) كما يحيط بالكفار غداً إذا أدركتهم العقوبة، وخرج بعضهم على بعض؛ حتى يتبرأ التابع من المتبوع، والمتبوع من التابع .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْتُمْ مُّخَوِّفُونَ أَلَيْسَتْ لَكُمُ الْآيَاتُ لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُوْنَ﴾ .

لا طعم أرداً للإنسان من طعم الإنسان: إن شئت من الولاية والمحبة، وإن شئت في العداوة والبغضة؛ فَمَنْ مُّني بالبغضة مع أشكاله تنغص عليه عيشه في الدنيا، وَمَنْ مُّني بمحبة أمثاله تكدر عليه حاله مع المولى، ومن صانه عن الخلق فهو المحفوظ (المعاني) .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ بَلَاءٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

يعني قل لهم إنما على تبليغ الرسالة، فأما تحقيق الوصلة بالوجود والحال فَمِنْ خصائص القدرة وأحكام المشيئة الأزلية .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ .

لا توافقهم في الحالة، ولا ترد عليهم ببسط القالة . ذرهم ووحشتهم بحسن الإعراض عنهم، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بحسن الانقباض .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا يُنْشِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

(١) السراق: ما يمد فوق صحن الدار وهو ستر الدار .

أَيَّ إِنَّ بَدَرَ مِنْكَ تَغَافَلَ فِتْدَارُكُتْهُ بِحَسَنِ التَّذَكُّرِ وَجَمِيلِ التَّنْبِيْهِ، فَاجْتَهِدْ أَلَا (تَزَلْ) فِي تِلْكَ الْغَلْطَةِ قَدُمُكَ ثَانِيَةً لِثَلَا تَقَاسِي أَلِيمِ الْعُقُوبَةِ مِنَّا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ إِجْسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَعِنَ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أَيَّ مَنْ كَانَ نَفْيَ (الثوب) عَنْ ارْتِكَابِ الْإِجْرَامِ يُغْزَلُ يَوْمَ نَشْرِهِ عَنْ مَلَاقَةِ تِلْكَ الْأَلَامِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ وَعَرَنَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

أَيَّ كُلِّهِمْ وَمَا اخْتَارُوهُ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ (مَنْ خَفِيَ الْمَكْرَ مَا إِذَا أَحْلَلْنَاهُ بِهِمْ كَسْرَنَا عَلَيْهِمْ) خُمَارِ الْوَهْمِ وَالْغِلْظَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُمْ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أُوَيْدَتْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَلِيمِ﴾.

أَيَّ كَانَ الْكُفْرَانُ يَدْعُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجُوعِ عَنِ الدِّينِ وَالْعَوْدِ إِلَى الشِّرْكِ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ: قُلْ لَهُمْ - يَا مُحَمَّدُ - : أَنْتُمْ زُرُّ الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى بَعْدَ طُلُوعِ شَمْسِ الْبِرْهَانِ؟

وَنَدْعُ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيَانِ؟ وَنَتْرِكُ عِقَوةَ الْجَنَّةِ وَقَدْ نَزَّلْنَاهَا؟ وَنَطْلُبُ الْجَحِيمَ مَثْوًى بَعْدَ مَا كُفِينَاهَا؟ إِنَّ هَذَا بَعِيدٌ مِنَ الْمَعْقُولِ، مُحَالٌ مِنَ الظُّنُونِ.

وَكَيْفَ يَسَاعِدُ أَتْبَاعُ الشَّيْطَانِ مَنْ وَجَدَ الْخَلَاصَ مِنْ صَحْبَتِهِمْ، وَأَبْصَرَ الْغِيَّ مِنْ صِفَتِهِمْ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أَيَّ أَمَرْنَا بِمَلَازِمَةِ مَحَلِّ الْمَنَاجَاةِ لِأَنَّ اللِّسَانَ إِنْ تَعَوَّدَ نَجْوَى السُّلْطَانِ مَتَى يَنْطِقُ (بِمَكَالِهِ) الْأَخْسُ؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَنَّا الْفَيِّبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

يعني أنه لا يعترض على قدرته - سبحانه - حدوث مقصود، ولا يتقاصر حكمه عن تصريف موجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

الأصل متهم في الجحود، والنسب متصف بالتوحيد، والحق - سبحانه - يفعل ما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

لاطفه بسابق العناية، ثم كاشفه بإلحاق الهداية فأراه من دلالات توحيده ما لم يبق في قضاء سيره شظية من غبار العيب، فلما صحا من غيم التجوز سما سيره فقال بنفي الأغيار جملة، وتبرأ عن الجميع ولم يغادر منها تهمة.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهِي بَالشَّمْسِ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقَرُونَ إِلَهِي بَرِيءٌ وَمَا تُشْرِكُونَ﴾.

يعني أحاطت به (سجوف)^(١) الطلب، ولم يتجل له بعد صباح الوجود، فطلع نجم العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان، فقال: هذا ربي ثم يزيد في ضيائه فطلع له قمر العلم فطالعه بشرط البيان، فقال ﴿هَذَا رَبِّي﴾.

ثم أسفر الصبح ومتع النهار فطلعت شمس العرفان من برج شرفها فلم يبق للطلب مكان، ولا للتجويز حكم، ولا للتهمة قرار فقال: ﴿يُنْقَرُونَ إِلَهِي بَرِيءٌ وَمَا تُشْرِكُونَ﴾ إذ ليس بعد العيان ريب، ولا عقب الظهور ستر.

ويقال قوله - عند شهود الكواكب والشمس والقمر - ﴿هَذَا رَبِّي﴾ إنه كان يلاحظ الآثار والأغيار بالله، ثم كان يرى الأشياء لله ومن الله، ثم طالع الأغيار محواً في الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أفردت قصدي لله، وطهرت عقدي عن غير الله، وحفظت عهدي في الله الله، وخلصت وجدي بالله، فإني لله بالله، بل محو في الله والله الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

(١) السجف: أحد السترين المقرونين؛ بينهما فرجة، وأسجف الليل: أظلم.

بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ .

يعني قال لهم أترومون ستر الشمس بإسبال أكمامكم عليها أو تريدون أن تجروا ذبولكم وأن تُسَدِّلُوا سجوفكم على ضياء النهار وقد تعالى سلطانه وتوالى بيانه؟

قوله جل ذكره: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

يعني وأي خوف يقع على قلبي ظله ولم أَلَمْ بِشِرْكٍ ولم أَجْنَحْ قَطُّ إلى جحد؟ وأنتم ما شئتم رائحة التوحيد في طول عمركم، ولا ذبتم طعم الإيمان في سالف دهركم! ثم بسوء ظنكم تجاسرتم وما ارعويتم، وخسرتم وما باليتهم. فأينما أولى أن يُعْلِنَ بسرّه ما هو بصدده من سوء مكره وعاقبة أمره؟

قوله جلّت قدرته: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ .

أي الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله؛ فإن من قال «الله» ثم رجع بالفضل - عند حاجاته أو مطالباته أو شيء من حالاته إلى غير الله فخصمه - في الدنيا والعقبى - الله .

والظلم - في التحقيق - وضع الشيء في غير موضعه، وأصعبه حساب أن من الحدثان ما لم يكن وكان؛ فإن المنشئ الله، والمُجْرِي الله، ولا إله إلا الله، وسقط ما سوى الله .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِكَ حُجَّتْنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

أشار إلى ترفّيه من شهود آياته إلى إثبات ذاته، وذلك ترتيب أهل السلوك في وصولهم إلى الله، فالتحقق بالآيات التي هي أفعاله ومراعاة ذلك وهي الأولى؛ ثم إثبات صفاته وهي الثانية، ثم التحقق بوجوده وذاته وهو غاية الوصول، فبرسومه يعرف العبد نعوته، وبنعوته يعرف ثبوته .

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ مِن دُرِّيَّةٍ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِن آبَائِهِمْ دُرِّيَّتُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْمَلُونَ .

ذَكَرَ عَظِيمَ الْمِنَّةِ عَلَى كَأْفَتِهِمْ - صلوات الله عليهم، وَيَبَيِّنُ أَنَّهُ لَوْلَا تَخْصِيصُهُ إِيَّاهُمْ بِالْتَّعْرِيفِ، وَتَفْضِيلِهِ لَهُمْ عَلَى سِوَاهُمْ بِغَايَةِ التَّشْرِيفِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ اسْتِجَابٌ وَلَا اسْتِحْقَاقٌ.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ... يَعْمَلُونَ﴾ يعني لو لاحظوا غيراً، أو شاهدوا - من دوننا - شيئاً، أو نسبوا شظية من الحداث - إلى غير قدرتنا - في الظهور لتلاشى ما أسلفوه من عرفانهم وإحسانهم، فإن الله - سبحانه - لا يغفر الشُّركَ بحالٍ، وإن كان (يغفر) ما دونه لمن أراد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

يعني إن أعرض قومك - يا محمد - فليس كل من (...) (١) على الجحود أظهرناهم، بل كثير من عبادنا نزهنا - عن الجحود - قلوبهم، وعَجَبْنَا بِمَاءِ السَّعَادَةِ طِينَتِهِمْ وَهُمْ لَا يَحِيدُونَ عَنِ التَّوْحِيدِ لِحِظَةٍ، وَلَا يَزِيغُونَ عَنِ التَّحْصِيلِ شَمَّةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ مُصَدِّقُ قَوْلِ لَّا أَشْكُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

أولئك الذين طهر الله عن الجحد أسرارهم، ورفّع على الكافة أقدارهم، فافتق - يا محمد - هداهم، فإن من سلك الجادة أمين من العناء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْمَعُونَ قُرْآنَهُمْ قُرْآنًا وَاحِدًا وَيُحْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَوْ تَقَالَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

من توهم أن العلوم تحيط بجلاله فالإحاطة غير سائغة في نعته، كما أن الإدراك غير جائز في وصفه، وكما أن الإشراف مُحَالٌ على ذاته.

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ أي سلّمهم عن الأحوال، وخاطبهم في معاني أحكام الرسوم والأطلال، فإن بقوا في ظلمة (الحيرة) فقل: الله تعالى، ثم ذرهم. يعني صرح بالإخبار عن التوحيد، ولا يهولئك تماديهم في الباطل، فإن تمويهات الباطل لا تأثير لها في الحقائق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَسْنَا لَكُمْ الْقُرْآنَ وَمَنْ حَوْلَهُ وَالَّذِينَ يَزِيدُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

كتاب الأحباب عزيز الخطر جليل الأثر، فيه سلوة عند غلبات الوجد، ومن بقي عن الوصول تذلل للرسول، وقيل:

وَكُتِبَ لِحَوْلِي لَا تَفَارِقْ مُضْجِعِي وفيها شفاء للذي أنا كاتِمٌ
كَأَنِّي مَلْحُوظٌ مِنَ الْجِنِّ نَظْرَةً وَمِنْ حَوَالِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ^(١)
قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

يعني إن الذين ينزلون منزلة المحدثين، ولم تلق إلى أسرارهم خصائص الخطاب - فالحق - سبحانه عنهم بريء. والمتشع بما لم يسئل كلابس ثوبي زور، وفي معناه أنشدوا:

إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾.

دَخَلَتْ الدُّنْيَا بِخَرْقَةٍ، وَخَرَجَتْ مِنْهَا بِخَرْقَةٍ، أَلَا وَتِلْكَ الْخَرْقَةُ أَيْضاً (....)^(٢)، وما دخلت إلا بوصف التجرد، ولا خرجت إلا بحكم التفرد. ثم الأنفال والأوزار، والأحمال والأوضاع^(٣) لا يأتي عليها حصر ولا مقدار؛ فلا ما لكم أغني عنكم ولا حالكم يزفع منكم، ولا لكم شفيع يخاطبنا فيكم؛ فقد تقطع بينكم، وتفرق وصلكم، وتبدد شملكم، وتلاشى ظنكم، وخانكم - في التحقيق - وسعكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

موجد ما في العالم من الأعيان والآثار والرسوم والأطلال يُسلط العدم على ما يريد من مصنوعاته، ويحكم بالبقاء لما يريد من مخلوقاته، فلا لحكمه رد، ولا لحقه جحد.

(١) الرقى: (ج) الرقية، كلام يطلب به شفاء المريض ونحوه.
التمايم: (ج) التيممة: الفؤدة، وهي ما يعلق في العنق لدفع العين.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الأوضاع: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا الْإِصْبَاحُ جَعَلَ لَيْلًا سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وكما قلنا صبح الكون فأشرقَّت الأنوارُ كذلك قلنا صبح القلوب فاستنارت به الأسرار، وكما جعل الليل سَكَنًا لِتَسْكُنَ فيه النفوس من كد التصرف عن أسباب المعاش كذلك جعل الليل سَكَنًا للأحباب يَسْكُنُونَ فيه إلى روح المناجاة إذا هدأت العيون من الأغيار.

وجعل الشمس والقمر يجريان بحسبان معلوم على حد معلوم، فالشمس بوصفها مذ خُلِقَتْ لم تنقص ولم تزد، والقمر لا يبقى ليلة واحدة على حالة واحدة فأبدأ في الزيادة والنقصان، ولا يزال ينمو حتى يصير بدرًا، ثم يتناقص حتى لا يرى، ثم يأخذ في الظهور، وكذلك دأبه دائماً إلى أن تُنْقَضَ عليه العادة.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

كما أن نجوم السماء يهتدى بها في الفلوات فكذلك نجوم القلوب يهتدى بها في معرفة رب الأرضين والسماوات.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

ذكرهم وصفهم حين خَلَقَهُمْ من آدم عليه السلام. وكما أن للنفس والأبشار مستقراً ومستودعاً فللأسرار والضمائر مستقر ومستودع، فمن عبد مُسْتَقَرَّ قلبه أوطان الشهوات والمنى، ومن عبد مستقره موقع الزهد والثقى، ومن عبد مستقره - حيث لا مسكن ولا مأوى - وراء الورى.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتَانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَا ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

تجانست أجزاء الأرض وتوافقت أقطار الكون، وتباين النبات في اللون والطعم واختلفت الأشياء، ودل كل مخلوق بلسان فصيح، وبيان صريح أنه بنفسه غير مُسْتَقِيل.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُصِفُونَ﴾.

سُدَّتْ بصائرهم فاكتفوا بكل منقوص أن يعبدوه، وتلك عقوبة لأرباب الغفلة عن الله تعالى عَجَلَتْ.

قوله جل ذكره: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صُلْبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

البديع الذي لا مثل له، أو هو المنشئ لا على مثال، وكلاهما في وصفه مستحق.

والواحد يستحيل له الولد لاقتضائه البعضية، والتوحيد ينفيه.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

تعرف إليهم بآياته، ثم تعرف إليهم بصفاته، ثم كاشفهم بحقائق ذاته.

فقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعريف للسادات والأكابر، وقوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تعريف للعوام والأصاغر.

قوله جل ذكره: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. قَدَسَ الصمدية عن كل لحوقٍ ودرك، فأنى بالإدراك ولا حد له ولا طرف؟! ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء، ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي أحاط علمه بكل معلوم. قوله جل ذكره: ﴿فَدَجَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

أوضح البيان والآخ الدليل، وأزاح العَلَلِ وأنار السبيل، ولكن قيل:

وما انتفاع أخي الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوار والظلم
قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾.

أوقع الفتنة في قلوبهم فَحَنَسَتْ عليهم الأحوال: فَمِنْ شُبْهَةٍ دَاخَلْتَهُمْ وَمِنْ خَيْرٍ مَلَكَتَهُمْ. ومن تحقيق أدركه قوم، وتعريف توقف على آخرين.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾^(١).

العَجَبُ ممن أقرَّ بقصور حاله عن استحقاق المدح ببقائه عن مراده، وكيف يصف معبوده بجواز ألا يرتفع في ملكه مراده؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

(١) الآية (١٠٦) من سورة الأنعام غير مذكورة.

يعني خَاطِبُهُمْ بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفي الشبهة، ولا تُكَلِّمُهُمْ على موجب نوازع النَّفْسِ والعادة، فَيُجَمِّلُهُمْ ذلك على ترك الإجلال لذكر الله .

ويقال لا تطابقُهُمْ على قبيح ما يفعلون فيزدادوا جرأة في غيهم، فسيكون فِعْلُكَ سبباً وعلّة لزيادة كفرهم وفسقهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

لبَّسْنَا عليهم حقائق الأشياء حتى ظنوا القبيح جميلاً، ولم يَرَوْا لسوء حالتهم تبديلاً، فركنوا إلى الهوى، ولم يميزوا بين العوافي والبلا .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنِّي إِذًا بَلَغْتُكُمْ آيَةً لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

وعدوا من أنفسهم الإيمان لو شاهدوا البرهان، ولم يعلموا أنهم تحت قهر الحكم، وما يُغْنِي وضوح الأدلة لمن لا تساعده سوابق الرحمة، ولواحق الحفظ بموجبات القسمة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

العَجَبُ ممن تَبَقَّى على قلبه شبهة في مسألة القَدَر^(١)، والحق - سبحانه - يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾، لا بل من حقائق التقلب بقاء إشكال هذا الأمر - مع وضوحه - على قلوب مَنْ هو مِنْ جملة العقلاء، فسبحان مَنْ يُخْفِي هذا الأمر مع وضوحه! هذا هو قهر القادر وحكم الواحد .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا لَإِنَّمَا الْمَلَائِكَةُ وَكَلَمُهُمْ نُفُوءٌ وَحِشْرَانَا عَلَيْهِمْ كُلِّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ .

لأن الآيات وإن توالى، وشموس البرهان وإن تعالت فَمَنْ قَصَمَتْهُ الْعِزَّةُ وَكَبَسَتْهُ الْقِسْمَةُ لم يَزِدْهُ ذلك إلا حيرة وضلالاً، ولم يستنجز إلا للشقوة حالاً .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ .

كلما كان المحل أعلى كانت البلايا أوفى، والمطالبات أقوى، فلما كانت رتب

(١) هنا إشارة إلى القدرية: تقابل الجبرية: مذهب من يرى أن للمرء حرية فيما يريد أو يفعل، وقدرة واستطاعة عليه (مو).

الأنبياء - عليهم - السلام - أشرف كانت العداوة معهم أشد وأصعب .
قوله جل ذكره: ﴿وَلِصَلَّى إِلَيْهِ أَفْعَدُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِرِضْوَةٍ وَلِغَفَرَةٍ مَا هُمْ مُقْتَرِنُونَ﴾ .

وكلت أسماع الكفار باللغو وقلوبهم بالسوء فَرَضُوا لأنفسهم أخس الأنصاء^(١) .
قوله جل ذكره: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَتَعَيَّرَ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .

قل لهم أترون أنى - بعد ظهور البيان ووضوح البرهان - أذُرُ اليقين، وأوثر التخمين وأفارق الحق، وأقارن الحظ؟ إن هذا محال من الظن .

قوله جل ذكره: ﴿وَتَنَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

تَقَدَّسَتْ عن التغيير ذاته، وتنزهت عن التبديل صفاته . والتمام ينفي النقصان . وكل نقصان فمن الحديث أصله، وأنى بالنقص - والقِدْم وصفه؟

قوله جل ذكره: ﴿وَأَن تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ .

أهل الله قليلون عدداً وإن كانوا كثيرين وزناً وخطراً، وأما الأعداء ففيهم كثرة . فإن لاحظتهم - يا محمد - فتتوكل، وإن صاحبتهم منعوك عن الحق وقلوبك .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .
تقاصرت علوم الخلق عن إدراك غيبه إلا بقدر ما عرفهم من أمره، والذي لا يخفى عليه شيء فهو الواحد - سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنَّمَا اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِيهِ مُؤْمِنِينَ﴾ .
هذا في حكم التفسير مختص بالذبيحة، وفي معنى الإشارة منع الأكل على الغفلة، فإن من أكل على الغفلة فما دامت تلك القوة باقية فيه فخواطره إما هواجس النفس أو وساوس الشيطان .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنَّمَا اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .

(١) الأنصاء: (ج) النصيب: الحصة والحظ من كل شيء .

يعني أي شيء عليكم لو تركتم الغفلة؟ وما الذي يضركم لو استدمتم الذكر؟
وقد تبين لكم الفرق بين أنس الذكر ووحشة الغفلة في الحال والوقت، ألا تعرفوا حكم الثواب والعقاب في المال.
قوله جل ذكره: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

ظاهر الإثم ما للأغيار عليه اطلاع، وباطن الإثم هو سر بينك وبين الله، لا وقوف لمخلوق عليه.

ويقال باطن الإثم خفي العقائد و (....) ^(١) اللاحاظ.

ويقال باطن الإثم ما تمليه عليك نفسك بنوع تأويل.

ويقال باطن الإثم - على لسان أهل المعرفة - الإغماض عما لك فيه حظ،
ويقال باطن الإثم - على لسان أهل المحبة - دوام التغاضي عن مطالبات الحب؛ وإن بناء مطالبات الحب على التجني والقهر، قال قائلهم:

إذا قلت: ما أذنبت؟ قالت مجيبة: حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

ويقال أسبغت عليكم النعم ظاهراً وباطناً، فذروا الإثم ظاهراً وباطناً، فإن من شرط الشكر ترك استعمال النعمة فيما يكون إثماً ومخالفة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَا أَوْلِيَائِهِمْ لِيَجْذِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

ما كانت (....) ^(١) من الأحوال عاصياً ولربّه ناسياً فتوقيه شرط عند أصحاب (....) ^(١).

ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَا أَوْلِيَائِهِمْ﴾ فهذا يدل على أن من توقي ذلك اتحدت له خواطره، وانقطعت عنه خواطر الشيطان. وأصل كل فسوة متابعة الشهوات، ومن تعود متابعتها فليودغ صفوة القلب.

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الإيمان عند هؤلاء القوم حياة القلب بالله. وأهل الغفلة إذ لهم الذكر فقد صاروا أحياء بعد ما كانوا أمواتاً، وأرباب الذكر لو اعتراهم نسيان فقد ماتوا بعد الحياة. والذي هو في أنوار القرب وتحت شعاع العرفان وفي روح الاستبصار لا يدانيه من هو في (أسر) الظلمات، ولا يساويه من هو رهين الآفات.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ أَكْثَرَ مُّجْرِمِينَ لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

لَبَّسْنَا عليهم حقائق التوحيد، وسوّلت لهم ظنونهم أن بهم شظية من المحو والإثبات؛ فانهمكوا ظانين أنهم يَمْكُرُونَ، وهم في التحقيق مخادعون، وسيعلمون حين لا ينفعهم علم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِيبُيْبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

بعد إزاحة العلة، وبيان الحجة، وزوال الشبهة (فالتعلل) باستزادة البصيرة إعلام عن سوء الأدب، وذلك منهم من التعدي؛ لمساواة مَنْ جاء بالاستحقاق بِمَنْ جاء بنوع من تسويلات النَّفس يوجب مقاساة الهوان. وملازمة الحدود. وترك التعدي على الحق قضية التوفيق.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

الْمُسْلِمُ لا يتحرك في باطنه عِزٌّ للمنازعة مع التقدير، فإن الإسلام يقتضي تسليم الكل بلا استثناء، وَمَنْ استثقل شيئاً من التكليف أو بقي منه نَفْسٌ لكرهية شيء فيعدُّ غير مستسلم لحُكْمِهِ.

ويقال نورٌ في البداية هو نور العقل، ونورٌ في الوسائط هو نور العلم ونور في النهاية هو نور العرفان؛ فصاحب العقل مع البرهان، وصاحب العلم مع البيان، وصاحب المعرفة حكم العيان.

ويقال مَنْ وَجَدَ أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يشكل عليه شيء من ذوات الصدور عند ظهور النور، وقال ﷺ: «اتَّبِعُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

ويقال أول أثر لأنوار الغيب في العبد يُنبِّهه إلى نقائص قَدَرِهِ ومساوئ غِيَّهِ، ثم

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧)، وأبو حنيفة في (المسند ١/١٨٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٩٤/٤، ١١٨/٦) والطبراني في (المعجم الكبير ٨/١٢١)، (البغوي ١٤/٣١) وابن كثير في (التفسير ١/٤٧٩، ٤/٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٥٤٤، ٧/٢٥٩)، وابن حجر (فتح الباري ١٢/٤٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٧٣٠)، وابن حجر في (لسان الميزان ٥/١١٥٤)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٨٠٩٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/٤٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/١٠٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/١٢٩).

يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه، ثم غلبت الأنوار على سِرِّهِ حتى لا يشهد السِّرُّ بعد ما كان يشهد؛ كالثَّائِبِ في قُرْصِ الشمس تُسْتَهْلِكُ أنوار بصره في شعاع الشمس كذلك تستهلك أنوار البصيرة في حقائق الشهود، فيكون العبد صاحب الوجود دون الشهود ثم بعده خمود العبد بالكلية، وبقاء الأحدية بنعت السرمدية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُصِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرُهُ صَبِيحًا حَرِيمًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وذلك حتى لا يسعى في غير مراد الحق سبحانه، وخذ البشرية ضيق القلب، وصاحبه في أسرِ الحدثان والأعلال، ولا عقوبة أشد من عقوبة الغفلة عن الحق. قوله جل ذكره: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

الصراط المستقيم إقامة العبودية عند تحقق الربوبية فهو فرق مؤيد بجمع، وجمع مقيد بشرع، وإثبات للعرفان بغاية الوسع، ونبو عن المخالفات بغاية الجهد، والتحقيق بأنَّ المُجْرِي واحد لا شريك له، ثم ترك الاعتماد ونفي الاستناد، لا على (حركاته) يعتمد، ولا إلى سكناته يستند، (بل)^(١) ينتظر ما يفتح به التقدير، فإن زاع صاحب الاستقامة لحظة، والتفت يمنة أو يسرة سقط سقوطاً لا ينتعش.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

دار السلام أي دار السلامة، ومن كان في رِقِّ شيء من (الأغراض) والمخلوقات لم يجد السلامة، وإنما يجد السلامة من تحرر عن رِقِّ المُكُونَات، والآية تشير إلى أنَّ القوم في الجنة لكنهم ليسوا في أسرِ الجنة، بل تحرروا من رِقِّ كل مُكُون.

ويقال من لم يُسلم - اليوم - على نفسه وروحه وكل ماله من كل كريمة وعظيمة تسليم وداع لا يجد - غداً - ذلك الفضل، فمن أراد أن يُسلم عليه ربه - غداً - فليُسلم على (الكون) بجملته، وأولاً على نفسه وروحه.

ويقال دار السلام غداً لمن سلم - اليوم - لسانه عن الغيبة، وجنانه عن الغيبة، وأبشاره وظواهره من الزُّلَّة، وأساراه وضمائره من الغفلة، وعقله من البدعة، ومعاملته من الحرام والشبهة، وأعماله من الرياء والمصانعة، وأحواله من الإعجاب.

ويقال شرفٌ قَدْرُ تلك الدار لكونها في محل الكرامة، واختصاصها بعندية الزُّلَّة، وإلا فالأقطار كلها ديار، ولكن قيمة الدار بالجار، قال قائلهم:

إني لأحسد داراً في جواركم طوبى لمن أضحي لدارك جارا^(٢)

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الطوبى: الحُسنى، والخير، وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال، وغنى بلا فقر.

يا ليت جارك يعطيني من داره شبراً إذا لأعطييه شبر داراً
ويقال: وإن كانت الدار منزهة عن قبول الجار، وليس القرب منه بتداني
الأقطار، فإطلاق هذا اللفظ لقلوب الأحباب مؤنس، بل لو جاز القرب في وصفه من
حيث المسافة لم يكن لهذا كبير أثر، وإنما حياة القلوب بهذا، لأن حقيقته مقدسة عن
هذه الصفات؛ فهو لأجل قلوب الأحباب يُطلق هذا ويقع العلماء في كد التأويل،
وهذا هو أمانة الحب، قال قائلهم:

أنا من أجلك حُمِلْتُ الأذى الذي لا أستطيع
قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا شرف قدر تلك المنازل حيث قال: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ لأنه إذا كان - سبحانه -
هو وليهم فإنَّ المنازل بأسرها طابت كيفما كانت، قال قائلهم:

أهوى هواها لمن قد كان ساكنها وليس في الدار لي هم ولا وطْرُ^(١)
هو وليهم في دنياهم، وليهم في عقابهم، هو وليهم في أولادهم وفي
أخراهم، وليهم الذي استولى حديثه على قلوبهم، فلم يدع فيها لغيره نصيباً ولا سوى
وليهم الذي هو أولى بهم منهم وليهم الذي آثرهم على أضرابهم وأشكالهم فأثروه في
جميع أحوالهم وليهم الذي تطلب رضاهم، وليهم الذي لم (يكلهم) إلى هواهم، ولا
إلى دنياهم، ولا إلى عقابهم.

وليهم الذي بأفضاله يلاطفهم، وبجماله وجلاله يكشفهم.

وليهم الذي اختطفهم عن كل حظ ونصيب، وحال بينهم وبين كل حميم
وقريب، فحرَّزهم عن كل موصوف ومطلوب ومحبوب، وليهم الذي هو مؤنس
أسرارهم.

مَشَاهِدُهُ مُغْتَكِفُ أَبْصَارِهِمْ، وَحَضْرَتُهُ مَرْثَعُ أَرْوَاحِهِمْ.

وليهم الذي ليس لهم سواه، وليهم الذي لا يشهدون إلا إياه، ولا يجدون إلا
إياه، لا في بدايتهم يقصدون غيره، ولا في نهايتهم يجدون غيره، ولا في وسائلهم
يشهدون غيره.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَنْعَشَرُ لِنُجْنٍ قَدْ اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ
أُولَئِكَ أَهْمُ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ
خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

(١) الوطر: الحاجة والبغية (ج) أوطار.

يعتذرون فلا يسمع، ويحتجون بما لا ينفع، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقل منه قُبِلَ منهم، لكن سبقت القسمة فحقت لهم الشقوة.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نُوْثِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

يعني نجمع بين الأشكال، فالأولياء مجموعون يستمتع بعضهم ببعض، والأعداء مجموعون يفرّ بعضهم من بعض.

قوله جل ذكره: ﴿يَمْعَشَرُ الْيَمِينُ وَالْأَيْمُسُ الثَّرِيَّاتُ يُرْسِلُ مِنْكُمْ يَفْعُونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَوِي وَنُذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لَعِينَةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

عرّفهم أنه أراح لهم العِلَل من حيث التزام الحجة، لكنه حكم لهم بالشقوة في الأزل، (فلبس) عليهم المحجة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾.

متى يصح في وصفة توهم الظلم والملك ملّكه والخلق خلقه؟

ومتى يقبح منه تصرف في شخص بما أراد، والعبد عبده والحكم حكمه؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلٌ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

المحسن في روح الثواب متنعم، والمذنب في نوح العذاب متألم.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدَلِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

الغني يشير إلى كشفه وذو الرحمة يشير إلى لطفه.

أخبرهم بقوله الغني عن جلاله، ويقول: ذو الرحمة عن أفضاله؛ فبجلاله يكاشفهم فيفتيهم، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم.

ويقال سماع غناه يوجب محوهم، وسماعه رحمته يوجب صحوهم، فهم في سماع هذه الآية مترددون بين بقاء وبين فناء، وبين إكرام وبين اصطلام، وبين تقريب وبين تدويب، وبين اجتياح وبين ارتياح.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

الإشارة من هذه الآية إلى قصر الأمل، ومن قصر أمله حسن عمله، وكل ما هو آت قريب أجله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

هذا غاية الزجر لأنه تهديد وإن كان في صيغة الأمر.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَآ يَصِلْ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلْ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

لما بنوا قاعدة أمرهم على موجب الهوى صارت فروغهم لاثقة بأصولهم؛ فهو كما قيل:

إذا كان القضاء إلى ابن آوى فتعويل الشهود إلى القروء^(١)
قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وسوست إليهم شياطينهم بالباطل فقبلت نفوسهم ذلك؛ إذ الأشكال يتناصرون، فالنفس لا تدعو إلا إلى الأجنبية، لأنها مدعية تنوهم أن منها شيئاً، وأصل كل شرك الدعوى، والشيطان لا يوسوس إلا بالباطل والكفر، فهم أعوان يتناصرون.
ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ صرح بأن المراد على المشيئة، والاعتبار (بسابق) القضية.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِمْ سَجَيرَهُم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَحْرَمٌ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَجَيرَهُمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أخبر عن أشياء ابتدعوها على ما أرادوا، وأمور شرعوها على الوجه الذي اعتادوا، ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل، وشرعوها بلا حجة من إذن رسول، والإشارة فيه أن من (نحا نحوهم) في زيادة شيء في الدين، أو نقصان شيء من شرع المسلمين فمضاه لهم في البطلان، ينخرط في سلكهم في الطغيان.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

فسدت عليهم طريقة الثقة بالله فحملتهم خشية الفقر على قتل الأولاد، ولذلك

(١) ابن آوى: حيوان مفترس من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم (أكلات اللحوم) وطائفة الثدييات، وهو أصغر حجماً من الذئب، يتغذى من الطيور الدواجن والثدييات الصغيرة والجيف (ج) بنات آوى.

قال أهل التحقيق: من أمارات اليقين وحقايقه كثرة العيال على بساط التوكل.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّحْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مُمْتَشِكُهَا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهِ كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

يعني كما أنشأ في الظاهر جناتٍ وبساتين كذلك أنشأ في السر جناتٍ وبساتين، ونزهة القلوب أثم من جنات الظاهر؛ فأزهار القلوب موزقة، وشموس الأسرار مشرقة، وأنهار المعارف زاخرة.

ويقال كما تتشابه الثمار كذلك تتماثل الأحوال، وكما تختلف طعومها وروائحها مع تشاكلها من وجه، فكذلك الأحوال مختلفة القضايا، وإن اشتركت في كونها أحوالاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَاكُمْ حَقُّ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

حق الواجب يوم الحصاد إقامة الشكر، فأما إخراج البعض فيبانه على لسانه العلم، وشهود المنعم في عين النعمة أثم من الشكر على وجود النعمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

الإسراف - على لسان العلم - مجاوزة الحد.

وعلى بيان الإشارة فالإسراف كل ما أنفقته في حظ نفسك - ولو كانت سمسة، وما أنفقته في سبيله - سبحانه - فليس بإسراف، ولو أربى على الآلاف.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾.

يعني تسخير الحيوانات للإنسان آية مزية في الفضيلة على المخلوقات. وكما سخر الأعيان للإنسان كذلك سخر الأزمان في تصريف الحداث لخواص الإنسان.

قوله جل ذكره: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ثَمَنِيَّةَ أَرْوَجٍ مِنَ الصَّنَائِنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

الرزق لا يتخصص بالمأكولات بل هو شائع في جميع ما يحصل به الانتفاع.

وينقسم الرزق إلى رزق الظواهر ورزق السرائر، ذلك وجود النعم وهذا شهود الكرم بل الخمود في وجود القدم.

وللقلب رزق وهو التحقيق من حيث العرفان، وللروح رزق وهو المحبة بصدق التحرر عن الأكوان، وللسر رزق وهو الشهود الذي يكون للعبد وهو قرين العيان.

قوله ﴿ثَمَنِيَّةَ أَرْوَجٍ مِنَ الصَّنَائِنِ اثْنَيْنِ﴾ الإشارة من ذكر الضأن أن يتأدب العبد

باستدامة السكون والتزام حُسن الخُلُق، فإنَّ الضَّانِيَّةَ مستسلمةٌ لمن يلي عليها، فلا بصياحها تُؤذي ولا (ب... ها)^(١)، يعني كذلك سبيل من وَطِئَ هذا البسَاط.

وكذلك «في الإبل آيات» منها انقيادها لمن جَرَّ زَمَامَهَا، واستناعتها حيثما تُنَاخ، بلا نزاع ولا اختيار. ومنها ركوبها عند الحَمَل، ومنها صبرها على مقاساة العطش، وذوبانها في السير.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُورًا أَوْ لَحْمَ خَازِرٍ فَإِنَّهُمْ رَجَسٌ أَوْ فَسَقًا أِهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَعَنْ أَضْطَرٍّ عَصِىَ بَاطِلٌ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ الشَّارِعَ اللَّهَ، والمَانِعَ عن الخُلُق هو الله، وما كان من غيرِ الله فضائع باطلٌ عند الله. بَيَّنَّ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ الاضْطِرَارُ زَالَ حَكْمُ الاختيار.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْفٍ وَرَبِّ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِحُكْمٍ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ضَيَعُوهُ؛ إِذْ لَمَّا لَمْ يِعَاقِبَهُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَشْهَدُوا مَكْرَهُ الْعَظِيمِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِمْ - فَأَهْمَلُوهُ وَلَمْ يَحَافِظُوا عَلَيْهِ، فَاسْتَوْجَبُوا عَظِيمَ الْوِزْرِ وَالْإِيمِ الْعَجْر.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

الإشارة منه ببيان تخصيص الأولياء بالرحمة وتخصيص الأعداء بالطرد واللعنة. والصورة الإنسانية جامعة ولكن القسمة الأزلية فاصلة بينهم.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاوُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

كذبت إقالتهم لأنها لم تَصُدِّرْ عن تصديق، فذموا على جهالتهم وإن كانت (...)^(١) في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُكْمُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

صَرَخَ بِأَنِ إِرَادَتِهِ - سُبْحَانَهُ - لَا تَتَقَاصِرُ عَنْ مَرَادٍ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ اعْتِرَاضٌ .
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ .

أشار إلى أَنَّ مَنْ تَجَرَّدَ عَنْ بَرَهَانٍ يُصَرِّحُهُ وَبَيَانٍ (يُوضِّحُهُ) فَغَيْرُ مَقْبُولٍ مِنْ فَاعِلِهِ .
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَلَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْإِمْرَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَ وَصَلَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَلَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

هذه أشياء عشرة تضمنتها هذه الآية أولها الشرك فإنه رأس المحرمات، والذي لا يقبل معه شيء من الطاعات، وينقسم ذلك إلى شرك جلي وشرك خفي؛ فالجلي عبادة الأصنام، والخفي ملاحظة الأنام، بعين استحقاق الإعظام .
 والثاني من هذه الخصال ترك، العقوق، وتوقير الوالدين بحفظ ما يجب من أكيدات الحقوق .

وبعد ذلك قتل الأولاد خشية الإملاق، وإراقة دمائهم بغير استحقاق .
 ثم ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما بدا وما استتر، ويدخل في ذلك جميع أقسام الآثام .

ثم قتل النفس بغير الحق، وذلك إنما يكون لفقد شفقة الخلق .
 ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم .
 ثم بذل الإنصاف في المعاملات والتوقي من جميع التبعات .
 ثم الصدق في القول والعدل في الفعل .
 ثم متابعة السبيل بما تشير إليه لوائح الدليل .

فَمَنْ قَابِلَ هَذِهِ الْأَوَامِرُ بِجَمِيلِ الْإِعْتِنَاءِ سَعِدَ فِي دَارِيهِ وَحَظِيَ بِعِظَائِمِ مَنَزَلَتِهِ .
 قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ رَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ .

يَهُونُ عَلَيْهِمْ مَشَقَّةُ مَقَاسَةِ التَّكْلِيفِ بِمَا ذَكَرَ مِنَ التَّعْرِيفِ بِأَنَّ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَنَا كَانُوا فِي الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ مِثْلَهَا، ثُمَّ صَبَرُوا فَظَفَرُوا، وَأَخْلَصُوا فَخَلَصُوا.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إنزال الكتاب عليهم تحقيق للإيجاب، وإذا بقي العبد عن سماع الخطاب تسلى بقراءة الكتاب، ومن لم يجذ في قراءة القرآن كمال العيش والإنس فلأنه يقرأ ترسماً لا تحققاً^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ آلُكِتَابٍ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

أزاح كلّ علة، وأبدى كل وصلة، فلم يبق لك تعللا، ولا في آثار الالتجاء إلى العذر موضعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

عقوبة كلّ جُزْم مؤجلة، وعقوبة التكذيب معجلة، وهي ما يوجب بقاءهم في أسر الشك حتى لا يستقر قلبهم على شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوْ كُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾.

أخبر أنه بعدما (أزاح) لهم العلل اقترحوا ما ليس لهم، واغتروا بطول السلامة لهم، ثم بين أنه إذا أمضى عقوبة عبد حُكماً فلا معارض لتقديره، ولا مناقض لتدبيره.
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم، فكانوا مجتمعين جهرًا بجهر، متفرقين - في التحقيق - سرًا بسِر.

قوله: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. لا نجمعك وإياهم، يعني شِقْ شِقُّ الحقائق، وشِقُّهُمْ شِقُّ الباطل، ولا اجتماع للضدين.

(١) انظر رأي القشيري من موضوع «السماع» في رسالته ص ٣٣٥ - ٣٥٠.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

هذه الحسنات للظاهر: وأما حسنات القلوب فللواحد مائة إلى أضعاف مضاعفة.

ويقال الحسنة من فضله تعالى تَصُدَّر، وبلطفه تحصل، فهو يُجْزِي، ثم يَقْبَلُ ويشني، ثم يجازي ويُعْطِي.

ويقال إحسانه - الذي هو التوفيق - يوجب إحسانك الذي هو الوفاق، وإحسانه - الذي هو خلق الطاعة - يوجب لك نعت الإحسان الذي هو الطاعة؛ فالعناء منك فِعْلُهُ والجزاء لك فَضْلُهُ.

ويقال إحسان النفوس تَوْفِيّةُ الخدمة، وإحسان القلوب حفظ الحرمة، وإحسان الأرواح مراعاة آداب الحشمة.

ويقال إحسان الظاهر يوجب إحسانه في السرائر فالذي منك مجاهدتك، والذي إليك مشاهدتك.

ويقال إحسان الزاهدين ترك الدنيا، وإحسان المريدين رفض الهوى، وإحسان العارفين قطع المني، وإحسان الموحدين التخلي عن الدنيا والعقبى، والاكتفاء بوجود المولى.

ويقال إحسان المبتدئين الصدق في الطلب، وإحسان أصحاب النهاية حفظ الأدب، فشرط الطلب ألا يبقى ميسورٌ إلا بذلته، وشرط الأدب ألا تسمو لك همة إلى شيء إلا قطعتَه وتركته.

ويقال للزهاد والعباد، وأصحاب الأوراد وأرباب الاجتهاد جزاء محصور محدود ولاهل المواجيد لقاء غير مقطوع ولا ممنوع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

يعني (يُكَال) عليه بالكيل الذي يكيل، وَيُوقَفُ حيث يرضى لنفسه بأن يكون له موقفاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أرشده إلى الطريق الصحيح. ولا يكون الإرشاد إليه إلا بانسداد الطرق أجمع إلى سواه. وَمَنْ وَجَدَ سَبِيلًا إلى مخلوق عرج في أوطان الحسبان لأن الأغيار ليس لها من الإبداع شظية، ومن سلك إلى مخلوق سبيلاً وأبرم فيهم تأميراً أو قدّم عليهم تعويلاً، فقد استشعر تسويلاً، وجُرْعَ تضليلاً.

و «الصراط المستقيم» ألا ترى من دونه مثبتاً للذرة ولا سنة .
و «الدين القيم» ما لا تمثيل فيه ولا تعطيل، ولا نفي للفرق الذي يشير إلى
العبودية، ولا رد للجمع الذي هو شهود الربوبية^(١) .

والحنيف المائل إلى الحق، الزائغ عن الباطل، الحائل عن ضد الحقيقة .
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

مَنْ كَوِّفَ بحقائق التوحيد شَهِدَ أَنَّ القائمَ عليه والمجري عليه والممسك له
والمُنْقَلِ إياه من وصفٍ إلى وصف، و (...) ^(٢) عليه فنون الحدثان - واحد لا
يشاركه قسيم، وما جِدَّ لا يضارعه نديم .

ويقال مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ بِاللَّهِ عِلْمَ أَنَّهُ اللَّهُ، فإذا علم الله لم يَبْقَ فيه نصيب لغير الله؛ فهو
مستسلم لحكم الله، لا مُعْتَرِضٌ على تقدير الله، ولا مُعَارِضٌ لاختيار الله، ولا مُعْرِضٌ
عن اعتناق أمر الله .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَيْنَ رَبِّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْفِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا
عَلَيْهَا وَلَا يُزْرُ وَازِدٌ وَزَدٌ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ .

كيف أُوْثِرَ عليه بَدَلًا وإني لا أجد عن حكمه جولا، وكيف أقول بغير أو ضد أو
شريك؟ أو أقول بدونه معبود أو مقصود؟ وإن لاحظتُ يمنة ما شاهدتُ إلا مُلْكُهُ، وإن
طالعتُ يسرة ما عاينتُ إلا مُلْكُهُ! بل إني إن نظرتُ يمنة شهدتُ يُمْنَهُ، وإن نظوتُ
يسرة وجدتُ نحوي يُسْرَهُ! .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفَعُولٌ رَّحِيمٌ﴾ .

صير التوبة إليكم، وقَصَرَ حكم عصركم عليكم، فأنتم المقصودون اليوم دون

(١) يمكن أن نوضح مقصود القشيري هنا من خلال أقواله أو حديثه عن الجمع والفرق برسالته قال: إن
ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق
من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق، لأنه من
شهود الأفعال، فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالفرقة، ومن
أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع فإثبات الخلق من باب
الفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع، ولا بد للعبد من الجمع والفرق فإن لا تفرق لا عبودية له،
ومن لا جمع له لا معرفة له، فقله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾ إشارة إلى الفرق، وقوله: ﴿وإياك
نستعين﴾ إشارة إلى الجمع. (الرسالة القشيرية ص ٦٤ - ٦٥).

(٢) بياض في الأصل.

من هو سواكم . ثم إنه جعلكم أصنافاً، وخلقكم أخياراً^(١) فمن مُسَخَّرٍ له، مُرَفَّعٌ، مُرَوَّحٌ، يتعب لأجله كثيرٌ. ومن مُعَنَّى، وذو مشقةٍ أدير عليه رأسه. وجاء البلاء ليختبركم فيما آتاكم، ويمتحنكم فيما أعطاكم. إنَّ حسابَه لَكم لاجِقٌ، وحكمه فيكم سابق. والله أعلم.

(١) الأخيار: من الناس: الضروب المختلفة الأخلاق والأشكال. وإخوة أخيار، أي: أهمهم واحدة والآباء شتى.

السورة التي يذكر فيها الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباء مكسورة في نفسها وعملها خفض لأنها من الحروف الجارة للأسماء، وهي صغيرة القائمة في الخط، ونَقَطُها الذي تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القِلَّة، ثم موضع هذه النقطة أسفل الحرف، فهي تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه.

والسين «من بسم الله» حرف ساكنٌ فالإشارة من الباء ألا تَدَّرَ - في الخضوع والتذلل، والجهد والتوسل - ميسوراً، ثم تسكن منتظراً للتقدير؛ فإنَّ مَنْ القبول بفضلِهِ.

فذلك المأمول، وإنْ رَدَّ بحكم فله الحكم، فتوافق تقديره بالموافقة في الرضا به، إذا الميم تشير إلى مِنته إن شاء، ثم إلى موافقتك لتقديره بالرضا به إنْ لم يَمُنْ.

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق بلطائف المكاشفات بما يختصهم الحق - سبحانه - بذلك من دون الخلق، فهم على بيانٍ مما يخفى على الخلق، فالغيب لهم كشف، والخبرُ لهم عيان، وما للناس عِلْمٌ فلهم وجود.

والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقرّيات البسط بما (...) (١) فيه من وجوه المراعاة! وصنوف لطائف المناجاة، فهم في جنات النعيم، وعيشٍ بسطٍ وتكريم، ودوام رُوحٍ مقيم

والميم تشير إلى محبة الحق - سبحانه - لهم بدءاً فإنها هي الموجبة لمحابّتهم، إذ عنها صَدَرَ كل حب فبمحبتِهِ لهم أحبوه، ويقصده إليهم طلبوه، وبارداته لهم أرادوه.

ويقال نزهة أسرار الموحدين في الإناخة بعقوة بسم الله، فَمَنْ حَلَّ تلك الساحة رَنَعَ في حدائق القدس، واستروح إلى نسيم الأُنس.

ويقال بسم الله موقف الفقراء بقلوبهم؛ فللاغنياء موقفهم عرفات، وللفقراء موقفهم المكاشفات والمشاهدات.

(١) بياض في الأصل.

ويقال قاله «بسم الله» ربيع الأحاب؛ أزهارها لطائف الوصلة، ونورُها زوائد القربة.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمَصّ﴾ [الأعراف: ١].

هذه الحروف من المتشابه في القرآن على طريقة قوم من السلف، والحق - سبحانه - مستأثر بعلمها دون خلقه. وعلى طريقة قوم فلها معانٍ تُعرَف، وفيها إشارات إلى أشياء توصف: فالألف تشير إلى ألفة الأرواح العطرة أصابت الشكلية مع بعض الأرواح العطرة، فهي - في التحقيق - في ذلك المعنى كالم المتحدة؛ فمنه تقع الألف بين المتشاكين، ولأجل اتحاد المقصود يتفق القاصدون.

ويقال أَلِفَ القلبُ حديثه فلم يحتشم من بذل روحه.

ويقال الألف تجرّد مَنْ قَصَدَه عن كل غَيْرٍ فلم يتصل بشيء، وحين استغنى عن كل شيء اتصل به كل شيء على جهة الاحتياج إليه.

ويقال صورة اللام كصورة الألف ولكن لما اتصلت بالحروف تعاقبتها الحركات كسائر الحروف؛ فمرة أصبحت مفتوحة، ومرة مسكونة، ومرة مرفوعة، وأمّا الألف التي هي بعيدة عن الاتصال بالعلاقات فباقية على وصف التجرد عن تعاقب الحركات عليها فهي على سكونها الأصلي.

وأما الصاد فتشير إلى صدق أحوال المشتاقين في القصد، وصدق أحوال العارفين في الوجد، وتشير إلى صدق قلوب المريدين وأرباب الطلب، إذ العطش نعت كلّ قاصد، كما أن الدهشة وصف كل واحد.

ويقال الصاد تبدي محبةً للصدور وهو بلاء الأحاب.

ويقال الصاد تطالبك بالصدق في الود، وأمانة الصدق في الود بلوغ النهاية والكمال، حتى لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالمنع.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنْذَرَ بِهِ، وَذَكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

كتاب الأحاب تحفة الوقت، وشفاء لمقاساة ألم البعد، وهو لداء الضنى مُزِيل، ولشفاء الشك مُقِيل، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ ولم يقل: في قلبك؛ فإن قلبه - عليه السلام - في محل الشهود، ولذلك قال ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] وكذلك قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي﴾. وقال للمصطفى صلوات الله عليه: ﴿أَلَمْ تَسْرِحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]. فإن القلب في محل الشهود، وهو أبداً بدوام أنس القرب، قال ﷺ: «تنام عيني ولا ينام

قلبي»^(١) وقال: «أسألك لذة النظر»^(٢) وصاحب اللذة لا يكون له حرج.

قوله جل ذكره: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

استسلموا لمطالبات التقدير، قفوا حيثما وقفتهم، وتحققوا بما عرفتم، وطالعوا بما كوشفتم، ولا تلاحظوا غيراً، ولا تركنوا إلى علة، ولا تظنوا أن لكم من دونه وسيلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَفْلَكْنَهَا فَبَاءَهَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

يعني كم من قرية ركنوا إلى الغفلة، واغتروا بطول المهلة؛ باتوا في (خَفُض) الدعة وأصبحوا وقد صادقتهم البلايا بغتة، وأدركتهم القضية فجأة، فلا بلاء كُشِف عنهم، ولا دعاء سُمِع لهم، ولا فرار نَفَعهم، ولا صريخ أنقذهم. فما زالوا يفرعون إلى الابتهاال، ويصيحون: الويل! ويدعون إلى كشف الضر، ويبكون من مسّ السوء؟! بادوا وكأنه لا عين ولا أثر، ولا لأحد منهم (خبر). تلك سُنَّة الله في الذين خَلَوْا من الكافرين، وعادته في الماضين من الماردين.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ سؤال تعنيف وتعذيب.

﴿ولنسأل المرسلين﴾ سؤال تشريف وتقريب.

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ عن القبول فيتقنعون بذل الخجل.

﴿ولنسألن المرسلين﴾ عن البلاغ فيتكلمون ببيان الهيبة، فالكل بِسْمَةِ العبودية والتوقير، والحق بنعت الكبرياء والتقدير.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلَّتِمْ وَمَا كُنَّا غَافِينَ﴾.

فلنخبرهم يوم الفضل ما هم عليه اليوم، ونوقفهم على ما أسلفوه، ونقيمهم في مقام الصغار ومحل الخزي، وسيعلمون أنه لم يَغِبْ عن علمنا صغير ولا كبير.

ويقال أجرى الحق - سبحانه - سُنَّتَهُ بتخويف العباد بعلمه مرة كما خوَّفهم بعقوبته تارة؛ فقال تعالى: ﴿وَأَنْقَضُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨] يعني العذاب الواقع في ذلك

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢٣٢/٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٥١، ٤٣٨) وابن الجارود في (المنتقى ١٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة ١/١٨٥).

اليوم، وقال في موضع آخر: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وهذا أبلغ في التخويف، وقال ﴿أَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

قوله جل ذكره: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

يَزِنُ أعمالهم بميزان الإخلاص، وأحوالهم بميزان الصدق. فَمَنْ كانت أعمالهم بالرياء مصحوبة لم يَقْبَلْ أعمالهم، وَمَنْ كانت أحوالهم بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. سَهَّلْنَا عليكم أسباب المعيشة، وبَسَّرْنَا لكم أحوال التصرف، ثم أراد منكم أَنْ تتخذوا إليه سبيلاً، ولم يعتصم عليه فراد.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ لاستعمالكم - في الخلاف - أبدانكم، ولإنفاقكم - بالإسراف - أحوالكم، ولاستغراقكم - في الحظوظ - أوقاتكم. فلا نعمة الفراغ شكرتم، ولا من مَسَّ العقوبة شكوتهم... خسرتهم وما شعرتم!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

ثَبَّتْنَاكم على النعت الذي أردناكم، وأقمناكم في الشواهد التي اخترنا لكم؛ فمِنْ قَبِيح صورته خُلُقاً ومن مَلِيح، ومن سَقِيم حالته خُلُقاً، ومن صَحِيح. ثم إنا نعرفكم سَابِقُ آيَاتِنَا إِلَى أبْيَكُم، ثم لَاحِقُ خلافة بما بقي عِزُّكُمْ مِنْهُ فيكم، ثم ما علمنا به (من مكان يحسدكم) ويعاديكم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

أي لولا قهر الربوبية جرى عليك وإلا فما مُوجِبُ امتناعك عن السجود لآدم لو كُنْتَ تُعْظَمُ أمري؟ فيتحقق الموحدون أن مُوجِبُ امتناعه عن السجود الخذلانُ الحاصل، ولو ساعده التوفيق لم يبرح بعد من السجود.

قال: ﴿أنا خير منه﴾ ادَّعى الخيرية، وكان الواجب عليه - لولا الشقوة - أَنْ يُثَبِّرَ التذللَ على التكبر، لا سيما والخطاب الوارد عليه من الحق.

ثم إنه وإن سَلَكَ طريق القياس فلا وجه له مع النَّفْسِ لأنه يَحْطُ، فلم يَزِدْهُ قياسه إلا في استحقاق نفيه إذ ادَّعى الخيرية بجوهره، ولم يعلم أن الخيرية بحكمه - سبحانه - وقسمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَأَهِظْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .
فارق بساط القرية؛ فإنّ التكبر والترفع على البساط ترك للأدب، وترك الأدب يوجب الطرد.

ويقال مَنْ رأى لنفسه محلاً أو قيمة فهو متكبر، والمتكبر بعيد عن الحق سبحانه، ورؤية المقام قَدْحٌ في الربوبية إذ لا قَدَرٌ لغيره تعالى، فَمَنْ ادَّعى لنفسه محلاً فقد نازع الربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ .

أجاب دعاءه في الحال ولكن كان ذلك مكرراً به لأنه مكّنه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة، فلم يَزِدْه بذلك التمكين إلا شِقْوَةً. ليعلم الكافّة أنه ليس كل إجابة للدعاء نعمة ولطفاً بل قد تكون بلاء ومكرراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

جَاهَرَ الحقيقة بالخلاف بعدما أظهر من نفسه غاية الخلوص في العبودية، فعُلم أن جميع ما كان منه في سالف حاله لم يصدر عن الإخلاص والصدق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .

أخبر أنه يأخذ عليهم جوانبهم، ويتسلط عليهم من جميع جهاتهم، ولم يعلم أن الحق سبحانه قادر على حفظهم عنه، فإنّ ما يكيد بهم من القدرة حَصَلَ، وبالمشيئة يوجد، ولو كان الأمر به أو إليه لَكَانَ أَوْلَى الخلق بأن يؤثّر فيه كذخه نفسه، وحيث لم ينفعه جهده في سالف أحواله لم يضرهم كيده بما توعدهم به من سوء أفعاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْهُوَمَا مَذْحُورًا لَمَنْ يَمَكَّ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

أخرجه من درجته، ومن حالته ورتبته، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته، ثم تخليده أبداً في عقوبته، ولا يذيقه ذرةً من يَزِدْ رحمته، فأصبح وهو مقدّم على الجملة، وأمسى وهو أبعد الزمرة، وهذه آثار قهر العزة. فأَيُّ كَيْدٍ يسمع هذه القصة ثم لا يفتت؟! .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَعَادُمْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

لما أسكن آدم الجنة خلق معه سبب الفتنة، وهو ما أكرمه به من الزوجة، وأي نقص يكون في الجنة لو لم يخلق فيها تلك الشجرة التي هي شجرة المحنة لولا ما أخفى من سِرِّ القسمة؟ .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

نُسَبَتْهُ مَا حَصَلَ مِنْهُمَا إِلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَمَارَاتِ الْعَنَاءِ، كَانَتْ الْخَطِيئَةُ مِنْهُمَا لَكِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

ويقال التقى آدمُ ببليس بعد ذلك فقال: يَا شَقِي! وَسَوَسْتَ إِلَيَّ وَفَعَلْتَ!، فقال إبليس لآدم: يَا آدَم! هَبْ أَنِّي إِبْلِيسُكَ فَمَنْ كَانَ إِبْلِيسِي؟! .

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمَا مَا وَرَىٰ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءَ تَيْهَمَا﴾.

وفي ذلك دلالة على عناية زائدة حيث قال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمَا﴾ فلم يطلع على سواتهما غيرهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مَا تَهَنَّكُمَا رُبَّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

تاقت أنفسهما إلى أن يكونا مَلَكَيْنِ - لا لأن رتبة الملائكة كانت أعلى من رتبة آدم عليه السلام - ولكن لانقطاع الشهوات والمنى عنهما.

ويقال لَمَّا طَمَعَا فِي الْخُلُودِ وَقَعَا فِي الْخُمُودِ، ووقعَا فِي الْبَلَاءِ وَالْخَوْفِ؛ وَأَصْلُ كُلِّ مُحَنٍ الطَّمَعُ.

ويقال إذا كان الطمع في الجنة - وهي دار الخلود - أَوْجَبَ كُلَّ تِلْكَ الْمُحَنِ فَالطَّمَعُ فِي الدُّنْيَا - الَّتِي هِيَ دَارُ الْفَنَاءِ - مَتَى يَسْلَمْ صَاحِبُهُ مِنْ ذَلِكَ؟ وَيُقَالُ إِنْ يَكُونَا إِنَّمَا رَكْنَا إِلَى الْخُلُودِ فَلَا لِنَصِيبِ أَنْفُسِهِمَا، وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْبَقَاءِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا أَوْلَىٰ لِأَنَّهُ يُوجِبُ تَنْزِيهِه مَحَلَّ النُّبُوَّةِ. وَقِيلَ سَاعَاتُ الْوَصَالِ قَصِيرَةٌ وَأَيَّامُ الْفِرَاقِ طَوِيلَةٌ، فَمَا لَبِثَا فِي دَارِ الْوَصْلَةِ إِلَّا بَعْضًا مِنَ النَّهَارِ؛ دَخَلَا ضُحُوَّةَ النَّهَارِ وَخَرَجَا نِصْفَ النَّهَارِ! وَيُقَالُ إِنْ الْفِرَاقَ عَيْنٌ تَصِيبُ أَهْلَ الْوَصْلَةِ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالَ قَائِلُهُمْ:

إِنْ تَكُنْ عَيْنٌ أَصَابَتْكَ فَمَا إِلَّا لَأَنَّ الْعَيْنَ تَصِيبُ الْحَسَنَاتِ
ويقال حين تَمَّتْ لهما أسباب الوصلة، وَوَطَّأَ نَفُوسُهُمَا عَلَى دَوَامِ الْبَرَّةِ بَدَا الْفِرَاقُ مِنْ مَكَامَتِهِ فَأَبَادَ مِنْ شَمْلِهِمَا مَا انْتَضَمَ، كَمَا قِيلَ:

حِينَ تَمَّ الْهَوَىٰ وَقَلْنَا سُرْرِنَا وَحَسِبْنَا مِنَ الْفِرَاقِ أَمْنًا
بَعَثَ الْبَيْنَ رُسْلَهُ فِي خَفَاءٍ فَأَبَادُوا مِنْ شَمْلِنَا مَا جَمَعْنَا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَاسَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَيْنَ النَّاصِيحَاتِ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

حُسْنُ ظَنِّ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَمَلَهُ عَلَى سَكُونِ قَلْبِهِ إِلَى يَمِينِ الْعَدُوِّ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْطُرُ بِيَالِهِ أَنْ يَكْذِبَ فِي يَمِينِهِ بِاللَّهِ، ثُمَّ لَمَّا بَانَ لَهُ أَنَّهُ دَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ تَابَ إِلَى اللَّهِ بِصَدَقِ النَّدَمِ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ أَسَاءَ وَأَجْرَمَ، فَعَلِمَ - سَبَحَانَهُ - صِدْقَةَ فِيمَا نَدِمَ، فَتَدَارَكَهُ بِجَمِيلِ الْعَفْوِ وَالْكَرَمِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ .

لم يحصل استيفاء من الأكل والاستمتاع به للنفس حتى ظهرت تباشير العقاب؛ وتَنَغَّصَ الحال، وكذا صفة مَنْ آثر على الحق - سبحانه - شيئاً يبقيه عنه، فلا يكون له بما آثر استمتاع. وكذلك مَنْ أَدَّخَرَ عن الله - سبحانه - نَفْسَهُ أو مَالَهُ أو شيئاً بوجهٍ من الوجوه - لا يبارك الله فيه، قال تعالى في صفة الأعداء: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الحج: ١١].

ويقال مَا بَدَتْ سَوَاتُهُمَا احتالاً في السُّتْرِ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهما من ورق الجنة فبعدما كانت كسوتهما حُلُلَ الجنة ظُلا يستتران بورق الجنة، كما قيل:

لله دَرَاهِمُ مِنْ فِثْيَةٍ بَكُرُوا مثل الملوك، وراحوا كالمساكين
وأنشدوا:

لا تعجبوا لمذلتني فأنا الذي عَبَبْتُ الزمان بمهجتي فأذلّها
ثم إن آدم عليه السلام لم يساعده الإمكان في الاستتار بالورق إذ كانت الأشجار أجمع كلها تتطاوّل وتأبى أن يأخذ آدم - عليه السلام - شيئاً من أوراقها. وقيل ذلك كان لا يلاحظ الجنة فكان يتيه على الكون بأسره ولكنه صار كما يقال:

وكانت - على الأيام - نفسي عزيزة فلمّا رأت صبري على الذلّ ذلّت
ولمّا أُخْرِجَ آدمُ من الجنة وأُسْكِنَ الأرض كَلَّفَ العملَ والسعيَ والزرع والغرس، وكان لا يتجدد له حال إلا تجدد بكاؤه، وجبريل - عليه السلام - يأتيه ويقول: أهذا الذي قيل لك: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨].

فَلَمْ تَعْرِفْ قدره. «فَذُقْ جزايا خِلافِكَ» فكان يسكن عن الجزع. ويقال بل الحكم بالخنوع كما قيل:

وجاءت إليّ النفسُ أوّلَ مرةٍ وزيدت عليّ مكروهاها فاستقرت
قوله جلّ ذكره: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ .

كانت لا تصل يده إلى الأوراق حين أراد قطافها ليخصفها على نفسه، فلو لم تصل يده إلى تلك الشجرة - التي هي شجرة المحنة - لكان ذلك عنايةً بشأنه، ولكن وصلت يده إلى شجرة المحنة، تنمّة للبلاء والفتنة، ولو لم تصل يده إلى شجرة الستر - إبلاغاً في القهر - لَمَّا خَالَفَ الأمر، وَلَمَّا حَصَلَ ما حَصَلَ.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ : فكان ما دَاخَلَهُمَا من الخجل أشدّ من كل عقوبة؛ لأنهما لو كانا من الغيبة عند سماع النداء فإن الحضور يوجب الهيبة،

فلما ناداهما بالعتاب خَلَّ بهما من الخجل ما حلَّ، وفي معناه أنشدوا:

واخجلتا من وقوفي وَسَطَ دَارِهِمْ إذ قال لي مغضبا: من أنت يا رجل؟
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾.
اعترفا بالظلم جهراً، وعرفا الحكم في ذلك سراً؛ فقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ اعتراف بالظلم من حيث الشريعة، وعرفان بأن المدار على الحكم من حيث الحقيقة، فَمَنْ لم يعترف بظلم الخلق طوى الشريعة، ومن لم يعرف جريان حكم الحق فَقَدْ جَحَدَ الحقيقة، فلما أقرّا بالظلم قالوا: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ نطقاً على عين التوحيد حيث لم يقولوا بظلمنا خيبرنا، بل قالوا: فَعَلْنَا فَإِنْ لم تغفر لنا خسرنا، فَبِتَرَكْ غفرانك تخسر لارتكاب ظلمنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَهْطُوا بِعَصَاكُمْ لِيُقْضَىٰ عَذَابٌ﴾.

أهبطهم، ولكنه أهبط إبليس عن رتبته فوقع في اللعنة، وأهبط آدم عن بقعته فتداركنه الرحمة.

ويقال لم يُخْرِج آدم عليه السلام من رتبة الفضيلة وإن أُخْرِجَ عن دار الكرامة، فلذلك قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنِبْهُ رَبُّهُ﴾ [طه: ١٢٢] وأما إبليس - لعنة الله عليه - فإنه أُخْرِجَ من الحالة والرتبة؛ فلم ينتعش قط عن تلك السقطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَّا جِئَ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ هذا عامٌ ﴿وَمَتْعٌ إِلَّا جِئَ﴾: أراد به إبليس على الخصوص.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

أخبر أنه يستقبلهم اختلاف الأحوال في الدنيا، ويتعاقب عليهم تفاوت الأطوار، فَمِنْ عُشِيرٍ ومن يُسَرٍ، ومن خير ومن شر، ومن حياة ومن موت، ومن ظَفَرٍ ومن قَوْتٍ... إلى غير ذلك من الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ فَذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْوِي سَوَءَ تَكْمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

سترناكم عن الأسباب الظاهرة، وبيّسنا لكم ما تدفعون به صنوف المضار عنكم بما مَكَّنَّا لكم من وجوه المنافع.

ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فإن اللباس الظاهر يقي آفات الدنيا، ولباس التقوى يصون عن الآفات التي توجب سخط المولى، ولباس التقوى بجميع أجزائه العبد وأعضائه. وللبس لباس من التقوى وهو بذل الجهد والروح والقلب، لباس من

التقوى وهو صدق القصد بنفي الطمع . وللروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق . وللسر لباس من التقوى وهو نفي المساكنات والتصاوان من الملاحظات .

ويقال تقوى العباد ترك الحرام ، وتقوى العارفين نفي مساكنة الأنام . ويقال للعوام التقوى ، وللخواص لباس التقوى عن شهود التقوى .

قوله جل ذكره: ﴿يَبْنِيْٓ أَدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَهُمَا﴾ .

من أصغى إلى وساوس نفسه بأسماع الهوى وجد الشك بين وسواس^(١) الشيطان وهاجس النفس، ويتناصر الوسواس والهاجس وتصير خواطر وزواجر العلم مغمورة مقهورة - فعن قريب تشمل تلك الهواجس والوساوس صاحبها، وينخرط في سلك موافقة الهوى فيسقط في مهواة الزلة^(٢)، فإذا لم يحصل تدارك بوشيك التوبة صارت الحالة قسوة في القلب، وإذا قسا القلب فارقت الحياة وتم له البلاء .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ يَرٰنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق - سبحانه - بقلبه، فيستغيث إليه من كيده، فيُدخله - سبحانه - في كنف عنايته فيجد الخلاص من مكر الشيطان .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْتَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

استروحوا في التعلل إلى سلوكهم نهج أسلافهم، فاستمسكوا بحبل واه فزلت بهم أقدام الغرور، وقعوا في هذه المحنة .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ .

القسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق نفسك؛ فالعدل في حق الله الوقوف على حد الأمر من غير تقصير في الأمور به أو إقدام على المنهي عنه، ثم ألا تدخر عنه شيئاً مما حوّل، ثم لا تؤزر عليه شيئاً فيما

(١) الوسواس: (ج) وساوس، وهو الاسم من وسوس ويعني الشيطان، أو مرض يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن، أو حديث النفس مما يخطر بالقلب من شر ومما لا خير فيه .

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٣ - ٨٥ في حديث القشيري عن الخواطر .

أحلّ لك . وأمّا العدل مع الخلق - فعلى لسان العلم - بذل الإنصاف، وعلى موجب الفتوة ترك الانتصاف . وأمّا العدل في حق نفسك فإدخال العتق عليها، وسد أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نفس .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ .
الإشارة منه إلى استدامة شهوده في كل حالة، وألا تنساه لحظة في كل ما تأتية وتذره وتقدمه وتؤخره .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ﴾ .

من كانت قِسمته - سبحانه - له بالسعادة كانت فطرته على السعادة، وكانت حالته بنعت السعادة، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة، ومن كانت القسمة له بالعكس فالحالة بالضد، قال رسول الله ﷺ: «من كان بحالة لقي الله بها» .

وجملة العلم بالقضاء والقدر أن يتحقق أنه علم ما يكون أنه كيف يكون، وأراد أن يكون كما علم . وما عِلِمَ ألا يكون - مما جاز أن يكون أَرَادَهُ ألا يكون - أخبر أنه لا يكون . وهو على وجه الذي أخبر، وقضى على العبد وقدر أجرى عليه ما سبق به الحكم، وعلى ما قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبْقَىٰ هَآدِمٌ خُدُوًا زِينَتَكَ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ .
على لسان العلم: يجب ستر العورة في الصلاة، وعلى موجب الإشارة: زينة العبد بحضور الحضرة، ولزوم الشدة، واستدامة شهود الحقيقة .

ويقال زينة نفوس العابدين آثار السجود، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود؛ فالعبد على الباب بنعت العبودية، والعارف على البساط بحكم الحرية . وشتان بين عبد وعبد!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ .
الإسراف ما تناولته لك ولو بقدر سمسة .

ويقال الإسراف هو التعدي عن حد الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظاً بأي وجه كان .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نَفَعِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

الإشارة منها إلى زينة السرائر؛ فزينة العابدين آثار التوفيق، وزينة الواصلين أنوار

التحقيق، وزينة القاصدين ترك العادة، وزينة العابدين حسن العبادة.

ويقال زينة النفوس صدارُ الخدمة، وزينة القلوب حفظ الحرمة، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة.

ويقال زينة اللسان الذكر وزينة القلب الشكر.

ويقال زينة الظاهر السجود وزينة الباطن الشهود.

ويقال زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات، وزينة القلوب دوام المواصلات من حيث المشاهدات.

ومعنى قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي﴾ يعني إن الله لم يمنع هذه الزينة عمن تعرض لوجدانها، فمن تصدى لطلبها فهي مباحة له من غير تأخير قصود. قوله جل ذكره: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى. ويقال أرزاق المريدين إلهام ذكر الله، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾. ما ظهر منها الزلة، وما بطن منها الغفلة.

ويقال ما ظهر منها كان بنسيان الشريعة، وما بطن بإشارة الحقيقة.

ويقال لقوم ترك الرخص يكون علة، والأولى بهم والأفضل لهم الأخذ به. وقوم لو ركنوا إلى الرخص لقامت عليهم القيامة.

ويقال فاحشة الخواص تتبع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بذرة ولو بذرة أو سيئة.

ويقال فاحشة الأحباب الصبر على المحبوب^(١).

ويقال فاحشة الأحباب أن تبقى حياً وقد منيت بالفراق، قال قائلهم:

لا عيشَ بعد فراقهم هذا هو الخطب الأجل

ويقال فاحشة قوم أن يلاحظوا غيراً بعين الاستحقاق، قال قائلهم:

يا قُرَّةَ العين سلَّ عيني هل اكتحلت بمنظر حسن مذغبت عن عيني؟

ويقال فاحشة قوم أن تبقى لهم قطرة من الدمع ولم يسكبوها للفرقة، أو يبقى لهم نفس لم يتنفسوا به في حسرة، وفي معناه أنشدوا:

لئن بقيت في العين مني دمة فإني إذًا في العاشقين دخيل

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْصِثُونَ﴾.

لكلّ قوم مدة مضروبة، فإذا تناهت تلك المدة زالت تلك الحالة؛ فلنعمة المُتَرْفِين مُدَّةٌ، فإذا زالت فليس بعدها إلا الشدة، ولمحنة المستضعفين مدة فإذا انقضت تلك المدة زالت تلك الشدة.

ويقال إذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار فلا يزداد بعده إلا تراكم الظلمة، فإذا ارتحلت عساكرُ الظلام بطلوع الفجر فبعد ذلك لا تبقى فيه للنهار تهمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبْقَى مَادَمٌ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَقِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إذا أتاكم الرُّسُلُ فلا تركنوا إلى مجوزات الظنون، واحملوا الأمر على الجدِّ فإنَّ - مع استغنائنا عن الأغيار، وتقدُّسنا عن المنافع والمضار - نُطَالِبُ بِالْقَلِيلِ والكثير، ونحاسبُ على النقيير والقطمير^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

مَنْ قَابَلَ رُبُوبِيَّتَنَا بِالْجُحْدِ، وحكمنا بالرد، لَقِيَ الْهَوَانَ، وقاسى الآلام والأحزان، ثم الْعَجَزَ يلجئه إلى الخنوع، ولكن بعد ألا ينفذ ولا يسمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَرْبِ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾.

يصيبهم من الكتاب ما سبق لهم به الحكم، فمن جرى بسعادته الحكم وقع عليه رقم السعادة، ومن سبق بشقاوته الحكم حُقَّ عليه عِلْمُ الشقاوة.

ويقال من سبقت له قسمة السعادة فلو وقع في قَعْرِ اللَّطَى تداركته العناية وأخرجته الرحمة، وَمَنْ سَبَقَتْ لَهُ قِسْمَةُ الشقاوة.. فلو نزل الفراديس^(٢) تداركته السخطة وأخرجته اللعنة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ أُمَّةً أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولَٰئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا

(١) النقيير: النقطة في ظهر النواة كالثقبه فيها، ويضرب بها المثل في القلة.

القطمير: القشرة الرقيقة الملغفة على النواة أو الشيء الهين يضرب مثلاً للتافه القليل الشأن.

(٢) الفراديس: (ج) الفردوس: حديقة في الجنة (مذكر ومؤنث)، وفردوس النعيم: اسم الجنة.

فَقَاتِلِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَمْلِكُونَ وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرَجْنَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُنَّ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَدُوهُنَّ مِنَ الْعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٠﴾

آثار إعراض الحق عنهم أورثت لهم وحشة الوقت؛ تبرم بعضهم ببعض، وضاق كل واحد منهم عن كل شيء حتى عن نفسه، فدعا بعضهم على بعض، وتبرأ بعضهم من بعض، وكذلك صفة المطرودين.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴿١١﴾

فلا دعاؤهم يُسمع، ولا بكاؤهم ينفع، ولا بلاؤهم يكشف، ولا عناؤهم يُزفع.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ عُوَاشٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْقَاطِلِينَ ﴿١٢﴾

كما أحاطت العقوبات بهم في الدنيا فَتَدْنُسُ بالغفلة باطنهم، وتلوث بالزلة ظاهريهم، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم؛ فَمِنْ فوقهم عذاب ومن تحتهم عذاب، وكذلك من جوانبهم في القلب من ضيق العيش واستيلاء الوحشة ما يفي ويزيد على الكل.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣﴾

رفعنا عن ظاهريهم وباطنيهم كلفة العمل فَيَسِّرْنَا عليهم الطاعات بحسن التوفيق، وَخَفَّفْنَا عنهم العبادات بتقليل التكليف.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴿١٤﴾

طهرنا قلوبهم من كل غش، واستخلصنا أسرارهم عن كل آفة. وَظَهَّرَ قلوب العارفين من كل حظ وعلاقة، كما طَهَّرَ قلوب الزاهدين عن كل رغبة ومُنية، وطَهَّرَ قلوب العابدين عن كل تهمة وشهوة، وطَهَّرَ قلوب المحبين عن محبة كل مخلوق وعن غل الصدر - كل واحد على قدر رتبته.

ويقال لَمَّا خَلَقَ الجنة وَكَلَّ ترتيبها إلى رضوان، والعرش ولي حفظه إلى الجملة، والكعبة سَلَمَ مفتاحها إلى بني شيبه، وأما تطهير صدور المؤمنين فتولاه بنفسه.

وقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ ﴿١٥﴾

ويقال إذا نزع الغل من الصدور مِنْ قَبْلِهِ فلا محل للغرم الذي لزمهم بسبب الخصوم حيث كان منه سبحانه وجه آدائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَنُحْمَدَ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

في قولهم اعتراف منهم وإقرار بأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من جزيل تلك العطيات، وعظيم تلك الرتب والمقامات بجهدهم واستحقاق فعلهم، وإنما ذلك أجمع ابتداء فضل منه ولطف.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

تسكين لقلوبهم، وتطبيب لهم، وإلا فإذا رأوا تلك الدرجات علموا أن أعمالهم المشوبة بالتقصير لم توجب لهم كل تلك الدرجات.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعْلَمُ فَاذْنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

اعترف أهل النار بحقيقة الدين، وأقروا بسوء ما عملوا، ولكن حين لم ينفعهم إقرار بحال من الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾.

ذلك الحجاب الذي بينهما حصل من الحجاب السابق؛ لما حُجِبُوا في الابتداء في سابق القسمة عما خُصَّ به المؤمنون من القربة والزلفة حُجِبُوا في الانتهاء عما خُصَّ به السعداء من المغفرة والرحمة.

ويقال حجاب وأي حجاب! لا يُرْفَع بحيلة ولا تنفع معه وسيلة.

حجاب سبق به الحكم قبل الطاعة والجُرم.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾.

هؤلاء الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم فأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم، ويشرفون غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم.

ويقال يعرفونهم غداً بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم؛ فأقوامٌ موسومون بأنوار القرب، وآخرون موسومون بأنوار الرد والحجب.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

سَلِّمُوا اليوم عن النكرة والجحود، وأكبرموا بالعرفان والتوحيد.

وسلموا غداً من فنون الوعيد، وسعدوا بلطائف المزيد. وتحققوا أنهم بلغوا من الرتب ما لم يَسْمُ إليه طَرْفُ تأميلهم، ولم يُحِطُ بتفصيله كُنْهُ عقولهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَيْكَ أَمْحَبَ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

إنما يصرف أبصارهم اليوم تقديرأ عليهم عظيم المنة التي بها نجاتهم، فيزيدون في الاستغاثه وصدق الابتهاه، فتكمل بهم العارفة بإدامة ما لطفهم به من الإيواء والحفظ.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِبَا لَا يَمُرُّونَهُمْ بِسْمِ اللَّهِ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

ذلك ما يرون عليهم من غبار الرد وأمارات البعد، وهي مما لا يخفى على ذي عينين، فيقولون لهم: هل يغني عنكم ما ركنتم إليه من أباطيلكم، وسكنتم إليه من فاسد ظنونكم، وباطل تأويلكم؟ فشاهدوا - اليوم - تخصيص الحق لمن ظننتم أنهم ضعفاؤكم، وانظروا هل يغني عنكم الذين زعمتم أنهم أولياؤكم وشركاؤكم؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا يَتَذَكَّرُونَ﴾.

دلّت الآية على أن من أواخر ما يبقى على الإنسان الأكل والشرب؛ فإنهم في تلك العقوبات الشديدة يقع عليهم الجوع والعطش حتى يتضرعون كل ذلك التضرع؛ فيطلبون شربة ماء أو لقمة طعام وهم في غاية الآلام، والعادة - اليوم - أن من كان في ألم شديد لا يأكل ولا يشرب، وهذا شديد.

ثم أبصر كيف لا يسقيهم قطرة - مع استغناؤه عن تعذيبهم، وقدرته على أن يعطيه ما يريدون! ولكنه قهر الربوبية وعز الأحدثية، وأنه فعّال لما يريد. فكما لم يرزقهم - اليوم - من عرفانه ذرة، لا يسقيهم غداً في تلك الأحوال قطرة، وفي معناه أنشدوا:

وَأَقْسَمْنَ لَا يَسْقِينَنَا - الدهر - قطرة
ويقال إنما يطلبون الماء لبيكوا به بعدما نفدت دموعهم، وفي هذا المعنى قيل:
يَا نَازِحاً نَزَقْتَ دَمْعِي قَطِيعَتَهُ هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ بِهِ
وفي هذا المعنى أنشدوا.

جرف البكاء دموع عينك فاستعز عينا لغيرك دمعها مدرار
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَار؟

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَائِبِينَ﴾.

كما تركوا أمره وضيّعوه تركهم في العقوبة، ولا (....) (١) فيما يشكون، فتأتي عليهم الأحقاب، فلا كشف عذاب، ولا بَرْد شراب، ولا حسن جواب، ولا إكرام بخطاب. ذلك جزاء لِمَنْ يعرف قَدْرَ الوصلة في أوقات المهلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أنزلنا عليهم من الكتاب وأوحينا إليهم من الخطاب ما لو قبلوه بالتصديق وصاحبوه بالتحقيق لوجدوا الشفاء من محنة البعاد، ونالوا لضياء بقرب الوداد، ووصلوا في الدنيا والعقبى إلى جميل المراد، ولكنه - سبحانه أبى القسمة في نصيبهم إلا الشفوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَيَّرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

إذا كُشِفَ جلال الغيب، وانتفت عن قلوبهم أغطية الرّيب، فلا بكاء لهم ينفع، ولا دعاء منهم يُسمع، ولا شكوى عنهم تزفع، ولا بلوى من دونهم تقطع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ الْإِلَهَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

تعرف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهي أفعاله، وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التي هي أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية التي هي جماله وجلاله، فشتان بين قوم وقوم!

ثم كما يدخل في الظاهر الليل على النهار والنهار على الليل فكذلك يدخل القبض على البسط والبسط على القبض. ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونهار القلوب: فَمِنْ عِبَادِ أَحْوَالِهِ أَجْمَعِ قَبْضٌ، ومن عِبَادِ أَحْوَالِهِ أَجْمَعِ بَسْطٌ، ومن عبيد يكون مرة بعين القبض ومرة بعين البسط كما أن بعض أقطار العالم فيها نهار بلا ليل، وفي بعضها ليل بلا نهار، وفي بعضها ليل يدخل على نهار ونهار يدخل على ليل.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فمنه الخير والشر، والنفع والضرر، فإن له الخلق والأمر.

(١) بياض في الأصل.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ هذه الكلمة مجمع الدعاء الاشتمالها على إفادة معنى قَدَمِهِ ودوام ثبوته من حيث يُقال بَرَكَ الطيرُ على الماء .

وأفادت معنى جلاله الذي هو استحقاقه لنعوت العِزِّ لأنه قد تبارك أي تعظم . وأشارت إلى إسداد النعم وإتاحة الإحسان من حيث إن البركة هي الزيادة فهي مجمع الثناء والمدح للحق سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ .

الأمر بالدعاء إذن - في التسلي - لأرباب المحنة، فإنهم إلى أن يصلوا إلى كشف المحنة ووجود المأمول استروحوا إلى رُوح المناجاة في حال الدعاء؛ والدعاء نزهة لأرباب الحوائج، وراحة لأصحاب المطالبات، ومعجل من الإنس بما (...)(١) إلى القلب عاجل التقريب. وما أخلص عبد من دعائه إلا رُوح - سبحانه - في الوقت قلبه .

ويقال علمهم آداب الدعاء حيث قال: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وهذا أدب الدعاء؛ أن يدْعُوا بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطراب. ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك أنه جعل إمساكك عن دعائه - الذي لا بد منه - اعتداء منك .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

من الإفساد بعد الإصلاح إحمال النفس عن المجاهدات بخلع عذارها(٢) حتى تتبع هواها بعدما كَبَحَتْ لجأها مدةً عن العَدْوِ في ميدان الخلاف، ومن ذلك إرسال القلب في أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة، ومن ذلك الرجوع إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق، ومن ذلك استشعار محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بالآ تحب سواه، ومن ذلك الجنوح إلى تتبع الرخص في طريق الطلب بعد حمل النفس على ملازمة الأولى والأشق، ومن ذلك الانحطاط بِحَظٍّ إلى طلب مقام منه أو إكرام، بعد القيام معه بترك كل نصيب .

وفي الجملة: الرجوع من الأعلى إلى الأدنى إفساد في الأرض بعد الإصلاح .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

يقال المحسنين عملاً والمحسنين أملاً، فالأول العابدون والثاني العاصون .

(١) بياض في الأصل .

(٢) العذار: يقال: خلع فلان عذاره؛ أي: انهمك في الفج و لم يستع منه واتبع هواه .

ويقال المحسن من كان حاضراً بقلبه غير لاهٍ عن ربِّه ولا ناسياً لحقِّه .

ويقال المحسن القائم بما يلزم من الحقوق .

ويقال المحسن الذي لم يخرج (. . .)^(١) عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشطر كلمة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ .

تباشير القرب تتقدم فيتأذى نسيْمُه إلى مشام الأسرار، وكذلك آثار الإعراض تتقدم فتوجد ظلمة القبض في الباطن، فظلُّ الوحشة يتقدمها، ونسيم الوصلة بعدها، وفي قريب منه قال قائلهم:

ولقد تشمّنتُ القضاء لحاجتي فإذا له من راحتك نسيم
قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَتْهُ لِسَحَرٍ مَّتْنٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ .

الإشارة منه أنه يحصل بالمهجور ما يتأذى به الصدر ويُبْرِخُ به الوجه ويُنحَلُ به الجسم، بل يُبْطِلُ كلَّ البعد، فيأتيه القُرب فيعود عود وصاله بعد الذبول طرياً، ويصير دارس حاله عقيب السقوط ندياً، كما قال بعضهم:

كُنَّا كَمَنْ أُلْبِسَ أَكْفَانُهُ وَقُرْبُ النِّعَاشِ مِنَ اللَّحْدِ
فَجَالَتْ الرُّوحُ فِي جِسْمِهِ وَرَدُّهُ الْوَصْلُ إِلَى الْمَوْلِدِ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ .

إذا زكا^(٢) الأصلُ نما الفرع، وإن خبُث الجوهر لم يَطْب ما تحلّل منه، وإن طاب العنصر فالجزء يحاكي أصله، والأسيرة تدل على السريرة، فَمَنْ صفا باطن قلبه زكا ظاهر فعله، ومن كان بالعكس فحاله بالضد.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

بَلَّغَ الرسالة فلم ينبج فيهم ما أظهر من الآلاء، لأن محروم القسمة لا ينفعه مجهود الحيلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ .

(٢) زكا: نما وزاد.

(١) يياض في الأصل.

قوله: ﴿لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ﴾: نسبوا نوحاً - عليه السلام - إلى الضلالة، فتولّى إجابتهم بنفسه فقال ﴿يَقَوْمُ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ﴾، ونبينا - ﷺ - نُسِبَ إليه فتولّى الحق - سبحانه - الردّ عنه فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢] فشتان بين مَنْ دافع عن نفسه، وبين مَنْ دافع عنه ونفى عنه ربّه!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَبْلَغَكُمْ رِسَالَتِي ربي وَأَصْحَ لَكُمْ وَعَلَّمَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. إني أعلم أنّي وإن بالغت في تبليغ الرسالة فمَنْ سبقت له القسمة بالشقاوة لا ينفعه نصحي، ولا يؤثّر فيه قلبي، فمَنْ أسقطته القسمة لم تنعشه النصيحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ أَنْتُمْ تُنذِرُونَ وَلْتَقُوا وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

عجبوا مِنْ كَوْنِ شخص رسول الله، ولم يتعجبوا من كون الصنم شريكاً لله، هذا فَرْطُ الجهالة وغاية الغباء

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَعْيَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

تسرّبوا غيباً^(١) التكذيب لما ذاقوا طعم العقوبة، فلم يسعدوا بما حملوه ولم يصلوا إلى ما أملوه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَّا عَادِ آخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِذَا لَرَبِّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ أَنْتُمْ تُنذِرُونَ﴾.

أخبر أنهم سلكوا طريق أسلافهم وإخوانهم، فوقعوا في هدّتهم، ومثّلوا بحالهم فلا خيرَ فيمن أثر هواه على رضا الله، ولا ربحَ مَنْ قَدَّمَ هواه على حق الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

جعل الله الخلق بعضهم خلفاً عن بعض، فلا يُفني فوجاً منهم من جنس إلا أقام فوجاً منهم مِنْ ذَلِكَ الجنس. فأهل الغفلة إذا انقضوا خَلَفَ عنهم قوم، وأهل الوصلة إذا درجوا خلف عنهم قوم، ولا ينبغي للعبد أن يسمو طَرْفُ تأمله إلى الأكابر فإن ذلك المقام مشغول بأهله، فما لم تنته نوبة أولئك لا تنتهي النوبة إلى هؤلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾.

(١) تسرّب: لبس. الغيب: العاقبة.

كما زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق، وكما أوقع التفاوت بين شخص وشخص فيما يعود إلى المباني أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذْ كُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ لَمَلَكُواْ نَفْلِحُوْنَ﴾.

التعماء عام، والآلاء خاص، فتلك تتضمن ترويح الظواهر، وهذه تتضمن التلويح في السرائر، تلك بالترويح بوجود المبار، وهذه بالتلويح بشهود الأسرار.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُواْ اٰجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللّٰهَ وَحَدُّهُ وَتَدَّرَ مَا كَانَ يَعْْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَاِنَّا بِمَا نَعْبُدُنَا اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾.

طاحوا في أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً في ساحات التوحيد، فشق عليهم الإعراض عن الأغيار، وفي معناه قال قائلهم:

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام ويقال شخص لا يخرج من غش التفرقة، وشخص لا يحيد لحظة عن سنن التوحيد فهو لا يعبد إلا واحداً، وكما لا يعبد إلا واحد لا يشهد إلا واحداً، قال قائلهم:

لا يهتدي قلبي إلى غيركم لأنه سُدَّ عليه الطريق
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَصَبٌ اُنْجِدْلُوْنِيْ فِتْ اَسْمَاوُ سَبِّتُمْهُمَا اَشْرَ وَاَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ فَاَنْظِرُوْا اِنِّيْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِيْنَ﴾.

إذا أراد الله هوان عبده طرّحه في مفايزات التفرقة؛ وإن من علامات غضبه وإعراضه ردّ العبد إلى شهود الأغيار، وتغريقه إياه في بحار الظنون، إذ لا تحصيل للأغيار في معنى الإثبات.

قوله جل ذكره: ﴿فَاٰجِئْتُهُ وَاَلَّذِيْنَ مَعَهُ رِجْعُهُ مَنَّا وَقَطَعْنَا دَاِرَ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآيٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُؤْمِنِيْنَ﴾.

لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة.

وأخبر - سبحانه - أنه نجى هوداً برحمته، وكذلك نجى الذين آمنوا معه برحمته، ليُعلم أن النجاة لا تكون باستحقاق العمل، وإنما تكون بابتداء فضل من الله ورحمته؛ فما نجا من نجا إلا بفضل الحق سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَاِلٰى ثَمُوْدَ اٰخَاهُمْ صٰلِحًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوْا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ

عَبِيدُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَابَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾

غايير الحق - سبحانه - بين الرسل من حيث الشرائع، وجمع بينهم في التوحيد؛ فالشرائع التي هي العبادات مختلفة، ولكن الكل مأمورون بالتوحيد على وجه واحد. ثم أخبر عن إمضاء سُنته تعالى بإرسال الرسل عليهم السلام، وإمهال أُممهم ريشما ينظرون في معجزات الرسل.

ثم أخبر عما دَرَجُوا عليه في مقابلتهم الرسل بالكذيب تسليةً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله - فيما كان يقاسي من بلاء قومه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخِفُّونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنَحَّيُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أزاح علتهم في بسط الدلالة، ووسع عليهم حالتهم بتمكينهم من العطايا على ما دعت إليه حالتهم. فلا الدليل تأملوه، والسبيل لازموه، ولا النعمة عرفوا قدرها، ولا المنة قدّموا شكرها، فصادفهم من البلاء ما أدرك أشكالهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَعْطَلُونَا أَنْ صَلِّحًا تُرْسَلُ مِن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفَرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾.

أجرى الله - سبحانه - سُنته ألا يخصص بأفضاله، وجميل صنعه وإقباله - في الغالب من عباده - إلا مَنْ يسمو إليه طَرَفُهُ بالإجلال، وألا يوضح له قَدْرَهُ بين الأضراب والأشكال؛ فأنصار كل نبي إنما هم ضعفاء وقته، ويلاحظهم أهل الغفلة بعين الاحتقار، ولكن ليس الأمر كما تذهب إليه الأوهام، ولا كما يعتقد فيهم الأنام، بل الجواهر مستورة في معادتها، وقيمة المَحَالِّ بساكنيها، قال قائلهم:

وما ضرَّ نصل السيف إخلاقَ غمده
إذا كان غَضْباً حيث وجهته وترا
وقال رسول الله ﷺ: «كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره»^(١).

(١) هناك رواية أخرى للحديث «كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له...» أخرجه الترمذي (مناب ٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ الحيلة تدعو إلى وفاق الهوى؛ فتستثقل النفس قول الناصحين، فيخرجون عليهم وكأن الناصحين هم الغائبون، قال قائلهم:

وكم سُقْتُ في آثارك من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصح
قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ لَأَرْجَالُ شَهْوَةٍ مِنْ دُونِ الْبَنَاتِ أَلَمْ تَكُنْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَلُونُ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَاهُ إِلَّا أَمْرًا تُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أباح الحق - سبحانه - في الشرع ما أراح به العذر، فمن تخطط هذا الأمر وجرى على مقتضى الهوى استقبل هوانه، واستوجب إذلاله، واستجلب - باختياره - صغره.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَؤُكُمْ قَوْمٌ مَالِكُكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

خسئت همم قوم شعيب فقنعوا بالتطفيف^(١) في المكيال والميزان عند معاملاتهم، ثم إن الحق - سبحانه - لم يسألهم في ذلك ليغلم أن الأقدار ليست من حيث الأخطار.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

من المعاصي ما لا يكون لازماً لصاحبه وحده بل يكون متعدياً عنه إلى غيره. ثم يقدر الأثر في التعدي يحصل الضرر للمبتدىء.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَّكَرْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

من عليهم بتكثير العدد لأن بالتناصر والتعاون تمشي الأمور ويحصل المراد. ويقال كما أن كل أمر بالأعوان والأنصار خيراً أو شراً، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار في الخير، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان في الشر.

(١) التطفيف: نقص المكيال أو البخس في المكيال والميزان.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنًا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي يَلَدَيْنَا قَالَ أُولُو كُنَا كَرِهِينَ﴾.

كما أن (أهل) الخير لا يميلون إلا إلى أشكالهم فأهل الشر لا ينصرون إلا من رأوا بأنه يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم، والأوحد في بابه من باين نهج أضرابه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

نطقوا عن صحة عزائمهم حيث قالوا: ﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلْيَتِكُمْ﴾، ثم أفررو بالشكر حيث قالوا: ﴿بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾، ثم تبراوا عن حولهم وقوتهم حيث قالوا: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ يعني إن يلبسنا لباس الخذلان نرُدُّ إلى الصغر والهوان.

ثم اشتاقوا إلى جميل التوكل فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي به وثقنا، ومنه الخير أَمَلْنَا.

ثم قوضوا أمورهم إلى الله فقالوا: ﴿رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ فتداركهم الحق - سبحانه - عند ذلك بجميل العِصْمة وحسن الكفاية.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ شَيْئًا لِيُخْرِجُوهُنَّ فَإِذَا لَخَافِرُونَ فَآخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينِينَ﴾.

تواصوا فيما بينهم بتكذيب نبيهم، وأشار بعضهم باستشعار وقوع الفتنة بمتابعته، وكانوا مخطئين في حكمهم، مبطلين في ظنهم، فعلم أن كل نصيحة لا يجب قبولها، وكل إشارة لا يخسُنُ اتباعها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا﴾ كانت لهم غلبتهم في وقتهم، ولكن لما اندرست أيامهم سَقَطَ صِيَتُهُمْ، و (خمد) ذكرهم، وانقشع سحاب من تَوَهُم أن منهم شيئا.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

الحق غالب في كل أمر، والباطل زاهق بكل وصف، وإذا كانت العِزَّة نعت من هو أزلُّ الوجود، وكان الجلال حق من هو المَلِك فأي أثر للكثرة مع القدرة؟ وأي خطر للعلل مع الأزل؟ ولقد أشدوا في قريب من هذا:

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدا معذول
قوله جل ذكره: ﴿فَنَوَّلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آمَنُوا عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّهُ رَاعَى حَذَّ الْأَمْرِ؛ فَإِذَا خَرَجَ عَنْ عَهْدَةِ التَّكْلِيفِ فِي التَّبْلِيغِ فَمَا عَلَيْهِ مِنْ إِقْرَارِهِمْ أَوْ إِنْكَارِهِمْ، مِنْ تَوْحِيدِهِمْ أَوْ جُحُودِهِمْ؛ إِنْ أَحْسَنُوا فَالْمِيرَاثُ الْجَمِيلُ لَهُمْ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَالضَّرَرُ بِالتَّأَلُّمِ عَائِدٌ عَلَيْهِمْ، وَمَالِكُ الْأَعْيَانِ أَوْلَى بِهَا مِنَ الْأَغْيَارِ، فَالْخَلْقُ خَلَقَهُ وَالْمُلْكُ مُلْكُهُ؛ إِنْ شَاءَ هَدَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَغْوَاهُمْ، فَلَا تَأْسُفُ عَلَى نَفِيٍّ وَفَقْدٍ، وَلَا أَثَرٍ مِنْ كَوْنٍ وَوُجُودٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

حَرَّكَهُمْ بِالْبَلَاءِ الْأَهْوَنِ تَحْذِيرًا مِنَ الْبَلَاءِ الْأَصْعَبِ، فَإِذَا تَمَادَوْا فِي غِيهِمْ، وَلَمْ يَنْتَبِهُوا مِنْ غَفْلَتِهِمْ مَدَّ عَلَيْهِمْ ظِلَالُ الْإِسْتِدْرَاجِ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ سَبَابُ التَّفْرِقَةِ مَكْرًا بِهِمْ فِي الْحَالِ، فَإِذَا وَطَّئُوا - عَلَى مَسَاعِدَةِ الدُّنْيَا - قُلُوبَهُمْ، وَرَكَنُوا إِلَى مَا سَوَّلَتْ لَهُمْ مِنْ امْتِدَادِهَا، أَبْرَزَ لَهُمْ مِنْ مَكَامِنِ التَّقْدِيرِ مَا تُعْصِ عَلَيْهِمْ طَيْبُ الْحَيَاةِ، وَانْدَبَقَ بَغْتَةً عُتُقُ السُّرُورِ، وَشَرِّقُوا بِمَا كَانُوا يَنْهَلُونَ مِنْ كَاسَاتِ الْمُنَى، فَتَبَدَّلَ ضِيَاءُ نَهَارِهِمْ بِسُدُفَةِ الْوَحْشَةِ، وَتَكَدَّرَ صَافِي مَشْرِبِهِمْ بِيَدِ النُّوَابِثِ، كَمَا سَبَقَتْ بِهِ الْقِسْمَةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَاتَّقَوْا الشِّرْكَ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِأَسْبَابِ الْعَطَاءِ - وَلَكِن سَبَقَ بِخِلَافِهِ الْقَضَاءُ - وَأَبْوَابُ الرِّضَاءِ، وَالرِّضَاءُ أَتَمُّ مِنَ الْعَطَاءِ. وَيُقَالُ لَيْسَتْ الْعِبْرَةُ بِالنِّعْمَةِ إِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالْبَرَكَةِ فِي النِّعْمَةِ، وَلِذَا لَمْ يَقُلْ أَضَعَفْنَا لَهُمُ النِّعْمَةَ وَلَكِن قَال: بَارَكْنَا لَهُمْ فِيمَا حَوَّلْنَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾.

أَكْثَرُ مَا يَنْزِلُ الْبَلَاءُ يَنْزِلُ فَجَاءَةً عَلَى غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهِ، وَيُقَالُ مَنْ حَذَرَ الْبَيَاتِ لَمْ يَجِدْ رُوْحَ الرُّقَادِ.

وَيُقَالُ رَبُّ لَيْلَةٍ مُّفْتَتِحَةٍ بِالْفَرْحِ مُخْتَمَةٌ (بِالْتَّرَج). وَيُقَالُ رَبُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ شَمْسُهُ مِنْ أَوْجِ السَّعَادَةِ قَامَتْ ظَهِيرَتُهُ عَلَى قِيَامِ الْفِتْنَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

يُقَالُ مَنْ عَرَفَ عِلْوَ قَدْرِهِ - سَبَّحَانَهُ - خَشِيَ خَفْيَ مَكْرِهِ، وَمَنْ أَمِنَ خَفْيَ مَكْرِهِ نَسِيَ عَظِيمَ قَدْرِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أو لا يعلم المغترون بطول سترنا أن لو أردنا لعجلنا لهم الانتقام، أو بلغنا فيهم الاصطلام، ثم لا ينفعهم ندم، ولا يشكى عنهم ألم.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ الْأَفْرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

سلخوا طريقاً واحداً في التمرد، واجتمعوا في خط واحد في الجحد والتبليد؛ فلا للإيمان جنحوا، ولا عن العدوان رجعوا، وكذلك صفة من سبقت بالشقاء قسمته، وحقت بالعذاب عليه كلمته.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

نجم في الغدر طارقيهم، وأقل من سماء الوفاء شارقيهم، فعديم أكثرهم رعاية العهد، وحقت من الحق لهم قسمة الرد والصد.

ويقال: شكا من أكثرهم إلى أقلهم، فالأكثر من ردتهم القسمة، والأقلون من قبلتهم الوصلة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأُوهُ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

لما انقضت أيامهم، وتفاصر عن بساط الإجابة إقدامهم بعث موسى نبيه، وضم إليه هارون صفيه، فقويلا بالتكذيب والجحود، فسلك بهم مسلك إخوانهم في التعذيب والتبديد.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرَعُونَ إِلَيَّ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَقِيَّ إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

الرجوع إلى دعاء فرعون إلى الله بعد سماع كلام الله بلا واسطة صعب شديد، ولكنه لما ورد الأمر قابله بحسن القبول، فلما ترك اختيار نفسه أيده الحق - سبحانه - بنور التأييد حتى شاهد فرعون محواً في التقدير فقال: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فإذا لم يصح له أن يقول على الخلق؛ فالخلق محو فيما هو الوجود الأزلي فأي سلطان لآثار التفرقة في حقائق الجمع؟

قوله: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: من المعلوم أن مجرد الدعوى لا حجة فيه، ولكن إذا ظهر برهان لم يبق غير الانقياد لما هو الحق،

فَمَنْ اسْتَسْلِمَ (....) ^(١)، وَمَنْ جَحَدَ الْحَقَائِقَ بَعْدَ لَوْحِ الْبَيَانِ سَقَطَ سَقُوطاً لَا يَتَعَشَّى.
قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾.

إنما أظهر له المعجزة مِنْ عَصَاهُ لَطُولِ مِقَارِنَتِهِ إِيَّاهَا، فالإنسانُ إلى ما أَلْفَهُ أَسْكَنُ بقلبه. فلَمَّا رَأَى ما ظهر في العصا من الانقلاب أخذ موسى عليه السلام في الفرار لتحقيقه بأن ذلك من قهر الحقائق، وفي هذا إشارة إلى أَنَّ السكونَ إلى شيءٍ غِرَّةٌ وغفلةٌ أيش ما كان، فَإِنَّ تَقَلُّبَ الْعَبْدِ فِي قَبْضِ الْقُدْرَةِ، وهو في أَسْرِ التَقَلُّبِ، وليس للطمع في السكون مساعٌ بحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَعَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾.

العصا - وإن كانت معه من زمن - فَيَدُهُ أَخْصُ بِهِ لِأَنَّهَا عَضُو لَهُ، فكَاشَفَهُ أَوَّلًا بِرَسَمٍ مِنْ رَسْمِهِ ثُمَّ أَشْهَدَهُ مِنْ ذَاتِهِ فِي ذَاتِهِ مَا عَرَفَ أَنَّهُ أَوَّلَى بِهِ مِنْهُ، فلَمَّا رَأَى انْقِلَابَ وَصْفٍ فِي يَدِهِ عَلمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ بِيَدِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا أَنْتُمْ كَرِيمٌ﴾.

إذا أراد اللّه هوان عبدٍ لا يزيد الحقُّ حُجَّةً إِلَّا ويزيد لذلك المُبْطِلُ فيه شبهةً؛ فكلُّما زاد موسى - عليه السلام - في إظهار المعجزات ازدادوا حيرةً في التأويلات.
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا أَنِجْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ﴾.

تَوَهَّمُ النَّاسُ أَنَّهُمْ بِالتَّأْخِيرِ، وتقديم التدبير، وبذل الجهد والتشمير يُعَيِّرُونَ شيئاً من التقدير بالتقديم أو بالتأخير، ولم يعلموا أَنَّ الْقَضَاءَ غَالِبٌ، وَأَنَّ الْحُكْمَ سَابِقٌ، وعند حلول الحكم فلا سلطانَ للعلم والفهم، والتسرع والحلم... كلا، بل هو الله الواحد القهار العَلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُو سِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

ظنوا أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَ بما يسحرون، ولم يعلموا أَنَّ تأثير القدرة فيهم أَغْلِبَ مِنْ تَأْثِيرِ سِحْرِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَنْهُمْ مَا زَوَّرُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ فَنُونِ مَكْرِهِمْ فَكَادُوا وَكَيْدَ لَهُمْ، فهو كما قيل:

ورماني بأسهم صائبٍ وتعمدته بسهم فظاشا

(١) بياض في الأصل.

فَبَيَّنَّا لَهُمْ فِي تَوْهَمِ أَنْ الْغَلْبَةَ لَهُمْ فَتُخَّ عَلَيْهِمْ - مِنْ مَكَامِنَ الْقُدْرَةِ - جَيْشٌ، فَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ - فِي فَتْحِ الْقُدْرَةِ - مَقْهُورِينَ بِسَيْفِ الْمَشِيئَةِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَافِيلَ رَبِّ الْمَلَكِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

مَوْهُوا بِسِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ غَلِبُوا، فَأَدْخَلَ اللَّهُ - سَبْحَانَهُ - عَلَى تَمْوِيهَاتِهِمْ قَهَرَ الْحَقِّ، وَطَاشَتْ تِلْكَ الْحَيْلُ، وَخَابَ مِنْهُمْ الْأَمَلُ، وَجَذَبَ الْحَقُّ - سَبْحَانَهُ - أَسْرَارَهُمْ عَلَى الْوَهْلَةِ فَأَصْبَحُوا فِي صَدْرِ الْعَدَاوَةِ، وَكَانُوا - فِي التَّحْقِيقِ - مِنْ أَهْلِ الْوَدِّ. فَسَبْحَانَ مَنْ يُبْرِزُ الْعَدُوَّ فِي نَعْتِ الْوَلِيِّ؛ ثُمَّ يَقْلِبُ الْكِتَابَ وَيُظْهِرُ الْوَلِيَّ فِي نَعْتِ الْعَدُوِّ، ثُمَّ يَأْبَى الْحَالَ إِلَّا حَصُولَ الْمَقْضِيِّ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُمْ بِمُوسَىٰ قَبْلَ أَنْ ءَاْدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَئِيْخْرِجُوْا مِنْهَا اٰهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ لَاقُطْعَمًا اَيْدِيَكُمْ وَاَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصْلِيْنَكُمْ اٰجْمَعِيْنَ﴾.

خَاطَبَهُمْ مَعْتَقِدًا أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا^(١)، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَسْرَارَ قَدْ خَرَجَتْ عَنْ رِقِّ الْأَشْكَالِ، وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ طَهَّرَتْ عَنْ تَوْهَمِ التَّفَرُّقَةِ، وَأَنَّ شَمْسَ الْعِرْفَانِ طَلَعَتْ فِي سَمَاءِ أَسْرَارِهِمْ، فَأَشْهَدُوا الْحَقَّ بِنَظَرٍ صَحِيحٍ، وَلَمْ يَبْقَ لِتَخَوُّيْفَاتِ النَّفْسِ فِيهِمْ سُلْطَانٌ، وَلَا لَشَيْءٍ مِنَ الْعِلَلِ بَيْنَهُمْ مَسَاغٌ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾.

لَمَّا كَانَ مَصِيرُهُمْ إِلَى اللَّهِ سَهْلًا عَلَيْهِمْ مَا لَقُوا فِي مَسِيرِهِمْ إِلَى اللَّهِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا نَقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ ءَاْمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ﴾.

لَمَّا عَمِلُوا لِلَّهِ، وَأَوْدَوْا فِي اللَّهِ، صَدَقُوا الْقَصْدَ إِلَى اللَّهِ، وَطَلَبُوا الْمَعُونَةَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، كَذَا سُئِلَ مَنْ كَانَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ عَلَى اللَّهِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْرِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنْقُبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

لَمَّا اسْتَزَادُوا مِنْ فِرْعَوْنَ فِي التَّمَكِّيْنِ مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ اسْتَنْكَفَ أَنْ يَقْرَءَ بِعَجْزِهِ، وَيَعْتَرِفَ بِقُصُورِ قُدْرَتِهِ، فَتَوَعَّدَ مُوسَى وَقَوْمَهُ بِمَا عَكَسَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَدْبِيرَهُ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ تَقْدِيرُهُ.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣١٧.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أحالهم على الله فإن رجوعه إليه، فقال لهم: إن رجوعي - عند تحيري في أموري - إلى ربي، فليكن رجوعكم إليه، وتوكلكم عليه، وتعرضوا لنفحات يسره، فإنه حكّم لأهل الصبر بجميل العقبى.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا أَوَإِذَا نَبَأْنَا أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

خفي عليهم شهود الحقيقة، وغشي على أبصارهم حتى قالوا توالى علينا البلاء؛ ففي حالك بلاء، وقبلك شقاء.. فما الفضل؟ فأجابهم موسى - عليه السلام - بما علق رجاءهم بكشف البلاء فقال: ﴿عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ﴾ فوقفهم على الانتظار. ومن شهد بصر الأسراء شهد تصاريف الأقدار.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

شدّد عليهم وطأة القدرة بعدما ضاعف لديهم أسباب النعمة، فلا الوطأة أصلحتهم شدتها ولا النعمة نبهتهم كثرتها، لا بل إن مسهم يسرّ لاحظوه بعين الاستحقاق، وإن مسهم عسرّ حملوه على التطيّر بموسى - عليه السلام - بمقتضى الاغترار.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا جَاءَ نَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ يَتَّخِذُوا يَمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾.

الكفور لا يرى فضل المنعم؛ فيلاحظ الإحسان بعين الاستحقاق، ثم إذا اتصل بشيء مما يكرهه تجنّى وحمل الأمر على ما يتمنى:

وكذا الملول إذا أراد قطيعة ملّ الوصال وقال كان وكان

إن الكريم إذا حبّاك بوّده ستر القبيح وأظهر الإحسانا

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

المتفرد بالإيجاد هو الواحد ولكن بصائرهم مسدودة، وعقولهم عن شهود الحقيقة مسدودة، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

جعلوا الإصرار على الاستكبار شعارهم، وهتكوا بألسنتهم - في العتو - أستارهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۖ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ .

جَسَسَ عليهم العقوبات لَمَّا نَوَّعُوا وَجَسَّسُوا فنون المخالفات، فلا إلى التكفير عادوا، ولا إلى التطهير تصدوا، وعوقبوا بِصَرْفِ قلوبهم عن شهود الحقائق وذلك أبلغ مما اتصل بظواهرهم من فنون البلايا ونعوذ بالله من السقوط عن عين الله .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ .

لم يقولوا ادع لنا ربنا، بل ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبُّكَ﴾ فهم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلا بعداً وأجنيبة .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ فَأَنصَبْنَا لَهُمُ الْمُغْرَقَتِمْ فِي أَلْيَمٍ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ .

أبرزوا العهد ثم نقضوه، وقدموا العهد ثم رفضوه، وكما قيل:

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه^(١)

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يُوارى في ثرى رمسه^(٢)

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا ۚ آلَتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكَمَتَ كَمَتُ رَبِّكَ ۚ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ .

مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ مَقَاسَةِ الذُّلِّ فِي اللَّهِ وَضَعَ اللَّهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةً^(٣) العرفان، فهو العزيز سبحانه، لا يُشْمِتُ بأوليائه أعداءهم، ولا يَضِيعُ من جميل عهده جزاءهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمُكِّنُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفَاعِلُونَ ۚ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ۚ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفَاعِلُونَ ۚ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ۚ﴾ .

لم تَخْلُصْ في قلوبهم حقائق التوحيد فتاقت نفوسهم إلى عبادة غير الله، حتى قالوا لنبيهم موسى - عليه السلام -: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . وكذا صفة من لم يتحرر قلبه من إثبات الأشغال والأعلال، ومن المساكنة إلى الأشكال والأمثال .

(١) ارعوى عن القبيح والجهل ارعوا: كف عنه ورجع .

(٢) الرمس: القبر أو ترابه (ج) أرماس ورموس .

(٣) القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال (ج) فلانس .

ويقال مَنْ ابْتغى بالصنم أن يكون معبوده متى يُتَوَهَّم في وصفه أَنْ يُخْلِصَ إِلَى اللَّهِ قَصُودَهُ؟

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ أَعْبَدَ اللَّهَ أَتَبْعُكُمْ إِلَهَهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ﴾.
ذَكَرَهُمْ انْفِرَادَهُ - سُبْحَانَهُ - بِإِنْشَائِهِمْ وَإِبْدَاعِهِمْ، وَأَنَّهُ هُوَ الْإِلَهَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْإِبْدَاعِ، وَتَبَّهَهُمْ أَيْضاً عَلَى عَظِيمِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ حَقُّ إِتْمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ مَقَابِلَتَهُمْ بِإِيَّاهَا بِالتَّوَلَّى لغيره والعبادة لِمَنْ سِوَاهُ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذْ أَجَبْتَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءُكُمْ وَمَسْخُوفُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

ما ازداد موسى - عليه السلام - في تعديد إناعام الله عليهم، وتنبههم على عظيم آلائه إلا ازدادوا جحداً، ويُغْدَأُ بِالْقُلُوبِ - عن محل العرفان - على بُغْدٍ، وهذه أَمَارَةٌ من بلاء - سُبْحَانَهُ - في السابق بالقطع والرد.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِمَشْرِ قَتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزْبِيعَتِ لَيْلَةٍ﴾.

عِدَّةُ الْأَحْبَابِ عَزِيزَةٌ، فَإِذَا حَصَلَتْ الْمَوَاعِدَةُ بَيْنَ الْأَحْبَابِ، فَهِيَ عَذْبَةٌ حُلُوةٌ كَيْفَمَا كَانَتْ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى أَنْشَدُوا:

أَمْطَلِينَا وَسَوْفِي وَعِدِينَا وَلَا تَفِي^(١)
ويقال عَلَّلَ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - مُوسَى بِالْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَهُ بِأَنْ يُسْمِعَهُ مَرَّةً أُخْرَى كَلَامَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ابْتَلَاهُ بِالْإِسْمَاعِ مِنْ غَيْرِ وَعَدٍ، فَلَا انْتِظَارَ وَلَا تَوَقُّعَ وَلَا أَمَلَ، فَأَخَذَ سَمَاعُ الْخَطَابِ بِمَجَامِعِ قَلْبِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَعَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمِيقَاتِ الْمَعْلُومِ لِيَكُونَ تَأْمِيلُهُ تَعْلِيلًا لَهُ، ثُمَّ إِنْ وَعَدَ الْحَقُّ لَا يَكُونُ إِلَّا صَدَقًا، فَاطْمَأَنَّ قَلْبُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِلْمِيعَادِ، ثُمَّ لَمَّا مَضَتْ ثَلَاثُونَ لَيْلَةً أَتَى كَمَا سَلَفَ الْوَعْدُ فَزَادَ لَهُ عَشْرًا فِي الْمَوْعِدِ. وَالْمَطْلُ فِي الْإِنْجَازِ غَيْرُ مُحْبُوبٍ إِلَّا فِي سُنَّةِ الْأَحْبَابِ، فَإِنَّ الْمَطْلَ عِنْدَهُمْ أَشْهَى مِنَ الْإِنْجَازِ، وَفِي قَرِيبٍ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَنْشَدُوا:

أَقِمْ لِعَمْرِكَ لَا تَهْجِرِنَا وَمَثِينَا الْمُنَى، ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا مَوْعِدًا مَا شِئْتَ إِنَّا نَحِبُّ وَإِنْ مَطَلْتَ تَوَاعِدِينَا
فَإِمَّا تَنْجِزِي وَعَدَكَ أَوْ فَإِنَّا نَعِيشُ نَوْمِلُ فِيكَ حِينَا
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

(١) مطله: أجل موعد الوفاء به مرة بعد أخرى. التسويف: المطل والتأخير.

كان هارون - عليه السلام - حمولاً بحسن الخلق؛ لما كان المرور إلى فرعون استصحب موسى - عليه السلام - هارون، فقال الله - سبحانه - : ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِ﴾ [طه : ٣٢] بعد ما قال : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص : ٣٤] . ولما كان المرور إلى سماع الخطاب أفرده عن نفسه، فقال : ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي﴾ وهذا غاية الحُمل من هارون ونهاية التصبر والرضا، فلم يَقُلْ : لا أقيم في قومك . ولم يقل : هلاً تحمِلني مع نفسك كما استصحبتني حال المرور إلى فرعون؟ بل صبر ورضي بما لزم، وهذه من شديديات بلاء الأحباب، وفي قريب منه أنشدوا :

قال لي من أحب والبين قد حلّ وفاقاً لفررتي وشهيتي
ما تُرى في الطريق تصنع بعدي قلت : أبكي عليك طول الطريق
ثم إن موسى لما رجع من سماع الخطاب، فرأى من قومه ما رأى من عبادة العجل أخذ برأس أخيه يجره إليه حتى استلطفه هارون - عليه السلام - في الخطاب، فقال : ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِطَبَاقِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه : ٩٤] .

ويقال لو قال هارون - عليه السلام : إن لم تعوضني عما فاتني من الصحبة فلا تعاتبني فيما لم أذنب فيه بحال ذرة ولا حبة . . لكان موضع هذه القالة .

ويقال الذنب كان من بني إسرائيل، والعتاب جرى مع هارون، وكذا الحديث والقصة، فما كل مَنْ عصى وجنى استوجب العتاب، فالعتاب ممنوع عن الأجانب .

قوله جلّ ذكره : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا﴾ .

جاء موسى مجيء المشتاقين مجيء المهيّمين، جاء موسى بلا موسى، جاء موسى ولم يَبْقَ من موسى شيء لموسى . آلاف الرجال قطعوا مسافات طويلة فلم يذكرهم أحد، وهذا موسى خطا خطواتٍ فإلى القيامة يقرأ الصبيان : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى﴾ .

ويقال لما جاء موسى لميقات باسط الحق - سبحانه - سقط بسماع الخطاب، فلم يتمالك حتى قال : ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ، فَإِنْ غَلَبَاتِ الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من الشهود، وكذا قالوا :

وأبرح ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دثت الخيامُ من الخيام
ويقال صار موسى - عليه السلام - عند سماع الخطاب بعين الشكر فنطق ما نطق، والسكران لا يؤخذ بقوله، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف؟

ويقال أخذته عِزَّةُ السَّمَاعِ فخرج لسانه عن طاعته جرياً على مقتضى ما صاحبه مِنَ الْأَرْيَحَةِ وَبَسَطِ الْوَصْلَةَ.

ويقال جمع موسى - عليه السلام - كلمات كثيرة يتكلم بها في تلك الحالة؛ فإن في القصص أنه كان يتحمل في أيام الوعد كلمات الحق، ويقول لمعارفه: ألكم حاجة إلى الله؟ ألكم كلام معه؟ فإني أريد أن أمضي إلى مناجاته.

ثم إنه لما جاء وسمع الخطاب لم يذكر - مما دبره في نفسه، وتحمله من قومه، وجمعه في قلبه - شيئاً ولا حرفاً، بل نطق بما صار في الوقت غالباً على قلبه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ وفي معناه أنشدوا:

فيا ليل كم من حاجة لي مهمة إذا جئْتُكم ليلى فلم أدر ما هي

ويقال أشدُّ الخَلْقِ شوقاً إلى الحبيب أقربُهم من الحبيب؛ هذا موسى عليه السلام، وكان عريق الوصلة، واقفاً في محل المناجاة، محدقة به سجوف التولي، غالبية عليه بوادهُ الوجود، ثم في عين ذلك كان يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ كأنه غائب عن الحقيقة. ولكن ما ازداد القومُ شرباً إلا ازدادوا عطشاً، ولا ازدادوا تيمناً إلا ازدادوا شوقاً، لأنه لا سبيل إلى الوصلة إلا بالكمال، والحق - سبحانه - يصون أسرار أصفياه عن مداخلة الملal.

ويقال نطق موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ولا أقل من نظرة - والعبد قتيل هذه القصة - فقول بالرد، وقيل له: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ وكذا قهر الأجباب ولذا قال قائلهم:

جَوْرُ الهوى أحسن من عَذْلِهِ وبخله أظرف من بذله

ويقال لما صرَّح بسؤال الرؤية، وجهر صريحاً رُدَّ صريحاً ف قيل له: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، ولما قال نبينا - ﷺ - بِسْرِهِ في هذا الباب، وأشار إلى السماء منتظراً الرد والجواب من حيث الرمز نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْسَكَ قَبْلَةً رَضَمَهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] فردّه إلى شهود الجهات والأطلال إشارة إلى أنه أعز من أن يطمح إلى شهوده - اليوم - طَرْف، بل الألاحظ مصروفة موفوفة - اليوم - على الأغيار.

ويقال لما سَمَتْ هُمْتُهُ إلى أسنى المطالب - وهي الرؤية - قول «بَلَنْ»، ولما رجع إلى الخلق وقال للخضر ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُؤْمِنَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] فقابله بلن، فصار الرد موقوفاً على موسى - عليه السلام من الحق ومن الخلق، ليكون موسى بلا موسى،

ويكون موسى صافياً عن كل نصيب لموسى من موسى، وفي قريب منه أنشدوا:

(.....) ^(١) نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البينِ فينا ينشق ^(٢)

ويقال طلب موسى الرؤية وهو بوصف التفرقة فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فأجيب بلن لأن عين الجمع أتم من عين الفرق. فزع موسى حتى خرَّ صعقاً ^(٣)، والجبل صار دكاً. ثم الروح بعد وقوع الصعقة على القلب مكاشفته بما هو حقائق الأحدية، ويكون الحق - بعد امتحاء معالم موسى - خيراً لموسى من بقاء موسى لموسى، فعلى الحقيقة: شهود الحقائق بالحق أتم من بقاء الخلق بالخلق، كذا قال قائلهم:

ولوجهها من وجهها قمرٌ ولعينها من عينها كحل

ويقال البلاء الذي ورد على موسى بقوله: ﴿إِنْ أَسْقَرَمَكَ كَانُ فَسَوْفَ تَرَنِّي﴾ ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أتم وأعظم منه قوله: ﴿لَنْ تَرَنِّي﴾ لأن ذلك صريخ في الرد، وفي اليأس راحة. لكنه لما قال فسوف أطمعه فيما منعه فلما اشتد موقفه جعل الجبل دكاً، وكان قادراً على إمساك الجبل، لكنه قهر الأحابب الذي به جَرَتْ سُنَّتُهُمْ.

ويقال في قوله: ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ بلاء شديد لموسى لأنه نُفِيَ عن رؤية مقصوده ومُنِيَ برؤية الجبل، ولو أذن له أَنْ يُغْمِضَ جَفَنَهُ فلا ينظر إلى شيء بعدما بقي عن مراده من رؤيته لكان الأمر أسهل عليه، ولكنه قال له: ﴿لَنْ تَرَنِّي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾.

ثم أشد من ذلك أنه أعطى الجبل التَّجَلِّيَ؛ فالجبل رآه وموسى لم يَرَهُ، ثم أَمَرَ موسى بالنظر إلى الجبل الذي قدم عليه في هذا السؤال، وهذا - والله - لصعب شديد!! ولكن موسى لم ينازع، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فإذا لم أرك لا أنظر إلى غيرك بل قال: لا أرفع بصري عما أمرتني بأن أنظر إليه، وفي معناه أنشدوا:

أريدُ وصالَه ويريد هجري فأتارك ما أريد لما يسري

ويقال بل الحق سبحانه أراد بقوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ تداركه قلب موسى - عليه السلام - حيث لم يترك على صريح الرد بل علله برفق كما قيل:

فذريني أفني قليلاً قليلاً

(١) بياض في الأصل.

(٢) الغراب: جنس طير من الجواثم. يطلق على أنواع كثيرة، منها الأسود. والعرب يتشاءمون به إذا نعت قبل الرحيل، ويسمون غراب البين، ويضرب به المثل في السواد والبكور والحذر والبعد.

(٣) أي غشي عليه.

ويقال لما رُدَّ موسى إلى حال الصحو وأفاق رجع إلى رأس الأمر فقال: ﴿بُتُّ إِلَيْكَ﴾ يعني إن لم تكن الرؤية هي غايه المرتبة فلا أقل من التوبة، فقبِلَه - تعالى - لسمو همته إلى الرتبة العلية.

قوله جلّ ذكره: ﴿بُتُّ إِلَيْكَ﴾.

هذه إناخة بعقوة العبودية، وشرط الإنصاف ألا تبرح محلّ الخدمة وإن حيل بينك وبين وجود القربة؛ لأن القربة حظّ نفسك، والخدمة حقّ ربك، وهي تتم بألا تكون بحظ نفسك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

هذا الخطاب لِنَدَارِكِ قلب موسى - عليه السلام - بكل هذا الرفق، كأنه قال: يا موسى، إني منعتك عن شيء واحد وهو الرؤية، ولكنني خصصتك بكثير من الفضائل؛ اصطفتيتك بالرسالة، وأكرمته بشرف الحالة، فاشكر هذه الجملة، واعرف هذه النعمة، وكن من الشاكرين، ولا تعرض لمقام الشكوى، وفي معناه أشدوا:

إِنْ أَعْرَضُوا فَهُمْ الَّذِينَ تَعَطَّفُوا وَإِنْ جَنَوْا فَاصْبِرْ لَهُمْ إِنْ أَخْلَفُوا
وفي قوله سبحانه: ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إشارة لطيفة كأنه قال: لا تكن من الشاكين، أي إِنْ منعتك عن سؤلك، ولم أعطك مطلوبك فلا تشكيني إذا انصرفت.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وفي الأثر: أن موسى عليه السلام كان يسمع صرير القلم، وفي هذا نوع لطف لأنه إِنْ منع منه النظر أو منعه من النظر فقد علله بالأثر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخُذْهَا يَقْوَاهُ﴾.

فيه إشارة إلى أن الأخذ يُشير إلى غايه القرب، والمراد ها هنا صفاء الحال، لأن قرب المكان لا يصحّ على الله سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

فرّق بين ما أمر به موسى من الأخذ وبين ما أمره أن يأمر به قومه من الأخذ، أخذ موسى عليه السلام من الحق على وجه من تحقيق الزلفة وتأكيد الوصلة، وأخذهم أخذ قبول من حيث التزام الطاعة، وشتان ما هما!

قوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ بمعنى بِحُسْنِهَا، ويحتمل أن تكون الهمزة للمبالغة

يعني: بأحسنها ألا تعرج على تأويل وارجع إلى الأولى^(١).
قوله جل ذكره: ﴿سَأُزِيكُ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

يعني عليها غبرة العقوبة، خاوية على عروشها، ساقطة على سقفها، منهة بنيانها، عليها قتره العقاب.

والإشارة من دار الفاسقين إلى النفوس المتابعة للشهوات، والقلوب التي هي معادن المني وفاسد الخطرات، فإن الفسق يوجب خراب المحل الذي يجري فيه؛ فمن جرى على نفسه فسق خربت نفسه. وآية خراب النفوس انتفاء ما كان عليها وفيها من سكان الطاعات، فكما تعطل المنازل عن قاطناتها إذا تداعت للخراب فكذلك إذا خربت النفوس بعمل المعاصي فتنتفي عنها لوازم الطاعات ومعتادها، فبعد ما كان العبد يتيسر عليه فعل الطاعات لو ارتكب شيئاً من المحظورات يشق عليه فعل العبادة، حتى لو خير بين ركعتي صلاة وبين مقاساة كثير من المشاق أثر تحمل المشاق على الطاعة.. وعلى هذا النحو ظلم القلوب وفسادها في إيجاب خراب محالها.

قوله جل ذكره: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

سأخرم المتكبرين بركات الاتباع حتى لا يقابلوا الآيات التي يكشفون بها بالقبول، ولا يسمعوها ما يخاطبون به بسمع الإيمان.

والتكبر جحد الحق - على لسان العلم، فمن جحد حقائق الحق فجحوده تكبره واعتراضه على التقدير مما يتحقق جحوده في القلب.

ويقال التكبر توهم استحقاق الحق لك.

ويقال من رأى لنفسه قيمة في الدنيا والآخرة فهو متكبر.

ويقال من ظن أن شيئاً منه أو له أو إليه - من النفي والإثبات - إلا على وجه الاكتساب فهو متكبر.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ السَّيِّئِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

تبين بهذا أنه لا يكفي شهود الحق حقاً وشهود الباطل باطلاً بل لا بد من شهود الحق من وجود التوفيق للحق، ومنع شهود الباطل من وجود العصمة من اتباع الباطل.

(١) هنا يلمح إلى موضوع الرخص (انظر الرسالة القشيرية ص ٣٨٠ - ٣٨١).

ويقال إِنَّ الجَا حِدَ للْحَقِّ - مع تحقّقه به - أَقْبَحُ حَالَةً من الجاهل به الْمُقْصِرِ في تعريفه .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيقِهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا﴾ .

لم يُطَهَّرْ قُلُوبُهُمْ - في ابتداء أحوالهم - عن توهم الظنون ، ولم يتحقّقوا بخصائص القِدَمِ وشروط الحدوث ، فعثرت أقدام فكرهم في وهاد المغاليط لما سلكوا المسير .

ويقال إن أقواماً رضوا بالعِجَلِ . أن يكونَ معبودَهُم متى تشم أسرارَهُم نسيَمَ التوحيد؟ هيهات لا ! لا ولا مَنْ لاحظ جبريلَ وميكائيلَ والعرشَ أو الثرى ، أو الجنَّ أو الورى . وإنَّ مَنْ لَحِقَهُ ذلك أو وجد من قبيل ما يقبل نعوت الحدثان ، أو صَحَّ في التجويز أن ترتقي إليه صواعد التقدير وشرائط الكيفية فغيرُ صالحٍ لاستحقاق الإلهية .

ويقال شَتَان بين أمة وأمة ! أمة خرج نبيهم عليه السلام من بينهم أربعين يوماً فعبدوا العِجَل ، وأمة خرج نبيُّهم - عليه السلام - من بينهم وأتى نيف وأربعمئة سنة فمن ذكر بين أيديهم أن الشمس والأقمار أو شيئاً من الرسوم والإطلال تستحق الإلهية أحرفوه بهمهم .

ويقال لا فصلَ بين الجسم والجسد ، فكما لا يصلح أن يكون المعبود جسماً لا يصلح أن يكون متصفاً بما في معناه ، ولا أن يكون له صوت فإن حقيقة الأصوات مُصَانَّةُ الأجرام الصلبة ، والتوحيد الأزلي ينافي هذه الجملة .

ويقال أَجْهَلُ بقوم آمنوا بأن يكونَ مصنوعُهُم معبودَهُم ! ولولا قهر الربوبية وأنه تعالى يفعل ما يشاء - فأَيُّ عقلٍ يَقِرُّ مثل هذا التلبس ؟ !

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ .

جعل من استحقاقه نعوت الإلهية صحة الخطاب وأن تكون منه الهداية ، وهذا يدل على استحقاق الحق بالنعوت بأن متكلِّمٌ في حقائق أزاله ، وأنه متفردٌ بهداية العبد لا هاديٍّ سواه . وفيه إشارة إلى مخاطبة الحق - سبحانه - وتكليمه مع العبد ، وإنَّ الملوك إذا جَلَّتْ رتبتهم استنكفوا أن يخاطبوا أحداً بلسانهم حتى قال قائلهم :

وما عَجَبُ تناسي ذِكْرِ عَبْدٍ على المولى إذا كَثُرَ العبيدُ
وبخلاف هذا أجرى الحق - سَنَّتْهُ مع عباده المؤمنين ، أما الأعداء فيقول لهم :
﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون : ١٠٨] وأما المؤمنون فقال ﷺ : «ما منكم إلا يكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان»^(١) ، وأنشدوا في معناه .

(١) هناك رواية أخرى للحديث : «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان يوم القيامة» . =

وما تزدهينا الكبرياء عليهم إذا كلّمونا أن نكلّمهم مرّداً
قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَتِي رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ
جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدادًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا سَفَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا
وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

حين تحققوا بقبح صنيعهم تجرّعوا كاسات الأسف ندماً، واعترفوا بأنهم خسروا
إن لم يتداركهم من الله جميل لطفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْقَا قَالَ يَلُغَا خَلْفَتَايَ مِنْ بَعْدِي
أَعِزَّلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

لو وجد موسى قومه بألف ألف وفاق لكان متنغص العيش لما مني به من حرمان
سماع الخطاب والرد إلى شهود الأغيار.. فكيف وقد وجد قومه قد ضلوا وعبدوا
العجل؟ ولا يُدري أيّ المحن كانت أشدّ على موسى:

أفقدان سماع الخطاب؟ أو بقاؤه عن سؤال الرؤية؟ أو ما شاهد من افتنان بني
إسرائيل، واستيلاء الشهوة على قلوبهم في عبادة العجل؟ سبحان الله! ما أشدّ بلاءه
على أوليائه!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ
اسْتَفْضَعُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

إن موسى عليه السلام وإن كان سمع من الله فتّن قومه فإنه لما شاهدهم أثرت
فيه المشاهدة بما لم يؤثر فيه السماع، وإن علّم قطعاً أنه تأثر بالسماع إلا أن للمعاينة
تأثيراً آخر.

ثم إن موسى لما أخذ برأس أخيه يجره إليه استلطفه هارون في الخطاب.

فقال: ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ [طه: ٩٤] فدَكَرَ الأمّ هنا للاسترفاق والاسترحام.

= أخرجه مسلم في الصحيح (الزكاة ٦٨، ٦٨ مكرر)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٧٧/٤) والبيهقي
في (السنن الكبرى ١٧٦/٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١٠/٢)، والطبراني في (المعجم
الكبير ٨٢/١٧)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢٦٩/١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣٥٥/١)،
والمفتي الهندي في (كتر العمال ١٥٩٤٢)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٤٣٣/١)، والبيهقي
في (الأسماء والصفات ٢١٨).

وكذلك قوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤] يريد بهذا أنه قد توالى المحن علي فذرني وما أنا فيه، ولا تزد في بلائي، خلفتني فيهم فلم يستنصحنوني. وتلك علي شديدة. ولقيت بغدك منهم ما ساءني، ولقد علمت أنها كانت علي عظمة كبيرة، وحين رجعت أخذت في عتابي وجر رأسي وقصدت ضربي، وكنت أود منك تسليتي وتعزيتي. فرفقا بي ولا تُثْمِتْ بي الأعداء، ولا تضاعف علي البلاء.

وعند ذلك رُقَّ له موسى - عليه السلام، ورجع إلى الابتهاال إلى الله والسؤال بنشر الافتقار فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى وجوب الاستغفار على العبد في عموم الأحوال، والتحقيق بأنَّ له - سبحانه - تعذيب البريء؛ إذ الخلق كُلُّهم مَلَكُه، وتَصَرَّفُ المالك في مَلَكه نافذ.

ويقال: ارتكاب الذنب كان من بني إسرائيل، والاعتذار كان من موسى وهارون عليهما السلام، وكذا الشرط في باب خلوص العبودية.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

يعني إن الذين اتخذوا العجل معبوداً سَيَنَالُهُمْ في مستقبل أحوالهم جزاء أعمالهم. والسين في قوله «سينالهم» للاستقبال، ومن لا يضره عصيان العاصين لا يبالي بتأخير العقوبة عن الحال، وفَرَّقَ بين الإمهال والإهمال، والحق - سبحانه - يمهل ولكنه لا يهمل، ولا ينبغي لمن يذنب ثم لا يُؤَاخِذُ في الحال أَنْ يَغْتَرَّ بالإمهال. قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وصَفُّهُمْ بالتوبة بعد عمل السيئات ثم بالإيمان بعدها، ثم قال: ﴿مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. والإيمان الذي هو بعد التوبة يحتمل آمنوا بأنه يقبل التوبة، أو آمنوا بأن الحق سبحانه لم يُضِرْهُ عَصِيَانٌ، أو آمنوا بأنهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله، أو آمنوا أي عَدُّوا ما سبق منهم من نقض العهد شِزْكَاً.

ويقال استداموا للإيمان فكان موافاتهم على الإيمان.

أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر سقطوا من عين الله، إذ ليس كل مرة تسلم الجرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَصْفُ أَخَذَ أَلْأَلْوَابَ فِي شُحَّتِهَا هُذًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾.

تشير إلى حسن إمهاله - سبحانه - للعبد إذا تَغَيَّرَ عن حدِّ التمييز، وغَلَبَ عليه ما لا يطيق ردُّه من بواده الغيب.

وإذا كانت حالة الأنبياء - عليهم السلام - أنه يغلبهم ما يعطلهم عن الاختيار فكيف الظن بمن دونهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلَكَنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ۝﴾ .

شأن بين أمة وأمة؛ أمة يختارهم نبئهم - عليه السلام، وبين أمة اختارها الحق - سبحانه، فقال: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمِي عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] .

الذين اختارهم موسى قالوا: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣] والذين اختارهم الحق - سبحانه - قال الله تعالى فيهم: ﴿وَجُودٌ بِوَمِيزٍ قَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] .

ويقال إن موسى - عليه السلام - جاهر الحق - سبحانه - بنعت التحقيق وفارق الحشمة وقال صريحاً: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ثم وكل الحكم إليه فقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ ثم عقبها ببيان التضرع فقال: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾، ولقد قدم الشاء على هذا الدعاء فقال: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿رَأَيْتُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ .

نطق بلسان التضرع والابتهاال حيث صُنِّيَ إليه الحاجة، وأخلص له في السؤال فقال: ﴿رَأَيْتُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي اهدنا إليك .

وفي هذه إشارة إلى تخصيص نبينا - ﷺ - في التبري من الحول والقوة والرجوع إلى الحق لأن موسى - عليه السلام قال: ﴿رَأَيْتُ لَنَا فِي...﴾ ونبينا ﷺ قال: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»^(١) ولا أقل من ذلك، وقال: «واكفلني كفالة الوليد» ثم زاد في ذلك حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك»^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا هَذَاكَ إِلَيْكَ﴾ .

أي ملنا إلى دينك، وصيرنا لك بالكلية، في غير أن نترك لأنفسنا بقية .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ .

وفي هذا لطيفة؛ حيث لم يقل: عذابي لا أخلي منه أحداً، بل علَّقه على المشيئة . وفيه أيضاً إشارة؛ أن أفعاله - سبحانه - غير مُعَلَّلة بأكساب الخلق؛ لأنه لم

(١) أخرجه صاحب (الجامع الكبير المخطوط الجزء الثاني ٧٠٣/٢) .

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٥٨/٦)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧١/٢) .

يقول: عذابي أصيب به العصاة بل قال: ﴿مَنْ أَشَاءَ﴾؛ وفي ذلك إشارة إلى جواز الغفران لمن أراد لأنه قال: ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ﴾ فإذا شاء ألا يصيب به أحداً كان له ذلك، وإلا لم يكن حينئذ مختاراً.

ثم لما انتهى إلى الرحمة قال: ﴿وَرَحِمَنِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ لم يعلقها بالمشيئة؛ لأنها نفس المشيئة ولأنها قديمة، والإرادة لا تتعلق بالقديم. فلما كان العذاب من صفات الفعل علّقه بالمشيئة، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات.

ويقال في قوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ مجالاً لآمال العصاة؛ لأنهم وإن لم يكونوا من جملة المطيعين والعبادين والعارفين فهم ﴿شَيْءٌ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ لَا يَنْقُوتُ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي سأوجبها لهم، فيجب الثواب للمؤمنين من الله ولا يجب لأحد شيء على الله إذ لا يجب عليه شيء لعزه في ذاته.

قوله ها هنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَنْقُوتُ﴾ أي يجتنبون أن يروا الرحمة باستحقاقهم، فإذا اتقوا هذه الظنون، وتيقنوا أن أحكامه ليست معللة بأكسابهم - استوجبوا الرحمة، ويحكم بها لهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي بما يكشفهم به الأنظار مما يقفون عليه بوجوه الاستدلال، وبما يلاطفهم به في الأسرار مما يجدونه في أنفسهم من فنون الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

أظهر شرف المصطفى - ﷺ - بقوله: ﴿النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ﴾ أي أنه لم يكن شيء من فضائله وكمال علمه وتهيؤه إلى تفصيل شرعه مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، أو من تعلمه وتكلفه، أو من اجتجاهه وتصرفه. بل ظهر عليه كل ما ظهر مِنْ قَبْلِهِ - سبحانه - فقد كان هو أمياً غير قارئٍ للكتب، ولا مُتَّبِعٍ للسَّيْرِ.

ثم قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: والمعروف هو القيام بحق الله، والمنكر هو البقاء بوصف المحظوظ وأحكام الهوى، والتعريض في أوطان المُنَى، وما تصوّره للعبد تزيورات الدعوى. والفاصل بين الجسمين، والمميز بين القسمين - الشريعة، فالحسن من أفعال العباد ما كان بنعت الإذن من مالك الأعيان فلهم ذلك، والقيح ما كان موافقاً لِلنَّهْيِ والزجر فليس لهم فعل ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

الإصرُ الثقل، ولا شيء أثقل من كَدِّ التدبير، فَمَنْ ترك كد التدبير إلى روح شهود التقدير، فقد وُضِعَ عنه كلُّ إصر، وكُفِيَ كلُّ وِزر وأمر.

والأغلالُ التي كانت عليهم هي ما ابتدعوه مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ باختيارهم في التزام طاعات الله ما لم يُفترض عليهم، فَوَكَّلُوا إلى حَوْلِهِمْ وَمُتَّيِّهِمْ فيها؛ فأهملوها، ونقضوا عهودهم.

وَمَنْ لَقِيَ - بخصائص الرضا - ما تجري به المقادير، وشَهِدَ الحقُّ في أجناس الأحداث، فقد خُصَّ بكلِّ نعمة وفضل.

قوله جل ذكره: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

اعترف لهم بنصرة الرسول - ﷺ - وإلا فالنبي ﷺ كان الله حسيبه، وَمَنْ كان استقلاله بالحق لم يقف انتعاشه على نصرة الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِنَاسٍ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۚ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ۚ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

صَرَّحَ بما رُقِّيَاكَ إليه من المقام، وأفصح عما لقيناك به من الإكرام، قُلْ إني إلى جماعتكم مُرسَلٌ، وعلى كافتكم مُفَضَّلٌ، وديني - لِمَنْ نظر واعتبر، وفكر وسبر - مُفَضَّلٌ. فاللهي الذي لا شريك له ينازعه، ولا شبيه يضارعه له حق التصرف في ملكه بما يريد من حكمه. ومن جملة ما حكم وقضى، ونفذ به التقدير وأمضى - إرسالي إليكم لتطيعوه فيما يأمركم، وتحذورا من ارتكاب ما يجرركم. وإنَّ مما أَمَرَكم به أنه قال لكم: آمِنُوا بالنبي الأمي، واتبعوه لتفليحوا في الدنيا والعقبى، وتستوجبوا الزُلْفَى والحسنى، وتخلصوا من البلوى والهوى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ قَوْرِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

هم الذين سبقت لهم العناية، وصدق فيهم الولاية فبقوا على الحق من غير تحريف ولا تحويل، وأدركتهم الرحمة السابقة، فلم تنطرق إليهم مفاجأة تغيير، ولا خفي تبديل.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَفْنَاقَ عَشْرَةِ أَسْبَابًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ ۚ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْغَجَرَ ۖ فَفَاجَأَسَتْ مِنْهُ أَفْنَانَا عَشْرَةً ۚ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ ۖ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ ۖ وَاسْأَلُوا ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

فَرَّقَهُمْ أَصْنَافًا، وجعلهم في التحزب أخفافاً، ثم كفاهم ما أَمَّهُمْ، وأعطاهم ما لم يكن لهم بُدٌّ منه فيما نابَهُمْ؛ فظللنا عليهم ما وقاهم أذى الحرِّ والبرد، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوَى مما نفى عنهم تعب الجوع والجهد والسعي والكد، وفَجَّرنا لهم العيونَ عند النزول حتى كانوا يشاهدونها عياناً، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين، ولكن ليست العبرة بأفعال الخلق ولا بأعمالهم إنما المدارُ على مشيئة الحق، سبحانه وتعالى فيما يُمضي عليهم من فنون أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفَعَرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرِيدٌ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود، وما حصل منهم من نقض العهود. وعما ألزمهم من التكليف، ولقاهم به من صنوف التعريف، وإكرامه من شاء منهم بالتوفيق والتصديق، وإذلاله من شاء منهم بالخذلان وحرمان التحقيق، ثم ما عاقبهم به من فنون البلاء فما لقوا تعريفاً، وأذاقهم من سوء الجزاء، حُكماً - من الله - حتماً، وقضاء جزماً.

قوله جل ذكره: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

جاء في التفسير أنهم زادوا حرفاً في الكلمة التي قيلت لهم فقالوا: حنطة بدل «حِطَّة» فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفاً أن الزيادة في الدين، والابتداع في الشرع عظيم الخطر، ومجاوزة حد الأمر شديد الضرر.

ويقال إذا كان تغيير كلمة هي عبارة عن التوبة يوجب كل ذلك العذاب - فما الظن بتغيير ما هو خبرٌ عن صفات المعبود؟

ويقال إن القولَ أَتَقَصُّ من العمل بكل وجه - فإذا كان التغيير في القول يُوجب كل هذا.. فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاثُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْهُونَ لَا تَأْنِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْهُمْ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

كان دينهم الأخذ بالتأويل، وذلك رَوَّعَانٌ^(١) - في التحقيق، وإن الحقائق تأتي إلا الصدق، وإن التعرّيج في أوطان الحظوظ والجنوح إلى احتملات الرخص فسح

(١) رواه: خادعه، وصارعه.

لأكيد موثيق الحقيقة، ومن شاب شوب له، ومن صفى صفى له .
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَىٰ رَبِّكَزُكِرُوا وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

الحقائق - وإن كانت لازمة - فليست للعبد عند لوازم الشرع عاذرة بل الوجوب يفترض شرعاً، وإن كان التقدير غالباً بكل وجه .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

إذا تمادى العبد في تهتكه، ولم يُبالِ بطول الإمهال والستر لم تُهمل يد التقرير عن استئصال العين، ومحو الأثر، وسرعة الحساب، وتعجيل العذاب الأدنى قبل هجوم الأكبر . ثم البرء في فضاء السلامة، وتحت ظل الحفظ، ودوام روح التخصيص ويزد عيش التقريب .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ .

إذا انتهت مدة الإمهال فليس بعده إلا حقيقة الاستئصال، وإذا سقط العبد من عين الله لم ينتعش بعده أبداً، فمن أسقطه حكم الملوك فلا قبول له بعد الرد، وفي معناه أنشدوا:

إذا انصرفت نفسي من الشيء لم تكذ إليه بوجه آخر الدهر تُثبِلُ

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوبُكَ يَبَئِثَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْيَقِينَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

إذا الحق - سبحانه - أمضى سنته بالإنذار وتقديم التعريف بما يستحقه كل أحد على ما يحصل منه من الآثار إبداء للعذر - وإن جلت رتبته عن كل عذر - فإن ينجع فيهم القول ولا دمر عليهم بالعذاب .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا مِّنْهُمْ أَصْلَحُوا وَمِنْهُمْ دُونِ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالشَّيْئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

أجراهم على ما علم أنهم يكونون عليه من صلاح وسداد، ومعاص وفساد . ثم ابتلاهم بفنون الأفعال من محن أزاحها، ومن منن أناحها، وطالبهم بالشكر على ما أسدى، والصبر على ما أبلى، ليظهر للملائكة والخلائق أجمعين جواهرهم في الخلاف والوفاق، والإخلاص والنفاق؛ فأما الحسنات فهي ما يُشهدهم المخبري، ولا يُلهمهم عن المُنْدي، وأما السيئات فالتردد بين الإنجاز والتأخير، والإباحة والتقصير .

ويقال الحسنة أن يُنْسِيكَ نفسك، والسيئة أن يُشْهَدَكَ نفسك.

ويقال الحسنات بتيسير وقتٍ عن الغفلات خالٍ، وتسهيل يومٍ عن الآفات بائنٍ. والسيئات التي ابتلاهم بها خذلانٌ حاصل وحرمانٌ متواصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَـدْرِهِمْ خَلْفٌ وَرَوُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

استوجبوا الذم بقوله - سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَـدْرِهِمْ خَلْفٌ﴾ لأنهم آثروا العَرَضَ الأدنى، وركنوا إلى عاجل الدنيا، وجعلوا نصيبهم من الآخرة المني فقالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

ويقال من أمارات الاستدراج ارتكابُ الزلة، والاغترارُ بزمانِ المُهلة، وحملُ تأخيرِ العقوبة على استحقاق الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ مَا أَخَذُوا﴾.

أخبر عن إصرارهم على الاغترار بالمني، وإيثار متابعة الهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ يَمِثُّ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا﴾.

استفهام في معنى التقرير، أي أمروا ألا يَصِفُوا الحقَّ إلا بنعت الجلال، واستحقاق صفات الكمال، وألا يتحاكموا عليه بما لم يأت منه خبر، ولم يشهد بصحته برهانٌ ولا نظر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَنْزَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يعني تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوج البيان وظهور البرهان. يعني التعرّض لنفحات فضله - سبحانه - خيرٌ لمن أمّل جوده من مقاساة التعب ممن بدّل - في تحصيل هواه - مجهوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

يمسكون بالكتاب إيماناً، وأقاموا الصلاة إحساناً، فبالإيمان وجدوا الأمان، وبالإحسان وجدوا الرضوان؛ فالأمانُ مُعْجَلُ الرضوان مؤجل. ويقال ﴿يمسكون بالكتاب﴾ سبب النجاة، وإقامة الصلاة تحقق المناجاة. فالنجاة في المال والمناجاة في الحال.

ويقال أفرد الصلاة ها هنا بالذكر عن جملة الطاعات ليُعْلَمَ أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

مَنْ أَمَّلَ سَبَبَ إِنْعَامِنَا لَمْ تَخْصِرْ لَهُ صَفَقَةً، وَلَمْ تَخْفِقْ لَهُ فِي الرِّجَاءِ رَفَقَةً، وَيُقَالُ مَنْ نَقَلَ (. . .)^(١) إِلَى بَابِهِ قَدَمَهُ لَمْ يَغْدَمْ فِي الْآجِلِ نِعَمَةً، وَمَنْ رَفَعَ إِلَى سَاحَاتِ جُودِهِ هِمَمَهُ نَالَ فِي الْحَالِ كَرَمَهُ.

وَيُقَالُ مَنْ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِجُودِهِ نَالَ فِي الدَّارَيْنِ شَرَفَهُ. وَمَنْ اِكْتَفَى بِجُودِهِ كَانَ اللَّهُ عَنْهُ خَلْفَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ نَنْقَأَ الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ليس من يأتي طوعاً كمن يأتي جبراً، فإن الذي يأتي قهراً لا يعرف للحق - سبحانه - قدراً، وفي معناه أنشدوا:

إذا كان لا يرضيك إلا شفاععة فلا خير في ود يكون لشافع
وأنشدوا:

إذا أنا عاتبتُ المملولَ فلئنما أخطُ بأقلامي على الماءَ آخرُفا
وهبتهُ ازعوى بعد العتاب ألم يكن تودده طبعاً، فصار تكلفاً؟
ويقال قصارى من أتى خيراً أن ينكص على عقبه طوعاً، كذلك لما قابلوا الكتاب بالإجبار ما لبثوا حتى قابلوه بالتحريف.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق وعده، وتأكيد عناج^(٢) وذه، بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

سُقياً لليلَى والليالي التي كُنَّا بَلِيلَى نلتقي فيها
أفديك بل أيام دهرى كلها يفدين أياماً عرفتُك فيها
ويقال فأجابهم بتحقيق العرفان قبل أن يقع لمخلوق عليهم بصراً، أو ظهر في قلوبهم لمصنوع أثر، أو كان لهم من حميم أو قريب أو صديق أو شفيق خبر، وفي معناه أنشدوا:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى وصادف قلبي فارغاً فتمكناً

(١) بياض في الأصل.

(٢) العتاج: خيط أو سير يُشد في أسفل الدلو ثم يُشد في عروتها أو عرقوتها (اللسان ٢/ ٣٣٠).

ويقال جمعهم في الخطاب ولكنه فَرَّقَهُمْ في الحال . وطائفة خاطبهم بوصف القربة فعرفهم في نفس ما خاطبهم، وفِرْقَةٌ أبقاها في أوطان الغيبة فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم .

ويقال أقوام لاطفهم في عين ما كاشفهم فأقروا بنعت التوحيد، وآخرون أبعدهم في نفس ما أشهدهم فأقروا عن رأس الجحود .

ويقال وَسَمَ بالجهل قوماً فالزمهم بالإشهاد بيان الحجة فأكرمهم بالتوحيد، وآخرين أشهدهم واضح الحجة (...) (١) .

ويقال تجلّى لقوم فتولّى تعريفهم فقالوا: «بلى» عن حاصل يقين، وتَعَزَّزَ عن آخرين فأثبتهم في أوطان الجحد فقالوا: «بلى» عن ظنٍ وتخمين .

ويقال جمع المؤمنين في الأسماء ولكن غاير بينهم في الرتب؛ فَجَذَبَ قلوب قوم إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المَبَارَ، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان وكاشفهم به من الأسرار .

ويقا فرقة رُدُّهم إلى الهيبة فهماموا، وفِرْقَةٌ لاطفهم بالقربة فاستقاموا .

ويقال عَرَّفَ الأولياء أنه مَنْ هو فتحققوا بتخليصهم، وَلَبَّسَ على الأعداء فتوقفوا لحيرة عقولهم .

ويقال أسمعهم وفي نفس أحضرهم، ثم أخذهم عنهم فيما أحضرهم، رَفَمَ عنهم فأنطقهم بحكم التعريف، وحفظ عليهم - بحسن التولي - أحكام التكليف وكان - سبحانه - لهم مُكَلَّفًا، وعلى ما أَرَادَهُ مُصَرَّفًا، وبما استخلصهم له مُعَرَّفًا، وبما رقاها إليه مُشَرَّفًا .

ويقال كاشف قوماً - في حال الخطاب - بجماله فطوحهم في هيمان حبه، فاستمكنت محابهم في كوامن أسرارهم؛ فإذا سمعوا - اليوم - سماعاً تجددت تلك الأحوال، فالانزعاجُ الذي يَظْهَرُ فيهم لِتَذَكُّرِ ما سَلَفَ لهم من العهد المتقدم .

ويقال أسمع قوماً بشاهد الربوبية فأصحاهم عن عين الاستشهاد فأجابوا عن عين التحقيق، وأسمع آخرين بشاهد الربوبية فمحاهاهم عن التحصيل فأجابوا بوصف الجحود .

ويقال أظهر آثارَ العناية بدءاً حين اختصَّ بالأنوار التي رشت عليهم قوماً، فَمَنَ حَرَمَهُ تلك الأنوار لم يجعله أهلاً للوصلة، وَمَنَ أصابته تلك الأنوارُ أَقْصَحَ بما خُصَّ به من غير مقاساة كَلَفَةٍ .

(١) بياض في الأصل .

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إذا سُدَّتْ عيونُ البصائر فما ينفع وضوح الحجة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَآوِينَ﴾.

الحق - سبحانه - يظهر الأعداء في دار الخلّة ثم يردّهم إلى سابق القسمة، ويبرز الأولياء بنعت الخلاف والزلة، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة.

ويقال أقامه في محل القرية، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدّ له من سابق التقدير؛ فأصبح والكلّ دونه رتبة، وأمسى والكلب فوقه - مع خساسته.. وفي معناه أنشدوا:

فبينما بخير والذنى مطمئنة وأصبح يوماً - والزمان تقلّباً

ويقال ليست العبرة بما يلوح في الحال، إنما العبرة بما يؤول إليه في المآل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تلحقه الشقاوة الأبدية، ولكن من قصته السوابق لم تنعشه اللواحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

إذا كانت مساكنة آدم للجنة وطمعه في الخلود فيها أوجبا خروجه عنها، فالركون إلى الدنيا - متى يوجب البقاء فيها؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

موافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العز إلى تراب الذل، وتلقيه في وهدة الهوان؛ ومن لم يصدق علماً فعن قريب يقاسيه وجوداً.

قوله جل ذكره: ﴿فَنَلَّهُمْ كَنَلِ الْكَلْبِ﴾.

من أخلاق الكلب التعرض لمن لم يخفه على جهة الابتداء، ثم الرضاء عنه بلقمة.. كذلك الذي ارتد عن طريق الإرادة يصير ضيق الصدر، سبب الخلق، يبدأ بالجفاء كلّ بريء، ثم يهدأ طياشه ينيل كلّ عريض خسيس.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَحِبَّلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

المحجوب عن الحقيقة عنده الإساءة والإحسان (سيان)^(١)، فهو في الحالين:

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

إمّا صاحب ضَجَرٍ أو صاحب بَطَرٍ؛ لا يحمل المحنة إلا زوال الدولة، ولا يقابل النعمة إلا بالنهمة، فهو في الحالين محجوبٌ عن الحقيقة.

ويقال الكلب نجاسته أصلية، وخساسته كلية، كذلك المردوده في الصفة؛ له نقصان القيمة وحرمان القسمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾. أي صفته أدنى من نعتي من يُليّ بالإعراض الأزلي، وأي نعت أعلى من وصف من أُكْرِمَ بالقبول الأبدي؟ وأي حيلة تنفع مع من يخلق الحيلة؟ وكيف تصح الوسيلة إلا لمن منه الوسيلة؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَلْيُضِلِّكُمُ الْهَارِثُونَ﴾. ليست الهداية من حيث السعاية، إنما الهداية من حيث البداية، وليست الهداية بفكر العبد ونظيره، إنما الهداية بفضل الحق وجميل ذكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾.

مَنْ خَلَقَ لجهنم - متى يستوجب الجنّات؟

وَمَنْ أَهْلَهُ لِلسخطة - أئى يستحق الرضوان؟

ولولا انسداد البصائر وإلا فأى إشكال بقي بعد هذا الإيضاح؟

ويقال هم - اليوم - في حجيم الجحود، مُقَرَّنِينَ في أصفاد الخذلان، مُلَبَّسِينَ ثياب الحرمان، صعائمهم ضريع الوحشة، وشرابهم خميم الفرقه، وغداً هم في حجيم الحرقة كما فُضِّلَ في الكتاب شرع تلك الحالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

أي لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهم المُحَدَّثُونَ، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق وبين هواجس النفس ووساوس الشيطان، ولهم أعين لا يُبْصِرُونَ بها شواهد التوحيد وعلامات اليقين؛ فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا مع من سلك ركوب الشهوة.

﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾: لأنَّ الأنعام قد رُفِعَ عنها التكليف، وإن لم يكن لها وفاق الشرع فليس منها أيضاً خلاف الأمر.

والأنعام لا يهّمها إلا الاعتلاف، وما تدعو الحيلة من مباشرة الجنس، فكَذَلِكَ مَنْ أُقِيمَ بشواهد نفسه وكان من المربوطين بأحكام النفس، وفي معناه أنشدوا:

نهارك يا مغرورٌ سهوٌ وغفلةٌ وليلك نومٌ والرّدى لك لازمٌ

وسعيك فيها سوف تكره غِبَّهُ كذلك في الدنيا تعيش البهائم
قوله جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ الْأَتَمُّهُ الْخُسْنُ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

سبحان مَنْ تَعَرَّفَ إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرفهم أنه مَنْ هو، وبأي وصف
هو، وما الواجب في وصفه، وما الجائز في نعته، وما الممتنع في حقّه وحكمه؛
فتجلى لقلوبهم بما يكشفهم به من أسمائه وصفاته، فإن العقول محجوبة عن الهجوم
بذواتها بما يَصِحُّ إطلاقه في وصفه، وإن كانت واقفة على الواجب والجائز والممتنع
في ذاته، فللعقل العرفان بالجملة، وبالشرح الإطلاق والبيان في الإخبار، والقول فيما
وَرَدَ به التوفيق يُطْلَقُ، وما سَكَتَ عنه التوفيق يُنْمَعُ. ويقال مَنْ كان الغالب عليه وصف
من صفاته ذَكَرَهُ بما يقتضي هذا الوصف؛ فمن كان مكاشفاً بَعْطَاهُ، مربوط القلب
بأفضاله فالغالب على قائلته الشئاء عليه بأنه الرهاب والبار والمُعْطِي وما جرى مجراه.
ومن كان مجذوباً عن شهود الإنعام، مكاشفاً بنعت الرحمة فالذي يغلب على ذكره
وصفه بأنه الرحمن والرحيم والكريم وما في معناه. وَمَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ عن شهود
وجوده، واستهلك في حقائق وجوده فالغالب على لسانه الحق. ولذلك فأكثر أقوال
العلماء في الإخبار عنه: «البارى» لأنهم في الترقى في شهود الفعل إلى شهود
الفاعل. وأمّا أهل المعرفة فالغالب على لسانها «الحق» لأنهم مُخْتَطَفُونَ عن شهود
الآثار، متحققون بحقائق الوجود.

وقال إنَّ الله - سبحانه - وقف الخلق بأسمائه فهم يذكرونها قائلةً، وتعزَّرَ بذاته،
والعقول - وإن صَفَتْ لا تهجم على حقائق الإشراف، إذ الإدراك لا يجوز على الحق؛
فالعقول عند بواده الحقائق متفنعة بنقاب الحيرة عند التعرض للإحاطة، والمعارف
تأثية عند قصد الإشراف على حقيقة الذات، والأبصار حسيّة عند طلب الإدراك في
أحوال الرؤية، والحق سبحانه عزيز، وباستحقاق نعوت التعالي مُتَفَرِّد.

قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: الإلحاد هو
الميل عن القصد، وذلك على وجهين بالزيادة والنقصان؛ فأهل التمثيل زادوا
فألحدوا، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

أجرى الحق - سبحانه - سُنتَهُ بالآي يُخْلِجِي البسيطة من أهل لها هم الغياث وبهم
دوام الحق في الظهور، وفي معناه قالوا:

إذا لم يكن قطب فمن ذا يديرها؟
فهدايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق، ويدلون على الحق، ويتحركون بالحق،

ويسكنون للحق بالحق، وهم قائمون بالحق؛ يصرفهم الحق بالحق أولئك هم غيات الخلق؛ بهم يُسْقَوْنَ إذا قحطوا، وَيُمْطَرُونَ إذا أجذبوا، وَيُجَابُونَ إذا دَعَوْا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

الاستدراج أن يلقى في أوهامهم أنهم من أهل الوصلة، وفي الحقيقة: السابق لهم من القسمة حقائق الفرقة.

ويقال الاستدراج انتشار الصيت بالخير في الخلق، والانطواء على الشر - في السر - مع الحق.

ويقال الاستدراج ألا يزداد في المستقبل صحة إلا ازداد في الاستحقاق نقصان رتبة.

ويقال الاستدراج الرجوع من توهم صفاء الحال إلى ركوب قبيح الأعمال، ولو كان صادقاً في حاله لكان معصوماً في أعماله.

ويقال الاستدراج دعاوى عريضة صدرت عن معانٍ مريضة.

ويقال الاستدراج إفاضة البر مع (...)(١) الشكر.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَنْفَكُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

أو لم يتأملوا بأنوار البصائر ليشهدوا أخلاق آثار التقريب بجملة أحواله - عليه السلام - ليعلموا أن ذلك الشاهد ليس بشاهد متخرس.

ويقال إن برود الوساطة - صلوات الله عليه وعلى آله - كانت بنسيم القربة معطرة، ولكن لا يُذَرَكُ ذلك الثَّشْرُ إِلَّا بِشَمِّ العرفان، فَمَنْ فَقَدَ ذلك - فأَي خبر له عن حقيقة حاله - صلوات الله عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أطلع الله - سبحانه - أعمار الآيات، وأماط عن ضيائها سحب الشبهات؛ فَمَنْ استضاء بها تَرَقَّى إلى شهود القدرة.

ويقال ألاح الله تعالى - لقلوب الناظرين بعيون الفكر - حقائق التحصيل؛ فَمَنْ لم يُعْرَجْ في أوطان التقصير أُنْزِلَتْه مراكبُ السَّرِّ بساحات التحقق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بِمَدَدٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الناس في مغاليط آمالهم ناسون لو شيك آجالهم، فكم من ناسجٍ لأكفانه! وكم من بانٍ لأعدائه! وكم من زارعٍ لم يحصد زرعه!

(١) بياض في الأصل.

هيهات! الكباش يعتلف والقصابُ مستعدُّ له!.

ويقال سرعة الأجل تُنْغِصُ لذة الأمل.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ لُؤْلُؤٍ يَبْدُرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

من حرمة أنوار التحقيق فهو في ضباب الجهل، فهو يزل يميناً ويسقط شمالاً.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفَّيَّ إِلَّا هُوَ نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيفٌ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

السائل عن الساعة رجلان؛ مُنْكَرٌ يَتَعَجَّبُ لِفَرْطِ جهله، وعارفٌ مشتاقٌ يستعجل لِفَرْطِ شوقه، والمتحقق بوجوده ساكنٌ في حاله؛ فسيان عنده قيام القيامة ودوام السلامة.

ويقال الحق - سبحانه - استأثر بعلم الساعة؛ فلم يُطْلَغْ على وقتها نبياً ولا صفيّاً، فالإيمان بها غيبي، ويقين أهل التوحيد صادق عن شوائب الرّيب. ثم مُعَجَّلُ قيامتهم يُوجِبُ الإيمان بمؤجلها^(١).

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَسْتَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَمَا مَسْنِي السُّوءُ إِنَّا إِنَّا لَا نَذِيرُ بِشَرٍّ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أمره بتصريح الإقرار بالتبني عن حوله ومُنْتَهَى، وأن قيامه وأمره ونظامه بطول ربه ومَنته؛ ولذلك تتجسَّسُ على الأحوال، وتختلف الأطوار؛ فَمِنْ عُسْرِ يَمَسُّنِي، وَمِنْ يَسْرِ يَخْصِنِي، ولو كان الأمر بمرادي، ولم يكن بيد غيري قيادي لتشابهت أحوالي في اليسر، ولتشاكلت أوقاتي في البعد من العسر.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَجَهَا﴾.

أخرج النّسمة من نفس واحدة وأخلاقهم مختلفة، وهمهم متباينة، كما أن الشخص من نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاءه مختلفة. فَمَنْ قَدِرَ على تنويع النطفة المتشاكله أجزاؤها فهو القادر على تنويع أخلاق الخلق الذين أخرجهم من نفس واحدة.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ كُنْزُ الْإِنْبَاءِ فَلَمَّا تَنَسَّلَهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٧٨ قال القشيري في حديثه عن الوصية للمريدين: إن الناس إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال.

ردَّ المِثْلَ إِلَى المِثْلِ، وربط الشَّكْلَ بالشَّكْلَ، لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ سَكُونَ الْخَلْقِ
مَعَ الْحَقِّ لَا إِلَى الْحَقِّ، وَكَذَلِكَ أُنْسِلَ الْخَلْقُ مِنَ الْخَلْقِ لَا مِنَ الْحَقِّ، فَالْحَقُّ تَعَالَى
قَدُوسٌ؛ مِنْهُ كُلُّ حَظٍّ لِلْخَلْقِ خَلْقًا، مَنْزَعٌ عَنْ رَجُوعِ شَيْءٍ إِلَى حَقِيقَتِهِ حَقًّا.

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَلاَةً جَعَلَا لَكُمُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾.

شَرُّ النَّاسِ مَنْ يَبْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ هُجُومِ الْبَلَاءِ بِخُلُوصِ الدُّعَاءِ، وَشِدَّةِ التَّضَرُّعِ
وَالْبُكَاءِ، فَإِذَا أزيلتْ شَكَائِهِ، وَذُفِعَتْ - بِمَنْتِهِ - آفَاتُهُ ضَيَّعَ الْوَفَاءُ، وَنُسِيَ الْبَلَاءُ، وَقَابِلُ
الرَّفْدِ بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَأَبْدَلِ الْعَقْدِ بَرَفْضِ الْوَدِّ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ فِي سَابِقِ
الْحُكْمِ، وَخَرَطَهُمْ فِي سِلْكِ أَهْلِ الرَّدِّ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ مَخْلُوقًا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ الرَّبِّ خَالِقًا، فَمَنْ
وَصَفَ الْحَقَّ بِخَصَائِصِ وَصْفِ الْخَلْقِ فَقَدْ أُلْحِدَ، وَمَنْ نَعَتَ الْخَلْقَ بِمَا هُوَ مِنْ
خَصَائِصِ حَقِّ الْحَقِّ فَقَدْ جَحَدَ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

مَنْ حَكَمَ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ الْحَقِّ شَيْءٌ لَوْ فَعَلَهُ اسْمُ الْجَاهِلِ طَوْعًا إِلَّا فَعَلَهُ
فَقَدْ وَصَفَ بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ فَمُضَاهِ الَّذِي يَعْبُدُ الْجَمَادَ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَاةِ
عَنِ الرَّشَادِ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ
صَانِعُونَ﴾.

الْمَعْبُودُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى هِدَايَةِ دَاعِيهِ، وَعِلْمُ الْعَبْدِ بِقُدْرَةِ مَعْبُودِهِ يَوْجِبُ تَبَرُّيَهُ عَنْ
حُوزِهِ وَقُوَّتِهِ، وَإِفْرَادَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - بِالْقُدْرَةِ عَلَى قَضَاءِ حَاجَتِهِ، وَإِزَالَةَ ضَرُورَتِهِ
فَتَقَاصِرُ عَنْ قَعْصِدِ الْخَلْقِ خَطَاةً، وَتَنْقَطِعُ أَمَالُهُ عَنْ غَيْرِ مَوْلَاهُ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُمْ قَدْ دَعَوْتُهُمْ فَلَيْسَتْ جِبَا
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إِذَا قُرِنَتْ الضَّرُورَةُ بِالضَّرُورَةِ تَضَاعَفَ الْبَلَاءُ، وَتَرَادَفَ الْعَنَاءُ؛ فَالْمَخْلُوقُ إِذَا
اسْتَعَانَ بِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِ أَزْدَادَ بُغْذٍ مَرَادِهِ عَنِ النُّجْحِ. وَكَيْفَ تَشْكُو لِمَنْ هُوَ ذُو شَكَايَةٍ؟!
هِيَاهُ! إِنَّ ذَلِكَ خَطَا مِنَ الظَّنِّ، وَبَاطِلٌ مِنَ الْحِسَابِ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ
يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

بَيَّنْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي عِبَدُوهَا دُونَهُمْ فِيمَا اعْتَقَدُوا فِيهِ صِفَةُ الْمَدْحِ، ثُمَّ لَمْ يَعْبُدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَكَيْفَ اسْتَجَاوَزُوا عِبَادَةً مَا فَاقَهُمْ فِي النَقْصِ؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾.

صدق التوكل على الله يوجب ترك المبالاة بغير الله، كيف لا.. والمتفرّد بالقدرة - على النفع والضرر، والخير والشر - الله؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

مَنْ قَامَ بِحَقِّ اللَّهِ تَوَلَّى أُمُورَهُ عَلَى وَجْهِ الْكِفَايَةِ، فَلَا يَخْرُجُهُ إِلَى مِثَالِهِ، وَلَا يَدْعُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِ إِلَّا أَجْرَاهُ عَلَى مَا يَرِيدُهُ بِحُسْنِ أَفْضَالِهِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا يَرِيدُهُ جَعَلَ الْعَبْدَ رَاضِيًا بِمَا يَفْعَلُ، وَرَزَّخَ الرِّضَا عَلَى الْأَسْرَارِ أَتَمَّ مِنْ رَاحَةِ الْعِطَاءِ عَلَى الْقُلُوبِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَكْتُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

شاهدوه بأبصارهم لكنهم حُجِبُوا عَنْ رُؤْيَيْهِ بِبِصَائِرِ أَسْرَارِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ فَلَمْ يُعْتَدِّ بِرُؤْيَيْهِمْ.

ويقال رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الإيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

من خصائص سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْكَرَمِ أَنَّهُ أَمَرَ نَبِيَّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ - بِالْأَخْذِ بِهِ، إِذِ الْخَيْرُ وَرَدَ بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ أَخَذَ مِنَ اللَّهِ خُلُقًا حَسَنًا. وَكَلِمَا كَانَ الْجُزْمُ أَكْبَرَ كَانَ الْعَفْوُ عَنْهُ أَجْرًا وَأَكْمَلَ، وَعَلَى قَدَرِ عِظَمِ رَتْبَةِ الْعَبْدِ فِي الْكَرَمِ يَتَوَقَّفُ الْعَفْوُ عَنِ الْأَصَاغِرِ وَالْخُدَمِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْجَرَاحَاتِ الَّتِي أَصَابَتْهُ فِي حَرْبِ أُحُدٍ^(١): «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢).

(١) أُحُدُ: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أُحُدَ، بينه وبين المدينة قرابة ميل شمالها وعنده كانت الوقعة الفظيعة التي قُتِلَ فِيهَا حَمِزَةُ عَمِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَبْعُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَسَرَتْ رِبَاعِيَةَ النَّبِيِّ ﷺ، وَشَجَّ وَجْهَهُ الشَّرِيفَ، وَكَلِمَتِ شَفَتُهُ، وَكَانَ يَوْمَ بِلَاءٍ وَتَمَحْيِصٍ، وَذَلِكَ لِسِتِّينَ وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ وَسَبْعَةِ أَيَّامٍ مِنْ مَهَاجِرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ. (معجم البلدان ١/١٠٩).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي (الصحيح ٤/٢١٤)، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي (المسند ١/٤٤١)، وَالْهَيْثَمِيُّ فِي (مجمع الزوائد ٦/١١٧)، وَالطَّبْرِيُّ فِي (التفسير ١/١٣)، وَالْمَنْذَرِيُّ فِي (الترغيب والترهيب ٣/٤١٩)، وَالْقُرْطُبِيُّ فِي (التفسير ٤/١٩٩، ٨/٢٧٣، ١٤/١٥٦)، وَالْقَاضِي عِيَّاضُ فِي (الشفا ١/٢٢٢)، وَالطُّحَاوِيُّ فِي (مشكل الآثار ٣/١٨٩)، وَالْمِرَاثِيُّ فِي (المغني عن حمل الأسفار ١/٣١٣)، =

قوله ﴿وَأُمِرُّ بِالْعُرْفِ﴾: أفضل العرف أن يكون أكمل العطاء لأكثر أهل الجفاء، وبذلك عامل الرسول - صلى الله عليه - وعلى آله - الناس .

قوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: الإعراض عن الأغيار بالإقبال عن من لم يزل ولا يزال، وفي ذلك النجاة من الحجاب، والتحقيق بما يتقاصر عن شرحه الخطاب .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

إِنْ سَنَحَ فِي بَاطْنِكَ مِنَ الْوَسَاوِسِ أَثَرٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يَدْرُكَكَ بِحَسَنِ التَّوْفِيقِ، وَإِنْ هَجَسَ فِي صَدْرِكَ مِنَ الْحِظْوِظِ خَاطِرٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يَدْرُكَكَ بِإِزَالَةِ كُلِّ نَصِيبٍ، وَإِنْ لَحِقَتْكَ فِي بَذْلِ الْجُهِدِ فِتْرَةٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يَدْرُكَكَ بِإِدَامَةِ آلَائِهِ، وَإِنْ اغْتَرَّتْكَ فِي التَّرْقِيِّ إِلَى مَحَلِّ الْوُصُولِ وَقَفَةٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يَدْرُكَكَ بِإِدَامَةِ التَّحْقِيقِ، وَإِنْ تَقَاصَرَ عَنْكَ شَيْءٌ مِنْ خَصَائِصِ الْقُرْبِ - صِيَانَةٍ عَنْ شُهُودِ الْمَحَلِّ - فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يُثَبِّتْكَ لَهُ بَدَلًا مِنْ لَكَ بِكَ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِيكَ أَتَقَوَّا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ .

إنما يمس المتقين طيفُ الشيطانِ في ساعات غفلتهم عن ذكر الله، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مَسَّهُمْ طائفُ الشيطان، فإن الشيطان لا يَقْرُبُ قَلْبًا فِي حَالِ شُهُودِهِ اللهُ؛ لأنه ينخس عند ذلك . ولكن لكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة، ولكل عابد شدة، ولكل قاصد فترة، ولكل سائر وقمة، ولكل عارف حجة، قال ﷺ: «إِنَّ لُبَّغَانَ عَلَى قَلْبِي . . .»^(١) أخبر أنه يعتريه ما يعتري غيره، وقال ﷺ: «الْحِجْدَةُ تَعْتَرِي خِيَارَ أُمَّتِي»^(٢)، فأخبر أن الأمة - وإن جَلَّتْ رُتْبَتُهُمْ لَا

= ٣/٦٨ - ٢٨٣)، (مناهل الصفا ١٦)، والآجري في (الشرعة ٤٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/٩٥)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٤٦/٦ - ٢٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٤/٥، ٧/٩٣ - ١٠٨ - ٣٦٠، ٨/٢٥٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٨٨٣ - ٣٥٥٦٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٩٩ - ٩٨٧٢) وابن حجر في (فتح الباري ٣٧/٣٧٣، ١٢/٢٨٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٣/٢١٥) .

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/٢١١، ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/٥٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٧/٥، ٨/٢٩٩، ٥١٧، ٩/٥٩ - ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٤٣/٢) (البغوي ٦/١٨٠)، والسيوطي (الدر المنثور ٦/٦٣)، والألباني في (فتح الباري ١١/١٠١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧) .

(٢) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ١١/١٩٤)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٧/٢ - ٦١) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٨٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/١٣)، وابن حجر في =

يتخلصون عن جِدَّةٍ تعترِبهم في بعض أحوالهم، فَتُخْرِجُهُم عن دوام الجَلَمِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

إخوان الشيطان أرباب دوام الغيبة؛ فهم في كمال الغفلة تدوم بهم الحجة؛ فمنهم بالزُّلَّة مَنْ لم يُلِم، أو أَلَم ولكن لم يُصِرَّ فهم خياره، ومنهم مَنْ غَفَلَ واغترَّ. وعلى دوام العيبة أَصَرَ - فهم المحجوبون قطعاً، والمُبْعَدُونَ - عن محلّ القرب - صدّاً وردّاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتِيْتُكُمْ بِالْحَقِّ إِنِّي مِنَ رُسُلِ اللَّهِ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَذِي وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

مَنْ شَاهَدَ الْحَقَّ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقُ سَقَطَ فِي مَهْوَاةِ الْمَغَالِيطِ، فَهُوَ فِي مَتَاهَاتِ الشُّكِّ يَجُوبُ مَنَازِلَ الرَّيْبِ، وَلَا يَزْدَادُ إِلَّا عُمَى عَلَى عُمَى. وَمَنْ طَالَعَ الْخَلْقَ بَعَيْنِ تَصْرِيفِ الْقُدْرَةِ إِيَاهُمْ تَحَقُّقُ بَأْنِهِمْ لَا يَظْهَرُونَ إِلَّا فِي مَعْرُضِ اخْتِيَارِ الْحَقِّ لَهُمْ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِنُورِ الْبَصِيرَةِ، وَيَسْتَدِيمُ شُهُودَ التَّصْرِيفِ بِوَصْفِ السَّكِينَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

اسْتَمِعُوا بِسَمْعِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ، وَأَنْصِتُوا (بصون) الْخَوَاطِرَ عَنْ مَعَارِضَاتِ الْإِعْتِرَاضِ، وَمَطَالِبَاتِ الْإِسْتِكْشَافِ. وَمَنْ بَاشَرَ التَّحْقِيقَ سِرَّهُ لَازِمَ التَّصَدِيقِ قَلْبَهُ.

والإنصات - في الظاهر - من آداب أهل الباب، والإنصات - بالسرائر - من آداب أهل البساط، قال الله تعالى في نعت توأسي الجنّ بعضهم لبعض عند شهود الرسول ﷺ ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ فإذا كان الحضور إلى الوساطة عليه السلام يوجب هذه الهيبة فلزوم الهيبة وحفظ الأدب عند حضور القلب بشهود الربّ أولى وأحق، قال تعالى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

التضرّع إذا كوشف العبدُ بوصف الجمال في أوان البسط، والخيفة إذا كوشف بنعت الجلال في أحوال الهيبة، وهذا للأكابر.

= (المطالب العالية ٣٢٣١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٣٦٤)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٣٦٥/١ - ٤٢٢)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٤٠٤/٢)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١١٤٨/٣)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٠)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢٤٧/٢)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٧٤)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٢٦).

فَأَمَّا مَنْ دُونَهُمْ فَتَنُوْغُ أحوالهم من حيث الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة. ومن فوق الجميع فأصحاب البقاء والفناء، والصحو والمحو ووراءهم أرباب الحقائق مُثَبِّتُونَ في أوطان التمكين، فلا تَلُوْغُ لهم ولا تَجُئْسُ لقيامهم بالحق، وامتحائهم عن شواهدهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

أثبت لهم عندية الكرامة، وحفظ عليهم أحكام العبودية لئلا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم، وهذه سُنة الله تعالى مع خواص عباده؛ يلقاهاهم بخصائص عين الجمع ويحفظ عليهم حقائق عين الفرق لئلا يُخْلُوا بأداب العبودية في أوان وجود الحقيقة.

السورة التي تذكر فيها الأنفال

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله إخبار عن قدرته على الإبداع والاختراع، الرحمن الرحيم إخبار عن تصرفه بالإقناع وحسن الدفاع؛ فبقدرته أوجد ما أوجد من مراده، وبنصرته وخذ من وخذ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لَهَا لِلَّهِ مِلْكًا، ولرسوله - عليه السلام - الحكم فيها بما يقضى به أمراً وشرعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

أي أجيئوا لأمر الله، ولا تطيعوا ذواعي مناكم والحكم بمقتضى أحوالكم، وابتغوا إيثارَ رضا الحق على مراد النفس، وأصلحوا ذات بَيْنِكُمْ، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفْسِ، وإيثار حق الغير على مآلكم من النصيب والحظ، وتنقية القلوب عن خفايا الحسد والحقد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

أي في الإجابة إلى ما يأتيكم من الإرشاد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي سبيل المؤمنين ألا يخالف هذه الجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الْوَجَلُ شِدَّةُ الْخَوْفِ، ومعناه ها هنا أن يُخْرِجَهُم الْوَجَلُ عن أوطان الغفلة، ويزعجهم عن مساكن الغيبة. فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة وفاؤوا إلى مشاهيد الذكر

نالوا السكون إلى الله - عز وجل؛ فيزيدهم ما يُثَلَّى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق، وتحقيقاً على تحقيق. فإذا طالعوا جلال قُدْرِهِ، وأيقنوا قصورهم عن إدراكه، توكلوا عليه في إمدادهم بالرعاية في نهايتهم، كما استخلصهم بالعناية في بدايتهم.

ويقال سُنَّةُ الْحَقِّ - سبحانه مع أهل العرفان أن يُرَدِّدَهُمْ بين كَشْفِ جلالِ وَلُطْفِ جمال، فإذا كاشفهم بجلاله وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ، وإذا لطفهم بجماله سَكَنَتْ قُلُوبُهُمْ، قال الله تعالى: ﴿وَنَظْمِينَ قُلُوبَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. ويقال وجلت قلوبهم بخوف فراقه، ثم تطمئن وتسكن أسرارهم بروح وصاله. وذكر الفراق يُقْنِيهِمْ وذكر الوصال يُضَحِّيهِمْ ويُخَيِّهِمْ.

ويقال الطالبون في نَوْحِ رَهْبَتِهِمْ، والواصلون في رُوحِ قَرِيبَتِهِمْ، والموحدون في محو غيبتهم؛ استولت عليهم الحقائق فلا لهم تطلع لوقتٍ مستأنف فيستفزههم خوف أو يجرفهم طمع، ولا لهم إحساس فتملكهم لذة؛ إذ لَمَّا اضْطَلِمُوا ببواده ما ملكهم فهم عنهم مخو، والغالب عليهم سواهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

لا يَرْضُونَ في أعمالهم بإخلال، ولا يتصفون بجمع مال من غير حلال، ولا يُعْرَجُونَ في أوطان التقصير بحال، أولئك الذين صفتهم ألا يكون للشريعة عليهم نكير، ولا لهم عن أحكام الحقيقة مقيل.

﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي حققوا حقاً وصدقوا صدقاً. ويقال حق لهم ذلك حقاً.

قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ على حسب ما أَهْلَهُمْ له من الرُتَبِ؛ فَيَسَابِقِ قِسْمَتِهِ لهم استوجبوها، ثم بصادقِ خِدْمَتِهِمْ - حين وفَّقَهُمْ لها - بلغوها.

ولهم مغفرة في المَالِ، والسَّتْرِ في الحال لأكابرهم، فالمغفرة الستر، والحق سبحانه يستر مثالب العاصين ولا يفضحهم لثلا يحجبوا عن مأمول أفضالهم، ويستر مناقب العارفين عليهم لثلا يُعْجَبُوا بأعمالهم وأحوالهم، وفَرَّقَ بين سَتْرٍ وَسَتْرٍ، وشَتَانِ ما هما!

وأما الرزق الكريم فيتحمل أنه الذي يعطيه من حيث لا يُحْتَسَبُ، ويحتمل أنه الذي لا يَنْقُصُ بإجرامهم، ويحتمل أنه ما لا يشغلهم بوجوده عن شهود الرزاق، ويحتمل أنه رزق الأسرار بما يكون استقلالها به من المكاشفات.

قوله جل ذكره: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

بَيَّنَّ - سبحانه - أن الجدالَ منهم عادةٌ وَسَجِيَّةٌ، ففي كل شيء لهم جدال واختيار؛ ففكروا خروجَه إلى بَدْرٍ، كما جادلوا في حديث الغنيمة، قال تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ وما يكون من خصال العبد غير متكرر ويكون على وجه الندرة كان أقرب إلى الصفح عنه والتجاوز، فأما إذا صار ذلك عادةً فهو أصعب.

ويقال ما لم تباشر خلاصة الإيمان القلب يوجد كمال التسليم وترك الاختيار، وما دام يتحرك من العبد عزق في الاختيار فهو بعيد عن راحة الإيمان.

ولقد أجرى الله سُنتَه مع أنبيائه ألا يفتح لهم كمال الثغمي إلا بعد مفارقة مألوفات الأوطان، والتجرد عن مساكنة ما فيه حظ ونصيب من كل معهود.

ويقال إن في هجرة الأنبياء - عليهم السلام - عن أوطانهم أماناً لهم من عادية الأعداء، وإحياء لقلوب قوم تقاصرت أقدامهم عن المسير إليهم.

وكذلك هجرة الأولياء من خواصه؛ فيها لهم خلاص من البلايا، واستخلاص للكثيرين من البلايا.

قوله جل ذكره: ﴿يُجِدُّوْكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

جحدُ الحق بعد وضوح برهانه عَلمٌ لاستكبار صاحبه، وهو - في الحال - في وحشة غيّه، مُعَاقَبٌ بالصد وتنعص العيش، يملُ حياته ويتمنى وفاته؛ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّوْكَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهَ تَكُوْنُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

التعريضُ في أوطان الكسل، ومساكنة مألوفات الراحة من خصائص أحكام النفس، فهي بطبعها تؤثر في كل حال نصيبها، وتتعجل لذّة حظّها. ولا يصل أحدٌ إلى جلائل النعم إلا بتجرّع كاسات الشدائد، والانسلاخ عن معهودات النصيب. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي إذا أراد الله - سبحانه - تخصيص عبد بولايته قضى على طوارق نفسه بالأقول، وحكم لبعض شهواته بالذبول، وإلى طوابع الحقائق بإشراقها، ولجامع الموانع باستحقاقها.

قوله جل ذكره: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

ليحق الحق بالتوفيق فيما يحصل ببذل المجهود، والتحقيق لما يظهر من عين الجود.

ويقال ليحق الحق بنشر أعلام الوصل، ويبطل الباطل بقره أقسام الهزل.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلِكَةِ مُرَوِّفٍ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الاستغاثة على حسب شهود الفاقة وعدم المنة والطاقة. والتحقق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشكاة تيسيراً للمسؤول وتحقيق للمأمول. فإذا صدقت الاستغاثة بتعجل الإجابة حصلت الآمال وقضيت الحاجة.. بذلك جرت سُنَّةُ الكريمة.

ويقال بشرهم بالإمداد بالملك، ثم رقاهم عن هذه الحالة بإشهادهم أن الإنجاز من الملك، ولم يذره في المساكنة إلى الإمداد بالملك فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ فالنجاة من البلاء حاصلة، وفنون الإنجاز والإمداد بالطاقة متواصلة، والدعوات مسموعة، والإجابة غير ممنوعة، وزوائد الإحسان متاحة، ولكن الله عزيز.

الطالب واجد ولكن بعطائه، والراغب واصل ولكن إلى مباره. والسيبل سهل ولكن إلى وجدان لطفه، فأما الحق فهو عزيز وراء كل وصل وفصل، وقرب وبُعد، وما وصل أحد إلا إلى نصيبه، وما بقي أحد إلا عن حظه، وفي معناه أنشدوا:

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نَضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بَلِيلٍ وَلَا نُقْرِي
فَلَا بَذَلٌ إِلَّا مَا تَزَوَّدَ نَاطِرٌ وَلَا وَصَلٌ إِلَّا بِالْجَمَالِ الَّذِي يَسْرِي

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ يُنَشِئُكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾.

عَشِيَمُ النَّعَاسُ تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم ونفوسهم كد الأغيار والكلال، وأنزل على قلوبهم رَوْحَ الأمن، وأمطرت السماء فاغتسلوا بعدما لزمتهم الطهارة الكبرى بسب الاحتلام، واشتدت الأرض بالمطر فلم ترسب الأقدام في رملها، وانتفى عن قلوبهم ما كانت الشياطين توسوس به إليهم أنه سيصيبهم العناء بسلوك رملها وبالانتفاء عن الغسل، فلما (...) (١) الإحساس، واستمكن منهم النَّعَاسُ، وتداركتهم الكفاية والنصرة استيقنوا بأن الإعانة من قِبَلِ اللَّهِ لا بسكونهم وحركتهم، وأشهدهم صرف التأيد وإتمام الكفاية.

وكما طَهَّرَ ظواهرهم بماء المساء طَهَّرَ سرائرهم بماء التحقيق عن شهود كل غير وكل علة، وصان أسرارهم عن الإصغاء إلى الوسوس، وربط على قلوبهم

(١) بياض في الأصل.

بشهودهم جريان التقدير على حسب ما يجري الحق من فنون التصريف .

قوله جل ذكره: ﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ .

أقدام الظاهر في مَشايد القتال، وأقدام السرائر على نهج الاستقامة بشهود مجاري التقدير .

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ .

عَرَفْنَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ محتاجون إلى تعريف الحق إياهم قضايا التوحيد . وتثبيت الملائكة للمؤمنين: قيل كانوا يَظْهَرُونَ للمسلمين في صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد المشركين واستيلاء المسلمين عليهم، وهم لا يعرفون أنهم ملائكة .

وقيل تثبيتهم إياهم بأن كانوا يلقون في قلوبهم ذلك مِنْ جهة الخواطر، ثم إن الله يخلق لهم فيها ذلك، فكما يُوصَلُ الحق سبحانه - وساوس الشيطان إلى القلوب يوصل خواطر المَلَكِ، وأيديهم بإلقاء الخوف والرعب في قلوب الكفار .

قوله جل ذكره: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ .

وذلك بأمر الله وتعريفه من جهة الوحي والكتاب، ويكون معناه إباحة ضربهم ونيلهم على أي وجه كان كيفما أصابوا أسافلهم وأعاليتهم . ويحتمل فاضربوا فوق الأعناق ضرباً يوجب قتلهم؛ لأنه لا حياة بعد ضَرْبِ العُنُقِ . ولفظ فوق يكون صلة .

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي ضرباً يعجزهم عن الضرب ومقاتلة المسلمين؛ لأنه لا مقاتلة تحصل بعد فوات الأطراف .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بين أنهم في مغاليط حسابهم وأكاذيب ظنونهم والمُنشِئ - بكل وجه - الله؛ لانفراده بقدرة الإيجاد .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

يُنْهَلُ المجرم أياً ما ثم لا يهمله، بل يَذيقه بأس فعله، ويزيل عنه شبهة ظنه .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ .

ذلك العذاب فذوقوه - أيها المشركون - مُعْجَلاً، واعلموا أن للكافرين عذاباً مُؤْجَلاً، فللعاصين عقوبتان مُحْصَلٌ بنقد ومؤخرٌ بوعد .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا تُولَوْهُمْ الْأَدْبَارَ

وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَهُ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنٍ فَقَدْ بَاءَ بِمَقْصُودٍ مِنَ اللَّهِ وَمَاؤُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَعِيرُ ﴿١٠﴾

يقول إذا لقيتم الكفار في المعركة زحفاً مجتمعين فائتوا لقتالهم، ولا تنهزموا فالشجاعة ثبات القلوب، وكما قيل الشجاعة صبر على الطاعة وفي الجهاد مع العدو، فالواجب الثبات عند الصولة - هذا في الظاهر، وفي الباطن جهاد مع الشيطان، والواجب فيه الوقوف عن دواعيه إلى الزلة؛ فَمَنْ وقف على حد الإمساك عن إجابته، بلا إنجاز لما يدعوه بوساوسه فَقَدْ وفى الجهاد حقّه.

وكذلك في مجاهدة النفس، فإذا وقف العبد عن إجابة النَّفْس فيما تدعوه بهواجسها، ولم يُطِغْ شهوته فيها تحمله النفس عليه من البلاء إلى ابتغاء حظّه فقد وفى الجهاد حقّه.

والإشارة في قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ بإيثار بعض الرُّخص ليتقوى على ما هو أشد؛ كأكله مثلاً ما يقيم ضلّته ليقوى على السَّهر، وكترفقه بنفسه بإيثار بعض الراحة من إزالة عطش، أو نفى مقاساة جوع أو بَرْد أو غيره لئلا يبقى عن مراعاة قلبه، ولاستدامة اتصال قلبه به، فإن تَرَكَ بعض أرواد الظاهر لئلا يبقى به عن الاستقامة في أحكام واردة السرائر أَخَذَ في حقّ الجهاد بحزم.

والإشارة في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنٍ﴾ إلى اعتضاد المريد بصحبة أقرانه فيما يساعدونه في المجاهدة، ويُبقي شهوداً ما هم فيه من المكابدة من إقامته على مجاهدته. ثم باستمداده من همم الشيوخ؛ فإن المريد ربيب همة شيخه، فالأقرباء من الأغنياء ينفقون على خَدَمِهِم من نعمهم، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من هِمَمِهِم، يجبرون كَسْرَهُم، ويتوبون منهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم. وَمَنْ أهمل مريداً وهو يعرف صِدْقَهُ، أو خَالَفَ شيخاً وهو يعرف فضله وَحَقَّهُ فَقَدْ بَاءَ من الله بسخط، واللّه تعالى حسيبه في مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

الذي نفى عنهم من القتل، هو إماتة الروح وإثبات الموت، وهو من خصائص قدرته - سبحانه، والذي يوصف به الخلق من القتل هو ما يفعلونه في أنفسهم، ويحصل ذهاب الروح عقيه.

وفائدة الآية قطع دعاوهم في قول كل واحد على جهة التفاخر قتل فلاناً، فقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي لم تكن أفعالكم مما انفردتم بإيجادها بل المنشئ والمبدئ هو الله عزّ وجل. وصانهم بهذه الآية وصان نبيّه - عليه السلام - عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّكَ رَمَيْتَ اللَّهَ رَمًى﴾.

أي ما رميت بنفسك ولكنك رميت بنا، فكان منه (صلوات الله عليه)^(١) قبضُ التراب وإرساله من يده ولكن من حيث الكسب، وكسبه موجد من الله بقدرته، وكان التبليغ والإصابة من قبل الله خلقاً وإبداعاً، وليس الذي أثبت ما نفي ولا نفي ما أثبت إلا هو، والفعل فَعَلَ واحد ولكن التغاير في جهة الفعل لا في عينه.

فقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فَرَّقَ، وقوله: ﴿وَلَكِنَّكَ اللَّهُ رَمًى﴾ جمع. والفرق صفة العبودية، والجمع نعت الربوبية، وكل فرق لم يكن مُضْمَنًا بجمع وكل جمع لم يكن - في صفة العبد - مُؤَيِّدًا بفرق فصاحبه غير سديد الوتيرة.

وإن الحق - سبحانه - يَكِلُ الأغيار إلى ظنونهم، فيتيهون في أودية الحساب ويتوهمون أنهم منفردون بإجراء ما منهم، وذلك منه مكر بهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبْ أَنْهُمْ يَحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وأما أرباب التوحيد فيشهدهم مطالع التقدير، ويعرفهم جريان الحكم، ويريههم أنفسهم في أسر التصريف، وقهر الحكم. وأما الخواص من الأولياء وأصحاب العرفان فيجري عليهم ما يُجْزِي (ما) لهم إحساس بذلك، مأخوذون يشبههم بشواهد النظر والتقدير، ويتولَّى حفظهم عن مخالفة الشرع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾.

البلاء الاختبار، فيختبرهم مرة بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم، أو ذكْرهم أو نسيانهم.

«البلاء الحسن»: توفيق الشكر في المنحة، وتحقيق الصبر في المحبة، وكل ما يفعله الحق فهو حَسَنٌ من الحق لأنَّ له أن يفعله. وهذه حقيقة الحَسَن: وهو ما للفاعل أن يفعله.

ويقال حَسَنُ البلاء لأنه منه و (.. .)^(٢) البلاء لأنه فيه.

ويقال البلاء الحسن أن تشهد المُبْلِي في عين البلاء.

ويقال البلاء الحسن ما لا دعوى لصاحبه إن كان نعمة، ولا شكوى إن كان محنة.

ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر إن كان عُسرًا، ولا بطر إن كان يسرًا.

ويقال بلاء كل أحد على حسب حاله ومقامه؛ فأصفاهم ولأه، قال عليه

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيهما السياق.

(٢) بياض في الأصل.

السلام: «أشدُّ الناس بلاءَ الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»^(١).

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تنفيسٌ لقوم وتهديدٌ لقوم؛ أصحابُ الرِّفق يقول لهم إن الله «سميعٌ» لأنينكم؛ فَيَرْوِّحَ عليهم بهذا، وَقَتَّهم، ويحمل عنهم ولاءهم، وأنشدوا:
إذا ما تمنى الناس روحاً وراحةً
تمنى أن أشكو إليك فتسمعا
وقالوا:

قُلْ لِي بِالسَّنةِ التَّنْفُسِ كيف أنت وكيف حالك؟
وأما الأكابر فلا يُؤدُّن لهم في التَّنْفُسِ، وتكون المطالبة متوجهة عليهم بالصبر، والوقوف تحت جريان التقدير من غير إظهار ولا شكوى، فيقول: لو ترشح منك ما كَلُفْتُ بِشَرْيهِ تَوَجَّهْتَ عليك الملامة، فإن لم يكن منك بيانٌ فإنني لقاتلك، عليهم بحالتك.

ويقال في قوله «عليم» تسلياً لأرباب البلاء؛ لأنَّ من عَلم أن مقصوده يعلم حاله سهَّل عليه ما يقاسيه فيه، قال - سبحانه - لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

قوله جلَّ ذكره: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾.

موهن كيدهم: بتقوية قلوب المؤمنين بنور اليقين، والثبات على انتظار الفضل من قِبَلِ الله، وموهن كيدهم: بأن يأخذ الكافرين من حيث لا يشعرون، ويظفر جند المسلمين عليهم.

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾.

قال المشركون - يوم بدر^(٢) - اللهم انصر أَحَبَّ الْفِتْنَيْنِ إليك، فاستجاب دعاءهم ونصر أَحَبَّ الْفِتْنَيْنِ إليه. . وهم المسلمون، فسألوا بالسنتهم هلاك أنفسهم، وذلك لانجرارهم في مغاليط ما يُعَلَّقُونَ من ظنونهم، فهم توهَّموا استحقاق القرية، وكانوا في عين الفرقة وحُكْمِ الشُّقَّةِ، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم، والوقوع في شقائهم؛ فاخْتَارَهم مُنُوا ببوارهم.

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢٥٣ - ٣٢٥٥ - ٦٧٨٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١١٦/٥، ١٢١/٨، ٥٦٠، ٥٢٣/٩).

(٢) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار، وهو ساحل البحر، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة. (معجم البلدان ١/٣٥٧، ٣٥٨).

ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فزَلُّوا، فلما كُشِفَ السُّتْرُ خابوا وذَلُّوا، فعند ذلك علموا أنهم زاعغوا في ظنهم وضلوا.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

فيغفر لكم ما قد سَلَفَ من خلاف محمد ﷺ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ليس المراد منه المبالغة؛ لأنه يقال هذا خير لك من هذا إذا كان الثاني ليس في شر، وترك موافقتهم للرسول ﷺ - بكل وجه - هو شرٌ لهم، ولكنه أراد به في الأحوال الدنيوية، وعلى موجب ظنهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعَذِّبْ﴾.

يعني إن عُدْتُمْ إلى الجميل من السيرة عُدْنَا عليكم بجميل المِثَّةِ، وإن عاودتم الإقدام على الشرِّ أعَدْنَا عليكم ما أذقناكم من الضرِّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنْ تَقِيَّ عَنَّا فَتُكْرِمُوا شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

مَنْ غَلَبَتْهُ قُدْرَةُ الْإِحْدَادِ لَمْ تَغْنِ عَنْهُ كَثْرَةُ الْعِدَّةِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

الناس في طاعة الله على أقسام: فمطيعٌ لخوف عقوبته، ومطيعٌ طمعاً في مشوبته، وآخر تحقّقاً بعبوديته، وآخر تشرفاً بربوبيته.

وكم بين مطيعٍ ومطيعٍ! وأنشدوا:

أحبك يا شمسَ النهارِ وبَذَرَهُ وإن لأمني فيك السُّها والفراق^(١)

وذاك لأنَّ الفضلَ عندك زاخرٌ وذاك لأنَّ العيشَ عندك باردٌ

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولم يقل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وفي ذلك نوع تخصيص، وحزب تفضيل يُلطَفُ عن العبارة وَيُبْعَدُ عن الإشارة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

أي تسمعون دعاءه إياكم، وتسمعون ما أنزَلَ عليه من دعائي إياكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

لا تكونوا ممن يشهد جهرًا، ويجحد سِرًّا.

ويقال لا تُقِرُّوا بلسانكم، وتصيروا على كفرانكم.

(١) السُّها: نجم خفي الضوء ملاصق للنجم الأوسط من الذيل في بنات نعش الكبرى. الفرقد: اسم لنجمين من نجوم الدب الأصفر، وهما فرقدان.

ويقال مَنْ نطق بتلبيسه تشهد الخيرة بتكذيبه .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

دواعي الحق بحسن البيان ناطقة، وألسنة البرهان فيما ورد به التكليف صادقة، وخواطر الغيب بكشف ظلم الرئب مُفَصِّحة، وزواجر التحقيق عن متابعة التمويه للقلوب ملازمة. فَمَنْ صُمٌّ عَنْ إدراك ما خطب به سره، وعَمِيَ عن شهود ما كوشف به قلبه، وخَرَسَ - عن إجابة ما أُرشِد إليه من حجة - فَهْمُهُ وعقله قُدُونٌ رُتْبَةُ البهائم قُدْرُهُ، وفوق كل (...) (١) من حكم الله ذلّه وصغره .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ .

مَنْ أَقْصَتْهُ سوابقُ القسمة لم تُذِنه لواحقُ الخدمة، ومن عَلِمَهُ اللَّهُ بنعت الشّقوة حَرَمَهُ ما يوجب عَفْوَه .

ويقال لو كانوا في متناولات الرحمة لألبسهم صدار العصمة، ولكن سبق بالحرمان حكمهم، فختم بالضلالة أمرهم .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ .

أجاب واستجاب بمعنى مثل أوقد واستوقد، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية بأنها تكون طوعاً لا كرهاً، وفَرَّقَ بين من يجيب لخوفٍ أو طمع وبين من يستجيب لا بِعَوَضٍ ولا على ملاحظة غَرَضٍ . وحق الاستجابة أن تجيب بالكُلية من غير أن تَذَر من المستطاع بقية .

والمستجيبُ لربه محوٌّ عن كُله باستيلاء الحقيقة، والمستجيب للرسول - صلى الله عليه وسلم وعلى آله - قائم بشريعته من غير إخلال بشيء من أحكامها . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستجابة له - سبحانه، وبالإستجابة للرسول؛ فالعبدُ المستجيبُ - على الحقيقة - من قام بالله سرّاً، واتصف بالشرع جهراً فيُفَرِّده الحقُّ - سبحانه - بحقائق الجمع و (...) (١) في مشاهدة الفرق، فلا يكون للحدثان في مشرب حقائقه تكدير، ولا لمطالبات الشرع على أحواله تكير .

قوله جل ذكره: ﴿لِمَا يَحْيِيكُمْ﴾ .

إذ لَمَّا أفناهم عنهم أحياءهم به .

ويقال العابدون أحياءهم بطاعته بعد ما أفناهم عن مخالفته، وأما العالمون

(١) بياض في الأصل .

فأحياهم بدلائل ربوبيته، بعد ما أفناهم عن الجهل وظلمته. وأمّا المؤمنون فأحياهم بنور موافقته بعد ما أفناهم بسيوف مجاهدتهم. وأمّا الموحّدون فأحياهم بنور توحيده بعد ما أفناهم عن الإحساس بكل غير، والملاحظة لكل حدثان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

يصون القلب عن تقلب أربابها فيقلّبها كما يشاء هو، من بيان هداية وضلال، وغيبية ووصال، وحجبة وقربة، ويقين ومرية، وأنس ووحشة.

ويقال صان قلوب العبّاد عن الجنوح إلى الكسل، فجّدوا في معاملاتهم، وصان قلوب المريدين عن التعرّيج في أوطان الفشل فصدقوا في منازلاتهم، وصان قلوب العارفين - على حدّ الاستقامة - عن الميل فتحققوا بدوام مواصلاتهم.

ويقال حال بينهم وبين قلوبهم لثلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله، فإذا سنع لهم أمر فليس لهم إلا الأغيار سبيل، ولا على قلوبهم تعويل. وكم بين من يرجع عند سوانحه إلى قلبه وبين من لا يهتدي إلى شيء إلا إلى ربّه! كما قيل:

لا يهتدي قلبي إلى غيركم لأنه سُدَّ عليه الطريق

ويقال العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] والعارفون هم الذين فقدوا قلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنفُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ﴾.

احذروا أن تركبوا زلّةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها، بل يعمّ شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطاها.

وغير المجرم لا يؤخذ بجُرم من أذنب، ولكن قد ينفرد أحدٌ بجرم فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرم، كأن يتعصبوا له إذا أُخذَ بحكم ذلك الجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً في الحال بل إنها تصيب أيضاً ظالماً في المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقتها معه، ورضاه به، وهذا معنى التفسير من حيث الظاهر. فأما من جهة الإشارة: فإن العبد إذا باشر زلّةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة وهي العقوبة المعجلة، وتصيب النُفس منها العقوبة المؤجلة، والقلب إذا حصلت منه فتنة الزلّة - عندما بهم بما لا يجوز - تعدّت فتنته إلى السّر وهي الحُجبة.

والمُقَدّم في شأنه إذا فعل ما لا يجوز انقطعت البركات التي كانت تتعدى منه إلى مُتَبِعِيهِ وتلامذته، وكان لهم نصيبهم من الفتنة وهم لم يعملوا ذنباً. ويقال إن

الأكابر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر عند تَرْكِهم الأذكار أصابتهم فتنة ما فعلوه؛ فلقد قيل إنَّ السفية إذا لم يُثَّه مأمورٌ. فعلى هذا تصيب فتنة الزَّلة مرتكبها ومن تَرَكَ النَّهي عن المنكر - مثل مَنْ ترك الأمر بالمعروف - يؤخذ بِجُرْمِهِ.

ويقال إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا مما فوق الكفاية - وإن كان من وجهٍ حلال - تؤدي فتنته إلى من يخرج به من المبتدئين، فبجملة ما أبدى من الرغبة في الدنيا، وتَرَكَ التقليل يؤدي إلى الانهماك في أودية الغفلة والأشغال الدنيوية.

والعابد إذا جَنَحَ عن الْأَشَقُّ وتَرَكَ الْأَوَّلَى تعدَّى ذلك إلى من كان ينشط في المجاهدة؛ فيستوطنون الكسل، ثم يحملهم الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصيرون كما قيل:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة
وهكذا يكون نصيبهم من الفتنة.

والعارف إذا رجع إلى ما فيه حَظٌّ له، نَظَرَ إليه المريد، فتتداخله فترة فيما هو به من صدق المنازلة، ويكون ذلك نصيبه من فتنة العارف.

وفي الجملة إذا غفل المَلِكُ، وتَشَاغَلَ عن سياسة رعيته تَعَطَّلَ الجند والرعية، وعَظُمَ فيهم الخَلَلُ والبَلِيَّةُ، وفي معناه أنشدوا:

رُعَاتُكَ ضَيَّعُوا - بالجهل منهم - غَنَائِمَاتٍ فَاسَتْهَا ذُنَابُ
﴿اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بتعجيله ذلك، ومن شدة عقوبته أنه إذا أخذ عبداً لِيُعَاقِبَهُ لَا يُمَكِّنُهُ من تلافي موجب تلك العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ
النَّاسُ فَأَنْزَلَكُمْ وَيَنْصُرْكُمْ﴾.

يَذْكُرُهُمْ ما كانوا فيه من الْقِلَّةِ وَالذَّلَّةِ وصنوف (.. .) ^(١) ثم ما نَقَلَهُمْ إليه من الإِمْكَانِ وَالْبَسْطَةِ، ووجوه الأمان والحيطة، وقَرَّبَهُمْ إلى إقامة الشكر على جزيل تلك الْقِسَمِ، وإدامة الحمد على جميل تلك النعم، فمَهَّدَ لَهُمْ في ظل أبوابه مقيلاً، ولم يجعل للعدوِّ إليهم - بِيَمْنٍ رعايته - سبيلاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

رَزَقَ الْأَشْبَاحَ وَالظَّوَاهِرَ من طيبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف

(١) بياض في الأصل.

الضياء . وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق في شهود المُنعم .
قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

الخيانة الاستبطان بخلاف ما يُؤمل منك بحق التعويل ، فخيانة الله بتضييع ما ائتمنتك عليه ، وذلك بمخالفة النصح في دينه ، وخیانة الرسول بالانصاف بمخالفة ما تبدي من مشايعته .

والخیانة في الأمانات بترك الإنصاف ، والانصاف بغير الصدق .
 وخیانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة ، فمن اؤتمن في مالٍ فتصرف فيه بغير إذن صاحبه - خیانة ، ومن اؤتمن على الحرّم فملاحظته إياهن - خیانة . فعلى هذا: الخيانة في الأعمال الدعوى فيها بأنها من قبلك دون التحقيق بأنّ مُثبِتُها الله .

والخیانة في الأحوال ملاحظتك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق ، إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق . وإذا أخللت بسنة من السن أو أدب من آداب الشرع فلك خیانة الرسول ﷺ .

والخیانة في الأمانات - بينك وبين الخلق - تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين ، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل .
قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا ءَمُولُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

أموالكم وأولادكم سبب فتنتكم لأن المرء - لأجل جمع ماله ولأجل أولاده - يرتكب ما هو خلاف الأمر ، فيورثه فتنة العقوبة .

ويقال الفتنة الاختبار؛ فيختبرك بالأموال . . هل تؤثرها على حق الله؟ وبالأولاد . . هل تترك لأجلهم ما فيه رضاء الله؟
 فإن أثرتم حقّه على حقكم ظهرت به فضيلتكم ، وإن اتصفتم بضده عوملتكم بما يوجبه العكس من محبوبكم .

ويقال المال فتنة إذا كان عن الله يشغلكم ، والأولاد فتنة إذا لأجلهم قصّرتُم في حق الله أو فرطتُم .

ويقال المال - ما للكفاف والعفاف - نعمة ، وما للتقاصر والتفاخر فتنة ، وفي الجملة ما يشغلك عن الله فهو فتنة .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقُومُوا لِلَّهِ لَجَعَلْ لَكُمْ أَفْئَةً وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

الفرقان ما به يفرق بين الحق والباطل مِنْ عِلْمٍ وافر وإلهام قاهر، فالعلماء فرقائهم مجلوبٌ برهانهم، والعارفون فرقانهم موهوبٌ عرفانهم؛ فأولئك مع مجهود أنفسهم، وهؤلاء بمقتضى جُودِ رَبِّهِمْ.

العرفانُ تعريفٌ من الله، والتكفيرُ تخفيفٌ من الله، والغفرانُ تشريفٌ للعبد من الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ يَتَكَبَّرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَتَكَبَّرُونَ وَيَتَكَبَّرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

ذكره عظيمٌ مِثَّتِه عليه حيث خَلَّصَه من أعدائه حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة، وهموا بقتله، وحاولوا أن يمكروا به في السّر، فأعلمه الله ذلك.

والمكرُ إظهارُ الإحسانِ مع قَصْدِ الإساءة في السّر، والمكرُ من الله الجزاءُ على المكر، ويكون المكرُ بهم أَنْ يُلقِي في قلوبهم أَنَّهُ مُحْسِنٌ إليهم ثم - في التحقيق - يُعَذِّبهم، وإذا شَغَلَ قوماً بالدنيا صَرَفَ همومهم إليها حتى يَنْسُوا أمر الآخرة، وذلك مكرٌ بهم، إذ يُوظِّفون نفوسهم عليها، فيتيح لهم من مآمنهم سوءاً، ويأخذهم بغتةً.

ومن جملة مكره اغتزاز قوم بما يرزقهم من الصيت الجميل بين الناس، وإجراء كثير من الطعاعات عليهم، فأسرارهم تكون بالأغيار منوطة، وهم عن الله غافلون، وعند الناس أنهم مُكْرَمون، وفي معناه قيل:

وقد حسدوني في قرب داري منكم وكمن من قريب الدار وهو بعيد
قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

قَرِظُ جهلهم، وشؤم جحدهم سَتَرَ على عقولهم قُبْحَ دعاويهم في القدرة على معارضة القرآن فافتضحوا عند الامتحان بعدم البرهان، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من الفصاحة والبيان، وقديماً قيل:

مَنْ تَحَلَّى بغير ما هو فيه فَضَحَ الامتحان ما يدعيه
ويقال لما لاحظوا القرآن بعين الاستصغار خرموا بركات الفهم فعذوه من جملة أساطير الأولين، وكذلك من لا يراعي على حرمة الأولياء، يعاقب بأن تُسَتَرَ عليه أحوالهم، فيظنهم مثله في استحقاق مثالبه، فيطلق فيهم لسان الوقية، وهو بذلك أحقُّ، كما قيل: «رَمَتْنِي بدائها وانسلت».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ذَلَّ سَؤَالُهُمُ الْعَذَابَ عَلَى تَصْمِيمِ عَقْدِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِ الرِّسُولِ ﷺ، وَاسْتَيْقَنُوا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُ لَا يُسْتَجَابُ فِيهِمْ مَا يَدْعُونَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

رَفِيَ هَذَا أَظْهَرَ دَلِيلَ عَلَى أَنَّ سَكُونَ النَّفْسِ إِلَى الشَّيْءِ لَيْسَ بِعِلْمٍ؛ لِأَنَّهُ كَمَا يَوْجَدُ مَعَ الْعِلْمِ يَوْجَدُ مَعَ الْجَهْلِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ أَسْلَافَهُمْ وَأَنْتَ فِي أَصْلَابِهِمْ، وَلَيْسَ يُعَذِّبُهُمُ الْيَوْمَ وَأَنْتَ فِيهِمْ إِنْجِلَالًا لِقُدْرِكَ، وَإِكْرَامًا لِمَحَلِّكَ، وَإِذَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْنِهِمْ فَلَا يُعَذِّبُهُمْ وَفِيهِمْ خِدْمَتُكَ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ، فَلَا آيَةَ تَدُلُّ عَلَى تَشْرِيفِ قُدْرِ الرِّسُولِ - ﷺ.

وَيَقَالُ لِلْجَوَارِ حُرْمَةً، فَجَارُ الْكِرَامِ فِي ظِلِّ إِنْعَامِهِمْ؛ فَالْكَفَارُ إِنْ لَمْ يَنْعَمُوا بِقَرَبِ الرِّسُولِ - ﷺ - مِنْهُمْ فَقَدْ انْدَفَعَ الْعَذَابُ - بِمَجَاوِرَتِهِ - عَنْهُمْ:

وَأَحْبُهَا وَأَحَبُّ مَنْزِلِهَا الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ وَأَحَبُّ أَهْلِ الْمَنْزِلِ
وَيَقَالُ إِذَا كَانَ كَوْنُ الرِّسُولِ - ﷺ - فِي الْكَفَارِ يَمْنَعُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ فَكَوْنُ الْمَعْرِفَةِ فِي الْقُلُوبِ أَوْلَى بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهَا.

وَيَقَالُ إِنْ الْعَذَابَ - وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ مَدَّةَ مَقَامِهِمْ فِي الدُّنْيَا مَا دَامَ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ - فَلَا مُحَالَةَ يَصِيبُهُمُ الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ، إِذَا الْإِعْتِبَارُ بِالْعَوَاقِبِ لَا بِالْأَوَّلَاتِ وَالطَّوَارِقِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

عِلْمُ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَتَأَبَّدُ مُكُوثُهُ فِي أَمَتِهِ إِذْ قَالَ لَهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مَنْ قَبْلِكَ الْغُلْدَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٣٤]، فَقَالَ إِنِّي لَا أَضِيعُ أَمَّتَهُ وَإِنْ قَضَى فِيهِمْ مُدَّتَهُ، فَمَا دَامَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ مُتَطَلِّعَةً فَصَنُوفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ مَرْتَفَعَةً.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾.

نَفَى الْعَذَابَ عَنْهُمْ فِي آيَةٍ، وَأَثْبَتَهُ فِي آيَةٍ، فَالْمَنْفِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْمُثَبَّتُ فِي الْآخِرَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ إِيصَالَ الْعَذَابِ إِلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ دَلِيلُ الْخُطَابِ أَنَّ إِعَانَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا فِيهِ قِيَامُ بِحَقِّ الدِّينِ يَوْجِبُ اسْتِحْقَاقَ الْقَرْبَةِ وَالثَّوَابِ.

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَوْلِيَاءَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ فَإِذَا

عَذَّبَ مَنْ لَمْ يَكُونُوا أَوْلِيَاءَهُ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَعَذَّبُ مَنْ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ أَوْلِيَاءِهِ . وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَأَنَّهُ قَالَ : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة : ٢٥٧] . وَالْمُؤْمِنُونَ - وَإِنْ عَذَّبَ بِمِقْدَارِ جُزْئِهِ زَمَانًا فَإِنَّهُ لَا يُخْلَدُ فِي دَارِ الْعُقُوبَةِ ، فَمَا يُقَاسُونَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى تَأْيِيدِ الْخَلَاصِ جَلَلٌ ، وَقِيلَ :

إِذَا سَلِمَ الْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا فَوُذِيَ وَإِنْ شَطَّ الْمَزَارُ سَلِيمٌ
قوله جل ذكره : ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وَلَيْسَ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ، وَهُمْ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشُّرْكَ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا كَانَ صَبَإُهُمْ عِنْدَ آلِيبَتِ إِلَّا مُكَاةً وَتَصْدِيَةً﴾ .

تَجَرَّدَتْ أَعْمَالُهُمْ بِظَوَاهِرِهِمْ عَنْ خُلُوصِ عَقَائِدِهِمْ ، فَلَمْ يَوْجِذْ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - لَهَا احْتِسَابًا ؛ فَزَكَاءُ الْقَالَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ صَفَاءِ الْحَالَةِ ، وَعِنَاءِ الظَّاهِرِ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَعَ ضِيَاءِ السَّرَائِرِ .

قوله جل ذكره : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

كَانَ الْعَذَابُ مُعْجَلًا وَهُوَ حِسَابُهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى .

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُخْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف : ١٠٤] ، وَمُؤْجَلًا وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد : ٣٤] .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَقْرُنُهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ .

يُزَوِّمُونَ بِإِنْفَاقِهِمْ صُنُوفَ أَمْوَالِهِمْ صِلَاحًا وَنِظَامًا لِأَحْوَالِهِمْ ، ثُمَّ لَا يَخْطُونَ إِلَّا بِخُسْرَانٍ ، وَلَا يَحْصِلُونَ إِلَّا عَلَىٰ نَقْصَانٍ . خَسِرُوا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَخَابُوا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ :

سَوْفَ تَرَىٰ إِذَا انْجَلَىٰ الْغُبَارُ أَفْرَسَ تَحْتِكَ أَمْ جِمَارٌ ؟

قوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ إِنَّهُمْ وَإِنْ أَلْهَتْهُمْ أَمْوَالُهُمْ فَلِإِلَى الْهُوَانِ وَالذَّلَّةِ مَالُهُمْ ، لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ، وَلَمْ تَنْفَعَهُمْ أَعْمَالُهُمْ ، بَلْ خُتِمَتْ بِالشَّقَاوَةِ أَحْوَالُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْمَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَالِدُونَ﴾ .

الْخَبِيثُ مَا لَا يَصْلَحُ لِلَّهِ ، وَالطَّيِّبُ مَا يَصْلَحُ لِلَّهِ .

الْخَبِيثُ مَا حَكَمَ الشَّرْعُ بِقُبْحِهِ وَفَسَادِهِ ، وَالطَّيِّبُ مَا شَهِدَ الْعِلْمُ بِحُسْنِهِ وَصِلَاحِهِ .

ويقال الخبيث الكافر، والطيب المؤمن.

الخبيث ما شغل صاحبه عن الله، والطيب ما أوصل صاحبه إلى الله.

الخبيث ما يأخذه المرء وينفقه لحظ نفسه، والطيب ما ينفقه بأمر ربه.

الخبيث عمل الكافر يُصوّر له ويُعَذَّبُ بِإِلْقَائِهِ عَلَيْهِ، والطيب عمل المؤمن يُصوّر له في صورة جميلة فيحمل المؤمن عليه.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾.

إن كبخوا لجام التمرد، وأقلعوا عن الركض في ميدان العناد والتجبر أزلنا عنهم صغار الهوان، وأوجبنا لهم رَوْحَ الأمان.

ويقال إن حلّوا نطاق العناد أطلقنا عنهم عقال البعاد.

ويقال إن أبصروا قُبْحَ فعالهم جُذْنَا عليهم بإصلاح أحوالهم.

ويقال إن جنحوا للاعتذار ألقينا عليهم حالة الاعتذار.

ويقال إن عادوا إلى التَّصُلُّ^(١) أبحنا لهم حُسْنَ التَّقْضُل:

أناسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا بَلَا جُزْمَ وَلَا مَعْنَى

أَسَاءُوا ظَنَّهُمْ فِينَا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ

فَإِنْ كَانُوا لَنَا - كُتْنَا، وَإِنْ عَادُوا لَنَا عُدْنَا

وَإِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَغْنَوْا فَإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَى

قوله جل ذكره: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا تَكُنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أمرهم بمقاتلة الكفار والإبلاغ فيها حتى تُسْتَأْصَلَ شَأْنُهُمْ بِحَيْثُ يَأْسَنُ الْمُسْلِمُونَ مَضَرَّتَهُمْ، وَيَكْفُونَ بِالْكَلِيَّةِ فِتْنَتَهُمْ. . وَحَيَّةُ الْوَادِي لَا تُؤْمَنُ مَا دَامَتْ تَبْقَى فِيهَا حَرَكَةٌ؛ كَذَلِكَ الْعَدُو إِذَا قُهِرَ فَحَقُّهُ أَنْ تُقْتَلَ جَمِيعُ عُرُوقِهِ، وَتُنْقَى رِبَاغُ الْإِسْلَامِ مِنْ كُلِّ شَكِيرَةٍ^(٢) تَنْبِت مِنَ الشَّرِكِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْمِ الْمَوْلَى وَنَعَمَ النَّصِيرُ﴾.

فإن أبوا عتوا، وعن الإيمان إلا نبوا، فلا على قلوبكم ظلّ مخافة منهم؛ فإن

(١) تنصل فلان من ذنبه: تبرأ.

(٢) شكرت الشجرة تشكر شاكراً أي خرج منها الشكير: وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها. (اللسان ٤٢٦/٤).

اللَّهُ - سبحانه - وليُّ نصرتكم، ومتوليُّ كفايتكم؛ إن لم تكونوا بحيث نِعَمَ العبيد فهو نِعَمَ المولى لكم ونِعَمَ الناصر لكم.

ويقال نِعَمَ المولى لكم يوم قسمة العرفان، ونِعَمَ الناصر لكم يوم نعمة الغفران ويقال نِعَمَ المولى لك حين لم تكن، ونِعَمَ الناصر لك حين كنت.

ويقال نعم المولى بالتعريف قَبْلَ التكليف، ونِعَمَ الناصر لكم بالتخفيف والتضعيف؛ يُخَفِّفُ عنكم السيئات ويضاعف الحسنات:

وهو اك أول ما عَرَفْتُ مِنَ الهوى والقلب لا ينسى الحبيب الأول

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ النَّبِيِّ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ أَلَجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الغنيمة ما أخذه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند المجاهدة والقتال معهم. فإذا لم يكن قتال - أو ما في معناه - فهو فَيءٌ.

والجهاد قسمان: جهاد الظاهر مع الكفار، وجهاد الباطن مع النفس والشيطان وهو الجهاد الأكبر - كما في الخبر^(١).

وكما أن في الجهاد الأصغر غنيمة عند الظفر، ففي الجهاد الأكبر غنيمة، وهو يملك العبد نفسه التي كانت في يد العدو: الهوى والشيطان. فبعد ما كانت ظواهره مَقْرَأًا للأعمال الذميمة، وباطنه مستقرًا للأحوال الدنيئة يصير محلُّ الهوى مَسْكَنَ الرُّضَا، ومَقْرَأَ الشهوات والمُنَى مُسْلَمًا لِمَا يَرُدُّ عليه من مطالبات المولى، وتصير النفس مُسْتَلَبَةً مِنْ أَسْرِ الشهوات، والقلب مُخْتَطَفًا من وصف الغفلات، والروح مُنْتَزَعَةً من أيدي العلاقات، والسُّرُّ مَضُونًا عن الملاحظات. وتصبح غَاغَةُ النَّفْسِ مُنْهَزِمَةً، ورياسةُ الحقوق بالاستجابة لله خَافِقَةً.

وكما أن من جملة الغنيمة سَهْمًا لله وللرسول، وهو الخُمُسُ فمما هو غنيمة - على لسان الإشارة - سَهْمٌ خَالِصٌ لله؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب، لا من كرائم العُقبى، ولا من ثمرات التقريب، ولا من خصائص الإقبال، فيكون العبد عند ذلك

(١) الخبر هو قول الرسول ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٣٧٩، ٧/٢١٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/٧) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/٥١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٠٦)، والفنني في (تذكرة الموضوعات ١٩١)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المتثرة في الأحاديث المشتهرة ٨٩).

مُخْرَرًا عَنْ رِقِّ كُلِّ نَصِيبٍ، خالصاً لله بالله، يمحو ما سوى الله، كما قيل :

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ فَانِيًا عَنْ حِظِّهِ وَعَنِ الْهَوَى وَالْإِنْسِ وَالْأَحْبَابِ
فَكَانَهُ - بَيْنَ الْمَرَاتِبِ - وَاقِفٌ لِمَنْتَالِ حِظٍّ أَوْ لِحُسْنِ ثَوَابِ
قوله جل ذكره: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

يخبر - سبحانه - أن ما جرى يوم بدر من القتال، وما حصل من فنون الأحوال كان بحكم التقدير، لا بما يحصل من الخلق من التدبير، أو بحكم تقتضيه زوئية التفكير. بل لو كان ذلك على اختيار وتواعد، كنتم عن تلك الجملة على استكراه وتواعد، فجرى على ما جرى ليقضي الله أمراً كان مقضياً، وحصل من الأمور ما سبق به التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي ليُضِلَّ مَنْ زاغ عن الحق بعد لزومه الحجة، ويهتدي مَنْ أقام على الحق بعد وضوح الحجة.

ويقال الحق أوضح السبيل ونصب الدليل، ولكن سد بصائر قوم عن شهود الرشد، وفتح بصائر آخرين لإدراك طرق الحق.

الهالك من وقع في أودية التفرقة، والحي من حيي بنور التعريف.

ويقال الهالك من كان بحظه مربوطاً، والحي من كان من أسر كل نصيب مستلباً مجذوباً.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلْبًا لَفُتِنْتُمْ فَلْيُفْتِنُوا فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يُدَاتِ الضُّرُورَ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَغْنَيْنِكُمْ قَلِيلًا يَقُولُ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ يَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

قيل أراه إياهم في نومه - عليه السلام - بوصف القلة، وأخبر أصحابه بذلك فازدادوا جسارة^(١) عليهم.

«قيل أراه في منامه أي في محل نومه أي في عينيه، فمعناه قللهم في عييه، لأنهم لو استكثروهم لفشلوا في قتالهم، ولانكسرت بذلك قلوب المسلمين».

(١) الجسارة: الشجاعة.

وفي الجملة أراد الله جريان ما حصل بينهم من القتال يوم بدر، وإنَّ الله إذا أراد أمراً هياً أسبابه؛ فقلَّل الكفار في أعين المسلمين فزادوا جسارَةً، وقلَّل المسلمين في أعين الكفار فزادوا - عند نشاطهم إلى القتال - صغراً في حكم الله وخسارةً.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]: وكيف لا؟ ومنه تصدُر المقادير، وإليه تُرجع الأمور.

ويقال إذا أراد الله نصرة عبده فلو كاذ له جميع البشر، وأراده الكافة بكل ضررٍ، لا ينفع من شاء مَضَرَّتْهُ كَذٌّ، ويحصل بينه وبين متاح لطفه به سُدٌّ.

وإذا أراد بعبدٍ سوءاً فليس له رَدٌّ، ولا ينفعه كَذٌّ، ولا ينعشه بعد ما سقط في حكمه جهْدٌ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أراد إذا لقيتم فئة من المشركين فاثبتوا. والثبات إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين، ولا يكون ذلك إلا لنفاذ البصيرة، والتحقق بالله، وشهود الحادثات كلها منه، فعند ذلك يستسلم الله، ويرضى بحكمه، ويتوقع منه حُسن الإعانة، ولهذا أحالهم على الذكر فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ويقال إنَّ جميع الخيرات في ثبات القلب، وبه تبيّن أقدار الرجال، فإذا ورَدَ على الإنسان خاطرٌ يزعجه أو هاجِسٌ في نفسه يهيجه... فَمَنْ كان صاحب بصيرة تَوَقَّفَ ريثما تتبيّن له حقيقة الوارد، فيثبت لكونه رابط الجأش، ساكن القلب، صافي اللب... وهذا نعت الأكابر.

قوله جل ذكره: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

الموافقة بين المسلمين أصل الدين. وأول الفساد ورأس الزلل الاختلاف. وكما تجب الموافقة في الدين والعقيدة تجب الموافقة في الرأي والعزيمة.

قال تعالى في صفة الكفار: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]، وإنما تتحد عزائم المسلم لأنهم كلهم يجمعهم التبري من حولهم وقوتهم، ويتمحضون في رجوعهم إلى الله، وشهودهم التقدير، فيتحذون في هذه الحالة الواحدة.

وأما الذين توهَّموا الحادثات من أنفسهم فضلُّوا في ساحات حسابانهم، وأجزوا الأمور على ما يسنح لرأيهم، فكلُّ بيني على ما يقع له ويختار، فإذا تنازعوا تشعبت

بهم الآراء، وافترقت بهم الطرق، فيضعفون، وتختلف طُرُقهم. وكما تجب في الدين طاعة رسول الله - ﷺ - تجب طاعة أولي الأمر، ولهذا يجب في كل وقت نَصْبُ إمام للمسلمين، ثم لا تجوز مخالفته، قال النبي - ﷺ -: «أطيعوه ولو كان عبداً مجده»^(١) وكان الرسول - ﷺ - إذا بعث سرية^(٢) أمر عليهم أميراً وقال: «عليكم بالسواد الأعظم»^(٣).

وإجماع المسلمين حُجَّةٌ، وصلاة الجماعة سُنةٌ مؤكَّدة، والاتباع محمودٌ والابتداع ضلالة.

قوله ﴿واضربوا﴾ الصبر حَبْسُ النَّفْسِ على الشيء، والمأمور به من الصبر ما يكون على خلاف هواك.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يتولى بالكافية إذا حصل منهم الثبات وحسن التفويض. قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

يريد أن أهل مكة لما خرجوا من مكة عام بدر لنصرة العير^(٤) مَلَكْتَهُمُ العِزَّةَ، واستمكن منهم البَطَرُ، وداخلهم رياء الناس، فارتكبوا في شَبَاكٍ غَلَطَهُمُ، وحصلوا على ما لم يحتسبوه. وأما المؤمنون فَنَصَرَهُمْ نَصْرًا عَزِيزًا، وأزال عن نبيّه - عليه السلام - ما أَظْلَمَهُ من الخوف وبِصْدَقِ تبره عن حوله ومُتَيْتِهِ - حين قال: «لا تكنني إلى نفسي»^(٥) - كفاه بحسن التوليّ فقال ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الشيطان إذا زَيْنَ للإنسان بوساوسه أمراً، والنفس إذا سَوَّلَتْ له شيئاً عَمِيَتْ بصائرُ أرباب الغفلة عن شهود صواب الرُّشد، فيبقى الغافل في قياد وساوسه، ثم تلحقه هواجمُ التقدير من كوامن المكر من حيث لا يرتقب، فلا الشيطان يفي بما

(١) هناك رواية أخرى للحديث: «إن أمر عليكم عبدٌ مجذع...» أخرجه مسلم (حجج ٣١١) والترمذي (جهاد ٢٨)، وابن ماجه (جهاد ٣٩)، وأحمد بن حنبل ٤، ٧٠، ٥، ٣٨١، ٦، ٤٠٢، ٤٠٣.

(٢) السرية: قطعة من الجيش (ج) سرايا.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة ٣٩/١)، والقرطبي في (التفسير ٥٦/١٤).

(٤) العير: القوم معهم حملهم من الميرة. يقل للرجال وللجمال معاً، ولكل واحد منهما دون الآخر.

(٥) سبق تخريجه.

يَعِدُّهُ، ولا النفس شيئاً مما تتمنّاه تجده، وكما قال القائل :

أَحْسَنْتَ ظَنُّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سَوْءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَالِمَتِكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَخْذُلُ الْكَدَرُ
قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمَنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَهُمْ وَمَنْ
يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

إن أصحاب الغفلة وأرباب الغرّة إذا هبّت رياح صَوْلَتِهِمْ في زمان غفلتهم
يلاحظون أهل الحقيقة بعين الاستحقار، ويحكمون عليهم بضعف الحال، وينسبونهم
إلى الضلال، ويعدونهم من جملة الجهّال، وذلك في زمان الفترة ومدة مهلة أهل
الغيبة.

والذين لهم قوة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم، يرون
الغائبات عن الحواس يعيون البصيرة من وراء ستر رقيق؛ فلا الطوارق تهزمهم، ولا
هواجم الوقت تستفهمهم^(١)، وعن قريب يلوح علّم اليُسْرِ، وتنجلي سحائب العُسر،
ويمحق الله كيد الكائدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَذْنَبَتُهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

يُسْلِيهِمْ عندما يُقَاسُونَ من اختبارات التقدير بما يُذكّرهم زوال المحنة، وشك
رُوح اليُسْرِ، وسرعة حصول النصر، وحلول النقم بمرتكبي الظلم. والمؤمن كثير
الظفر؛ فإذا شاهد بأرباب الجرائم حلول الانتقام رَقَّ قلبه لهم، فلا ينخرط في سلك
الشماتة؛ إذ يخلو قلبه من شهوة الانتقام، بل يجب أن يكون كل أحد بحسن الصفة،
وكما قيل.

قَوْمٌ إِذَا ظَفَرُوا بِنَا جَانَدُوا بَعَثَتْ رِقَابِنَا

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

يُعرفهم أنّ ما أصابهم مِنْ شِدَّةِ الْوَطْأَةِ جَزَاءٌ لَهُمْ عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ مِنْ قَبِيحِ الزَّلَّةِ،
كما قيل:

سَأَلْتِ فِينَا سَنَنَا قَذَفَ الْبَلَايَا عُقْبَهُ

يَصِيرُ عَلَى أَهْوَالِهَا مَنْ بَرَّ يَوْمَ رَبِّهِ

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن البوادة والهجوم: الهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من
غير تصنع. (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص ٧٨).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّغَیْبٍ﴾ أي كيفما يعاملهم في السراء والضراء فذلك منه حسن وعذل، إذ المُلْكُ مُلْكُهُ، والخلقُ خَلْقُهُ، والحكمُ حُكْمُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنٌ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوْبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

لَمَّا سَلَكُوا مَسْلَكَ أَهْلِ فِرْعَوْنَ فِي الضَّلَالِ، سَلَكْنَا بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ فِيمَا أَذَقْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَسُوءِ الْحَالِ، وَسُئَةُ اللَّهِ أَلَا تَغْيِيرُ فِي الْإِنْعَامِ، وَعَادَتُهُ أَلَا تَبْدِيلُ فِي الْإِنْتِقَامِ، وَمَنْ لَمْ يَغْتَبِزْ بِمَا يَشْهَدُ اغْتَبَزَ بِمَا يَصْنَعُهُ بِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أُنْعِمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

إِذَا أُنْعِمَ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - عَلَى قَوْمٍ نِعْمَةً وَأَرَادَ إِمْهَالَهُمْ أَكْرَمَهُمْ بِتَوْفِيقِ الشُّكْرِ، فَإِذَا شَكَرُوا نِعْمَتَهُ فَبَقَدَرَ الشُّكْرُ دَامَتْ فِيهِمْ.

وَإِذَا أَرَادَ - سُبْحَانَهُ - إِزَالََةَ نِعْمَةٍ عَنْ عَبْدٍ أَذَلَّهُ بِخِذْلَانِ الْكُفْرِ، فَإِذَا خَالَ عَنْ طَرِيقِ الشُّكْرِ عَرَّضَ النُّعْمَةَ لِلزَّوَالِ. فَمَا دَامَ الْعَبْدُ يَشْكُرُ النِّعْمَةَ مُقِيمًا كَانَ الْحَقُّ فِي إِنْعَامِهِ عَلَيْهِ مُدِيمًا، فَإِذَا قَابَلَ النِّعْمَةَ بِالْكَفْرِ انْتَشَرَ مَسْلُكُ نِظَامِهِ، فَبَقَدَرَ مَا يَزِيدُ فِي إِصْرَارِهِ يَزُولُ الْأَمْرُ عَنْ قَرَارِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنٌ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُّوْبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

تَنَوَّعَتْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ الذُّنُوبُ فَتَنَوَّعَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ، وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ: عُوقِبُوا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ لَمَّا ارْتَكَبُوا أَنْوَاعًا مِنَ الزُّلَّةِ.

وَفَائِدَةُ تَكَرَّارِ ذِكْرِهِمْ تَأْكِيدٌ فِي التَّعْرِيفِ أَنَّهُ لَا يَهْمِلُ الْمُكَلَّفَ أَصْلًا، وَإِنْ أَهْمَلَهُ حِينًا وَدَهْرًا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: فِي سَابِقِ عِلْمِهِ وَصَادِقِ حُكْمِهِ؛ فَإِذَا كَانُوا فِي عِلْمِهِ شَرُّ الْخَلَائِقِ فَكَيْفَ يَسْعُدُونَ بِاخْتِلَافِ السَّعَايَاتِ وَصُنُوفِ الطَّوَارِقِ؟

هِيَاهُنَا أَنْ تَتَبَدَّلَ الْحَقَائِقُ!.

وَإِذَا قَالَ: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ - وَكَلَامُهُ صِدْقٌ وَقَوْلُهُ حَقٌّ - فَلَمْ يَبْقَ لِلرَّجَاءِ فِيهِمْ مَسَاحٌ، وَلَا يَنْجِعُ فِيهِمْ نَضْحٌ وَإِبْلَاحٌ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُونَ﴾.

أي الذين صار نقض العهد لهم سجية؛ فلم يذروا من استفراغ الوسع في جهلهم بقية.

وإن من الكبائر التي لا غفران لها من هذه الطريق أن ينقض العبد عهداً، أو يترك عهداً التزمه بقلبه مع الله. أولئك الذين سقطوا عن (...) (١) الله، فرفع عنهم ظل العناية والعصمة.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

يريد إن صادفت واحداً من هؤلاء الذين دأبهم نقض العهد فاجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم لئلا يسلكوا طريقهم فيستوجبوا عقوبتهم.

كذلك من فسح عقده مع الله بقلبه برجوعه إلى رخص التأويلات، وتزوله إلى السكون مع العادات يجعله الله نكالا لمن بعده، بحرمانه ما كان خو له، وتنقيصه عليه ما من حظوظه أمله، فيفوته حق الله، ولا يكون له امتناع عما أثره على حق الله:

تبدلت وتبدلنا واحسرتا لمن ابتغى عوضاً ليليلى فلم يجد
قوله جل ذكره: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَافِينَ﴾.

يريد إذا تحققت بخيانة قوم منهم فصرح بأنه لا عهد بينك وبينهم، فإذا حصلت الخيانة زال سم الأمانة، وخيانة كل أحد على ما يليق بحاله، ومن ضن بميسور له فقد خان في عهده، وزاغ عن جده، وعقوبته معجلة، فهو لا يحبّه الله، وتكون عقوبته بإذلاله وإهانته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾.

كيف يعارض الحق أو ينازعه من في قبضته ثقله، وبقدرته تصرفه، وبتصرفه إياه عذمه وثبوته.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوٍّ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

أعدوا لقتال الأعداء ما يبلغ وسعكم ذلك من قوة، وأنتمها قوة القلب بالله، والناس فيها مختلفون: فواحد يقوى قلبه بموعود نصره، وآخر يقوى قلبه بأن الحق عالم بحاله، وآخر يقوى قلبه لتحقيقه بأن يشهد من ربه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وآخر يقوى قلبه بإيثار رضاء الله تعالى على مراد نفسه، وآخر يقوى قلبه برضاء بما يفعله مولاه به.

(١) بياض في الأصل.

ويقال أقوى محبة للعبد في مجاهدة العبد وتبريه عن حاله وقوته .

قوله جل ذكره: ﴿ تَرْهَبُونَ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

الإشارة فيه أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها، أو لاشتفاء صدره من قضية حق، بل قصده أن تكون كلمة الله هي العليا .

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

بعث الله نبيه - ﷺ - بالرحمة والشفقة على الخلق، وبمسالمة الكفار رجاء أن يؤمنوا في المستأنف فإن أبوا فليس يخرج أحد عن قبضة العزة .

ويقال العبودية الوقوف حيثما وقفت؛ إن أمرت بالقتال فلا تقصّر، وإن أمرت بالمواعدة فمرحبا بالمسالمة، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ في الحالين فإنه يختار لك ما فيه الخير، فيوفقك لما فيه الأولى، ويختار لك ما فيه من قسبي الأمر - في الحرب وفي الصلح - ما هو الأعلى .

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَاللَّيْلِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَفْتَقَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

أي إن لبسوا عليك، وراموا خداعك بطلب الصلح منك - وهم يستبطنون لك بخلاف ما يظهرونه - فإن الله كافيك، فلا تشغل قلبك بغفلتك عن شر ما يكيدونك؛ فإني أعلم ما لا تعلم، وأقدر على ما لا تقدر .

هو الذي بنصره أفرذك، وبلطفه أيدك، وعن كل سوء ونصيب طهرك، وعن رق الأشياء جرذك، وفي جميع الأحوال كان لك .

هو الذي أيدك بمن آمن بك من المؤمنين، وهو الذي ألف بين قلوبهم المختلفة فجَمَعَهَا على الدين، وإيثارِ رضا الحق . ولو كان ذلك يحيل الخلق ما انتظمت هذه الجملة، ولو أبلغت بكل ميسور من الأفعال، وبذلت كل مستطاع من المال - لما وصلت إليه .

قوله جل ذكره: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أحسن التأويلات في هذه الآية أن تكون «مَنْ» في محل النصب؛ أي ومن اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله .

ومن التأويلات في العربية أن تكون «مَنْ» في محل الرفع أي حسبك مَنْ اتبعك من المؤمنين .

وقد عَلِمَ أن استقلال الرسول - ﷺ - كان بالله لا بمن سوى الله، وكلُّ مَنْ هو سوى الله فمحتاجٌ إلى نصرته الله، كما أن رسول الله محتاج إلى نصرته الله.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾.

المؤمن لا يزداد بنفسه ضعفاً إلا ازداد بقلبه قوة، لأن الاستقلال بقوة النفس نتيجة الغفلة، وقوة القلب بالله - سبحانه - على الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا وَيَأْتِيَهُمْ مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

هذا لهم، فأما النبي - ﷺ - فهو بتوحيده كان مؤملاً بأن يثبت لجميع الكفار لكمال قوته بالله تعالى، قال عليه السلام: «بِكَ أَصُولُ»^(١)، وفي تحريضه للمؤمنين على القتال كانت لهم قوة، وبأمر الله كانت لهم قوة؛ فقوة الصحابة كانت بالنبي - عليه الصلاة والسلام، وتحريضه إياهم وقوتهم بذلك كانت بالله وبأمره إياه... وشأن ما هما!

قوله: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: والضعف الذي علم فيهم كان ضعف الأشباح فحققت عنهم، أما القلوب فلم يتداخلها الضعف فحمل من ممارسة القتال بالعدو المذكور في الكتاب.

والعوام يحملون المشاق بنفوسهم وجسومهم، والخواص بقلوبهم وهمهم، وقالوا: «والقلب يحمل ما لا يحمل البدن» وقال آخر.

وإن تروني أعاديها فلا عجب على النفوس جنائيات من الهَمَم
قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ حَتَّى يُثْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي لا ينبغي لنبي من الأنبياء - عليهم السلام - أن يأخذ أسارى من أعدائه ثم يرضى بأن يأخذ منهم الفداء، بل الواجب عليه أن يثخن في الأرض أي يبالغ في قتل أعدائه - إذ يقال أثنخه المرض إذا اشتد عليه. وقد أخذ النبي - ﷺ - يوم بدر منهم الفداء، وكان ذلك جائزاً لوجوب القول بعصمته، ولكن لو قاتلتم كان أولى. وأراد «بعرص الدنيا» أخذ الفداء، والله جعل الفداء، والله جعل رضا في أن يقتلهم،

(١) أخرجه العقيلي في (الضعفاء ٢٩٩/٣).

وحرمة الشرع خلافاً رحمة الطبع؛ فشرط العبودية أن يؤثر العبدُ الله، وإذا كان الأمر بالغِلظة فكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: بالانتقام من أعدائه «حكيم»: في جميع ما يصنع من التملك والإملاك، والتيسير والتدبير.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. لولا أن الله حكم في آزاله بإحلال الغنيمة لمحمد ﷺ وأمه لَمَسَّكُمْ - لأجل ما أخذتم من الفداء منهم يوم بدر - عذاب عظيم، ولكن الله أباح لكم الغنيمة فأزال عنكم العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. الحلال ما كان مأذوناً فيه، والحلال الطيب أن تعلم أن ذلك من قبل الله فضلاً، وليس لك من قبلك استحقاقاً.

ويقال الحلال الصافي ما لم ينس صاحبه فيه معبوده^(١). ويقال هو الذي لا يكون صاحبه عن شهود ربه - عند أخذه - غافلاً.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ مِّنْ أَلْسِنَةٍ أَلَسْرَىٰ إِن يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الذي يغفونه خير مما أخذ منهم. ويحتمل أن يكون ما في الآخرة من حسن الثواب، ويحتمل أن يكون ما في الدنيا من جميل العوض. ويقال هو ما يوصلهم إليه من توفيق الطاعات، وحلاوة الإيمان، وهو خير مما أخذ منهم.

ويقال ما أعطاهم من الرضاء بما هم فيه من الفقر، بعدما كانوا أغنياء في حال الشرك.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَاثَا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

يريد إن عادوا إلى قتالك بعدما مننت عليهم بالإطلاق وخانوا عهدك، فالخيانة لهم دأب وطريقة، ثم إننا نمكّنك منهم ثانياً كما أمكّنك من أسرهم أولاً، وقيل:

إِنْ عَادَتْ الْعَقْرِبُ مَعْدُنَا لَهَا وَكَانَتِ السُّغُلُ لَهَا حَاضِرَةً
نُونُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
رَأَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَصَّوْا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١١٢.

حَتَّىٰ يَهِاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠﴾

ذَكَرَ صِفَةَ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ الرَّسُولِ - ﷺ - وَصَفْتَهُمْ أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ هَاجَرُوا مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، ثُمَّ ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ. أما الذين آووا فهم الأنصار؛ آووا الرسول - عليه السلام - والمؤمنين. فهذان الفريقان بعضهم أولياء بعض في النصرة والدين. وأما الذين آمنوا ولكن لم يهاجروا فليست لهم هذه الموالاة إلى أن يهاجروا، وإن استعانوا بكم فعليكم نصرهم. ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ وهم الْمُعَاهِدُونَ مَعَكُمْ.

وكمال الهجرة مفارقة الأخلاق الذميمة، وهجران النفس في ترك إيجابتها إلى ما تدعو إليه من شهواتها. ومن ذلك هجران إخوان السوء، والتباعد عن الأوطان التي باشر العبد فيها الزلة، ثم الهجرة من أوطان الحظوظ إلى أوطان رضا الحق^(١).

وأما قوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَفَضَرُوا﴾ فهم الذين يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، عَوَّامٌ هَؤُلَاءِ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَخَوَاصُّهُمْ فِي الْكَرَائِمِ فِي الْآخِرَةِ، وَخَاصُّ الْخَاصِّ فِي كُلِّ مَا يَصُحُّ بِهِ الْإِثْبَاتُ مِنْ سُنَنِ الْأَحْوَالِ إِلَى مَا لَا يَدْرِكُ الْوَهْمُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَفَضَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قَطَعَ الْعَصْمَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَالْمُؤْمِنُ لِلْأَجَانِبِ مُجَانِبٌ، وَلِلْأَقَارِبِ مُقَارِبٌ. وَالْكَفَّارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِهِمْ، كَمَا قِيلَ: «طِيرُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْفِ تَقَعُ».

سُئِلَ جَلْ ذِكْرِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَحْزَابُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

يُرِيدُ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ فِي الْحَالِ، وَمَنْ سِيلَحَقْ بِهِمْ فِي الْإِسْتِقْبَالِ وَآتَى الْأَحْوَالَ فَالْإِثْمُ تَجْمَعُهُمْ، وَالْوَلَايَةُ تَشْمَلُهُمْ، فَلَهُمْ مِنَ اللَّهِ فِي الْعَقَبَىٰ جَزِيلُ الثَّوَابِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ. وَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا الْوَلَايَةُ وَالتَّنَاصُرُ، وَالْمُودَّةُ وَالتَّقَارُبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) قال القشيري برسانته مؤكداً على أهمية السفر: «... والشأن الذين يخرجون إلى الحج من هؤلاء القوم من غير إشارة الشيوخ فهي بدالات نشاط النفوس، فهم متوسمون بهذه الطريقة، وليس سفرهم عملي أصلاً، والذي يدل على ذلك أنه لا يزداد سفرهم، إلا وتزداد تفرقة قلوبهم، فلو أنهم ارتحلوا من أنفسهم بخطوة، لكان أسخطى لهم من ألف سفرة...» (الرسالة القشيرية ص ٣٨٥، ٣٨٤).

السورة التي تذكر فيها التوبة

جرّد الله - سبحانه - هذه السورة عن ذكر «بسم الله الرحمن الرحيم» ليُعْلَمَ أنه يَخُصُّ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ، ويُفَرِّدُ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ، ليس لِصُنْعِهِ سَبَبٌ، وليس له في أفعاله عَرَضٌ ولا أَرَبٌ، وَاتَّضَحَ للكافة أن هذه الآية أُثْبِتَتْ في الكتاب لأنها مُنَزَّلَةٌ، وبالأمر هنالك مُحْصَلَةٌ.

وَمَنْ قال: إنه لم يذكر التسمية في هذه السورة لأنها مفتوحة بالبراءة عن الكفار فهو - وإن كان وجهاً في الإشارة - فضعيفٌ، وفي التحقيق كالبعيد؛ لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١] وقوله: ﴿وَلَوْلَا إِعْكِالُ هُمْزٍ لَمَزَتْ﴾ [الهمزة: ١] وقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] وقوله: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]... هذه كلها مفاتيح للسور... وبسم الله الرحمن الرحيم مُثَبَّتَةٌ في أوائلها - وإن كانت مُتَضَمِّنَةٌ ذِكْرَ الكفار. على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت في ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإن تَضَمَّنَتْهُ تلويحاً، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً، فلم تُصَدَّرْ بِذِكْرِ الرحمة.

ويقال إذا كان تجرّد السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحزني أن يُخْشَى أن تجرّد الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١٠].

الفراق شديدٌ، وأشدُّه ألا يَعْقُبَهُ وصال، وفراق المشركين كذلك لأنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ويقال مَنْ مُنِيَ بفراق أحبائه فبُهِتَتْ صحبته. وقد كان بين الرسول عليه السلام وبين أولئك المشركين عهد، ولا شك أنهم كانوا قد وطّئوا نفوسهم عليه، فنزل الخبر من الغيب بغتةً، وأتاهم الإعلام بالفرقة فجأةً، فقال: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ١]، أي هذه براءة من الله ورسوله، كما قيل:

فَبِتَّ بخيرٍ - والدُّنَى مطمئنةٌ وأصبحت يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا
وما أشدَّ الفُرْقَةَ - لا سِيَّما إذا كانت بغتةً على غير تَرْقُبٍ - قال تعالى:

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] وأنشدوا:

وكان سراج الوصلِ أزهَر بيننا فهبَّت به ريحٌ من البَيْنِ فانطفأ
قوله جلّ ذكره: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

إِنْ قَطَعَ عَنْهُمْ الْوَصْلَةَ فَقَدْ ضَرَبَ لَهُمْ مَدَّةً عَلَى وَجْهِ الْمُهْلَةِ، فَأَمَّنْهُمْ فِي الْحَالِ لِيَتَأَهَّبُوا لِتَحْمِلِ مَقَاسَةِ الْبِرَاءَةِ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ فِي الْمَالِ.

والإشارة فيه: أنهم إِنْ أَقْلَعُوا فِي هَذِهِ الْمُهْلَةِ عَنِ الْعَيِّ وَالضَّلَالِ وَجَدُوا فِي الْمَالِ مَا فَقَدُوا مِنَ الْوَصَالِ، وَإِنْ أَبَوْا إِلَّا التَّمَادِي فِي تَرْكِ الْخِدْمَةِ وَالْحَرَمَةِ انْقَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْعَصْمَةِ.

ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ والإشارة فيه: إِنْ أَصْرَرْتُمْ عَلَى قَبِيحِ آثَارِكُمْ سَعَيْتُمْ إِلَى هَلَاكِكُمْ بِقَدَمِكُمْ. وندمتم في عاجلكم على سعيكم، وَحَصَلْتُمْ فِي آجِلِكُمْ عَلَى خَسْرَانِكُمْ؛ وَمَا خَسِرْتُمْ إِلَّا فِي صَفَقَتِكُمْ، وَمَا ضُرَّ جُزْمُكُمْ سِوَاكُمْ وَأَنْشَدُوا:

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْسَرْتَا مَنْ ابْتَغَى عَوْضًا لِلَّيْلِ فَلَمْ يَجِدِ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾.

أَي لِيَكُنْ إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ وَرُسُولِهِ لِلنَّاسِ بِنَقْضِ عَهْدِهِمْ، وَإِعْلَانٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ مَا انْقَطَعُوا عَنْ مَأْلُوفِهِمْ مِنَ الْإِهْمَالِ وَمَعْهُدِهِمْ، وَقَدْ بَرَحَ الْخِفَاءُ مِنَ الْيَوْمِ بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ وِلَاءٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ بِمَا عَقَدُوا وَفَاءً، فَلْيَعْلَمِ الْكَافَّةُ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ، وَأَنْشَدُوا:

أَشَاعُوا لَنَا فِي الْحَيِّ أَشْنَعَ قِصَّةٍ وَكَانُوا لَنَا سِلْمًا فَصَارُوا لَنَا حَرْبًا
قوله جلّ ذكره: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

مَنْ رَأَى مِنَ الْأَغْيَارِ - شَطِيئَةً مِنَ الْآثَارِ، وَلَمْ يَرَ حَصُولَهَا بِتَضَرُّفِ الْأَقْدَارِ فَقَدْ أَشْرَكَ - فِي التَّحْقِيقِ - وَاسْتَوْجَبَ هَذِهِ الْبِرَاءَةَ.

وَمَنْ لَاحَظَ الْخُلُقَ تَصْغَعًا، أَوْ طَالَعَ نَفْسَهُ إِعْجَابًا فَقَدْ جَعَلَ مَا لِلَّهِ لَغِيرِ اللَّهِ، وَظَنَّ مَا لِلَّهِ لَغَيْرِ اللَّهِ، فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ مِنَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَبُيْتُمْ فَبُيُوتُكُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَشَرِّ الْأَلْبَانِ كَفَرُوا بِعَذَابِ آيِهِ﴾.

إِنْ عَادُوا إِلَى الْبَابِ لَمْ يَقْطَعْ رَجَاءَهُمْ، وَمَدَّ إِلَى حَدِّ وَضُوحِ الْعُذْرِ إِرْجَاءَهُمْ. وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ إِنْ أَصْرَرُوا عَلَى عُتُوبِهِمْ فَلَيْ مَا لَا يُطِيقُونَ مِنَ الْعَذَابِ مُنْقَلِبُهُمْ، وَفِي النَّارِ مَثْوَاهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لَبِئِهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

من وفى الحق في عقده فزده على حفظ عهده؛ إذ لا يستوي من وفاه ومن جفاه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾.

يريد إذا انسَلَخَ الْحُرُمُ فاقتلوا من لا عهد له من المشركين، فإنهم - وإن لم يكن لهم عهد وكانوا حُرُمًا - جعل لهم الأمان في مدة هذه المهلة، (....) ^(١) فكرتم يأمر بترك قتال من أبى كيف يرضى بقطع وصال من أتى؟!

قوله جل ذكره: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾.

أمرهم بمعالجة جميع أنواع القتال مع الأعداء.

وأغدى عدوك نفسك التي بين جنبيك؛ فسيل العبد في مباشرة الجهاد الأكبر مع النفس بالتضييق عليها بالمبالغة في جميع أنواع الرياضات، واستفراغ الوسع في القيام بصدق المعاملات. ومن تلك الجملة ألا ينزل بساحات الرخص والتأويلات، ويأخذ بالأسق في جميع الحالات.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

حقيقة التوبة الرجوع بالكلية من غير أن تترك بقية. فإذا أسلم الكافر بعد شركه، ولم يقصّر في واجب عليه من قسمن فغله وتركه، حصل الإذن في تخلية سبيله وفكه: إن وجدنا لما ادّعينت شهوداً لم نجد عندنا الحق حدوداً

وكذلك النفس إذا انخنست، وآثار البشرية إذا اندرست، فلا خرج - في التحقيق - في المعاملات في أوان مراعاة الخطرات مع الله عند حصول المكاشفات. والجلوس مع الله أولى من القيام بباب الله تعالى، قال تعالى فيما ورد به الخبر: «أنا جليس من ذكرني» ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُفْهُ مَأْمَنُ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

(٢) أخرجه المعجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٢٨٧) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٢٤).

إذا استجار المُشْرِكُ - اليوم - فلا يُرَدُّ حتى يسمع كلام الله، فإذا استجار المؤمن طول عمره من الفراق - متى يُنْتَعَم من سماع كلام الله؟ ومتى يكون في زمرة من يقال لهم: ﴿أَسْكُتُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وإذا قال - اليوم - عن أعدائه: ﴿فَأَجِرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ فإن لم يؤمن بعد سماع كلامه نُهي عن تعرضه حيث قال: ﴿ثُمَّ أُتِلِّغَهُ مَا أَنَّمُ﴾ - أترى أنه لا يؤمن أولياءه - غداً - من فراقه، وقد عاشوا اليوم على إيمانه ووفائه؟! كلا... إنه يمتحنهم بذلك، قال تعالى: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا كان هذا برّه بمن لا يعلم فكيف برّه بمن يعلم؟

ومتى نُضَيِّعَ مَنْ يَنْبِيحُ بِبَابِنَا والمُغْبِرِضُونَ لَهُمْ نَعِيمٌ وإفِرُّ؟
قوله جل ذكره: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَحِيبُ الْمُتَّقِينَ﴾.

كيف يكون المُفْلِسُ من عرفانه كالمخلص في إيمانه؟

وكيف يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك في وجوده؟

كيف يكون مَنْ يقول «أنا» كمن يقول «أنت»؟ وأنشدوا:

وأحبابنا شتان: وافٍ وناقصٌ ولا يستوي قطُّ مُحِبٍّ وباغضٍ

قوله: ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾، إن تَمَسَّكُوا بحبل وفائنا أحللناهم ولأنا، وإن زاغوا عن عهدنا أبليناهم بصدنا، ثم لم يَزْبُحُوا في بُغْدِنَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: المتقي الذي يستحق محبة مَنْ يَتَّقِي؛ وذلك حين يتقي محبة نفسه، وذلك بِتَرْكِ حظه والقيام بحق ربه.

قوله جل ذكره: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْفَرُكُمْ فَاتِقُونَ﴾.

وَصَفَّهِم بلُؤْم الطبع فقال: كيف يكونون محافظين على عهودهم مع ما أضمره لكم من سوء الرضاء؟ فلو ظفروا بكم واستولوا عليكم لم يُراعوا لكم حُرْمَةً، ولم يحفظوا لكم قرابة أو ذِمَّةً.

وفي هذا إشارة إلى أنَّ الكريم إذا ظَفِرَ غَفَرَ، وإذا قدر ما غَدَرَ، فيما أسرَّ وجَهَرَ.

قوله: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا عَجَبَ مِنْ طَبْعِهِمْ؛ فإنهم في

حقناً كذلك يفعلون: يُظهِرُونَ لِبَاسِ الْإِيمَانِ وَيُضْمِرُونَ الْكُفْرَ. وإنهم لذلك يعيشون معكم في زِيِّ الْوَفَاقِ، ويستبطنون عين الشَّقَاقِ وسوء التَّفَاقِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ بِغَيْرِ اللَّهِ أَرْخَصَ فِي صَفَقَتِهِ ثُمَّ إِنَّهُ خَسِرَ فِي تِجَارَتِهِ؛ فَلَا لَهُ - وهو عن الله - أثر استمتاع، ولا له - في دونه سبحانه - اقتناع؛ بَقِيَ عن الله، ولم يستمتع عن الله. وهذا هو الخسران المبين.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾. كيف يراعي حق المؤمنين مَنْ لا يراعي حقَّ الله في الله؟ أخلاقهم تشابهت في تَرْكِ الحُرْمَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَنُّواكُمُ فِي الدِّينِ وَتَفَصَّلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

معناه: وإن قبلناهم وصلحوا لولائنا فلُحْمَةٌ^(١) النَّسَبِ فِي الدِّينِ بينكم وبينهم وشيعة^(٢)، وإلا فليكن الأجانبُ مِنَّا على جانبٍ منكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَكُونُوا آمِنْتُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَيْمَةُ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾.

إذا جنحوا إلى الغَدْرِ، ونكثوا ما قدَّموه من ضمان الوفاء بالعهد، ويسطوا ألسنتهم فيكم باللوم فاقصدوا مَنْ رَحَى الْفِتْنَةَ عليه تدور، وَغَضَضُ الشَّرِّ مِنْ أَصْلِهِ يَتَشَعَّبُ، وهم سادة الكفار وقادتهم.

وحقُّ القتالِ إعدادُ القوةِ جهراً، والتبرُّي عن الحول والقوة سراً.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا لَتُنِيلُنَّ قَوْمًا أَنْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُجْرِمُونَ﴾. وَهَكُوتُوا بِإِخْرَاجِ الرُّسُلِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً أَخَشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

حَرَضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ - على ملاحظة أمر الله بذلك - لا على مقتضى الانطواء على الحقد لأحد، فَإِنَّ مَنْ غَضِبَ لِنَفْسِهِ فمذموم الوصف، وَمَنْ غَضِبَ لِلَّهِ فَإِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

وقال: ﴿أَخَشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾: فالخشية من الله بشير الوضلة، والخشية من غير الله نذير الفُرْقَةِ. وحقيقة الخشية تَقْضُ الشَّرَّ عن ارتكاب الرُّجْرِ ومخالفة الأمر.

قوله جل ذكره: ﴿فَتِلْكَ لَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ

(١) اللُّحْمَةُ: القرابة. (٢) الوشيعة: القرابة المشتبكة المتصلة (ج) وشائج.

صُدُّورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾

هوّن عليهم كلفة المخاطرة بالمهجة بما وعدّهم من الظفر والنصرة، فإنّ شهود خزي العدو مما يهون عليهم مقاساة السوء. والظفر بالأرب^(١) يذهب تعب الطلب.

وشفاء صدور المؤمنين على حسب مراتبهم في المقام والدرجات؛ فمنهم من شفاء صدره في قهر عدوه، ومنهم من شفاء صدره في نيل مزجوه. ومنهم من شفاء صدره في الظفر بمطلوبه، ومنهم من شفاء صدره في لقاء محبوبه. ومنهم من شفاء صدره في درك مقصوده، ومنهم من شفاء صدره في البقاء بمعبوده.

وكذلك ذهاب غيظ قلوبهم تختلف أسبابه، وتنوّع أبوابه، وفيما ذكرنا تلويح لما تركنا.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ حتى يكون استقلاله بمحوّل الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

من ظنّ أنه يُقنّع منه بالدعوى - دون التحقق بالمعنى - فهو على غلط في حسابه. والذي طالبه به من حيث الأمر صدق المجاهدة في الله، وترك الركون إلى غير الله، والتباعد عن مساكنة أعداء الله. ثقة بالله، واكتفاء بالله، وتبرياً من غير الله.

وهذا الذي أمرهم به ألا يتخذوا من دون المؤمنين وليجة^(٢) فالمعنى فيه: ألا يُقشّوا في الكفار أسرار المؤمنين.

وأول من يهجره المسلم - لثلا تطلّع على الأسرار - نفسه التي هي أعدى عدوه، وفي هذا المعنى قال قائلهم:

كناسي إليكم بعد موتي بليلة ولم أدري أنني بعد موتي أكتب

ويقال: إن أبا يزيد^(٣) - فيما أُخبر عنه - أنه قال للحق في بعض أوقات مكاشفاته: كيف أطلبك؟ فقال له: فارق نفسك.

(١) الأرب: الحاجة والبغية والأمنية (ج) آراب.

(٢) الوليجة: من تتخذ معتمداً عليه من غير أهلك. (ج) ولائج.

(٣) هو طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، ويقال: بايزيد (١٨٨ - ٢٦١ هـ = ٨٠٤ - ٨٧٥ م) زاهد مشهور له أخبار كثيرة. نسبة إلى بسطام أصله منها، ووفاته فيها، وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء، ويُعرف أتباعه بالطيفية أو البسطامية. الاعلام ٣/٢٣٥، وطبقات الصوفية ٦٧ - ٧٤، ووفيات الأعيان ١/٢٤٠، وميزان الاعتدال ١/٤٨١، وحلية ١٠/٣٣، والشعراني ١/٦٥، الرسالة القشيرية ص ٣٩٥ - ٣٩٧.

ويقال إن ذلك لا يتم، بل لا تحصل منه شطيئة إلا بكَيِّ غُرُوقِ الأطماع والمطالبات لِمَا في الدنيا وَلِمَا في العقبى وَلِمَا في رؤية الحال والمقام - ولو بِذَرَّةٍ. والحرية عزيزة... قال قائلهم:

أتمنى على الزمان مُحَالاً أن ترى مُقْلَسَايَ طُلْعَةً حُرّاً
قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

عمارة المساجد بإقامة العبادة فيها، والعبادة لا تُقْبَلُ إلا بالإخلاص، والمُشْرِكُ فاقِدُ الإخلاص، وشهادتهم على أنفسهم بالكفر دعواهم حصول بعض الحدّثان بتأثير الأسباب، فمن أثبت في عقده جواز ذرّة في العالم من غير تقديره - سبحانه - شارك أرباب الشُرْك في المعنى الذي لزمهم به هذه السُمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَوْ يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ فَمَسَوْنِ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

لا تكون عمارة المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية، فالعابد يُعْمَرُها بتخريب أوطان شهوته، والزاهد يعمرها بتخريب أوطان مُنيته، والعارف يعمرها بتخريب أوطان علاقته، والمؤخّذ يعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومُساكنته. وكلّ واحدٍ منهم واقفٌ في صفته؛ فلصاحب كلّ موقفٍ منهم وصفٌ مخصوص.

وكذلك رتبتهم في الإيمان مختلفة؛ فإيمانٌ من حيث البرهان، وإيمان من حيث البيان، وإيمان من حيث العيان، وشتان ما هم! قال قائلهم:

لا تغرِضنْ بِذِكْرِنَا فِي ذِكْرِهِمْ ليس الصحيح - إذا مشى - كالمُفْعَدِ
قوله جلّ ذكره: ﴿أَجْعَلْنِي سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ليس مَنْ قام بمعاملة ظاهره كمن استقام في مواصلة سرائره، ولا مَنْ اقتبس من سراج علومه كمن استبصر بشموس معارفه، ولا مَنْ نُصِبَ بالباب من حيث الخدمة كمن مُكِّن من البساط من حيث القربة وليس نعتٌ مَنْ تكلّف نفاقاً كوصفٍ مَنْ تحقّق وفاقاً، بينهما بَوْنٌ^(١) بعيد!

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

(١) البون: مسافة ما بين الشيتين. يقال: بينهما بون بعيد؛ أي: بين درجتهما أو بين اعتبارهما في الشرف.

﴿أَمْنُوا﴾ أي شاهدوا بأنوار بصائرهم حتى لم يبق في سماء يقينهم سحاب رَيْب، ولا في هواء معارفهم ضباب شك.

﴿وَهَاجَرُوا﴾: فلم يُعْرَجُوا في أوطان التفرقة؛ فَتَمَحَّضَتْ^(١) حركاتهم وسكناتهم بالله الله.

﴿وَجَهَدُوا﴾: لا على ملاحظة غَرَضٍ أو مطالعة عَوَاضٍ؛ فلم يَدْخَرُوا لأنفسهم - مِنْ ميسورهم - شيئاً إلا أثروا الحق عليه؛ فَظَفَرُوا بالنعمة؛ في قيامهم بالحق بعد فنائهم عن الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

البشارة من الله تعالى على قسمين: بشارة بواسطة المَلَك، عند التوفي:

﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠].

وبشارة بلا واسطة بقول المَلَك، إذ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ برحمة منه، وذلك عند الحساب. يبشرهم بلا واسطة بِحُسْنِ التَّوَلَّى؛ فعاجِلُ بشارتهم بنعمة الله، وأجلُ بشارتهم برحمة الله، وشتان ما هما!

ويقال البشارة بالنعمة والجنة لأصحاب الإحسان، والبشارة بالرحمة لأرباب العصيان، فأصحاب الإحسان صَلَحَ أمرهم للشهرة فَأَظْهَرَ أَمْرَهُمُ لِلْمَلَكِ حتى بَشَرُوهم جَهْرًا، وأهل العصيان صلح حالهم للسرِّ فتَوَلَّى بشارتهم - مِنْ غير واسطة سرًّا.

ويقال إن كانت للمطيع بشارة بالاختصاص فإنَّ للعاصي بشارة بالخلاص. وإن كان للمطيع بشارة بالدرجات فإنَّ للعاصي بشارة بالنجاة.

ويقال إنَّ القلوب مجبولة على محبة من يُبَشِّرُ بالخير؛ فأراد الحق - سبحانه - أن تكون محبة العبد له - سبحانه - على الخصوص؛ فتَوَلَّى بشارته بعزیز خطابه من غير واسطة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١] وفي معناه أنشدوا:

لولا تَمَتُّعٌ مُّقْلَتِي بلقائه لوَهَبْتُهَا بُشْرَى بِقرب إيايه

ويقال بَشَّرَ العاصي بِالرحمة، والمطيع بالرضوان، ثم الكافة بالجنة؛ فقدم العاصي في الذكر، وقدم المطيع بالبر، فالذكر قوله وهو قديم والبر طوُّه وهو عميم وقوله الذي لم يَزَلْ أَعَزُّ مِنْ طوِّه الذي حصل. قدَّم العصاة على المطيعين لأنَّ ضَعْفَ الضعيف أولى بالرفق من القوي.

(١) المنحصر من كل شيء: الخالص.

ويقال قدّم أمر العاصي بالرحمة حتى إذا كان يوم العَرْضِ وحضور الجمع لا يفتضح العاصي.

ويقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ﴾ يُعَرِّفُهُمْ أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من تلك الدرجات بسعيهم وطاعتهم، ولكن برحمته - سبحانه - وصلوا إلى نعمته، قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يُنَجِّيه عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١).

قوله: ﴿لَمْ يَهَيِّأْ نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾: قوم نعيمهم عطاء ربهم على وصف التمام، وقوم نعيمهم لقاء ربهم على نعت الدوام؛ فالعابدون لهم تمام عطائه، والعارفون لهم دوام لقائه.

ثم قال: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ والكناية في قوله «فيها» كما ترجع إلى الجنة تصلح أن ترجع إلى الحالة، سيما وقد ذكر الأجر بعدها؛ فكما لا يقطع عطائه عنهم في الجنة لا يمنع عنهم لقاءه متى شاءوا في الجنة، قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ﴾ [الواقعة: ٣٣] أي لا مقطوعة عنهم نعمته، ولا ممنوعة منهم رؤيته.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. من لم يضلخ بطاعته لربه لا تستخلصه لصحة نفيسك.

ويقال من أثر على الله شيئاً يبارك له فيه؛ فيبقى بذلك عن الله، ثم لا يتبقي ذلك معه، فإن استبقاه بجهد - كيف يستبقي حياته إذا أذن الله في ذهاب أجله؟ وفي معناه أنشدوا:

مَنْ لَمْ تَزَلْ نَعْمَتُهُ قَبْلَهُ زَالَ مَعَ النِّعْمَةِ بِالموتِ

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمْ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ليس هذا تخييراً لهم، ولا إذناً لهم، ولا إذناً في إشار الحظوظ على الحقوق، ولكنه غاية التحذير والزجر عن إشار شيء من الحظوظ على الدين،

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٤٤، ٥١٩)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/

٤١٦، ١٨٤/٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٣٩٧)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/

٢٩٥)، وأبو نعيم (حلية الأولياء ٨/ ٣٧٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٣٦٣).

ومرور الأيام حَكَمَ عَذْلٌ يَكْثِفُ في العاقبة عن أسرار التقدير، قال قائلهم:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أَقْرَسَ تَحْتَكِ أَمْ حَمَار؟

ويقال علامة الصدق في التوحيد قطع العلاقات، ومفارقة العادات، وهجران المعهودات والاكتفاء بالله في دوام الحالات.

ويقال مَنْ كَسَدَتْ سَوْقُ دِينِهِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ حَظْوْظِهِ، وما لم تَخُلْ مِنْكَ مَنَازِلُ الحَظْوْظِ لَا تَعْمُرُ بِكَ مَشَاهِدُ الْحَقُوقِ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾.

النصرة من الله تعالى في شهود القدرة، والمنصور مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عن التوَهُمِّ والحسبان، ولم يَكَلِّهِ إلى تدبيره في الأمور، وأثبتته الحق - سبحانه - في مقام الافتقار متبرياً عن الحَوْلِ والمُنَّة، مُتَحَقِّقاً بشهود تصاريف القدرة، يَأْخُذُ الحق - سبحانه - بيده فيخرجه عن مهواة تدبيره. ويوقفه على وصف التصبر لقضاء تقديره.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْرِيكَ﴾.

يعني نَصَرَكُم يَوْمَ حُنَيْنٍ^(١) حين تَفَرَّقَ أَكْثَرُ الْأَصْحَابِ، وافترت أنياب الكَرَّةِ عن نِقَابِ الْقَهْرِ فاضطربت القلوب، وخانت القوى أصحابها، ولم تُغْنِ عَنْكُمْ كَثْرَتُكُمْ، فاستخلص اللَّهُ أَسْرَارَكُمْ - عند صدق الرجوع إليه - بِحُسْنِ السَّكِينَةِ النَّازِلَةِ عَلَيْكُمْ، فَقَلَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَخَفَقَتْ رَايَاتُ النُّصْرَةِ، ووقعت الدائرة على الكفار، وارتدت الهزيمة عليهم فرجعوا صاغرين.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

السَّكِينَةُ ثَلَجُ الْقَلْبِ عند جريان حُكْمِ الرَّبِّ بنعت الطمأنينة، وخمود أثار البشرية بالكلية، والرضاء بالبادي من الغيب من غير معارضة اختيار.

ويقال السَّكِينَةُ الْقَرَارُ عَلَى بَسَاطِ الشُّهُودِ بِشَوَاهِدِ الصُّحُوفِ، والتأدب بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقة، وبلا تحريك عِزِّ لِمَعَارَضَةِ حُكْمِ. والسَّكِينَةُ الْمُنْزَلَةُ عَلَى ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ خُمُودُهُمْ تَحْتَ جَرِيَانِ مَا وَرَدَ مِنَ الْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ كِرَاهَةٍ بِنَوَازِعِ الْبَشَرِيَّةِ، واختطاف الحق إياهم عنهم حتى لم تستفزهم رهبة من مخلوق؛ فَسَكَنَتْ عَنْهُمْ كُلُّ إِرَادَةٍ وَاخْتِيَارٍ.

(١) يَوْمَ حُنَيْنٍ: وهو اليوم الذي ذكره جل وعز في كتابه الكريم وهو قريب من مكة، وقيل: هو واد قبل الطائف، وقيل: واد بجنب ذي المجاز. (معجم البلدان ٢/٣١٣).

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّهُ تَرَوُّهَا﴾ من وفور اليقين وزوائد الاستبصار .
 ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالتطوح في متاهات التفرقة ، والسقوط في وهدة ضيق
 التدبير ، ومِحْنَةِ الْعُقْلَةِ ، والغَيْبَةِ عن شهود التقدير .

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .
 ردهم من الجهل إلى حقائق العلم ، ثم ثَقَلَهُمْ من تلك المنازل إلى مشاهد
 اليقين ، ثم رَقَّاهُمْ عن تلك الجملة بما لَقَّاهُمْ به من عين الجمع .
 قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَكَذَا﴾ .

فقدوا طهارة الأسرار بماءٍ بالتوحيد؛ فبقوا في قذورات الظنون والأوهام ، فَمُنِعُوا
 قُرْبَانَ المساجد التي هي مشاهد القرب . وأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فطَهَّرَهُمْ عن التدنُّس بشهود
 الأغيار ، فطالعوا الحقَّ قَرْدًا فيما يُبَيِّنُهُ مِنَ الْأَمْرِ وَيُضَيِّعُهُ مِنَ الْحُكْمِ .
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّهُ
 اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

تَوَقَّعُ الْأَرْزَاقِ مِنَ الْأَسْبَابِ من قضايا انغلاق باب التوحيد ، فَمَنْ لَمْ يَفْرِدْ مَعْبُودَهُ
 بالقسمة بقي في فقرٍ مُسَرَّمِدٍ .
 ويقال مَنْ أَنَاخَ بِغُفْوَةٍ كَرَّمَ مَوْلَاهُ ، واستمطر سَحَابَ جُودِهِ أَغْنَاهُ عن كل سبب ،
 وكفاه كل تَعَبٍ ، وقضى له كلَّ سُؤْلِ وَأَرْبٍ ، وأعطاه من غير طلب .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا يُمْنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا
 حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ
 يَدِهِمْ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ .

مَنْ اسْتَوْجَبَ الْهَوَانَ لَا يَنْجِيكَ مِنْ شَرِّهِ غَيْرَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِذْلَالِ عَلَى صَغَرِهِ ،
 وَمَنْ دَاهَنَ عَدُوَّهُ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَلْقَى سُوءَهُ .
 وَمِنْ أَشَدِّ النَّاسِ لَكَ عِدَاوَةً ، وأبعدهم عن الإيمان - نَفْسُكَ الْمَجْبُولَةُ عَلَى الشَّرِّ
 فَلَا تُقْلِعُ إِلَّا بِذَبْحِهَا بِمُذَيَّةِ الْمَجَاهِدَاتِ . وهي لا تَوْمِنُ بِالتَّقْدِيرِ ، ولا يَزُولُ شَكُّهَا قَطْ ،
 وكذلك تَحُلِدُ إِلَى التَّدْبِيرِ ، ولا تَسْكُنُ إِلَّا بِوُجُودِ الْمَعْلُومِ ، ولا تَقْبَلُ مِنْكَ إِلَّا كَاذِبَ
 المواعيد ، ولذلك قالوا:

وَأَكْذِبَ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا فَإِنَّ صِدْقَ الْقَوْلِ يَذْري بِالْأَمَلِ
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ
 اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ .

لو كان هذا في مخاطب المخلوقين لكان عين الشكوى؛ والشكوى إلى الأحياء تشير إلى تحقق الوصلة.

شكا إليهم ما حصل من قبيح أعمالهم، وكم بين من تشكو منه وبين من تشكو إليه!!

قوله جل ذكره: ﴿يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَفَّ يُؤْتِكُون﴾.

الكفار قبلهم جحدوا الربوبية، وهؤلاء أقروا بالله، ثم لما أثبتوا له الولد نقضوا ما أقروا به من التوحيد، فصاروا كالكفار قبلهم.

ويحتمل أن تكون مضاهاة قولهم في وصف المعبود بأن عيسى ابنه وعزيراً ابنه كقول الكفار قبلهم إن الملائكة بنات الله.

ويقال لما وصفوا المعبود بما يتعالى عن قولهم لم ينفعهم صدقهم في الإقرار بربوبيته مما أضافوا إليه من سوء القالة. وكل من أطلق في وصفه ما يتقدس - سبحانه - عنه فهو للأعداء مشاكيل في استحقاق الندم والتوبخ.

قوله جل ذكره: ﴿اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ آذُنًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كما لا تجوز مجاوزة الحد في وضع القدر لا تجوز مجاوزة الحد في رفع القدر، وفي الخبر: «أمرنا أن نُنزل الناس منازلهم»^(١).

فمن رأى من المخلوقين شظية من الإبداع أنزلهم منزلة الأرباب، وذلك - في التحقيق - شذو، وما أخلص في التوحيد من لم ير جميع الحادثات بصفاتها (...)^(٢) من الله.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾: فمن رفع في عقده مخلوقاً فوق قدره فقد أشرك بربه.

قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِيعَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (المقدمة ٦)، والسيوطي في الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المنتشرة ٢١)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٢٤، ٢/ ٢٦٢).

(٢) بياض في الأصل.

من رام أن يستر شعاع الشمس بدخان يوجهه من نيرانه، أو عالج أن يمنع حكم السماء بحيلته، وتدبيره، أو يُسْقِطَ نجوم الفَلَكِ بسهام قوسه - أظهرُ رُعوْنَتِه ثم لم يَخْطُ بمِراهه. كذلك مَنْ تَوَهَّم أن سُنَّةَ التوحيد يعلوها وَهَجُ الشُّبْه فقد خاب في ظَنِّه، وانفضح في وهمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

أزاح العِلَل بما ألح من الحُجَج، وأزال الشُّبْه بما أفصح من النهج؛ فشموسُ الحق طالعةٌ، وأدلةُ الشرع لامعة، كما قالوا:

هي الشمسُ إلا للشمس غيبةٌ وهذا الذي نعينه ليس يغيب
قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَبَاءُكُونِ
أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَسْطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

العالمُ إذا ارتفق بأموال الناس عَوْضاً عما يُعلِّمهم زالت بركاتُ علمه، ولم يَطْبُ في طريق الزهد مَطْعَمُه.

والعارفُ إذا انتفع بخدمة المريد، أو ارتفق بشيء من أحواله وأعماله زالت آثارُ هِمَّتِه، ولم تُجَدِ في حكم التوحيد حالته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

لهم في الآجل عقوبةٌ. والذين لا يؤثر على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلهم في العاجل حجة. وقليلٌ من عباده من سَلِمَ من الحجاب في مُحْتَظَرِه والعقاب في مُنْتَظَرِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

لَمَّا طلبوا الجاه عند الخلق بمآلهم، وبخلوا بإخراج حق الله عنه شَان وجوهمهم. ولَمَّا أسندوا ظهورهم إلى أموالهم. قال تعالى: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

ويقال: لَمَّا (عبسوا) في وجوه العفاة وعقدوا حواجِبهم وَضِعَتْ الكِيَّةُ على تلك الجباه المقبوضة عند رؤية الفقراء، وَلَمَّا طَوَّزُوا كَشَحَهُم دون الفقراء - إذا جالسوهم - وَضَعَ العِكَوَّةُ على جُنُوبِهِم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتَنَ﴾.

لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُدَاوِمُونَ عَلَى مُلَازِمَةِ الْقُرْبِ أَفْرَدَ بَعْضَ الشُّهُورِ بِالْتَفْضِيلِ، لِيُخَصِّصَهَا بِاسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ فِيهَا. فَأَمَّا الْخَوَاصُّ مِنْ عِبَادِهِ فَجَمِيعُ الشُّهُورِ لَهُمْ شِعْبَانُ وَرَمَضَانُ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَيَّامِ لَهُمْ جُمُعَةٌ، وَجَمِيعُ الْبَقَاعِ لَهُمْ مَسْجِدٌ... وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشُدْ بَعْضَهُمْ.

يَا رَبُّ إِنِّي جِهَادِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ وَكُلُّ أَرْضٍ لِي تُغْرُ طَرَسُوسُ^(١)
قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

قَالَ لِلْعَوَامِّ: لَا تَظْلِمُوا فِي بَعْضِ الشُّهُورِ أَنْفُسَكُمْ، يَعْنِي بَارْتِكَابِ الزُّلَّةِ. وَأَمَّا الْخَوَاصُّ فَمَأْمُورُونَ أَلَّا يَظْلِمُوا فِي جَمِيعِ الشُّهُورِ قُلُوبَهُمْ بِاحْتِقَابِ الْغَفْلَةِ. وَيُقَالُ: الظُّلْمُ عَلَى النَّفْسِ أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ زِمَامَهُ بِيَدِ شَهْوَاتِهِ، فَتُورِدُهُ مَوَاطِنَ الْهَلَاكِ.

وَيُقَالُ: الظُّلْمُ عَلَى النَّفْسِ بِخِدْمَةِ الْمَخْلُوقِينَ بَدَلِ طَاعَةِ الْحَقِّ. وَيُقَالُ: مَنْ ظَلَمَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْمُضَاجَعَاتِ امْتَحَنَ بِعَدَمِ الصَّفْوَةِ فِي مَرُورِ الْأَوْقَاتِ. ﴿وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾: وَلَا سِلَاحَ أَمْضَى عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ تَبَرُّكِكَ عَنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ^(٢) زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُبْغِلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّهُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

الَّذِينَ مَلَا حِظَّةَ الْأَمْرِ وَمُجَانِبَةُ الْوِزْرِ^(٣) وَتَرَكَ التَّقَدُّمَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ سَبِيحَانَهُ - فِي جَمِيعِ أَحْكَامِ الشَّرْعِ، فَالْأَجَالُ فِي الطَّاعَاتِ مُضْرُوبَةٌ، وَالتَّوْفِيقُ فِي عِرْفَانِهِ مُتَّبَعٌ، وَالصَّلَاحُ فِي الْأُمُورِ بِالْإِقَامَةِ عَلَى نَعْتِ الْعِبَادِيَّةِ؛ فَالشَّهْرُ مَا سَمَّاهُ اللَّهُ شَهْرًا، وَالْعَامُ وَالْحَوْلُ مَا أَغْلَمَ الْخَلْقَ أَنَّهُ قَدَرُ مَا بَيَّنَّهَ شَرْعًا.

(١) طرسوس: مدينة في تركيا (قيليقيا). كانت من العواصم. فتحها المأمون ٧٨٨ م. وفيها دفن الرسالة الفسرية ص ٢٧٥.

(٢) النسيء: تأخير حرمة المحرم إلى صفر زمن الجاهلية لكي يُستباح القتال فيه.

(٣) الوزر: الإثم والذنب.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

عائبهم على ترك البدار عند توجيه الأمر، وانتهاز فرصة الرخصة. وأمرهم بالجد في العزم، والقصد في الفعل؛ فالجنوح إلى التكاسل، والاسترواح إلى التناقل أمارات ضعف الإيمان إذ الإيمان غريم ملازم لا يرضى من العبد بغير ممارسة الأشق، وملابسة الأخق. قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: وهل يَجْمَلُ بالعابد أن يختار دنياه على عقباة؟

وهل يحسن بالعارف أن يؤثر هواه على رضا مولاه؟ وأنشدوا.
أيجمل بالأحباب ما قد فعلوا مضوا وانصرفوا يا ليتهم قفلوا
إن غيبة يوم للزاهد عن الباب تغدل شهوراً، وغيبة لحظة للعارف عن البساط
تعدل دهوراً، وأنشدوا:

الإلف لا يضير عن إلفه أكثر من طرفة عين^(١)
وقد صبرنا عنكم ساعة ما هكذا فعل محبين
قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

العذاب الأليم إذا أعرض العبد عن الطاعة ألا يبعث وراءه من جنود التوفيق ما يرده إلى الباب.

العذاب الأليم أن ينلته حلاوة التجوى إذا أب.

العذاب الأليم الصدود يوم الورد، وقيل:

واعدونى بالوصال - والوصال عذب - ورموني بالصدود والصد صعب

العذاب الأليم الوعيد بالفراق، فأما نفس الفراق فهو تمام التألف، وأنشدوا:

ورعمت أن البين منك غداً هذ بذلك من يعيش غداً

قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يصرف ما كان من إقباله عليه إلى غيره من أشكاله، وليس كل من حفر بشراً يشرب من معينها، وأنشدوا:

تسقي رباحين الحفاظ مدامعي وسواي في روض التواصل يزتع

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

من عزيز تلك النصرة أنه لم يستأنس بشانية الذي كان معه بل رد الصديق إلى الله، ونهاه عن مساكته إياه، فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(١).

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

ويقال من تلك النصرة إبقاؤه إياه في كشوفاته في تلك الحالة، ولولا نصرته لتلاشى تحت سطوات كُشفه.

ويقال كان - عليه السلام - أماناً أهل الأرض على الحقيقة، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وجعله - في الظاهر - في أمان العنكبوت حين نَسَجَ خَيْطَهُ عَلَى بَابِ الْغَارِ فَخَلَصَهُ مِنْ كَيْدِهِمْ.

ويقال لو دخل هذا الغار لا تشق نسيج العنكبوت... فيا عجباً كيف سَتَرَ قِصَّةَ حَبِيْبِهِ - صلوات الله عليه وعلى آله وسلم!.

ويقال صحيح ما قالوا: للبقاع دول، فما خَطَرَ بَبَالٍ أَحَدٍ أَنَّ تِلْكَ الْغَارَ تَصِيرُ مَأْوَى ذَلِكَ السَّيِّدِ - ﷺ! ولكنه يختص بقسمته ما يشاء ﴿يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ويقال ليست الغيران كلها مأوى الحيات، فمنها ما هو مأوى الأحباب. ويقال علقت قلوب قوم بالعرش فطلبوا الحق منه، وهو تعالى يقول:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فهو سبحانه - وإن تقدَّس عن كل مكان - ولكن في هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد، وأنشدوا:

يا طالبَ الله في العرشِ الرفيعِ به لا تطلب العرش إن المجد في الغار

وفي الآية دليل على تحقيق صحبة الصديق - رضي الله عنه - حيث سمَّاه الله سبحانه صاحبه، وعَدَّه ثانيه، في الإيمان ثانيه، وفي الغار ثانيه ثم في القبر ضجيعه، وفي الجنة يكون رفيقه.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/٥، ٦، ٨٣)، ومسلم في (الصحيح (فضائل الصحابة ب ١ رقم ١) وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/١)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦٨/٧)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٣٣٣/١٤)، وابن حجر في (فتح الباري ٣٢٥/٨)، وابن أبي عاصم في (السنن ٢٠/٥٧٦) وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١٤٩/١)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٤٤٠/٣)، وصاحب (الأذكار النورية ٢٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤٣٥/٥، ٤٣٤/١١، ١٣٤/١٢) وابن حبان في (المجروحين ٢٩٥/١).

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ﴾.

الكناية في الهاء من «عليه» تعود إلى الرسول عليه السلام، ويحتمل أن تكون عائدة إلى الصديق رضي الله عنه، فإن حُمِلَتْ على الصديق تكون خصوصية له من بين المؤمنين على الانفراد، فقد قال عز وجل لجميع المؤمنين: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤].

وقال للصديق - على التخصيص - فأنزل الله سكينته عليه، كما قال النبي ﷺ: «إن الله يتجلى للناس عامة ويتجلى لأبي بكر خاصة».

وإنما كان حزن الصديق ذلك اليوم لأجل الرسول - ﷺ - إشفاقاً عليه . . لا لأجل نفسه . ثم إنه - عليه السلام - نفي حزنه وسلاّه بأن قال: ﴿لَا تَحْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ النَّاصِرِينَ﴾، وحزن لا يذهب إلا لِمَعِيَةِ الْحَقِّ لا يكون إلا «لِحَقِّ الْحَقِّ»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّكُمْ يَجُودُ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْفُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يريد به النبي ﷺ. وتلك الجنود وفود زوائد اليقين على أسرارته بتجلي الكشوفات.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ بإظهار حُجج دينه، وتمهيد سُبُل حَقِّه وبقينه؛ فرايات الحق إلى الأبد عالية، وتمويهات الباطل واهية، وجزب الحق منصورون، ووفد الباطل مهجورون.

ويقال لما خلا الصديق بالرسول عليه السلام في الغار، وأشرقت على سيره أنوار صحبة الرسول عليه السلام، ووقع عليه شعاع أنواره، واشتاق إلى الله تعالى لفقد قراره - أزال عنه لواجمه^(٢) بما أخبره مِنْ قُرْبِهِ - سبحانه - فاستبدل بالقلق سكوناً، وبالشوق أنساً، وأنزل عليه من السكينة ما كاشفه به من شهود الهيبة.

ويقال كان الرسول - ﷺ - ثاني اثنين في الظاهر بشبه ولكن كان مُسْتَهْلَكَ الشاهد في الواحد بِسِرِّهِ.

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/١٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/٥٨٢) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/٣٠٥)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٤٧٦)، والسيوطي في (اللائل المصنوعة ١/١٤٨، ٢/١٤٤)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٨٥، ٢/٥٨٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٥/١٨٥٨) وابن الجوزي في (الموضوعات ١/٣٠٦ - ٣٠٧).

(٢) اللوامع: (ج) اللاعج: الهوى المحرق.

قوله جل ذكره: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أمرهم بالقيام بحقه، والبدار إلى أداء أمره في جميع أحوالهم.
«خفافاً» يعني في حال حضور قلوبكم، فلا يمُسُّكم نَصَبُ المجاهدات.
«وثقالاً» إذا رُدِّدْتُمْ إليكم في مقاساة تعب المكابدات. فَإِنَّ البيعةَ أَخَذَتْ عليكم في (...) (١) و (...) (١).

ويقال «خفافاً» إذا تحررتُم من رِقِّ المطالبات والاختيار، «وثقالاً» إذا كان على قلوبكم ثقل الحاجات، وأنتم تؤمِّلون قضاء الحقِّ مَارِبِكُمْ.
قوله جل ذكره: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَنْهُمْ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

يريد به المتخلفين عنه في غزوة «تبوك» (٢)، بَيَّنَّ سبحانه أنه لو كانت المسافة قريبة، والأمر هيناً لَمَا تَخَلَّفُوا عنك؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ غَيْرَ مُتَحَقِّقٍ فِي قَضَائِهِ كَانَ غَيْرَ بَالِغٍ فِي جِهده، يعيش على حَرْفٍ، ويتصرَّف بحرف، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [محمد: ٢١].
فإذا رأيتَ المريدَ يتبعُ الرُّخْصَ وَيَجْنَحُ إلى الكسل، ويتعلَّلُ بالتأويلات... فاعلم أنه مُنْصَرِّفٌ عن الطريق، متخلفٌ عن السلوك، وأنشدوا:

وكذا الْمَلُولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال: كان وكانا
وَمَنْ جَدَّ في الطلب لم يُعْرِجْ في أوطان الفشل، ويواصل السير والسرى، ولا يحتشم من مقاساة الكدِّ والعناء، وأنشدوا:

ثم قطعْتُ الليلَ في مهمهِ لا أسداً أخشى ولا ذنباً
يغلبني شوقي فأطوي السرى ولم يَزَلْ ذو الشوق مغلوباً
قوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٢]:
يمين المتعلِّل والمُتَأَوِّل يمينٌ فاجرةٌ تشهد بكذبها عيون الفراسة، وتنفر منها القلوب، فلا تجد من القلوب محلاً.

(١) بياض في الأصل.

(٢) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وقيل: تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط نسب إلى النبي ﷺ. وبه كانت آخر غزوات الرسول ﷺ سنة تسع للهجرة. (معجم البلدان ١٤/٢، ١٥).

قوله جل ذكره: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾.

لم يكن منه ﷺ خرقٌ حدٌ أو تعاطي محظور، وإنما نذر منه ترك ما هو الأولى. قدّم الله ذكراً العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب بقوله: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾. أو مِنْ جواز الزّلة على الأنبياء - عليهم السلام - إذ لم يكن ذلك في تبليغ أمر أو تمهيد شرع بقول قائله: أنشدوا بالعفو قبل أن وقف للعذر وكذا سُنّة الأحباب مع الأحباب، قال قائلهم:

ما حطّك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مُغْتَاب
كأنهم أثّنوا - ولم يعلموا - عليك عندي بالذي عابوا
ويقال حسناً الأعداء - وإن كان حسناً - فكالمردودة، وسيئات الأحباب -
وإن كانت سيئات - فكالمغفورة:

مَنْ ذا يَؤَاخِذُ مَنْ يَحِبُّ بِذَنْبِهِ وله شفيعٌ في الفؤاد مُشْفِع
قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

المخلص في عقده غير مؤثر شيئاً على أمره، ولا يدخر مستطاعاً في استفراغ وسعيه، وبذل جهده، ومقاساة كده، واستعمال جده.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَزِيدُونَ﴾.

مَنْ رام عن عهدة الإلزام خروجاً انتهز للتأخير والتخلف فرصة لعدم إيمانه وتصديقه، ولا استمكان الريبة في قلبه وسره. أولئك الذين يتقلبون في ربهم، ويرددون في شكهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

أي لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة، ولكن سَقَمَتْ إرادتهم، فحصلت دون الخروج بلادتهم، وكذلك قيل:

لو صَحَّ مِنْكَ الْهَوَى أُرْشِدْتَ لِلْحَيْلِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْقِبَاءَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

ألزّمهم الخروج من حيث التكليف، ولكن ثبّتهم في بيوتهم بالخذلان؛ فبالإلزام.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِكرَ مَا رَادُّوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَوْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِكرَ سَمْعُونَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

أخبر عن سابق علمه بهم، وذكر ما علم أنه لا يكون أن لو كان كيف يكون، فقال: ولو ساعدوكم في الخروج لكان ما يلحقكم من سوء سيرتهم في الفتنة بينكم، والنميمة فيكم، والسعي فيما يسوؤكم أكثر مما نالكم بتخلّفهم من نقصان عددكم. ومن ضرره أكثر من نفعه فعدّته خير من وجوده، ومن لا يحصل منه شيء غير ضرره فتخلّفه أنفع من حضوره.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

إنهم وإن أظهروا وفاقكم فقد استبطنوا نفاقكم؛ أعلنوا أنهم يؤازرونكم ولكن راموا بكيدهم تشويش أموركم، حتى كشف الله عوراتهم، وفصحهم، حتى تحذّرت منهم بما تحققت من أسرارهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنَ لِي وَلَا نَفِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

أبرزوا قبيح فعلهم في مغرض التخرج، وراموا أن يلبّسوا على الرسول - صلى الله وسلم وعلى آله - وعلى المسلمين خبث سيرتهم وسريرتهم، فبيّن الله أن الذين (...) (١) بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم، وكذلك المتجلّد بما يهواه متطوح في وادي بلواه، وسيلقى في الآخرة من الهوان ما يغني عن الحاجة إلى البرهان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِيبُونَ﴾.

هكذا صفة الحسود، يتصاعد أنين قلبه عند شهود الحسنی، ولا يسر قلبه غير حلول البلوى، ولا دواء لجروح الحسود؛ فإنه لا يرضى بغير زوال النعمة ولذا قالوا:

كلّ العداوة قد تُزجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسدٍ

وإن الله تعالى عجل عقوبة الحاسد، وذلك: حزن قلبه بسلامة محسوده؛ فالنعمة للمحسود نقد والوحشة للحاسد نقد.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

المؤمن لا تلحقه شماته عدوه لأنه ليس يرى إلا مُرادَ وليه، فهو يتحقق أن ما يناله مرادُ مولاه فيسقطُ عن قلبه ما يهواه، ويستقبله بروحِ رضاه فيَغْذِبُ عنده ما كان يَصْغُبُ مِنْ بلواه، وفي معناه أنشدوا:

إِنْ كَانَ سَرُّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحُجْرٍ - إِذَا أَرْضَاكُمْ - أَلَمْ .

ويقال شهودُ جريانِ التقدير يخفف على العبد تَعَبُ كُلِّ عسير .

قوله ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾: تعريفٌ للعبد أن له - سبحانه - أن يفعل ما يريد، لأنه تصرفُ مالكِ الأعيانِ في ملكه، فهو يُبْدِي ويُجْري ما يريد بحقِّ حُكْمِهِ .

ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: وأولُ التوكلِ الثقةُ بوعده، ثم الرضا باختياره، ثم نسيانُ أمورِك بما يغلبُ على قلبك من أذكاره .

ويقال التوكلُ سكونُ السرِّ عند حلولِ الأمر ونهايةِ التفويض، وفيها يتساوى الحلُّ والمرُّ، والنعمةُ والمحنةُ .

قوله جلَّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَنَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْضُونَ﴾ .

بيَّنَ اللَّهُ في هذه الآيةَ الفرقَ بين المؤمنين وبين الكفار، فقال قُلْ للذين ينتظرون: أيها الكفار إن كان من شأن المؤمنين وقوعُ الدائرة عليهم في القتال، أو أن القتلَ ينالهم فأَيُّ واحدٍ من الأمرين ينالهم فهو لهم من الله نعمة؛ لأنَّا إن ظفِرنا بكم فنَضِرُ وغنيمه، وعِزٌّ للدين ورفعة، وإن قُتِلنا فشهادةٌ ورحمة، ورضوانٌ من الله وزُلْفَى^(١) . وإن كان الذي يصيبنا في الدنيا هزيمة ونكبة، فذلك مُوجِبٌ للأجرِ والمثوبة، فإذا لن يستقبلنا إلا ما هو حُسْنَى ونعمة .

وأما أنتم، فإن ظفِرنا بكم فتعجيلُ لَذْلِكُمْ ومحنة، وإن قُتِلْتُمْ فعقوبةٌ من الله وسخطة، وإن كانت اليد لكم في الحال فخذلانٌ من الله، وسببُ عذابٍ وزيادةُ نعمة .

ويقال: ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أمَّا قيامُ بحقِّ الله في الحال فنكون بوصفِ الرضاء وهو - في التحقيق - الجنةُ الكبرى، وإمَّا وصولُ إلى الله تعالى في المال بوصفِ الشهادة، ووجدانِ الزلْفَى في العقبى وهو الكرامة العظمى .

قوله جلَّ ذكره: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

(١) الزُلْفَى: المنزلة والدرجة والقربة .

المردود لا يقبل منه توصل، ولا يُغَيَّر حُكْمُ شقاوته بتكثير التكلف والتعمل.
ويقال تقرب العدو يوجب زيادة المقت له، وتحبب الحبيب يقتضي زيادة
العطف عليه، قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْعُ اللَّهُ بِسَفَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُؤْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾.

فقدوا الإخلاص في أموالهم فعدموا الاختصاص في أحوالهم، وحرّموا الخلاص
في عاجلهم وفي مآلهم.

قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾: مَنْ أَطَاعَ مِنْ حَيْثُ الْعَادَةُ - مِنْ
غَيْرِ أَنْ تَحْمِلَهُ عَلَيْهَا لَوْعَةُ الْإِرَادَةِ - لَمْ يَجِدْ لَطَاعَتَهُ رَاحَةً وَزِيَادَةً.

ويقال مَنْ لَاحَظَ الْخَلْقَ فِي الْجَهْرِ مِنْ أَعْمَالِهِ، وَرَكَنَ إِلَى الْكُسَالِ فِي السِّرِّ مِنْ
أَحْوَالِهِ فَقَدْ وَسِمَ بِالْخِلَالِ، وَخُتِمَ بِالْحِرْمَانِ، وَهَذِهِ هِيَ أَمَارَةُ الْفِرْقَةِ وَالْقَطِيعَةِ، قَالَ
تعالى: ﴿وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ مَا حَسَبُوهُ نِعْمَةً وَاعْتَدُوهُ مِنَ اللَّهِ مِثَّةً فَهُوَ - فِي التَّحْقِيقِ - مِخْنَةٌ، وَسَبَبُ
شِقَاءٍ وَفُرْقَةٍ، وَإِنَّمَا دَسَّ التَّقْدِيرُ لَهُمْ سُمُومَ الصَّابِ، فِيمَا اسْتَلْذَوْهُ مِنَ الشَّرَابِ؛
﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ سَاعٍ لَمْ يَغْيِرْ بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦].

قوله جل ذكره: ﴿وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾
[التوبة: ٥٦].

التَّقَرُّبُ بِالْأَيْمَانِ الْفَاجِرَةِ لَا يَوْجِبُ لِلْقُلُوبِ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الْقُبُولِ.
ويقال إِنَّ إِظْهَارَ التَّلْبِيسِ لَا (...) (١) الْأَسْرَارَ بَرْدُ السَّكُونِ، وَلَا يَشْفِي الْبَصَائِرَ
بَرْدُ الثِّقَةِ وَالْيَقِينِ.. فَمَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا، وَمَا هُوَ كَائِنْ سَيَكُونُ..

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ يَخْتَدُونَ مَلَجًا أَوْ مَعْرِبًا أَوْ مَذَخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْنَا وَهُمْ يَجْحَدُونَ﴾.
إِنَّ الْمَمَازِقَ (٢) فِي الْخَلَّةِ يَنْسَلُ عَنْ سِلْكِهَا بِأَضْعَفِ خَلَّةٍ، وَإِنْ وَجَدَ مَهْرَبًا أَوْ
إِلِيهَ، وَيَأْمَلُ أَنْ يَنَالَ فُرْصَةً مَا يَتَعَلَّلُ بِهَا عِنْدَ ذَلِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا
إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ﴾.

(٢) مَذَقَ الزُّدِّ: لَمْ يُخْلَصْ.

(١) بَيَاضٌ فِي الْأَصْلِ.

أولئك أصحاب الأطماع؛ يتملقون في الظاهر ما دامت الأرفاق واصله إليهم، فإن انقطعت انقلبوا كأن لم يكن بينكم وبينهم مودة.

ويقال مَنْ كان رضاؤه بوجدان سبب، وسُخْطُهُ في عدم ما يوصله إلى نصيبه فهو ليس من أهل الولاء، إنما هو قائم بحظّه، غير صالح للصحة، وأما المتحقّق فكما قيل:

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي وَسَارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

لو وقفوا مع الله بسِرِّ الرضا لأنّهم فنونُ العطاء وتحقيقات المنى، ولحفظوا مع الله - عند الوجدان - مالهم من الأدب، من غير معاناة تعب، ولا مُقاساة نَصَبٍ.. ولكنهم عَرَجُوا في أوطان الطمع فوقعوا في الدّلّ والحرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

تكلّم الفقهاء في صفة الفقير، والفرق بينه وبين المسكين لما احتاجوا إليه في قسمة الزكاة المفروضة.. فأبو حنيفة^(١) رحمة الله عليه - يقول: المسكين الذي لا شيء له. والفقير الذي له بُلْغَةٌ من العيش.

ويقول الشافعي رحمة الله عليه: الفقير الذي لا شيء له، والمسكين الذي له بُلْغَةٌ من العيش - أي بالعكس.

وأهل المعرفة اختلفوا فيه؛ فمنهم من قال بالأول، ومنهم من قال بالقول الثاني، واختلافهم ليس كاختلاف الفقهاء؛ وذلك لأن كلّ واحدٍ منهم أشار إلى ما هو حاله ووقته ووجوده وشربه ومقامه. فَمِنْ أهل المعرفة مَنْ رأى أَنَّ أَخْذَ الزَّكَاةِ المفروضة أولى، قالوا إلى الله تعالى جعل ذلك مِلْكًا للفقير، فهو أَحَلُّ له مما يُتَطَوَّعُ به عليه.

(١) هو النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء الكوفي (٨٠ - ١٥٠ هـ = ٦٩٩ - ٧٦٧ م) أبو حنيفة، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أضله من أبناء فارس ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخبز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للإفتاء والتدريس وأرادَه عمر بن هبيرة على القضاء فامتنع ورعاً، وأرادَه المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد فأبى فحبسه إلى أن مات. له «مسند» في الحديث، و«المخارج» في الفقه، و«الفقه الأكبر» وغير ذلك. توفي ببغداد وأخباره كثيرة.

(الأعلام ٣٦/٨، وتاريخ بغداد ٣٢٣/١٣ - ٤٢٣، وابن خلكان ١٦٣/٢، والنجوم الزاهرة ١٢/٢ والبداية والنهاية ١٠/١٠٧).

ومنهم من قال: الزكاة المفروضة مستحقة لأقوام، ورأوا الإيثار على الإخوان أولى من أن يزاحموا أرباب السهمان - مع احتياجهم أخذ الزكاة - وقالوا: نحن أثرنا الفقر اختياراً. فلم نأخذ الزكاة المفروضة؟

ثم على مقتضى أصولهم في الجملة - لا في أخذ الزكاة - للفقر مراتب: أولها الحاجة ثم الفقر ثم المسكنة؛ فذو الحاجة من يرضى بدينه وتسُد الدنيا فقره، والفقر من يكتفي بعقبه وتجبر الجنة فقره. والمسكين من لا يرضى بغير مولاه؛ لا إلى الدنيا يلتفت، ولا بالآخرة يشتغل، ولا بغير مولاه يكتفي؛ قال رسول الله ﷺ «اللهم أحييني مسكيناً وأمّني سكيناً، واحشرنني في زمرة المساكين»^(١) وقال ﷺ «أعوذ بك من الفقر»^(٢) لأن عليه بقية؛ فهو ببقية محجوب عن ربه.

ويحسن أن يقال إن الفقر الذي استعاذ منه ألا يكون له منه شيء، والمسكنة المطلوبة أن تكون له بُلغة ليتفرغ بوجود تلك البلغة إلى العبادة؛ لأنه إذا لم تكن له بلغة شغل فقره عن أداء حقه، ولذلك استعاذ منه.

وقوم سمّوا همهم عن هذا الاعتبار - وهذا أولى بأصولهم - بالفقر الصادق عندهم من لا سماء تظله ولا أرض تقله ولا معلوم يشغله، فهو عبد بالله الله، يردّه إلى التمييز في أوان العبودية، وفي غير هذا الوقت فهو مُصطَلَم^(٣) عن شواهد، واقف بربه، مُشغّل عن جملته.

ويقال الفقير من كُسِرَتْ فقاره - هذا في العربية.

والفقير - عندهم - من سَقَطَ اختياره، وتعطلت عنه دياره، واندرست -

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٥٢)، وابن ماجه في (السنن ٤١٢٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٢/٧)، والحاكم في (المستدرک ٣٢٢/٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٥٩٢ - ١٦٥٩٣ - ١٦٦٦٨ - ١٦٦٦٩)، والقرطبي في (التفسير ١٦٩/٨)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٢٦٢/١٠)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٠)، والعجلوني في (كشف الخفا ٢٠٦/١)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٣٠٤/٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٨٩/٦، ١٥٢/٨، ٢٧٢/٩)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٠٥٦٠)، والفنّي في (تذكرة الموضوعات ٥٩)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١١١/٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٣٥٨/٣، ٢٧٢/٦)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٤٥ - ٥٢٤٤)، والبخاري في (التاريخ الكبير ١٩٤/٧، ٧٥/٩)، وابن حجر في (فتح الباري ٢٧٤/١١)، والسيوطي (اللائل المصنوعة ١٧٤/٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢٠٦/٢، ٢٢٩/٣، ١٨٩/٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٠٢، ٩٧٠٣، ٩٧٠٤)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٥٨/٦)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١٤١/٣، ١٤٢)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٤٤).

(٢) أخرجه النسائي (استعاذه ١٤، ١٦)، وأحمد بن حنبل (٣٠٥/٢، ٣٢٥، ٣٥٤).

(٣) اصطلم: استوصل.

لاستِلاء مَنْ اضْطَلَمَهُ - آثاره، فكأنه لم تبقَ منه إلا أخباره، وأنشدوا:

أَمَّا الرُّسُومُ فَخَبَّرْتُ أَنَّهُمْ رَحَلُوا قَرِيباً

ويقال المسكين هو الذي أسكنه حاله بباب مقصوده، لا يبرح عن سُدَّتِهِ، فهو مُتَكَيِّفٌ بقلبه، ولا يغفل لحظةً عن ربِّه.

وَأَمَّا ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْنَا﴾ فعلى لسان العلم: مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المعلومة. وعلى لسان الإشارة: أَوْلَى الناس بالتصاؤن عن أخذ الزكاة مَنْ صَدَقَ في أعماله لله، فإنهم لا يرجون على أعمالهم عَوْضاً، ولا يتطلبون في مقابلة أحوالهم عَرْضاً، وأنشدوا:

وما أنا بالباغي على الحب رِشْوَةً قبيحٌ هوئِ يُرْجَى عليه ثواب

وَأَمَّا المؤلِّفَةُ قلوبهم - على لسان العلم - فَمَنْ يُسْتَمَالُ قلبه بنوع إرفاقٍ معه، ليتوفَّر في الدين نشاطه؛ فلهم من الزكاة سهمٌ استعطافاً لهم، وبيان ذلك مشهورٌ في مسائل الفقه.

وحاشا أن يكون في القوم مَنْ يكون حضوره بسبب طَمَعٍ أو لثبيل ثوابٍ أو لرؤية مقامٍ أو لاطلاع حال... فذلك في صفة العوام، فأما الخواص فكما قالوا.

من لم يكن بك فانياً عن حظه وعن الهوى والإنس والأحباب
أو تيمته صباية جمعت له ما كان مفترقاً من الأسباب
فلأن بين المراتب واقفٌ لِمَنَالٍ حظٌ أو الحُسنِ مآبٍ
قوله جل ذكره: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

وهم على لسان العلم: المكاتبون، وشرحه في مسائل الفقه معلوم.

وهؤلاء لا يتحررون ولهم تعريج على سبب، أو لهم في الدنيا والعقبى أرب، فهم لا يستفزُّهم طلب، فَمَنْ كان به بقية من هذه الجملة فهو عبدٌ لم يتحرر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله: «المكاتبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم»^(١) وأنشد بعضهم:

أتمنى على الزمان مُحالاً أن ترى مقلتي طُلْعَةَ حُرٍّ
قوله جل ذكره: ﴿وَالْعَدْرِمِينَ﴾.

وهم على لسان العلم: مَنْ عليهم ذَنْبٌ في غير معصية.

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١)، والترمذي (بيع، ٣٥)، والموطأ (مكاتب، ١، ٢).

وهؤلاء القوم لا يقضى عنهم ما لزمهم امتلاك الحق، ولهذا قيل المعرفة غريم لا يُقضى دينه.

قوله جل ذكره: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وعلى لسان العلم: مَنْ سلك سبيل الله وَجَبَ له في الزكاة سهم على ما جاء بيانه في مسائل الفقه.

وفي هذه الطريقة: مَنْ سلك سبيل الله تتوجَّب عليه المطالبات؛ فيبذل أولاً ماله ثم جاهه ثم نفسه ثم روحه.. وهذه أول قَدَمٍ في الطريق.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلَ﴾.

وهو على لسان العلم: مَنْ وقع في الغربة، وفارق وطنه على أوصاف مخصوصة.

وعند القوم: إذا تَغَرَّبَ العبدُ عن مألوفات أوطانه فهو في قِرَى^(١) الحق؛ فالجوعُ طعامه، والخلوةُ مجلسه، والمحبةُ شراؤه، والأنسُ شهوده، والحقُّ - تعالى - مشهوده. قال تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]: لقوم وَعَدَ في الجنة، ولآخرين نَقَدَ في الوقت؛ اليوم شرابُ المحابِّ وغداً شرابُ الثواب، وفي معناه أنشدوا:

وَمُقَعِدِ قَوْمٍ قَدْ مَشَى مِنْ شَرَابِنَا وَأَعْمَى سَقِينَاهُ ثَلَاثًا فَأَبْصَرَ

وَأُخْرَسَ لَمْ يَنْطِقْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَذْرَنَا عَلَيْهِ الْكَأْسَ يَوْمًا فَأَخْبَرَ

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

عين العداوة بالمساوىء مُؤَكَّلَةٌ، وعين الرضا عن المعاييب كليلة.

بسطوا اللائمة في رسول الله ﷺ فعابوه بما هو أمانة كرمه، ودلالة فضله، فقالوا: إنه بحسن خُلُقِهِ يسمع ما يقال له، فقال عليه السلام: «المؤمن غرٌّ كريم والمنافق خبٌّ لئيم»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ بَلَاءٌ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقيل: مَنْ العاقل؟ قالوا: الْفَطِنُ الْمُتَعَاظِلُ. وفي معناه أنشدوا:

وَإِذَا الْكَرِيمُ أَتَيْتَهُ بِخَدِيعَةٍ وَلِقِيتَهُ فِيمَا تَرُومُ يُسَارِعُ

(١) القرى: ما يقدم إلى الضيف.

(٢) أخرجه أبو داود (أدب، ٥)، والترمذي (بز، ٤١)، وأحمد بن حنبل ٢٩٤/٢.

فاعلمُ بأنَّكَ لم تُخادِعْ جاهلاً إِنَّ الكريمَ - بفضله - يتخادع
قوله جل ذكره: ﴿يَخْلِفُونَكَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

أخبر أن من تزئى للخلق، وتقرب إليهم وأدام رضاهم، واتبع في ذلك هواهم، فإن الله سبحانه ينقط به عن الخلق جاههم، ويشتبههم فيما توهّموا أنه يزينهم، والذي لا يضيغ ما كان الله، فأما ما كان لغير الله فوبال لمن أصابه، ومحال ما طلبه.
ويقال إن الخلق لا يصدقونك وإن خلقت لهم، والحق يقبلك وإن تخلّفت عنه؛ فالاشتغال بالخلق محنة أنت غير مأجور عليها، والإقبال على الحق نعمة أنت مشكور عليها. والمغبون من ترك ما يشكر عليه ونؤثر ما لا يؤجر عليه.
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُوا آتَاءُ مَنْ يَخَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنْتَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

من كفر بالله وأشرك في توحيده بإثبات موهوم استحق ما هو حق لله: تعجل عقوبته في الحال بالفرقة، وفي المال بالخلود في الحرقة.
فليس كل من مني بمصيبة يعلم ما ناله من المحنة، وأنشدوا:

عَدَا يَتَفَرَّقُ أَهْلُ الْهَوَى وَيَكْثُرُ بَاكٍ وَمُسْتَرْجِعٌ
قوله جل ذكره: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تُحْذَرُونَ﴾.

ظنوا أن الحق - سبحانه - لا يفضحهم، فدلّسوا عليهم، وأنكروا ما انطوت عليه سرائرهم، فأرعى الله - سبحانه - عنان إمهالهم، ثم هتك الستر عن نفاقهم؛ ففضّحهم عند أهل التحقيق، فتقنموا بخمار الخجل، وكشف لأهل التحقيق مكامن الاعتبار. ونعوذ بالله من عقوبة أهل الاغترار! ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

من استهان بالدين، ولم يخش من ترك حُرمة الإسلام جعله الله في الحال نكالا، وسامه في الآخرة صغرا وإذلالا، والحق - سبحانه - لا يرضى دون أن يذيق العتاة بأسه، ويسقي كلا - على ما يستوجه - كأسه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَعْزِدُوا أَنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ فَغَدِبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

جَزَدَ الْعَفْوَ وَالْعَذَابَ مِنْ عِلَّةِ الْجُزْمِ، وَسَبَبِ الْفِعْلِ مِنْ حُجَّةِ الْعَبْدِ؛ حَيْثُ أَحَالَ الْأَمْرَ عَلَى الْمَشِئَةِ. . . إِذْ لَوْ كَانَ الْمَوْجِبُ لِعَفْوِهِ أَوْ تَعْذِيهِ صِفَةً الْعَبْدِ لَسَوَّى بَيْنَهُمْ عِنْدَ تَسَاوِيهِمْ فِي الْوَصْفِ، فَلَمَّا اشْتَرَكُوا فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ، وَعَفَا عَنْ بَعْضِهِمْ وَعَذَّبَ بَعْضَهُمْ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَخْتَصُّ مَنْ يَشَاءُ بِمَا يَشَاءُ.

قوله جل ذكره: ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾.

الْمُؤْمِنُ بِالْمُؤْمِنِ يَتَّقُوهُ، وَالْمَنَافِقُ بِالْمَنَافِقِ يَتَعَاضِدُ، وَطُيُورُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَفْهَاءِ تَقَعُ. فَاَلْمَنَافِقُ لِصَاحِبِهِ أَسْ^(١) بِهِ قَوَامُهُ، وَأَصْلُهُ بِهِ قِيَامُهُ؛ يُعِينُهُ عَلَى فَسَادِهِ، وَيُعَمِّي عَلَيْهِ طَرِيقَ رَشَادِهِ.

وَالْمُؤْمِنُ يَنْصُرُ الْمُؤْمِنَ وَيُبْصِرُهُ عِيُوبَهُ، وَيُبْغِضُ لَدِيهِ وَيُقْبَحُ - فِي عَيْنِهِ - ذُنُوبَهُ، وَهُوَ عَلَى السَّدَادِ يُنْجِدُهُ، وَعَنِ الْفَسَادِ يُبْعِدُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

عن طلب الحوائج من الله تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿سُئِلَ اللَّهُ فَزَيَّنَهُمْ﴾.

جَازَاهُمْ عَلَى نِسْيَانِهِمْ، فَسُمِّيَ جَزَاءُ النِّسْيَانِ نِسْيَانًا. . . تَرَكَوا طَاعَتَهُ، وَآثَرُوا مُخَالَفَتَهُ، فَتَرَكَهُمْ وَمَا اخْتَارَهُ لَأَنْفُسِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَكَّبَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَئِهِمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

وَعَذَابُهُمُ النَّارُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَهُمُ الْعَذَابُ الْمَقِيمُ فِي الْحَاضِرَةِ، فَمَوْجَلُ عَذَابِهِمُ الْحَرْقَةُ، وَمُعْجَلُهُ الْفُرْقَةُ.

قوله جل ذكره: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا نَفْسًا وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلِيِّهِمْ مَا اسْتَغْنَوْا كَمَا اسْتَغْنَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحُلِيِّهِمْ وَخُصِمَتْ كَالَّذِي خَاسِرًا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَصْلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

يقال: سَلَكَتُمْ طَرِيقَ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ وَقَدْ كَافَأَانَاهُمْ. وَيُقَالُ الَّذِينَ تَقْدَمُوكُمْ زَادُوا عَلَيْكُمْ فَكَافَأَانَاهُمْ كَمَا نَكَفَى أَهْلُ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ؛ فِي كَثَرَةِ الْمَدَّةِ وَقُوَّةِ الْعُدَّةِ، وَالِاسْتِمْتَاعِ فِي الدُّنْيَا، وَالِاغْتِرَارِ بِالْإِنْخِرَاطِ فِي سِلْكِ الْهَوَى. . .

(١) الْأَسْ: الْأَسَاسُ: أَي: أَصْلُ الْبِنَاءِ (ج) أُسَاسٌ.

ولكن لم تَدُم في الراحة مُدَّتْهم، ولم تُغْنِ عنهم يومَ الشِّدَّةِ عُدَّتْهم، وعما قريبٍ يَلْحَقُ بِكُمْ ما لَحِقَ بالذين هم قبلكم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ألم يَنْتَه إِلَيْهم خبرُ القرون الماضية، ونَبَأُ الأمم الخالية كيف دَمَرْنَا عليهم جَمْعَهُم، وكيف بَدَدْنَا شَمْلَهُم؟ قَضَيْنَا فيهم بِالْعَدْلِ، وَحَكَمْنَا بِاسْتِثْصَالِ الْكُلِّ، فلم يَبْقَ منهم نافعُ نارٍ، ولم يحصلوا إِلَّا على عارٍ وشارٍ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يُعِين بعضهم بعضاً على الطاعات، ويتواصون بينهم بترك المحظورات؛ فَتَحَابُّهم في الله، وقيامهم بحقِّ الله، وصحبتهُم لله، وعداوتهم لأجلِ الله؛ تركوا حظوظَهم لحقِّ الله؛ وآثروا على هواهم رِضاء الله. أولئك الذين عَصَمَهُمُ اللَّهُ في الحالِ، وسيرحمهم في المال.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وَعَدَهُم جميعاً الجنةَ، ومساكنَ طيبة، ولا يطيب المسكنُ إِلَّا برؤيةِ المحبوبِ، وكلُّ مُجِبٍ يطيب مَسْكَنُهُ برؤيةِ محبوبه، ولكنهم مختلفون في الهمم؛ فَمِنْ مربوطٍ بحظٍّ مردودٍ إلى الخلق، وَمِنْ مجذوبٍ بحقٍّ موصولٍ بالحق، وفي الجملة كما يقال:

أَجِيرَانَنَا مَا أَوْحَشَ الدَّارَ بَعْدَكُمْ إِذَا غِبْتُمْ عَنْهَا وَنَحْنُ حُضُورًا
ويقال قومٌ يطيب مسكنهم بوجودِ عَطَائِهِ، وقومٌ يطيب مسكنهم بشهودِ لقائه، وأنشدوا:

وَأُنِّي لِأَهْوَى الدَّارِ لَا يَسْتَقِرُّ لِي بِهَا الْوُدُّ إِلَّا أَنَّهُمَا مِنْ دِيَارِكَا
ثم قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: وأمارَةُ أهل الرضوانِ وجدانُ طَعْمِهِ؛ فهم في رُوحِ الأنسِ، وروُحِ الأنسِ لا يتقاصر عن راحة دارِ القُدُسِ بل هو أتمُّ وأعظم.

(١) الشَّار: أقيح العيب أو العار.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُتَفَيْقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾.

دعا نبينا - ﷺ - كافة الخلق إلى حُسن الخلق.

قال لموسى عليه السلام: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: ٤٤].

وقال لنبينا - ﷺ -: ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩] ويقال إنما هذا بعد إظهار الحجج، وبعد أزاح عُذْرَهُمْ بأيام المهلة؛ ففي الأول أمره بالرفق حيث قال: ﴿إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ [سبا: ٤٦]، فلما أصروا واستكبروا أمره بالغلظة عليهم. والمجاهدة أولها اللسان لشرح البرهان، وإيضاح الحجج والبيان، ثم إن حصل من العدو جُحْدٌ بعد إزاحة العذر، فبالوعيد والزجر، ثم إن لم ينجع الكلام ولم ينفع الملام فالحقتال والحرب وبذل الوسع في الجهاد.

قوله جل ذكره: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

تَسَرَّوْا بِأَيْمَانِهِمْ فَهَتَكَ اللَّهُ أَسْتَارَهُمْ وكشف أسرارهم.

قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾: وهي طَعْنُهُمْ فِي نُبُوَّةِ رَسُولِهِ - ﷺ - . وكلُّ مَنْ وَصَفَ الْمَعْبُودَ بِصِفَاتِ الْخَلْقِ أَوْ أَضَافَ إِلَى الْخَلْقِ مَا هُوَ مِنْ خِصَائِصِ نَعْتِ الْحَقِّ فَقَدْ قَالَ كَلِمَةَ الْكُفْرِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُمْ أَوْفَى بِمَا لَزَّ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي أظهرُوا من شعار الكفر ما ذلَّ على جُحْدِهِمْ بِقُلُوبِهِمْ بعد ما كانوا يُظْهِرُونَ الموافقة والاستسلام، وهُمُ أَوْفَى بِمَا لَزَّ يَنَالُوا من قتلٍ لرسول الله ﷺ، وما سَوَّلَتْ أَنْفُسُهُمْ أَنَّهُ يُخْرِجُ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، وغير ذلك.

يقال تمنوا زوال دولة الإسلام فأبى الله إلا إعلاء أمرها.

ثم قال: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: أي ما عابوه إلا بما هو أَجَلُّ خِصَالِهِ، فلم يحصلوا من ذلك إلا على ظهور شأنهم للكافة بما لا عذر لهم فيه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا بِكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُكُوا يَمِدَّ بِهِمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْزَاقِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وأقوى أركان التوبة حلُّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بجميع حقِّ الأمر على وجه الاستقصاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْتَ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدَّقَنَّهُ وَلَنُكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ .

منهم من أكد العقد مع الله، ثم نقضه، فلحقه شؤم ذلك؛ فبقي خالداً في نفاقه . ويقال تطلب إحسان ربّه، وتقرب إليه بإبرام عهده فلما حقق الله مسؤوله واستجاب مأموله، فسخ ما أبرمه، وانسلخ عما التزمه، واستولى عليه البخل، فضر بإخراج حقه، فلحقه شؤم نفاقه، بأن بقي إلى الأبد في أسره .

وحذ البخل - على لسان العلم - منع الواجب . وبخل كل أحد على ما يليق بحاله، وكل من أثر شيئاً من دون رضا ربّه فقد اتصف ببخله، فمن يبخل بماله تزل عنه البركة حتى يؤول إلى وارث أو يزول بحارث . ومن يبخل بنفسه ويتعاس عن طاعته تفارقه الصحة حتى لا يستمتع بحياته . والذي يبخل بروجه عنه يعاقب بالخذلان حتى تكون حياته سبباً لشقائه .

قوله جل ذكره: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ .

أعقبهم ببخلهم نفاقاً في قلوبهم، ويصح أعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم، وفي الجملة: من نقض عهده في نفسه رفض الوعد من أصله، وكل من أظهر في الجملة خيراً واستبطن شراً فقد نافق بقسطه . والمنافق في الصف الأخير في دنياه، وفي الدرك الأسفل من النار في عقابه .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ .

خوفهم بعلمه كما خوفهم بفعله في أكثر من موضع من كتابه .

و ﴿سِرَّهُمْ﴾ ما لا يطلع عليه غير الله .

و ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يتسارون بعضهم مع بعض . ويحتمل أن يكون ما لنفوسهم عليه إشراف من خواطرهم^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن السر: يُحتمل أن الأسرار لطيفة مودعة في القالب الإنساني كالأرواح، وأصولهم تقتضي أنها محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل للمحبة والقلوب محل للمعارف، وقالوا: السر مالك عليه إشراف، وسر السر ما لا إطلاع عليه لغير الحق ويطلق لفظ السر على ما يكون مصنوعاً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه في الأحوال، وعليه يحمل قول من قال: أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم . (الرسالة القشيرية ص ٨٨) .

وَالَّذِينَ لَا يُحِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾.

عابوا الذين قَصُرَتْ أَيْدِيهِمْ عن الإكثار في الصدقة وجادوا بما وصلَّت إليه أَيْدِيهِمْ، فَشَكَرَ اللَّهُ سَخِي مَنْ أَخْلَصَ في صدقته بعدما عِلِمَ صِدْقُهُ فيها. وقليلُ أهلِ الإخلاص أفضلُ مِنْ كثيرِ أهلِ النفاقِ.

ولمَّا أوجدوا المسلمين بسخريتهم وَصَفَ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - نَفْسَهُ بما يستحيل في وصفه - على التحقيق - هو السخرية بأحدٍ . . تطيباً لقلوبِ أوليائه، فقد تقدَّس عن ذلك لِعِزَّةِ ربوبيته.

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

خَتَمَ القضايا بأنَّه لا يغفر لأهل الشرك والنفاق، فلا تنفعهم الوسائل، ولا ينتعش منهم الساقط.

ويقال: مَنْ غَلَبَتْهُ شِقْوَتُنَا لم ينفعه تضرعه ودعوته.

ويقال: صرِعَ القدرة لا يُنْعِشُهُ الجُهد والحيلة.

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

استحوز عليهم سرورهم بتخلفهم، ولم يعلموا أن ثبورهم في تأخرهم وما أثروه من راحة نفوسهم على أداء حق الله، والخروج في صحبة رسول الله - ﷺ، فنزع الله الراحة بما عاقبهم، وسيضلون سعيماً في الآخرة بما قدّموه من نفاقهم، وسوف يتحسرون ولات حين تحسّر.

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

بَدَّلَ الله مَسَرَّتَهُمْ بِحَسْرَةٍ، وَفَرَحَتَهُمْ بِتَرْحَةٍ، وراحتهم بِعِزَّةٍ، حتى يكثُر بكاءهم في العقبى كما كثر ضحكهم في الدنيا، وذلك جزاء مَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْكَ بِالْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

يقول: بعدما ظهرت خيانتهم، وتقرر كذبهم ونفاقهم، لا تُخَدِّغْ بتملقهم، ولا تَتَّقِ بقولهم، ولا تُمَكِّنْهُمْ مِنْ صُحْبَتِكَ فيما يُظْهِرُونَهُ مِنْ وفاقك. فإذا وَهَنَ سِلْكُ الْعَهْدِ فلا يَحْتَمِلْ بَعْدَهُ الشَّدَّ، وإذا اتسع الخرقُ لا ينفع بَعْدَهُ الرَّفْعُ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تَوْفِيقِي﴾.

ليس بعد التَّبَرِّي التَّوَلَّى، ولا بعدَ الفراقِ الوفاق، ولا بعد الحجةِ قربة. مضى لهم من الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة، أو لرجائهم مساع، أو لظنهم تحقيق، ولكن سَبَقَ لهم القضاء بالشقاوة، ونعوذ بالله من سوءِ الخاتمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَحْجِبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَدَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعْزِيَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

يقول لا تحسبن تمكين أهل النفاق من تنفيذ مرادهم، وتكثير أموالهم إساءة معروف منّا إليهم، أو إسباغ إنعام من لدنّا عليهم، إنما ذلك مكر بهم، واستدراج لهم، وإمهال لا إهمال. وسيلقون غيبه^(١) عن قريب.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الظُّلُمِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْمُقْتَدِرِينَ﴾.

إذا تَوَجَّه عليهم الأمرُ بالجهاد، واشتدّ عليهم حكمُ الإلزام، تعلّلوا إلى السّعة، وركنوا إلى اختيار الدّعة واحتالوا في موجبات التّخلف، أولئك الذين خصّهم بخذلانه، وصرف قلوبهم عن ابتغاء رضوانه.

قوله جل ذكره: ﴿رُسُلُوا يَأْنِ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

بعدوا عن بساط العبادة فاستطابوا الدّعة، ورضوا بالتعريح في منازل الفرقة، ولو أنهم رجعوا إلى الله تعالى بصدق النّدم لقابلهم بالفضل والكرم، ولكن القضاء غالب، والتكلف ساقط.

قوله جل ذكره: ﴿لَنْ يَكُنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُخْلَصُونَ﴾.

ليس من أقبل كمن أعرض وضدّ، ولا من قبل أمره كمن ردّ، ولا من وخذ كمن جحد، ولا من عبد كمن عندّ، ولا من أتى كمن أبى... فلا جرّم ربح تجارّتهم، وجلّت رتبّتهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

تشير الآية إلى أن راحتهم موعودة، وإن كانت الأتعاب في الحال موجودة مشهودة.

(١) الغيب: العاقبة.

ويقال صادق يقينهم بالثواب يهون عليهم مقاساة ما يلقونه - في الوقت - من الاتعاب .
قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

وهم أصحاب الأعذار - في قول أهل التفسير - طلبوا الإذن في التأخير عن رسول الله - ﷺ - في غزوة تبوك فسقط عنهم اللوم .

أما الذين تأخروا بغير عُذر فقد توجه عليهم اللوم، وهو لهم في المستقبل الوعيد .
قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَفْقَهُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قيمة الفقر تظهر عند سقوط الأمر، ولو لم يكن في القلة خير إلا هذا لكفي لها بهذا فضيلة؛ بقوا في أوطانهم ولم يتوجه عليهم بالجهاد أمر، ولا بمفارقة المنزل امتحان . واكتفى منهم بنصيحة القلب، واعتقاد أن لو قدروا لخرجوا .

وأصحاب الأموال امتحنوا - اليوم - بجمعها ثم بحفظها، ثم ملكتهم محنتها حتى شقت عليهم الغيبة عنها، ثم توجه اللوم عليهم في ترك إنفاقها، ثم ما يعقبه - غداً من الحساب والعذاب يربو على الجميع .

وإنما رفع الحرج عن أولئك بشرط وهو قوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإذا لم يوجد هذا الشرط فالحرج غير مرتفع عنهم .

قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾: المحسن الذي لا تكون للشرع منه مطالبة لا في حق الله ولا في حق الخلق .

ويقال هو الذي يعلم أن الحادثات كلها من الله تعالى .

ويقال هو الذي يقوم بحقوق ما يبط به أمره؛ فلو كان طير في حكمه وقصر في علفه - لم يكن محسناً .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُفْقَهُونَ﴾ .

منهم الفقير عن الحراك فالتمسوا من الرسول - ﷺ - أن يحملهم معه ويهيئ أسبابهم، ولم يكن في الحال للرسول عليه السلام سعة ليوافق سؤالهم، وفي حالة ضيق صدره - ﷺ - خلف إنه لا يحملهم، ثم رآهم يتأهبون للخروج، وقالوا في ذلك، فقال عليه السلام: «إنما يحملكم الله»^(١) .

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٦/ ١٤) .

فلَمَّا رَدَّهِمُ الرَّسُولَ - ﷺ - عَنِ الْإِجَابَةِ فِي أَنْ يَحْمِلَهُمْ رَجَعُوا عَنْهُ بِوَصْفِ الْخِيبةِ
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ:

قَالَ لِي مَنْ أَحِبُّ وَالْبَيْنِ قَدْ حَلَّ وَدَمْعِي مُرَافِقٌ لَشَهِيْقِي
مَا تُرَى فِي الطَّرِيقِ تَصْنَعُ بَعْدِي؟ قُلْتُ: أَبْكِي عَلَيْكَ طَوْلُ الطَّرِيقِ

قوله: ﴿حَزَنًا أَلَّا يَحْذَرُوا مَا يُفْقُونَ﴾ شَقٌّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ - ﷺ -
بَسْبِيهِمْ شُغْلٌ فَتَمَنَّوْا أَنْ لَوْ أَزِيدَ هَذَا الشُّغْلُ، لَا مِيلًا إِلَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ لثَلَا تَعَوَّدَ
إِلَى قَلْبِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ قَبْلِهِمْ كَرَاهَةً، وَلِهَذَا قِيلَ:

مَنْ عَفَّ خَفَّ عَلَى الصَّدِيقِ لِقَاؤُهُ وَأَخُو الْحَوَائِجِ مُنْجِحٌ مَمْلُوكٌ

ثُمَّ إِنَّ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ - لَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَتَمَحَّضَتْ قُلُوبُهُمْ لِلتَّعَلُّقِ بِاللَّهِ،
وَحَلَّتْ عَقَائِدُهُمْ عَنْ مُسَاكِنَةِ مَخْلُوقٍ تَذَارَكَ اللَّهُ أَحْوَالَهُمْ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
أَنْ يَحْمِلَهُمْ.. بِذَلِكَ جَرَتْ سُنَّتُهُ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْفِتْنَةَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾
[الشورى: ٢٨].

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾.

يُرِيدُ السَّبِيلَ بِالْعُقُوبَةِ وَالْمَلَامَةِ عَلَى الَّذِينَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْكَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ
وَلَهُمُ الْأَهْبَةُ وَالْمُكْنَةُ، وَتُسَاعِدُهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ الْإِسْطَاعَةُ وَالْقُدْرَةُ؛ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ
لِلْخُرُوجِ وَأَظْهَرُوا لَمْ يَضِدُّوْا، فَهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ لِلنَّكِيرِ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ مَنْ صَدَّقَ فِي الْوَلَاءِ
لَا يَحْتَشِمُ مِنْ مَقَاسَةِ الْعَنَاءِ، وَالَّذِي هُوَ فِي الْوَلَاءِ مِمَّا ذُقَ وَلِلصَّدِّيقِ مَفَارِقٌ يَتَعَلَّلُ بِمَا
لَا أَصْلَ لَهُ، لِأَنَّهُ حَرَّمَ الْخُلُوصَ فِيمَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ، وَكَذَا قِيلَ:

إِنَّ الْمَلُوكَ إِذَا أَرَادَ قَطِيعَةً مَلَّ الْوَصَالَ وَقَالَ كَانَ وَكَانَا

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

قِيلَ فِي التَّفْسِيرِ: مَعَ النِّسَاءِ فِي الْبُيُوتِ.

وَالْإِسْلَامُ يَثْنِي عَلَى الشُّجَاعَةِ، وَفِي الْخَبَرِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ الشُّجَاعَةَ، وَلَوْ
عَلَى قَتْلِ حَيَّةٍ»^(١)، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا:

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُخَصَّنَاتِ جُرُّ الذِّيُولِ^(٢)

وَمَنْ اسْتَوَظَنَ مَرْكَبَ الْكَسَلِ، وَاکْتَسَى لِبَاسَ الْفَسَلِ، وَرَكَنَ إِلَى مَخَارِقِ الْحَيْلِ -

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي (قَضَاءِ الْحَوَائِجِ ٤٤).

(٢) الْمُخَصَّنَاتُ: (ج) الْمُحَصَّنَةُ: الْحُرَّةُ أَوِ الْعَفِيفَةُ أَوِ الْمَتَزَوِّجَةُ.

حُرِّمَ استحقاقُ القربة. وَمَنْ أَرَادَ اللَّهَ - تعالى - هَوَانَهُ، وَأَذَاقَهُ خِذْلَانَهُ، فَلَيْسَ لَهُ عَن حُكْمِ اللَّهِ مَنَاصُ.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُدْرِكُوا إِلَى عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أراد إذا تَقَوَّلُوا بما هم فيه كاذبون، وضللوا عما كانوا في تخلفهم به يَتَّصِفُونَ - فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّا عَرَفْنَا اللَّهَ كَذِبَكُمْ فيما تقولون، واتضح لنا فضائحكم، وَتَمَيَّزَ - بما أظهره الله لنا - سَيِّئُكُمْ وصالحكم، فَإِنَّ اللَّهَ تعالى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أحوالكم، وَسَتَلْقَوْنَ عِبَ أَعْمَالِكُمْ فِي آجِلِكُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَلْقَوْنَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعَرْضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

يريد أنهم في خَلِيفِهِم بِاللَّهِ لكم أن يدفع السوء مِنْ قِبَلِكُمْ، وليس قُضْدِهِمْ بذلك خلوصاً في اعتذارهم، ولا ندامةً على ما احتقبوه من أوزارهم، إنما ذلك لَتَعْرِضُوا عنهم... فَأَعْرِضُوا عنهم؛ فَإِنَّ ذَلِكَ ليس بِمُنْجِيهِمْ مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم، فَإِنَّ اللَّهَ يُنْهَلُ الْعَاصِيَ حَتَّى يَتَوَهَّمْ أَنَّهُ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْهُ، وما ذلك إِلَّا مَكْرٌ عُومِلَ بِهِ، فإذا أذاقه ما يستوجبُه عِلِمَ أن الأمر بخلاف ما ظنَّه، وما ينفع ظاهر مغبوط، والحال - في الحقيقة - يَأْسُ من الرحمة وقنوط، وفي معناه قالوا:

وقد حسدوني في قُرْبِ داري مِنْهُمْ وكم مِنْ قَرِيبِ الدارِ وهو بعيد! قوله جل ذكره: ﴿يَلْقَوْنَ لَكُمْ لِرَضَا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا تَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

من كان مسخوط الحق لا ينفعه أن يكون مرضي الخلق، وليست العبرة بقول غير الله إنما المدار على ما سَبَقَ من السعادة في حُكْمِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبَغَاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَمْلَأُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

جَبِلَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْقِسْوَةِ فلم تَقَرَّعْهَا هَوَاجِمُ الصَّفْوَةِ، وكانوا عن أشكالهم في الْخَلْقَةِ مستأخرين بما (...).^(١) من سوء الخلق؛ فَهُمْ مِنْ اسْتِبَانَةِ الْحَقَائِقِ أَبْعَدَ، ومن استيجاب الهوان أقرب.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

حَبِئَتْ عَقَائِدُهُمْ فانتظروا للمسلمين ما تعلقت به مناهم من حلول الوحن بهم، فأبى الله إلا أن يحقق بهم مكرهم، ولهذا قيل في المثل: إذا حَفَرْتَ لِأَخِيكَ قَوْسُغَ فربما يكون ذلك مقيلك!

ويقال مَنْ نَظَرَ إِلَى وراثته يُوفَّقُ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَرَأْيِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تَنَوُّعُوا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ عَشَّ وَلَمْ يَرْبِحْ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَصَحَ فَلَمْ يَخْسِرْ، فَأَمَّا الَّذِينَ
مَذَقُوا فَهَمَ فِي مَهْوَاةٍ هَوَانِهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا فَفِي رَوْحٍ إِحْسَانِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

السابقون مختلفون؛ فَمِنْ سَابِقِ بِصِدْقِ قَدَمِهِ، وَمِنْ سَابِقِ بِصِدْقِ هِمَمِهِ .
وَيَقَالُ السَّابِقُ مَنْ سَاعَدْتَهُ الْقِسْمَةُ بِالتَّوْفِيقِ، وَأَسْعَدَتْهُ الْقَضِيَّةُ بِالتَّحْقِيقِ، فَسَبَقَتْ
لَهُ مِنَ اللَّهِ رَحْمَتُهُ .

ويقال سبقهم بعنايته ثم سبقوا بطاعتهم له .

وَيَقَالُ جَمَعَ الرِّضَاءَ صَفِيهِمْ : السَّابِقَ مِنْهُمْ وَالْآخِرَ بِهِمْ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَالْآخِرُونَ ﴾ ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

ويقال ليس اللاحق كالسابق، فالسابق في رَوْحِ الطَّلَبِ، واللاحق في مقاساةِ التعبِ، ومُعَانَاةِ النَّصَبِ، وأنشدوا:

السُّبَّاقُ السُّبَّاقُ قَوْلًا وَفِعْلًا حَذَرُوا النَّفْسَ حَسْرَةً الْمَسْبُوقِ .

ويقال رِضَاهُمْ عن اللّهِ قَضِيَّةٌ رِضَاءُ اللَّهِ عَنْهُمْ؛ فَلَوْلَا أَنَّهُ رَضِيَ عَنْهُمْ فِي
إِزَالِهِ... فَمَتَى وَصَلُوا إِلَى رِضَاهُمْ عَنْهُ؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْأُنْفَاقِ لَا يَعْلَمُونَ خُفٍّ يَلْعَمُهُمْ سَمْعُكُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

تشاكل المخلص والمنافق في الصورة فلم يَتَمَيَّزَا بالمباني، وإن تنافيا في الحقائق

والمعاني وتقاصر علمهم عن العرفان فهتكت الله لنيئه أستارهم . . فعرفهم، وهم بإشرافه عليهم جاهلون، وعلى الإقامة في أوطان نفاقهم مصروفون، فلم ينفعهم طول إمهاله لهم.

﴿سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: الأولى في الدنيا بالفضيحة فيما ينالهم من المحن والفتن والأمراض، ولا يحصل لهم عليها في الآخرة عوض ولا أجر ولا مسرة، والثانية عذاب القبر.

وقيل المرة الأولى بقبض أرواحهم، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُمتحنون بالعذاب الأكبر.

ويقال المرة الأولى ظنهم أنهم على شيء، والمرة الثانية بخيبة آمالهم وظهور ما لم يحتسبوه لهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إن اتصفوا بعيوبهم فلقد اعترفوا بذنوبهم. والإقرار توكيد الحقوق فيما بين الخلق في مشاهد الحكم، ولكن الإقرار بحق الله - سبحانه - يوجب إسقاط الجرم في مقتضى سنة. كرم الحق - سبحانه، وفي معناه أنشدوا:

قيل لي: قد أساء فيك فلان وسكوت الفتى على الضيم عار
قلت: قد جاءني فأحسن عذرا دية الذنب عندنا الاعتذار

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾: ففي قوله: ﴿وَأَخْرَ سَيِّئًا﴾ بعد قوله: ﴿صَالِحًا﴾ دليل على أن الزلة لا تحيط ثواب الطاعة؛ إذ لو أحبطته لم يكن العمل صالحاً.

وكذلك قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: وعسى تفيد أنه لا يجب على الله شيء فقد يتوب وقد لا يتوب. ولأن قوله صدق . . فإذا أخبر أنه يجيب فإنه يفعل، فيجب منه لا يجب عليه.

ويقال قوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾: يحتمل معناه أنهم يتوبون؛ فالتوبة عمل صالح. وقوله: ﴿وَأَخْرَ سَيِّئًا﴾: يحتمل أنه نقضهم التوبة، فتكون الإشارة في قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم إن نقضوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زلتهم فواجب منا أن نتوب عليهم، ولئن بطلت - بنقضهم - توبتهم . . لما اختلت - بفضلنا - توبتنا عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تطهرهم مِنْ طَلَبِ الْأَعْوَاضِ عَلَيْهَا، وتركيبهم عن ملاحظتهم إياها.
 تطهرهم بها عن شُحِّ نفوسهم، وتركيبهم بها بألا يتكاثروا بأموالهم؛ فَيَرَوْا عَظِيمَ
 مِثَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بوجدان التجرد منها.
 ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾: إِنْ تُعَاشِرْهُمْ بِهَيْئَتِكَ مَعَهُمْ أَثْمَنُ لَهُمْ مِنْ
 استقلالهم بأموالهم.
 قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ
 هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

تمدَّح - سبحانه - بقبول توبة العاصين إذ بها يُظْهِرُ كَرَمَهُ، كما تمدَّح بجلال عِزِّهِ
 ونَبِّهَهُمْ عَلَى أَنْ يَعْرِفُوا بِهِ جَلَالَهُ وَقِدَمَهُ.
 وكما تَوَحَّدَ باستحقاق كبريائه وعظمته تَفَرَّدَ بقبول توبة العبد عن جُزْمِهِ وَزَلَّتِهِ.
 فكما لا شبيهة له في جماله وجلاله لا شريك له في أفضاله وإقباله؛ يأخذ الصدقات -
 قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ، فَقَدَّرَ الصَّدَقَةَ وَخَطَرُهَا بِأَخْذِهِ لَهَا لَا بِكَثْرَتِهَا وَقِلَّتِهَا؛ قَلَّتْ فِي الصُّورَةِ
 صَدَقَتُهُمْ وَلَكِنْ لَمَّا أَخَذَهَا وَقَبِلَهَا جَلَّتْ بقبوله لَهَا، كما قيل:

يكون أجاجاً - دونكم، فإذا انتهى إليكم تَلْقَى طَيْبَكُمْ فَيْطِيبُ^(١)
 قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا نَسِيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرَدُونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ
 الْقَبِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

خَوْفُهُمْ بِرُؤْيَتِهِ - سبحانه - لأعمالهم، فلَمَّا عَلِمَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ تَتَقَاصَرُ حَالَتُهُ عَنْ
 الاحتشام لأطلاع الحقِّ قال: ﴿وَرَسُولِي﴾، ثُمَّ قَالَ لِمَنْ نَزَلَتْ رُبَّتُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. وقد
 خَسِرَ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ، وَلَا يردعه الاحتشام، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ مَنْ هَتَكَ جَلْبَابَ
 الْحَيَاءِ، كما قيل:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَآؤُهُ
 وَمَنْ لَمْ يَمْنَعْهُ الْحَيَاءُ عَنْ تَعَاطِي الْمَكْرُوهَاتِ فِي الْعَاجِلِ سِيلِقَى غِبِّ ذَلِكَ،
 وَخَسِرَانُهُ عَنْ قَرِيبٍ فِي الْآجِلِ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَالْآخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ﴾.

لَمْ يُصْرِّحْ بقبول توبتهم، وَلَمْ يَسْمَعْهُمْ بِالْيَاسِ مِنْ غَفْرَانِهِ، فَوَقَفُوا عَلَى قَدَمِ
 الْخَجَلِ، مَتَمِيلِينَ بَيْنَ الرُّهْبَةِ وَالرَّغْبَةِ، مَتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. أَخْبَرَ اللَّهُ -

(١) الأجاج: الشديد الملوحة أو المرارة.

سبحانه - أنه إن عَذَّبَهُمْ فلا اعتراض يتوجه عليه، وإن رَحِمَهُمْ فلا سبيل لأحد إليه، قال بعضهم:

ويشبعني من الآمال وعدٌ ومن علمي بتقصيري وعيد
قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالرِّصَادَا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ﴾.

من لم يكن مخلصاً في ولائه لم يأنس القلب بكده وعنايه، فتَوَدَّه في الظاهر
ينادي عليه بالتوائه، وبقوله بالتكلف شهادة صدق على عدم صفاته:

من لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوبٌ
قوله جل ذكره: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ
فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.

المقام في أماكن العصيان، والتعريض في أوطان أهل الجحود والطغيان - من
علامات الممالة مع أربابها، وسكائها وقطانها.

والتباعد عن مساكنهم، وهجران من جَنَحَ إلى مساكنهم علماً لمن أشرب قلبه
مخالفتهم، وباشرت سيره عداوتهم.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾: يتطهرون عن المعاصي وهذه سمة العابدين،
ويتطهرون عن الشهوات والأمانى وتلك صفة الزاهدين، ويتطهرون عن محبة
المخلوقين، ثم عن شهود أنفسهم بما يتصفون وتلك صفة العارفين.

قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: أسرارهم عن المساكنة إلى كل مخلوق، أو
ملاحظة كل مُخَدِّث مسبوق.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
أُتْسِسَ بُيُوتُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

المريد يجب أن يؤسس بنيانه على يقين صادق فيما يعتقد، ثم على خلوص في
العزيمة ألا ينصرف قبل الوصول عن الطريق الذي يسلكه، ثم على انسلاخه عن جميع
منه وشهواته، ومآربه ومطالبه، ثم يبني أمره على دوام ذكره بحيث لا يعترضه نسيان،
ثم على ملازمة حق المسلمين وتقديم مصالحهم... بالإيثار على نفسه. والذي ضيَّع
الأصول في ابتدائه حرَمَ الوصول في انتهائه، والذي لم يُخَكِّم الأساس في بنائه سَقَطَ
السَّقْفُ على جدرانها.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَزَالُ يُبَيِّنُ لَهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رَبُّهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

عروق النفاق لا تُقْتَلَع من عَرَصَاتِ اليقين إلا بِمَنْجَلِ التَّحَقُّقِ بصحيح البرهان؛ فَمَنْ أَيْدٍ لِإِدَامَةِ الْمَسِيرِ، وَوَقَفَ لِتَأْمَلِ الْبِرْهَانِ وَصَلَ إِلَى ثُلُجِ الصِّدْرِ وَرُوحِ الْعِرْفَانِ. وَمَنْ أَقَامَ عَلَى مُعْتَادِ التَّقْلِيدِ لَمْ يَسْتَرِخْ قَلْبُهُ مِنْ كَذِّ التَّرَدُّدِ، وَظُلْمَةِ التَّجْوِيزِ، وَجَوَلَانَ الْخَوَاطِرِ الْمَشْكَلَةِ فِي الْقَلْبِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

لَمَّا كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَسْلِيمُ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ لِحُكْمِ اللَّهِ، وَكَانَ مِنَ اللَّهِ الْجَزَاءُ وَالثَوَابُ؛ أَيْ هُنَاكَ عَوَاضٌ وَمُعَوَّضٌ، فَلَمَّا بَيَّنَّ ذَلِكَ وَبَيْنَ التَّجَارَةَ مِنْ مِثَابَةِ أَطْلَقَ لَفْظَ الْإِشْتِرَاءِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَذْكَاءٌ عَلَى يَحْزَرَ...﴾ [الصف: ١٠]، وَقَالَ: ﴿فَمَا رَحِمْتَ يَحْزَرُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦].

وَفِي الْحَقِيقَةِ لَا يَصُحُّ فِي وَصْفِ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - الْإِشْتِرَاءُ لِأَنَّهُ مَالِكٌ سِوَاهُ، وَهُوَ مَالِكُ الْأَعْيَانِ كُلِّهَا. كَمَا أَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَحْدِثْ مِلْكًا لَا يُقَالُ إِنَّهُ - فِي الْحَقِيقَةِ - بَاعَ.

وَلِلْمَقَالِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَجَالٌ... فَيُقَالُ: الْبَائِعُ لَا يَسْتَحِقُّ الثَّمَنَ إِذَا امْتَنَعَ عَنِ تَسْلِيمِ الْمَبِيعِ، فَكَذَلِكَ لَا يَسْتَحِقُّ الْعَبْدُ الْجَزَاءَ الْمَوْعُودَ إِلَّا بَعْدَ تَسْلِيمِ النَّفْسِ وَالْمَالِ عَلَى مُوجِبِ أَوَامِرِ الشَّرْعِ، فَمَنْ قَعَدَ أَوْ قَرَطَ فَعِيرُ مُسْتَحَقِّ الْجَزَاءِ.

وَيُقَالُ لَا يَجُوزُ فِي الشَّرْعِ أَنْ يَبِيعَ الشَّخْصُ وَيَشْتَرِيَ شَيْئًا وَاحِدًا فَيَكُونَ بَائِعًا وَمُسْتَرِيًّا إِلَّا إِذَا كَانَ أَبًا وَجَدًّا وَلَكِنْ ذَلِكَ هُنَا بِلَفْظِ الشَّفَقَةِ؛ فَالْحَقُّ بِإِذْنِهِ كَانَتْ رَحْمَتُهُ بِالْعَبْدِ أَتَمَّ، وَنَظَرُهُ لَهُ أَبْلَغَ، وَكَانَ لِلْمُؤْمِنِ فِيهِ مِنَ الْغِبْطَةِ، مَا لَا يَخْفَى، فَصَحَّ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ حُكْمُهُ لَا يَقَاسُ عَلَى حُكْمِ غَيْرِهِ.

وَيُقَالُ إِنَّمَا قَالَ: ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ «قُلُوبَهُمْ» لِأَنَّ النَّفْسَ مَحَلَّ الْآفَاتِ فَجَعَلَ الْجَنَّةَ فِي مَقَابِلَتِهَا، وَجَعَلَ ثَمَنَ الْقَلْبِ أَجَلٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَهُوَ مَا يَخْصُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ فِي الْجَنَّةِ مِنْ عَزِيزِ رُؤْيَتِهِ.

وَيُقَالُ النَّفْسُ مَحَلُّ الْعَيْبِ، وَالْكَرِيمُ يَرْغَبُ فِي شِرَاءِ مَا يَزْهَدُ فِيهِ غَيْرُهُ.

وَيُقَالُ مَنْ اشْتَرَى شَيْئًا لِيَتَنَفَّعَ بِهِ اشْتَرَى خَيْرَ مَا يَجِدُهُ، وَمَنْ اشْتَرَى شَيْئًا لِيَتَنَفَّعَ بِهِ غَيْرُهُ يَشْتَرِي مَا رَدَّ عَلَى صَاحِبِهِ لِيَتَنَفَّعَ بِهِ.

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء - عليهم السلام -: يا بني آدم، ما خلقتكم لأربح عليكم ولكن خلقتكم لتربحوا عليّ.

ويقال اشترى منهم نفوسهم فرهبوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسهم، وأمّا القلب فاستأثره قهراً، والقهر في سئة الأحباب أعزُّ من الفضل، وفي معناه أنشدوا:

بُنِيَ الحُبُّ عَلَى القَهْرِ فلو عَدَلَ المحبُّوبُ يوماً لَسَمُحٌ^(١)
ليس يُسْتَحْسَنُ في حكم الهوى عاشِقٌ يَطْلُبُ تَأْلِيفَ الحُجَجِ

وكان الشيخ أبو علي الدقاق^(٢) رحمه الله يقول: «لم يقل اشترى قلوبهم لأن القلوب وَفَّتْ على محبته، والوقف لا يُشْتَرى».

ويقال الطير في الهواء، والسَّمَكُ في الماء لا يصحُّ شراؤهما لأنه غير ممكن تسليمهما، كذلك القلب.. صاحبه لا يمكنه تسليمه، قال تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ يُحَوِّلُ بَيْنَ أَلْمَرَّةِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفي التوراة: «الجنة جنتي والمال مالي فاشترؤا جنتي بمالي فإن ربحتم فلکم وإن خسرتم فعليّ».

ويقال عَلِمَ سوء خُلُقِكَ فاشتراك قبل أن أوجدك، وغالي بثمانك لئلا يكون لك حقُّ الاعتراض عند بلوغك.

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصّب لنفسه بحالٍ لأنها ليست له، والذي اشتراها أولى بها من صاحبها الذي هو أجنبي عنها.

ويقال أخبر أنه اشتراها لئلا يدعي العبدُ فيها؛ فلا يساكنها ولا يلاحظها ولا يُعْجَبُ بها.

قوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ سيان عندهم أن يقتلوا أو يُقْتَلُوا، قال قائلهم:

وإن دَمًا أَجْرِيته لك شاكِرٌ وإن فؤاداً خِرْته لك حامِدٌ

ويقال قال: ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بَيْعَكُمْ﴾ ولم يقل بثمان مبيعكم لأنه لم يكن مئاً بَيْعٌ، وإنما أخبر عن نفسه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فجعل بَيْعَهُ بَيْعَنَا، وهذا مثلما قال في صفة نبيه - ﷺ -: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] وهذا عين الجَمْع الذي أشار إليه القوم.

(١) سمج الشيء: قبح.

(٢) هو أبو علي الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق (الرسالة القشيرية ص ٩) وهو أستاذ القشيري.

قوله جل ذكره: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ﴾.

مَدَحَهُمْ بعد ما أوقع عليهم سِمَةَ الاشتراء بقوله ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ...﴾ وَمَنْ رَضِيَ بما اشتراه فَإِنَّ له حَقَّ الرَّدِّ إذا لم يَعْلَمْ العيبَ وقتَ الشُّراءِ، فأَمَّا إذا كان عالماً به فليس له حَقُّ الرَّدِّ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْغُلَامِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

ويقال مَنْ اشترى شيئاً فَوَجَدَ به عيباً رَدَّهُ على مَنْ منه اشتراه ولكنه - سبحانه - اشترى نفوسنا منه، فإذا أراد الرَّدُّ فلا يرُدُّ إلا على نَفْسِهِ؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وكما أَنَّ الرَّدَّ إليه فلو رَدُّنا كان الرَّدُّ عليه.

قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ﴾ أي الراجعون إلى الله، فَمِنْ راجع يرجع عن زَلَّتِهِ إلى طاعته، وَمِنْ راجع، يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه، وَمِنْ راجع يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه، وَمِنْ راجع يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جَنَسِهِ إلى الاستغراق في حقائق حَقِّهِ.

ويقال تَائِبٌ يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله؛ فيجد غداً فنونَ أفضاله، وصنوفَ لطفه ونواله، وتائبٌ يرجع عن كل غيرٍ وضدٍ إلى ربِّه لربِّه بِمَخَوِّ كُلِّ أَرْبٍ، وَعَدَمِ الإحسان بكلِّ طلب.

وتائبٌ يرجع لحظَّ نَفْسِهِ من جزيل ثوابه أو حَدَرَأَ - على نفسه - من أليم عذابه، وتائبٌ يرجع لأمره برجوعه وإيابه، وتائبٌ يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو مِنْ أَوْضَارِهِ^(١)، ويخلص من شؤم أوزاره، وتائبٌ يرجع لَمَّا سمع أنه قال: إِنَّ اللَّهَ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ من الأعرابي الذي وَجَدَ ضَالَّتَهُ - كما في الخبر، «وَشَتَّانِ مَا هُمَا!» وأنشدوا:

أيا قادماً من سَفَرَةِ الْهَجَرِ مَرْحَبًا أَنَادِيكَ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصُّبَا

وأما قوله ﴿الْعَمِيدُونَ﴾: فهم الخاضعون بكلِّ وجه، الذين لا تَسْتَرِفُّهُمْ كرائمُ الدنيا، ولا تستعبدهم عظائمُ العُقُوبِ. ولا يكون العبدُ عبداً لله - على الحقيقة - إلا بعد تجرُّده عن كل شيءٍ حادثٍ. وكلُّ أحدٍ فهو له عَبْدٌ من حيث الخَلْقَةِ؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. ولكنَّ صاحبَ العبودية خاصٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾.

هم الشاكرون له على وجود أفضاله، الْمُتَّقُونَ عليه عند شهود جلاله وجماله.

(١) الأَوْضَارُ: (ج) الوَضَرُ: الوسخ من الدسم أو غيره.

ويقال: الحامدون بلا اعتراض على ما يحصل بقدرته، وبلا انقباض عما يجب من طاعته.

ويقال الحامدون له على منعه وبلائه كما يحمدونه على نفعه وعطائه.

ويقال الحامدون إذا اشتكى مَنْ لا قُوَّةَ^(١) له المادحون إذا بكى مَنْ لا مروءة له.

ويقال الشاكرون له إن أذناهم، الحامدون له إن أقصاهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمُتَكَبِّرُونَ﴾.

الصائمون ولكن عن شهود غير الله، الممتنعون عن خدمة غير الله، المكتفون من الله بالله.

ويقال السائحون الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكير في جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيرها على مُنْشِئِهَا، والتحقق بحكمة خالقها بما يَرَوْنَ من الآيات فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت فيجدون رَوْحَ الوصال، ويعيشون بنسيم الإنس بالتحقق بشهود الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمُتَكَبِّرُونَ﴾.

الخاضعون لله في جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلي، وفي الخبر: «إن الله ما تجلّى لشيءٍ إلا خَسَعَ له»^(٢).

وكما يكون - في الظاهر - راعياً يكون في الباطن خاشعاً، ففي الظاهر بإحسان الحق إليه يُحْسِنُ تَوَلّيه، وفي الباطن كالعيان للعيان للحق بأنوار تجليّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمُتَكَبِّرُونَ﴾.

في الظاهر بنفوسهم على بساط العبودية، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية. والسجود على أقسام: سجود عند صحة القصد فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار، ولا يرفع رأسه عن السجود إلا عند تباشير الوصال. وسجود عند الشهود إذا تجلّى الحق لقلبه سَجَدَ بقلبه، فلم ينظر بعده إلى غيره، وسجود في حال الوجود وذلك بخموده عن كليته، وفنائه عن الإحساس بجميع أوصافه وجملته.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن الفتوة: سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد عن الفتوة فقال: ما تقول أنت؟ فقال شقيق: إن أعطينا شكرنا، وإن منعنا صبرنا، فقال جعفر بن محمد: الكلاب عندنا بالمدينة تفعل كذلك، فقال شقيق: يا ابن بنت رسول الله: ما الفتوة عندكم؟ فقال: إن أعطينا أثرنا، وإن منعنا شكرنا. (الرسالة القشيرية ص ٢٣٠).

(٢) أخرجه النسائي (كسوف ١٦)، وابن ماجه (إقامة ١٥٢).

قوله جل ذكره: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هم الذين يَدْعُونَ الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ، وَيُحَذِّرُونَهُمْ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ. يتواصُونَ بِالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ وَتَرْكِ الْإِسْتِغْثَالِ بِغَيْرِ اللَّهِ. يَأْمُرُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّزَامِ الطَّاعَاتِ بِحَمْلِهِمْ إِيَّاهَا عَلَى سُنَنِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَيَنْهَوْنَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْمُنَى وَالشَّهَوَاتِ بِتَرْكِ التَّعْرِيجِ فِي أَوْطَانِ الْغَفْلَةِ، وَمَا تَعُودُهُ مِنَ الْمَسَاكِنَةِ وَالْإِسْتِمَاتَةِ.

والحافظون لحدود الله، هم الواقفون حيث وقفهم الله، الذين لا يتحركون إلا إذا حُرِّكَهُمْ وَلَا يَسْكُنُونَ إِلَّا إِذَا سَكَنَهُمْ، ويحفظون مع الله أَنْفُسَهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

أصل الدين التَّبَرُّيُّ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَالتَّوَلَّى لِلْأَوْلِيَاءِ، وَالْوَلِيُّ لَا قَرِيبَ لَهُ وَلَا حَمِيمٍ، وَلَا نَسِيبَ لَهُ وَلَا صَدِيقَ: إِنْ وَالَى فَيَأْمُرُ، وَإِنْ عَادَى فَلْيَزْجُرْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

لَمَّا أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّبَرُّيِّ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَالْإِنْقِبَاضِ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لَهُمْ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا سَبِيلُ الْأَوْلِيَاءِ، وَطَرِيقُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَإِنْ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ فَإِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِ تَحَقُّقِهِ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ أَظْهَرَ الْبَرَاءَةَ مِنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُخِذُ قَوْمًا بِعَدْوٍ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَيْسِرَ لَهُمْ مَا يَنْتَفِقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَحْكُمُ بِضَلَالِكُمْ وَذَهَابِكُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ بِاسْتِغْفَارِكُمُ لِلْمُشْرِكِينَ إِلَّا بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنْكُمْ مَنُهِيُونَ عَنْهُ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ تُنْهَيْتُمْ عَنْ اسْتِغْفَارِكُمْ لَهُمْ فَإِنَّ أَقْدَمْتُمْ عَلَى ذَلِكَ فَحِينَئِذٍ ضَلَلْتُمْ عَنِ الْحَقِّ بِفَعْلِكُمْ بَعْدَ مَا تُنْهَيْتُمْ عَنْهُ... هَذَا بَيَانُ التَّسْطِيفِ لِلْآيَةِ، وَالْإِشَارَةُ فِيهَا أَنَّهُ لَا سَلْبَ لِعَطَائِهِ إِلَّا بِتَرْكِ أَدَبِ مَنْكُم.

وَيَقَالُ مَنْ أَحَلَّهُ بِسَاطِ الْوَصْلَةِ مَا مُنِيَ بَعْدَهُ بِعَذَابِ الْفِرْقَةِ، إِلَّا لِمَنْ سَلَفَ مِنْهُ تَرْكُ حُرْمَةٍ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الحقُّ لا يَتَجَمَّلُ بوجود مملوكاته، ولا يلحق نَقْصٌ بِعَدَمِ مخلوقاته، فَقَبْلَ أَنْ أوجد شيئاً من الحادثات كان مَلِكاً - وَالْمَلِكُ أكثر مبالغة من المالك - ومُلْكُهُ قدرته على الإبداع؛ والمعدوم مقدوره ومملوكه، فإذا أُوجِدَ فهو في حال حدوثه مقدوره ومملوكه، فإذا أعدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدوراً له.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يحيي مَنْ يشاء بعرفانه وتوحيده، ويميت من يشاء بكفرانه وجحوده.

ويقال يُحْيِي قلوبَ العارفين بأنوار المواصلات، ويُمِيت نفوسَ العابدين بآثار المنازلات.

ويقال يُحْيِي مَنْ أَقْبَلَ عليه بِتَفَضُّله، ويميت من أَعْرَضَ عنه بِتَكْبَرِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَهْمُ رَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قَبْلَ تَوْبَتِهِمْ، وتَابَ عَلَى نَبِيِّهِ - ﷺ - في إِذْنِهِ لِلْمُنَافِقِينَ في التَخَلُّفِ عَنْهُ في غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَمَّا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ قَدْ خَرَجُوا مَعَهُ حِينَ هَمُّوا بِالْأَنْصَارِ لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعُسْرَةِ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْإِعْيَاءِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، كَمَا قَالَ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾: وتَوْبَتِهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ تَدَارَكَ قُلُوبَهُمْ حَتَّى لَمْ تَزُغْ، وَكَذَا سُنَّةُ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - مَعَ أَوْلِيَائِهِ إِذَا أَشْرَفُوا عَلَى الْعَطَبِ، وَقَارَبُوا مِنَ الثَّلَفِ، وَاسْتَمَكَنَ الْيَأْسُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النَّصْرِ، وَوَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَنْ يَذُوقُوا الْبَأْسَ - يُغْطَرُ عَلَيْهِمْ سَحَابُ الْجُودِ، فَيَعُودُ عَوْدُ الْحَيَاةِ بَعْدَ يَبْسِهِ طَرِيّاً، وَيُرْدُ وَرْدُ الْأَنْسِ عَقِبَ ذُبُولِهِ غَضّاً جَنِيّاً، وَتَصِيرُ أَحْوَالُهُمْ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

كُنَّا كَمَنْ أَلِيسَ أَكْفَانُهُ وَقُرْبُ النَّفْسِ مِنَ اللَّحْدِ
فَجَالَ مَاءُ الرُّوحِ فِي وَخْشَةٍ وَرَدَّهُ الْوَصْلُ إِلَى الْوَرْدِ
تَبَارَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا (...) ^(١) هُوَ بِالسَّرْمَدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

لَمَّا صَدَقَ مِنْهُمْ اللّجَاءُ تَدَارَكَهُمْ بِالشِّفَاءِ وَأَسْقَطَ عَنْهُمْ الْبَلَاءَ، وَكَذَلِكَ الْحَقُّ يَكُونُ

(١) بياض في الأصل.

نهار اليُسْرِ على ليالي العُسْرِ، ويُطْلَعُ شَمْسُ المَحَنَةِ على نحوسِ الفِتْنَةِ، ويُدِيرُ فَلَكَ السَّعَادَةَ فيمَحِقُ تأثير طَوَارِقِ النِّكَايَةِ؛ سُنَّةٌ مِنْهُ - تعالى - لَا يُبَدِّلُهَا، وَعَادَةٌ مِنْهُ فِي الْكَرَمِ يُجَرِّبُهَا وَلَا يَحْوِلُهَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

يا أيها الذين آمنوا برُسُلِ الله، يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب... كونوا مع الصادقين المسلمين، يا أيها الذين آمنوا في الحال كونوا في آخر أحوالكم مع الصادقين؛ أي استديموا الإيمان. استديموا في الدنيا الصدق تكونوا غداً مع الصادقين في الجنة.

ويقال الصادقون هم السابقون الأولون وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وغيرهم.

ويقال الصدق نهاية الأحوال، وهو استواء السر والعلانية، وذلك عزيز. وفي الزُّبُو: «كذب مَنْ ادَّعَى محبتي وإذا جَنَّةُ اللَّيْلِ نام عَنِّي».

والصدق - كما يكون في الأقوال يكون في الأحوال، وهو أتم أقسامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَن حَرَّمَ مِن الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِم عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْلُوتُ مَوَاطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لا يجوز لهم أن يؤثروا على النبي - ﷺ - شيئاً من نفس وروح، ومالٍ وولَدٍ وأهلٍ، وليسوا يخسرون على الله وأنى ذلك...؟ وإنهم لا يرفعون لأجله خطوة إلا قَابَلَهُمْ بِأَلْفِ خطوة، ولا ينقلون إليه قدماً إلا لَقَّاهم لطفاً وكرماً، ولا يقاسون فيه عَطَشاً إلا سَقَاهم من شراب محابّه كاساً، ولا يتحملون لأجله مشقة إلا لَقَّاهم لطفاً وإيناساً. ولا ينالون من الأعداء أذى إلا شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُمْ بما يوجب لهم سعادة الدارين!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

لو اشتغل الكل بالتفقه في الدين لتعطل عليهم المعاش، ولبقي الكافة عن درك ذلك المطلوب، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية.

ويقال جعل المسلمين على مراتب: فعوامهم كالرعية للملك، وكتبته الحديث

كَخَزَانِ الْمَلِكِ، وَأَهْلُ الْقُرْآنِ كَحِفَاطِ الدَّفَاتِرِ وَنَفَائِسِ الْأَمْوَالِ، وَالْفُقَهَاءُ بِمَنْزِلَةِ الْوُكَلَاءِ لِلْمَلِكِ إِذَ الْفَقِيهِ (...)^(١) عَنْ اللَّهِ، وَعِلْمَاءُ الْأَصُولِ كَالْقَوَادِ وَأَمْرَاءُ الْجِيُوشِ، وَالْأَوْلِيَاءُ كَأَرْكَانِ الْبَابِ، وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ وَأَصْحَابُ الصِّفَاءِ كَخَوَاصِ الْمَلِكِ وَجُلَسَائِهِ.

فِيَسْتَغْلِقُونَ قَوْمَ بِحِفْظِ أَرْكَانِ الشَّرْعِ وَآخَرُونَ بِإِمْضَاءِ الْأَحْكَامِ، وَآخَرُونَ بِالرَّدِّ عَلَى الْمُخَالَفِينَ، وَآخَرُونَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقَوْمٌ مُفَرَّدُونَ بِحُضُورِ الْقَلْبِ وَهُمْ أَصْحَابُ الشُّهُودِ، وَلَيْسَ لَهُمْ شُغْلٌ، يَرَاعُونَ مَعَ اللَّهِ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ أَصْحَابُ الْفَرَاغِ، لَا يَسْتَفْزَهُمْ طَلَبٌ وَلَا يَهْزُهُمْ أَرْبٌ، فَهُمْ بِاللَّهِ اللَّهُ، وَهُمْ مَحْوٍ عَمَّا سِوَى اللَّهِ^(٢).

وَأَمَّا الَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ فَهُمْ الدَّاعُونَ إِلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا يُفْهِمُ الْخَلْقَ عَنْ اللَّهِ مَنْ كَانَ يُفْهِمُ عَنْ اللَّهِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

أَقْرَبُ الْأَعْدَاءِ إِلَى الْمُسْلِمِ مِنَ الْكُفَّارِ، الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ مَنَازَعَتُهُ هُوَ أَعْدَى عَدُوِّهِ أَيْ نَفْسُهُ. فَيَجِبُ أَنْ يَبْدَأَ بِمُقَاتَلَةِ نَفْسِهِ ثُمَّ بِمُجَاهَدَةِ الْكُفَّارِ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»^(٣).

قَوْلُهُ: ﴿وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ مِنْ حَابِي عَدُوِّهِ قَهْرُهُ، وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ الَّذِي يَنْزِلُ عَنْ مَطَالِبَاتِ الْحَقِيقَةِ إِلَى مَا يَتَطَلَّبُهُ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ يَفْسَخُ عَهْدَهُ، وَيَنْقُضُ عَقْدَهُ، وَذَلِكَ كَالرَّدَّةِ لِأَهْلِ الظَّاهِرِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَتَيْنَكُم بِذِكْرِهِمْ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

جَعَلَ اللَّهُ^(٤) - سُبْحَانَهُ - أَنْزَالَ الْقُرْآنَ لِقَوْمٍ شِفَاءً. وَلِقَوْمٍ شِقَاءً؛ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ جَدِيدَةٌ زَادَ شُكُّهُمْ وَتَحْيِيرُهُمْ، فَاسْتَعْلِمَ بَعْضُهُمْ حَالَ بَعْضٍ، ثُمَّ لَمْ يَزِدَادُوا إِلَّا تَحْسُرًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فَصَلَتْ: ٤٤] وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَرَادَتْهُمْ السُّورَةُ إِيْمَانًا

(١) بياض في الأصل.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ - ٢٨٣ عند حديث القشيري عن التصوف.

(٣) أخرجه الزبيدي في [إتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٧٩، ٧/ ٢١٨]، والعراقي في (المنفي عن حمل الأسفار ٧/ ٣)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٥١١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٠٦)، والفنّي في (تذكرة الموضوعات ١٩١)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٨٩).

(٤) الآية (١٢٥) لم ترد.

فارتقوا مِنْ حَدِّ تَأْمَلِ البرهان إلى رُوحِ البيان، ثم مِنْ رُوحِ البيان إلى العيان، فالتجوير والتردد و (....) ^(١) والتحير مُتَنَفِّىً بِأَجْمَعِهِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وشموسُ العرفانِ طالِعةٌ على أسرارهم، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم، فلا لَهُمْ تَعَبُ الطَلَبِ، ولا لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَى التَّدْبِيرِ، ولا عَلَيْهِمْ سُلْطَانُ الْفِكْرِ. وَأَشِعَّةُ شَمُوسِ الْعِرْفَانِ مُسْتَغْرِقَةٌ لِأَنْوَارِ نَجُومِ الْعِلْمِ، يَقُولُ قَائِلُهُمْ:

ولما استبانَ الصُّبْحُ أدرك ضوؤه بِإِسْفَارِهِ أَنْوَارَ ضَوْءِ الْكُوَاكِبِ
قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾.

لم يُخَلِّ الْحَقُّ - سبحانه - أربابَ التكليف من دلائل التعريف، التعريفُ لَهُمْ في كل وقت بنوع من البيان، والتكليفُ في كل أوان بضرب من الامتحان؛ فما لم يزد لَهُمْ في إيضاح البرهان لم يتجدد لَهُمْ من الله إلا زيادة الخذلان والحجبة عن البيان. وأما أصحاب الحقائق فما للأغيار في كل عام مرة أو مرتين فلهُمْ في كل نَفْسٍ مرة، لا يخليهم الحقُّ - سبحانه - من زواجرٍ توجبُ بصائر، وخواطر تتضمن تكليفاتٍ وأوامرَ قال قائلُهُمْ:

كَأَنْ رَقِيباً مِنْكَ حَلَّ بِمَهْجَتِي إِذَا رُمْتُ تَسْهِيلاً عَلَيَّ تَصَعَّبَا
قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَكَذَا بَرَكْتُ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

تَقَشَّعُوا بِخِمَارِ التَّلْبِيسِ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يَبْقُونَ فِي سِرٍّ بِتَكْلِفِهِمْ، وَالْحَقُّ أَبِي إِلَّا أَنْ فَضَحَهُمْ، وَكَمَا وَسَمَهُمْ بِرَقْمِ الثُّكْرَةِ أَطْلَعَ أَسْرَارَ الْمُؤَحِّدِينَ عَلَى أحوالهم فَعَرَفُوهم على ما هم عليه من أوصافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾.

جاءكم رسولٌ يشاكلكم في البشرية، فَلَمَّا أَفْرَدَنَاهُ بِهِ مِنَ الْخُصُوصِيَةِ الْبَشَرِيَّةِ لِبَاسِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَمْنَاهُ بِشَوَاهِدِ الْعُطْفِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى جَمَلَتِكُمْ، قَدْ وَكَلَ هِمَمَهُ بِشَأْنِكُمْ، وَأكْبَرُ هِمَمِهِ إِيْمَانَكُمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

أَمْرُهُ أَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ إِلَى التَّوْحِيدِ، ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِجَابَةِ فَكُنْ بِنَا
بِنَعْتِ التَّجْرِيدِ.

وَيَقَالُ قَالَ لَهُ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ، ثُمَّ أَمْرُهُ بِأَنْ يَقُولَ حَسْبِيَ اللَّهُ... وهذا
عين الجمع، وقوله ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فَرَّقَ... بل هو جمع الجمع أي: قُلْ،
ولكنك بنا تقول، ونحن المتولي عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ في عين التوحيد؛ فأنت بنا،
وَمَحْوٌ عَنْ غَيْرِنَا.

تم الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني
وأوله: سورة يونس عليه السلام

فهرس المحتويات

٣	ترجمة المؤلف
٥	مقدمة المؤلف
سورة الفاتحة	
٨	تفسير الآية : ١
٩	تفسير الآية : ٢
١١	تفسير الآية : ٣
١٢	تفسير الآيتين : ٤ و ٥
١٣	تفسير الآية : ٦
١٤	تفسير الآية : ٧
سورة البقرة	
١٦	تفسير الآية : ١
١٧	تفسير الآية : ٢
١٨	تفسير الآية : ٣
٢٠	تفسير الآية : ٤
٢١	تفسير الآيتين : ٥ و ٦
٢٢	تفسير الآيتين : ٧ و ٨
٢٣	تفسير الآيتين : ٩ و ١٠
٢٤	تفسير الآيات : ١١ - ١٣
٢٥	تفسير الآيتين : ١٤ و ١٥
٢٦	تفسير الآيتين : ١٦ و ١٧
٢٧	تفسير الآيات : ١٨ - ٢٠
٢٨	تفسير الآيتين : ٢١ و ٢٢
٢٩	تفسير الآيات : ٢٣ - ٢٥
٣٠	تفسير الآية : ٢٦
٣١	تفسير الآية : ٢٧
٣٢	تفسير الآية : ٢٨
٣٣	تفسير الآيتين : ٢٩ و ٣٠
٣٥	تفسير الآية : ٣١
٣٦	تفسير الآيتين : ٣٢ و ٣٣
٣٧	تفسير الآيتين : ٣٤ و ٣٥
٣٩	تفسير الآيتين : ٣٦ و ٣٧
٤٠	تفسير الآيات : ٣٨ - ٤٠
٤٢	تفسير الآيات : ٤١ - ٤٤
٤٣	تفسير الآية : ٤٥
٤٤	تفسير الآيات : ٤٦ - ٤٨
٤٥	تفسير الآيات : ٤٩ - ٥١
٤٦	تفسير الآيتين : ٥٢ و ٥٣
٤٧	تفسير الآيتين : ٥٤ و ٥٥
٤٨	تفسير الآيات : ٥٦ - ٦٠
٤٩	تفسير الآية : ٦١
٥٠	تفسير الآيات : ٦٢ - ٦٥
٥١	تفسير الآيات : ٦٦ - ٧١
٥٢	تفسير الآيات : ٧٢ - ٧٤
٥٣	تفسير الآيات : ٧٥ - ٧٩
٥٤	تفسير الآيات : ٨٠ - ٨٢
٥٥	تفسير الآيتين : ٨٥ و ٨٦
٥٦	تفسير الآيات : ٨٧ - ٩١
٥٧	تفسير الآيات : ٩٢ - ٩٦
٥٨	تفسير الآيات : ٩٧ - ١٠١

تفسير الآية: ١٠٢	٥٩	تفسير الآية: ١٨٧	٩٠
تفسير الآيات: ١٠٣ - ١٠٦	٦٠	تفسير الآيتين: ١٨٨ و ١٨٩	٩١
تفسير الآيات: ١٠٧ - ١١٠	٦١	تفسير الآيتين: ١٩٠ و ١٩١	٩٢
تفسير الآيات: ١١١ - ١١٤	٦٢	تفسير الآيات: ١٩٢ - ١٩٤	٩٣
تفسير الآيتين: ١١٥ و ١١٦	٦٣	تفسير الآيتين: ١٩٥ و ١٩٦	٩٤
تفسير الآيات: ١١٧ - ١٢٠	٦٤	تفسير الآية: ١٩٧	٩٦
تفسير الآيات: ١٢١ - ١٢٣	٦٥	تفسير الآيات: ١٩٨ - ٢٠٠	٩٧
تفسير الآيتين: ١٢٤ و ١٢٥	٦٦	تفسير الآية: ٢٠١	٩٨
تفسير الآية: ١٢٦	٦٨	تفسير الآيات: ٢٠٢ - ٢٠٥	٩٩
تفسير الآيات: ١٢٧ - ١٢٩	٦٩	تفسير الآيات: ٢٠٦ - ٢٠٨	١٠٠
تفسير الآيتين: ١٣٠ و ١٣١	٧٠	تفسير الآيات: ٢٠٩ - ٢١٢	١٠١
تفسير الآيات: ١٣٢ - ١٣٥	٧١	تفسير الآيات: ٢١٣ - ٢١٥	١٠٢
تفسير الآيات: ١٣٦ - ١٣٨	٧٢	تفسير الآيات: ٢١٦ - ٢١٨	١٠٣
تفسير الآيات: ١٣٧ - ١٤٢	٧٣	تفسير الآيات: ٢١٩ - ٢٢١	١٠٤
تفسير الآية: ١٤٣	٧٤	تفسير الآيتين: ٢٢٢ و ٢٢٣	١٠٥
تفسير الآيات: ١٤٤ - ١٤٦	٧٥	تفسير الآيات: ٢٢٤ - ٢٢٨	١٠٦
تفسير الآيات: ١٤٧ - ١٥١	٧٦	تفسير الآية: ٢٢٩	١٠٧
تفسير الآية: ١٥٢	٧٧	تفسير الآيتين: ٢٣٠ و ٢٣١	١٠٨
تفسير الآيتين: ١٥٣ و ١٥٤	٧٨	تفسير الآيتين: ٢٣٢ و ٢٣٣	١٠٩
تفسير الآيات: ١٥٥ - ١٥٧	٧٩	تفسير الآيات: ٢٣٤ - ٢٣٦	١١٠
تفسير الآيات: ١٥٨ - ١٦٠	٨٠	تفسير الآيات: ٢٣٧ - ٢٤٠	١١١
تفسير الآيات: ١٦١ - ١٦٤	٨١	تفسير الآيات: ٢٤١ - ٢٤٥	١١٢
تفسير الآيتين: ١٦٥ و ١٦٦	٨٢	تفسير الآية: ٢٤٦	١١٣
تفسير الآيات: ١٦٧ - ١٧٠	٨٣	تفسير الآيتين: ٢٤٧ و ٢٤٨	١١٤
تفسير الآيات: ١٧١ - ١٧٦	٨٤	تفسير الآيتين: ٢٤٩ و ٢٥٠	١١٥
تفسير الآيتين: ١٧٧ و ١٧٨	٨٥	تفسير الآيات: ٢٥١ - ٢٥٣	١١٦
تفسير الآيات: ١٧٩ - ١٨٢	٨٦	تفسير الآيتين: ٢٥٤ و ٢٥٥	١١٧
تفسير الآيتين: ١٨٣ و ١٨٤	٨٧	تفسير الآية: ٢٥٦	١١٨
تفسير الآية: ١٨٥	٨٨	تفسير الآية: ٢٥٧	١١٩
تفسير الآية: ١٨٦	٨٩	تفسير الآيات: ٢٥٨ - ٢٦٠	١٢٠

تفسير الآيات : ٢٦١ - ٢٦٣ ١٢٢	تفسير الآية : ٧٩ ١٥٥
تفسير الآيات : ٢٦٤ - ٢٦٧ ١٢٣	تفسير الآيات : ٨٠ - ٨٣ ١٥٦
تفسير الآيتين : ٢٦٨ و ٢٦٩ ١٢٤	تفسير الآيات : ٨٤ - ٨٧ ١٥٧
تفسير الآيات : ٢٧٠ - ٢٧٣ ١٢٥	تفسير الآيات : ٨٨ - ٩٢ ١٥٨
تفسير الآيتين : ٢٧٤ و ٢٧٥ ١٢٦	تفسير الآيات : ٩٣ - ٩٧ ١٥٩
تفسير الآيات : ٢٧٦ - ٢٨٠ ١٢٧	تفسير الآيات : ٩٨ - ١٠٠ ١٦٣
تفسير الآيتين : ٢٨١ و ٢٨٢ ١٢٨	تفسير الآيات : ١٠١ - ١٠٣ ١٦٤
تفسير الآيات : ٢٨٣ - ٢٨٦ ١٢٩	تفسير الآيتين : ١٠٤ و ١٠٥ ١٦٥
سورة آل عمران	
تفسير الآية : ١ ١٣١	تفسير الآيات : ١٠٦ - ١١٠ ١٦٦
تفسير الآيات : ٢ - ٦ ١٣٢	تفسير الآيات : ١١١ - ١١٥ ١٦٧
تفسير الآيات : ٧ - ٩ ١٣٣	تفسير الآيات : ١١٦ - ١٢٠ ١٦٨
تفسير الآيات : ١٠ - ١٤ ١٣٤	تفسير الآيات : ١٢١ - ١٢٦ ١٦٩
تفسير الآيات : ١٥ - ١٧ ١٣٥	تفسير الآيات : ١٢٧ - ١٣٢ ١٧٠
تفسير الآية : ١٨ ١٣٦	تفسير الآيتين : ١٣٣ و ١٣٤ ١٧١
تفسير الآيات : ١٩ - ٢٢ ١٣٨	تفسير الآيتين : ١٣٥ و ١٣٦ ١٧٢
تفسير الآيات : ٢٣ - ٢٦ ١٣٩	تفسير الآيات : ١٣٧ - ١٤٣ ١٧٣
تفسير الآية : ٢٧ ١٤٠	تفسير الآيات : ١٤٤ - ١٤٦ ١٧٤
تفسير الآية : ٢٨ ١٤١	تفسير الآيات : ١٤٧ - ١٥٠ ١٧٥
تفسير الآيات : ٢٩ - ٣١ ١٤٢	تفسير الآيتين : ١٥١ و ١٥٢ ١٧٦
تفسير الآيات : ٣٢ - ٣٧ ١٤٤	تفسير الآيتين : ١٥٣ و ١٥٤ ١٧٧
تفسير الآيتين : ٣٨ و ٣٩ ١٤٦	تفسير الآيتين : ١٥٥ و ١٥٦ ١٧٨
تفسير الآيات : ٤٠ - ٤٢ ١٤٧	تفسير الآيتين : ١٥٨ و ١٥٩ ١٧٩
تفسير الآيات : ٤٣ - ٤٦ ١٤٨	تفسير الآية : ١٦٠ ١٨٠
تفسير الآيات : ٤٧ - ٥٣ ١٤٩	تفسير الآيات : ١٦١ - ١٦٣ ١٨١
تفسير الآيات : ٥٤ - ٦٠ ١٥٠	تفسير الآيات : ١٦٤ - ١٦٧ ١٨٢
تفسير الآيات : ٦١ - ٦٤ ١٥١	تفسير الآيات : ١٦٨ - ١٧١ ١٨٣
تفسير الآيات : ٦٥ - ٦٩ ١٥٢	تفسير الآيات : ١٧٢ - ١٧٥ ١٨٤
تفسير الآيات : ٧٠ - ٧٤ ١٥٣	تفسير الآيات : ١٧٣ - ١٧٩ ١٨٥
تفسير الآيات : ٧٥ - ٧٨ ١٥٤	تفسير الآيات : ١٨٠ - ١٨٢ ١٨٦
	تفسير الآيات : ١٨٣ - ١٨٧ ١٨٧

تفسير الآيات: ٩٢ - ٩٤	٢٢٠
تفسير الآيات: ٩٥ - ١٠٠	٢٢١
تفسير الآيات: ١٠١ - ١٠٤	٢٢٢
تفسير الآيات: ١٠٥ - ١١٠	٢٢٣
تفسير الآيات: ١١١ - ١١٣	٢٢٤
تفسير الآية: ١١٤	٢٢٥
تفسير الآيات: ١١٥ - ١٢١	٢٢٦
تفسير الآيات: ١٢٢ - ١٢٦	٢٢٧
تفسير الآيتين: ١٢٧ و ١٢٨	٢٢٨
تفسير الآية: ١٢٩	٢٢٩
تفسير الآيات: ١٣٠ - ١٣٥	٢٣٠
تفسير الآيات: ١٣٦ - ١٣٨	٢٣١
تفسير الآيات: ١٣٩ - ١٤١	٢٣٢
تفسير الآيات: ١٤٢ - ١٤٤	٢٣٣
تفسير الآيتين: ١٤٥ و ١٤٦	٢٣٤
تفسير الآية: ١٤٧	٢٣٥
تفسير الآية: ١٤٨	٢٣٦
تفسير الآيات: ١٤٩ - ١٥٢	٢٣٧
تفسير الآية: ١٥٣	٢٣٨
تفسير الآيات: ١٥٤ - ١٥٨	٢٣٩
تفسير الآيات: ١٥٩ - ١٦٢	٢٤٠
تفسير الآيتين: ١٦٣ و ١٦٤	٢٤١
تفسير الآيات: ١٦٥ - ١٧٠	٢٤٢
تفسير الآيات: ١٧١ - ١٧٥	٢٤٣
تفسير الآية: ١٧٦	٢٤٤

سورة المائدة

تفسير الآية: ١	٢٤٥
تفسير الآية: ٢	٢٤٦
تفسير الآية: ٣	٢٤٧
تفسير الآية: ٤	٢٥٠

تفسير الآيات: ١٨٨ - ١٩١	١٨٨
تفسير الآيات: ١٩٢ - ١٩٥	١٩٠
تفسير الآيات: ١٩٦ - ٢٠٠	١٩١

سورة النساء

تفسير الآية: ١	١٩٣
تفسير الآيات: ٢ - ٥	١٩٥
تفسير الآيات: ٦ - ٨	١٩٦
تفسير الآيات: ٩ - ١١	١٩٧
تفسير الآيات: ١٢ - ١٤	١٩٨
تفسير الآيات: ١٥ - ١٨	١٩٩
تفسير الآيات: ١٩ - ٢١	٢٠٠
تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٥	٢٠١
تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٨	٢٠٢
تفسير الآيات: ٢٩ - ٣١	٢٠٣
تفسير الآية: ٣٢	٢٠٤
تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥	٢٠٥
تفسير الآيتين: ٣٦ و ٣٧	٢٠٦
تفسير الآيتين: ٣٨ و ٣٩	٢٠٧
تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٣	٢٠٨
تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦	٢٠٩
تفسير الآيات: ٤٧ - ٥٢	٢١٠
تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٧	٢١١
تفسير الآيات: ٥٨ - ٦٠	٢١٢
تفسير الآيات: ٦١ - ٦٤	٢١٣
تفسير الآيات: ٦٥ - ٧٠	٢١٤
تفسير الآيات: ٧١ - ٧٦	٢١٥
تفسير الآيتين: ٧٧ و ٧٨	٢١٦
تفسير الآيات: ٧٩ - ٨٣	٢١٧
تفسير الآيات: ٨٤ - ٨٦	٢١٨
تفسير الآيات: ٨٧ - ٩١	٢١٩

٢٨٣	تفسير الآيات: ١١١ - ١١٦	٢٥١	تفسير الآيتين: ٥ و ٦
٢٨٤	تفسير الآيات: ١١٦ - ١١٨	٢٥٣	تفسير الآيتين: ٧ و ٨
٢٨٥	تفسير الآيتين: ١١٩ و ١٢٠	٢٥٤	تفسير الآيات: ٩ - ١٢

سورة الأنعام

٢٨٦	تفسير الآيتين: ١ و ٢	٢٥٦	تفسير الآية: ١٣
٢٨٧	تفسير الآيات: ٣ - ٦	٢٥٧	تفسير الآيات: ١٤ - ١٧
٢٨٨	تفسير الآيات: ٧ - ١٢	٢٥٨	تفسير الآيات: ١٨ - ٢٠
٢٨٩	تفسير الآيات: ١٣ - ٢٠	٢٥٩	تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢
٢٩٠	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٦	٢٦٠	تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٦
٢٩١	تفسير الآيات: ٢٧ - ٣٣	٢٦١	تفسير الآيات: ٢٦ - ٣٠
٢٩٢	تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٧	٢٦٢	تفسير الآيات: ٣١ - ٣٤
٢٩٣	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٢	٢٦٣	تفسير الآيات: ٣٥ - ٣٧
٢٩٤	تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٧	٢٦٤	تفسير الآيات: ٣٦ - ٤١
٢٩٥	تفسير الآيات: ٤٨ - ٥٢	٢٦٥	تفسير الآيات: ٤٢ - ٤٤
٢٩٦	تفسير الآية: ٥٣	٢٦٦	تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٧
٢٩٧	تفسير الآيات: ٥٤ - ٥٦	٢٦٧	تفسير الآيتين: ٤٨ و ٤٩
٢٩٨	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦١	٢٦٨	تفسير الآيات: ٥٠ - ٥٣
٢٩٩	تفسير الآيات: ٦٢ - ٦٨	٢٦٩	تفسير الآية: ٥٤
٣٠٠	تفسير الآيات: ٦٩ - ٧٣	٢٧٠	تفسير الآيتين: ٥٥ و ٥٦
٣٠١	تفسير الآيات: ٧٤ - ٨٠	٢٧١	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦٢
٣٠٢	تفسير الآيات: ٨١ - ٨٨	٢٧٢	تفسير الآيات: ٦٣ - ٦٥
٣٠٣	تفسير الآيات: ٨٩ - ٩٢	٢٧٣	تفسير الآيات: ٦٦ - ٦٨
٣٠٤	تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٥	٢٧٤	تفسير الآيات: ٦٩ - ٧٥
٣٠٥	تفسير الآيات: ٩٦ - ١٠٠	٢٧٥	تفسير الآيات: ٧٦ - ٨٠
٣٠٦	تفسير الآيات: ١٠١ - ١٠٨	٢٧٦	تفسير الآيات: ٨١ - ٨٧
٣٠٧	تفسير الآيات: ١٠٩ - ١١٢	٢٧٧	تفسير الآيتين: ٨٨ و ٨٩
٣٠٨	تفسير الآيات: ١١٣ - ١١٩	٢٧٨	تفسير الآية: ٩٠
٣٠٩	تفسير الآيات: ١٢٠ - ١٢٢	٢٧٩	تفسير الآيات: ٩١ - ٩٥
٣١٠	تفسير الآيات: ١٢٣ - ١٢٥	٢٨٠	تفسير الآيات: ٩٦ - ١٠٠
٣١١	تفسير الآيتين: ١٢٦ و ١٢٧	٢٨١	تفسير الآيات: ١٠١ - ١٠٥
		٢٨٢	تفسير الآيات: ١٠٦ - ١١٠

تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٩ ٣٤٥	تفسير الآيات: ١٢٨ ٣١٢
تفسير الآيات: ١٠٠ - ١٠٦ ٣٤٦	تفسير الآيات: ١٢٩ - ١٣٥ ٣١٣
تفسير الآيات: ١٠٧ - ١١٦ ٣٤٧	تفسير الآيات: ١٣٤ - ١٤٠ ٣١٤
تفسير الآيات: ١١٧ - ١٢٧ ٣٤٨	تفسير الآيات: ١٤١ - ١٤٤ ٣١٥
تفسير الآيات: ١٢٨ - ١٣٢ ٣٤٩	تفسير الآيات: ١٤٥ - ١٤٩ ٣١٦
تفسير الآيات: ١٣٣ - ١٣٩ ٣٥٠	تفسير الآيات: ١٥٠ - ١٥٤ ٣١٧
تفسير الآيات: ١٤٠ - ١٤٢ ٣٥١	تفسير الآيات: ١٥١ - ١٥٩ ٣١٨
تفسير الآية: ١٤٣ ٣٥٢	تفسير الآيتين: ١٦٠ و ١٦١ ٣١٩
تفسير الآيتين: ١٤٤ و ١٤٥ ٣٥٥	تفسير الآيات: ١٦٢ - ١٦٥ ٣٢٠
تفسير الآيتين: ١٤٦ و ١٤٧ ٣٥٦	
تفسير الآية: ١٤٨ ٣٥٧	
تفسير الآيات: ١٤٩ - ١٥١ ٣٥٨	تفسير الآيتين: ١ و ٢ ٣٢٣
تفسير الآيات: ١٥٢ - ١٥٤ ٣٥٩	تفسير الآيات: ٣ - ٧ ٣٢٤
تفسير الآيتين: ١٥٥ و ١٥٦ ٣٦٠	تفسير الآيات: ٨ - ١٢ ٣٢٥
تفسير الآية: ١٥٧ ٣٦١	تفسير الآيات: ١٣ - ١٩ ٣٢٦
تفسير الآيات: ١٥٨ - ١٦٠ ٣٦٢	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٢ ٣٢٧
تفسير الآيات: ١٦١ - ١٦٣ ٣٦٣	تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٦ ٣٢٩
تفسير الآيات: ١٦٤ - ١٦٨ ٣٦٤	تفسير الآيات: ٢٧ - ٢٩ ٣٣٠
تفسير الآيتين: ١٦٩ و ١٧٠ ٣٦٥	تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٢ ٣٣١
تفسير الآيات: ١٧١ - ١٧٣ ٣٦٦	تفسير الآية: ٣٣ ٣٣٢
تفسير الآيات: ١٧٤ - ١٧٦ ٣٦٨	تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٩ ٣٣٣
تفسير الآيات: ١٧٧ - ١٧٩ ٣٦٩	تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٣ ٣٣٤
تفسير الآيتين: ١٨٠ و ١٨١ ٣٧٠	تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦ ٣٣٥
تفسير الآيات: ١٨٣ - ١٨٥ ٣٧١	تفسير الآيات: ٤٧ - ٥١ ٣٣٦
تفسير الآيات: ١٨٦ - ١٨٩ ٣٧٢	تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٤ ٣٣٧
تفسير الآيات: ١٩٠ - ١٩٥ ٣٧٣	تفسير الآيتين: ٥٥ و ٥٦ ٣٣٨
تفسير الآيات: ١٩٦ - ١٩٩ ٣٧٤	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦١ ٣٣٩
تفسير الآيتين: ٢٠٠ و ٢٠١ ٣٧٥	تفسير الآيات: ٧٠ - ٧٣ ٣٤١
تفسير الآيات: ٢٠٢ - ٢٠٥ ٣٧٦	تفسير الآيات: ٧٤ - ٧٩ ٣٤٢
تفسير الآية: ٢٠٦ ٣٧٧	تفسير الآيات: ٨٠ - ٨٧ ٣٤٣
	تفسير الآيات: ٨٨ - ٩٣ ٣٤٤

سورة الأعراف

سورة الأنفال

٤٠٧	تفسير الآيتين: ٢ و ٣
٤٠٨	تفسير الآيات: ٤ - ٦
٤٠٩	تفسير الآيتين: ٧ و ٨
٤١٠	تفسير الآيات: ٩ - ١٥
٤١١	تفسير الآية: ١٦
٤١٢	تفسير الآيات: ١٧ - ٢٠
٤١٣	تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢
٤١٤	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
٤١٥	تفسير الآيتين: ٢٥ و ٢٦
٤١٦	تفسير الآيات: ٢٧ - ٣٠
٤١٧	تفسير الآيتين: ٣١ و ٣٢
٤١٨	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥
٤١٩	تفسير الآيتين: ٣٦ و ٣٧
٤٢٠	تفسير الآيتين: ٣٨ و ٣٩
٤٢١	تفسير الآية: ٤٠
٤٢٣	تفسير الآيتين: ٤١ و ٤٢
٤٢٤	تفسير الآيات: ٤٣ - ٤٦
٤٢٥	تفسير الآيات: ٤٧ - ٥١
٤٢٦	تفسير الآيتين: ٥٢ و ٥٣
٤٢٧	تفسير الآيات: ٥٤ - ٥٨
٤٢٨	تفسير الآيتين: ٥٩ و ٦٠
٤٣١	تفسير الآية: ٦١
٤٣٢	تفسير الآيات: ٦٢ - ٦٦
٤٣٣	تفسير الآيات: ٦٧ - ٦٩
٤٣٤	تفسير الآيات: ٧٠ - ٧٢
٤٣٥	تفسير الآيتين: ٧٣ و ٧٤
٤٣٦	تفسير الآيات: ٧٥ - ٧٩
٤٣٧	تفسير الآيات: ٨٠ - ٨٤
٤٣٨	تفسير الآيات: ٨٥ - ٨٩
٤٣٩	تفسير الآيات: ٩٠ - ٩٢
٤٤٠	تفسير الآية: ٩٣

٣٧٨	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٣٧٩	تفسير الآيات: ٣ - ٥
٣٨٠	تفسير الآيات: ٦ - ٨
٣٨١	تفسير الآيات: ٩ - ١١
٣٨٢	تفسير الآيات: ١٢ - ١٦
٣٨٣	تفسير الآية: ١٧
٣٨٥	تفسير الآيتين: ١٨ و ١٩
٣٨٦	تفسير الآيتين: ٢٠ و ٢١
٣٨٧	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٤
٣٨٨	تفسير الآية: ٢٥
٣٨٩	تفسير الآية: ٢٦
٣٩٠	تفسير الآيات: ٢٧ - ٢٩
٣٩١	تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٢
٣٩٢	تفسير الآيتين: ٣٣ و ٣٤
٣٩٣	تفسير الآيات: ٣٥ - ٣٧
٣٩٤	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٠
٣٩٥	تفسير الآية: ٤١
٣٩٦	تفسير الآيات: ٤٢ - ٤٤
٣٩٧	تفسير الآيتين: ٤٥ و ٤٦
٣٩٨	تفسير الآيتين: ٤٧ و ٤٨
٣٩٩	تفسير الآيات: ٤٩ - ٥١
٤٠٠	تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٦
٤٠١	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦٠
٤٠٢	تفسير الآيات: ٦١ - ٦٤
٤٠٣	تفسير الآيات: ٦٥ - ٦٧
٤٠٤	تفسير الآيات: ٦٨ - ٧٢
٤٠٥	تفسير الآيات: ٧٣ - ٧٥

سورة التوبة

٤٠٦	تفسير الآية: ١

٤٤٨	تفسير الآية: ١١٢	٤٤١	تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٧
٤٥٠	تفسير الآيات: ١١٣ - ١١٦	٤٤٢	تفسير الآيات: ٩٨ - ١٠١
٤٥١	تفسير الآيتين: ١١٧ و ١١٨	٤٤٣	تفسير الآيتين: ١٠٢ و ١٠٣
٤٥٢	تفسير الآيات: ١١٩ - ١٢٢	٤٤٤	تفسير الآيات: ١٠٤ - ١٠٦
٤٥٣	تفسير الآيتين: ١٢٣ و ١٢٤	٤٤٥	تفسير الآيات: ١٠٧ - ١٠٩
٤٥٤	تفسير الآيات: ١٢٦ - ١٢٩	٤٤٦	تفسير الآيتين: ١١٠ و ١١١